مطبوعات مكتبة مصر

فى قافلة الزمان

تاليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى

١

قاهرة المعز هادئة هاجعة ، ومآذنها المثة فره شامخة ، لفها والمدينة ظلام دامس ، فما انبعث من نافذة بصيص نور ، وما مد مصباح شعاعة الباهت ليبدد بعض ذلك الظلام الذى تكاثفت طبقاته ؛ فما كان ينير الدور إلا ذبالات خافتة متذبذبة ، ينبعث ضوؤها من فتيلة نحيلة تمتص زيتها من وعاء صفيح ضئيل ، فكان نورها يرتعش ويضطرب كأنفاس محتضر فى النزع الأخير ، لا يكاد يهتك سترا من أستار الظلام ، أو يفضح ركنا من أركان المكان ، أو يهدى قائما فى الليل ، ما لم يتناول الذبالة فى يده ، لتنير له ما تحت قدميه ، وتزيح له فى جهد ومشقة طبقة من طبقات الظلام المتراكمة أمامه ، لا تتعدى أفتارا أو أشبارا .

وما كانت مسالك المدينة العتيقة تنار بالليل ، فما كان ثم مصابيح ، وما كان الناس بحاجة إلى ما ينير لهم السبيل فقد كانوا يعودون إلى دورهم إذا ما آذنت الشمس بالمغيب ، ويدعون المدينة للظلام والهدوء والسكون ، فى حراسة مآذنها القائمة أبدا . الساهرة أبدا ، والمتطاولة إلى السماء حتى تكاد تطعن بأطرافها المدببة كبدها ، وكانت تطل على الأحياء القانعة المتواضعة فى حدب ورفق وحنان .

* * *

وسرى فى سكون الليل صوت خفيض آت من بعيد ، ثم أخذ الصوت يقترب ويتضح : كان صوتا مألوفا اعتاد الناس سماعه كل يوم قبل أن تجلجل

أصوات المؤذنين فى الفجر ، صوت ذلك الرجل الذى يجوب الطرقات إذا ما لاح الفجر الكاذب ، وفى يده مصباحه ، مرتلا فى صوت جهورى أخاذ يهز المشاعر : « الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، الصلاة خير من النوم » .

وانتبه الحاج أسعد من نومه على صوت الرجل يداعب أذنيه ، فاعتدل فى فراشه وكان من حشيتين مفروشتين على الأرض الواحدة فوق الأخرى ، ثم أزاح الكلة المسدلة المثبتة فى الجدار فوق الفراش ، وكانت تخفى النوم ، فبدت إلى جواره الحاجة تغط فى النوم ، فلم يحاول إيقاظها ، فهو يعلم أنها نئوم ، لا تستيقظ إلا ضحى ، فترك الفراش ونهض ، وانطلق إلى حيث كانت الذبالة فحملها فى يده وذهب ليتوضأ .

وألفى جاريته التى اشتراها من الحجاز قد أعدت له الماء ، فجعل يغمغم ببعض الأدعية ، ومد يديه فجعلت الجارية تصب عليهما الماء من إبريق نحاسى أصفر ، فأسبغ وضوءه .

وارتفعت أصوات المؤذنين من مآذن المدينة تهتك السكون ، وتفتح القلوب فينزل بها أمن وخشوع ، فتطلع الحاج أسعد من خلل النافذة القريبة منه ، ومد بصره إلى السماء ، ورفع أكف الضراعة وراح يبتهل إلى الله فى حرارة أن يستره وذريته فى الدنيا والآخرة ، ولما فرغ من ابتهاله مسح وجهه بكفيه ، وأخذ يمررهما على لحيته البيضاء الكثة ، ثم استقبل القبلة وبدأ صلاته ..

* * *

ولاح فى الأفق الشرقى خيط أبيض أخذ ينداح شيئا فشيئا حتى ملأ رقعة السماء ، ثم بدت أسلاك صفر راحت تنتشر وتنتشر ، ويتبدل لونها ويتضح ، فمن أصفر إلى برتقالى إلى أحمر بلون العقيق . وظهرت الشمس فكانت كقرص متوهج من النحاس الأحمر ، وأخذت ترتفع قليلا قليلا ، وتبعث بأشعتها إلى



الصلاة يا مؤمنين الصلاة .. الصلاة خير من النوم

الأرض فتبدد ظلامها ، وانسلت الأشعة البيضاء من النافذة الشرقية ، واستقرت على الأرض والجدران ، فغشى النور المكان ، فمد الحاج أسعد يده إلى رف قريب منه قد صفت فوقه مجموعة من الكتب ، وتناول كتابا مخطوطا ، وفتحه وراح يقرأ فيه .

ومرت ساعات على مولد النهار ، فدبت الحياة فى البيت جميعه ، واستيقظ كل من فيه إلا الحاجة فقد ظلت فى نومها الهنىء ، وأقبلت زكية تلتمس من جدها أن يشترى لها حليا فقد اقترب موعد زفافها ، فلما ألفت جدتها فى فراشها راحت تسير على أطراف أصابعها فى حذر خشية إيقاظها ، ثم اتجهت إلى حيث كان جدها .

كانت زكية فى الرابعة عشرة ، ممتلئة الجسم ، قصيرة القامة ، جعدة الشعر ، وما كانت جميلة أو جذابة ، ولكنها كانت حبيبة إلى جدها ، فقد كانت ابنة أحب أبنائه إليه . فتحت باب الغرفة التى كان جدها فيها ، ثم دلفت وهى تبتسم ، ونظرت إلى جدها فبدت الدهشة فى وجهها ، وفغرت فاها برهة ، ولم تجد لسانها ، فقد رأته مطأطئا بصره ، مسبلا جفنيه ، والدمع يسح من عينيه فينحدر على خديه ويبل لحيته .

واقتربت منه فى خفة وهمست :

— أتبكى يا جدى ؟!

فرفع الحاج أسعد رأسه ، ونظر إليها من خلال دموعه ، ولم ينبس بكلمة ، فعادت تسأله :

— وما يبكيك ؟

فأشار إلى الكتاب المفتوح فى حجره ، فقالت :

— وما به ؟

فقال فى صوت خفيض أسيف :

— سيأتى أوان تخرج فيه النساء عرايا ، سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور .

فأطرقت زكية قليلا ، وقد تضرح وجهها بحمرة الخجل ، وسرح خيالها ولكنها عجزت عن أن تتصور نساء سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور ، يخطرن بين الرجال مرفوعات الرءوس ؛ إن ما يقصه جدها يبدو لها عجبا . إنه مجرد أوهام وخيالات ، فمن ذى التى تقبل هذا العار ! وأى رجال هؤلاء الذين يسمحون لبناتهم وأخواتهم وزوجاتهم أن يخرجن حاسرات سافرات ، فهمست :

— هذا لا يصدق .

فقال الحاج أسعد فى يقين :

— وسيتكلم الحديد .

فغمغمت زكية فى دهشة :

— الحديد !

فهز رأسه أسفا .

فنظرت زكية إلى قضبان الشباك الحديدية ، وقصر خيالها عن تصور هذه القضبان تتحدث ، فقالت فى إنكار :

— هذا محال .

فهمس فى حسرة :

— إن ذلك من علامات الساعة ، وسيقع كل ذلك .

وصمت الحاج أسعد ، وأطرقت زكية تفكر فيما قال جدها .

٢

واستيقظت الحاجة أخيرا ، فنادت الجارية قدم خير ، فأقبلت تحمل طستا وإبريقا به ماء ، فلما غسلت وجهها أمرتها أن تجهز الفطور ، فاختفت الجارية وعادت تحمل فى يد كرسيا قصيرا مستديرا وفى الأخرى صينية نحاسية هندية ، فوضعت الكرسى بالقرب من الفراش ووضعت فوقه الصينية ، ثم ذهبت وعادت تحمل طاجنا به لحم ، وإناء به بيض مشوى فى الفرن ، فوضعته فوق الصينية ، واستمرت مقبلة مدبرة حتى تم إعداد السفرة ، فذهبت تدعو الحاج أسعد لتناول فطوره .

جلست الحاجة على حافة الفراش ، وأقبل الحاج فتناول وسادة وضعها بالقرب من السفرة ، وجلس عليها وتربع ، وأخذ يلتهم ما أمامه وهو يحادث الحاجة ، ويداعبها أحيانا .

كان الحاج أسعد فى السبعين من عمره أو أزيد قليلا ، ولكنه كان ضخما قويا ، وكان شيخا فيه خفة ودعابة : كان يداعب النساء والصبايا من زبائنه دعابات خفيفة لطيفة يسغتها ، ويشتهين أن يسمعنها منه دواما .

وكانت الحاجة فى الستين ، وكانت تقاطيعها حلوة تنم عن جمال غارب ، وكانت ربعة ، ممتلئة الجسم ، دقيقة الخصر ، ناعمة البشرة ، ولا ريب أنها كانت رائعة الحسن فى شبابها .

ودخل محمد بقامته الطويلة ، وجلبابه الأدكن الفضفاض ، وعمامته الصغيرة ، لف حولها شالا أبيض فى أناقة ، وكان يمتاز بشامة على خده الأيسر ،

فحيا والديه ، فرد الحاج أسعد تحيته فى رفق وحنان ، فهو شريكه فى تجارته ، وأحب أبنائه إليه ، وجلس محمد بجوار أمه على الفراش ينتظر أباه ليخرجا معا إلى الدكان .

وأتم الحاج أسعد فطوره ، فانتصب واقفا ، ونهض محمد فإذا الحاج أسعد أطول منه قامة ، وأضخم جسما ، وانطلقا إلى عملهما تعلوهما مهابة ووقار .

وجاءت إلى غرفة الحاجة زوجات أبنائها الثلاث ، وأزواج حفدتها . فقد كن جميعا يقطن دارا واحدة ، وراحت زوجة محمد تعرض عليها خدماتها فى إخلاص ، فقد كانت تحبها وتتمنى رضاها .

وتحركت الحاجة للهبوط إلى صحن الدار ، فسار النسوة جميعا خلفها ، وكان من عادتهن أن يهبطن كل يوم إلى الفناء ، فما كان فى البيت إلا صنبور واحد ركب فيه ، وكان الفرن قريبا منه ، فكن يعجن ويخبزن ويطبخن فى الفناء ، ثم تحمل كل منهن ما طهت ، وتعود إلى مسكنها تنتظر أوبة زوجها وأبنائها .

وأقبل خادم الحاج أسعد يسير فى شارع الحسينية ، وهو الشارع الرئيسى للمدينة العتيقة ، وكان يحمل على عاتقه القفة الكبيرة التى اعتاد أن يحملها كل يوم ، وقد تكدست فيها أوراق اللحم الملفوف وأنواع الخضر المتباينة ، وسار حتى إذا ما بلغ الحارة التى يقطن فيها سيده دلف إليها ، وما انطلق أمتارا حتى انعطفت الحارة يمينا ، ثم يسارا ، ثم يمينا ، فبدت كثعبان كثرت التواءاته ، وظهر جليا أن الذين بنوا الدور المتواضعة التى تطل على الحارة قد تفننوا فى تعريجها حتى لم يعد فى طاقة بشر أن يفعل أكثر مما فعلوا للإكثار من منعطفاتها .

وبلغ المسمط القريب من الدار ، فألفى المعلمة جالسة على كرسى من خشب خشن لم يشذب ، تشد أنفاسا طويلة من نارجيلة أمامها ، وكانت ترقب رءوس الضأن والأكراش والأكراع التى كانت تنقل إلى المسمط وتعدها عدا ،

فألقى عليها السلام فردت تحيته فى صوت أجش ، وعرج إلى اليمين فرأى أم عباس الندابة جالسة أمام قاعتها وقد حملت خدها على كفها ، وسرح خيالها كما سرحت كتاكيتها الصفر فى الرقعة الصغيرة القريبة من الباب تنبش عن غذائها ، فانتقل من جوارها فى خفة ، وأسرع الخطا قبل أن تلحظه ، فقد كان يتطير من رؤية وجهها فى الصباح ، وكان يعتقد أن من يفتح عينيه على وجهها الجاف الخشن الملامح الذى ينم عن قسوة وجبروت ، لا يلقى طوال يومه إلا عنتا وشؤما .

وانطلق قدما ، وسار بضع خطوات حتى عرج إلى اليسار ، فإذا الدار أمامه ، فطرق الباب ، فأقبلت خادم وفتحت له ، وأخذت القفة منه وحملتها إلى حيث كانت الحاجة وأزواج أبنائها وأزواج حفدتها .

ووضعت القفة على الأرض أمام الحاجة ، والتفت النسوة حولها ، ومدت يدها وأخرجت ورقة من أوراق اللحم الملفوفة ، ودفعت بها إلى نفيسة زوجة محمد ، فأخذتها فى رضا وصمت ولم تنبس بكلمة ، وراحت الحاجة تناول كلا من النسوة ورقة ملفوفة فأخذت كل منهن تفتح الورقة تجس ما بها ثم تظهر امتعاضها وعدم رضاها بما أخذت ، هذه تصيح مندددة باللحم وتلك تغمغم بكلمات سخط غير واضحة ، وثالثة تقول فى حنق وثورة وحقد أن الحاجة دائما تحابى نفيسة ، فكانت نفيسة تنكمش وتحس رهبة وخوفا ، فقد كانت تخشى الشجار والنزاع ، وما كانت تحب إغضاب الناس ، ولو كان الأمر بيدها لتركت اللحم لهن ، ولرضيت بأى شىء ، وبغير شىء .

واستمر الضجيج والعجيج ، والصياح والصراخ ، وطوحت إحداهن اللحم فى غضب ، فالتفت النسوة إلى حيث سقط ، وإذا حدأة تنقض عليه وتحمله فى رجليها وترتفع فى الجو ، وتعلق نظرهن جميعا باللحم المخطوف ، وعقدت

الدهشة ألسنتهن ، ومات الضجيج ، وساد السكون . ثم حملت كل واحدة لحمتها فى حرص وصمت ، وسارت إلى شقتها . أما التى طوحت بلحمتها فقد اندفعت إلى شقتها كالعاصفة يترقرق دمع الحنق من مآقيها .

وجلست نفيسة تجهز لحمتها ، فوضعتها فى طبق وأخذت تقطعها ، وجاءت قطة ومدت أنفها فى الطبق ، وابتدأت تتشمم اللحم ، فطردتها فى رفق ، فعادت تمد أنفها فى الطبق فنهرتها ، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى الطبق فى إصرار ، فتناولت نفيسة قبقابها وقذفت به القطة فأصاب يافوخها ، فأخذت تموء فى ألم ، فأحست نفيسة قلبها يغوص ، ويدها ترتخى إلى جوارها ، فتركت اللحم وقامت تهرول خلف القطة ، وتغمغم :

— سامحينى ! سامحينى يا أختى !

واستمرت القطة فى عدوها ، فما كانت تدرى بغريزتها إلا أنها تطاردها لتوقع بها الأذى ، وما كانت تعلم أن قلب نفيسة كان يدمى من الألم . تركت القطة البيت جميعه ، فعادت نفيسة وقد غامت عيناها بالدموع ، ورفعت رأسها فى رهبة ، ونظرت إلى السماء ، وقالت فى ذلة وخشوع :

— سامحنى يا رب !



كانت ليلة من ليالى الربيع المنعشة ، والنسيم يهب عليلا لطيفا ، والقمر فى ليلة اكتماله ، يبعث بضوئه الفضى الأخاذ ، فينير الكون ، ويهز المشاعر ، ويحرك الأحاسيس النائمة .

وتقلبت الحاجة فى فراشها ، ومدت يدها إلى جوارها تتحسس فى رفق

وخمول ، ولكنها لم تلمس جسم الحاج وكان ممددا بجوارها ، فراحت تزحف فى الفراش فى تكاسل ، وتمد يدها وهى مغمضة ، فقد كانت تخشى أن تفتح عينيها فيفر منهما النوم ، ولكنها لم تلمس إلا الفراش ، ففتحت عينيها فى قلق واعتدلت جالسة وتحسست الفراش حيث ينام الحاج ، فألفته باردا ، فأحست ضيقا ، وخطر لها خاطر أقلقها وقبض صدرها ، فهبت فى ثورة ، وجعلت تزفر فى غضب ، وكان صوت زفيرها يبلغ أذنيها فيزيد من حنقها ، إنها تخشى أن يشعر بها الحاج فيعود إلى فراشه قبل أن تتحقق مما تهجس به نفسها ، وإنها تخشى أن تنطلق فى ثورتها فتقع عيناها على ما تكره ، فيحطم اليقين هناءة السنين ؛ ولكنها لا تطيق الصبر على أفكارها التى راحت تهاجمها وتزدحم فى رأسها : إن الشك مر أليم ، وما هى إلا خطوات حتى ينكشف لها كل شىء .

وخطت فى رفق ، وكلفها ذلك جهدا ، فإن قلبها راح يدوى فى صدرها ، وسرت رعدة فى بدنها فهزت كيانها ، وحل جفاف بحلقها فذهب بريقها ، وصعد الدم حارا إلى وجهها فألهب خديها ، وقطعت الممر الذى يفصل بين غرفتها والغرفة المقابلة فى لحظة حسبتها دهرا ، ومدت يدا مضطربة مرتجفة إلى مقبض الباب ، وأدارته فى حذر ، ثم دفعت الباب فى رفق ، فأحست غشاوة على عينيها ، ودوارا يكاد يعصف بها ، ولكنها تمالكت نفسها ، وتقدمت فى هدوء من الفراش وكان فيه الحاج مع جاريته ، ولكن ذلك كان فوق طاقتها ، فندت منها صرخة ، فانتبه الحاج مذعورا ، وقام فى فزع وقد عقدت الدهشة لسانه ، وتفصد منه عرق الخجل ، ولم يطق أن ينظر إلى الحاجة فطأطأ بصره ، وثارت ثائرة الحاجة ، ونهشت الغيرة قلبها ، فلم تستطع أن تكظم غيظها فهجمت على الجارية تضربها وتمزق شعرها ، ثم مالت عليها تعضها ، فأنت الجارية وكتمت آلامها ، واقترب الحاج فى وجل ، وحاول أن يحول بين زوجه

وبينها ، فزاد ذلك من حنقها ، فتناولت قبقابا وضربت به الجارية فشجت رأسها ، وسال الدم على وجهها ، فصوتت ، وارتفع صواتها ، ودوى فى هجعة الليل فأيقظ كل من فى الدار ، وفتحت الأبواب فى فزع ، ودبت الأرجل فى الدرج صاعدة ، وسمعت همهمة وغمغمة فى السلم . فقد كان الرجال والنساء والصبيان يتساءلون فى لهفة عما حدث ؛ وتجمعوا على باب الحاج وراحوا يطرقونه فى لهفة ، وفتح الباب ، فاندفعوا إلى الداخل جميعا كقطيع جافل ، يستفسرون عما وقع ، ولم ينبس الحاج بكلمة ، ولم تحرك الحاجة شفتيها ، وأغلقت الجارية فاها ، ولكن وجوههم كانت تشى بما وقع ، وكان ذلك الدم الذى ينبثق من رأس الجارية ينطق بكل شيء . أحس محمد ضيقا وامتلأ حنقا ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن استيائه ، فانسحب فى صمت تتبعه زوجه نفيسة وابنته زكية ، وسار الآخرون فى أثره وعادوا من حيث أتوا ، وأغلقت الأبواب وسيطر الهدوء ثانية ؛ وكان هدوءا ظاهريا فإن أهل البيت لم يذهبوا ليستأنفوا نومهم ، بل راح كل منهم يعلق على ما فعله الحاج أسعد .

وانقضت على الحاج أسعد ليلة كأسوأ ما تكون الليالى . فإن الحاجة راحت تندب حظها وتبكى ، فإذا حاول ترضيتها صدته ؛ كانت إذا كل لسانها أسعفتها عيناها بالدموع ؛ وإذا كلت عيناها استأنف لسانها الدوران فى فمها .

وسرى الصوت فى سكون الليل مرددا : « الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، الصلاة خير من النوم » فانسل الحاج أسعد من جوار الحاجة ليتطهر ، وكانت الحاجة تلاحقه بنشيجها ، وتسلقه بلسانها .

ولاح الصباح فخرج الحاج أسعد وابنه محمد إلى الدكان . فسارا صامتين ، وانقضى الطريق ولم يتبادلا كلمة ، فعرج محمد إلى الدكان ، وذهب الحاج أسعد ليشترى حاجات البيت .

وشاء الحاج أن يترضى الحاجة فاشترى دجاجا كثيرا ، بعث به إليها فى قفصين كبيرين ، ووصل القفصان إلى الدار ، ووضع الدجاج أمام الحاجة فراحت تعطى كل زوجة من زوجات أبنائها وحفدتها دجاجة ، وبقى دجاج كثير ، فاستدعت خادما وأعطتها خمس دجاجات سمينة ، وأمرتها أن تنطلق بها إلى بيت أختها ، ثم أمرت بحمل باقى الدجاج إلى السطح .

وظهر الاستياء فى وجوه النسوة اللائى كن يرين أنهن أحق بتلك الدجاجات من أختها ، فإن أزواجهن يشقون طوال النهار ويكدون ليحصلوا على قوتهم وقوت عيالهم ، فلا يكون نصيبهم إلا دجاجة واحدة ، بينا أختها وزوجها وأبناءها لا يتعبون ولا يكدحون ، وينعمون بخيرات هذا البيت ، بل ويحصلون على كثير مما يعز على كثير من أهله .

واجتمعت زوجات أبنائها الثلاث يتشاورن ويتآمرن ، فلم تر نفيسة فيما فعلته الحاجة حرجا ، بل رأت فيه عطفا وحنانا ، ولم تشأ أن تشارك سلفتيها فيما قررتا وبيتتا العزم عليه ، فإنها ترى أن ما عقدنا عليه النية حرام ، وهى تخشى الله وترتجف من فكرة عصيانه وإغضابه ، ولم يثن إحجام نفيسة المرأتين الأخريين عما قررتا ، ولم تخشيا أن تفضح أمرهما أو تكشف سرهما ، فإنهما تعرفان أن نفيسة لن تحرك ساكنا ، فهى تخاف القيل والقال ، وأخشى ما تخشاه الشجار .

وفى البكور انسلت إحدى المرأتين وأخفت فى ثيابها سكينا ، وصعدت إلى السطح ، وأخذت أسمن دجاجتين وذبحتهما ، ثم غسلت الدم عنهما ، وحملتهما كل دجاجة فى يد ، وأخفت رقبتها المذبوحة بين جناحيها ، وكانت تمسكهما بأطراف أصابعها ؛ وهبطت إلى حيث كانت الحاجة تغط فى النوم ، فاقتربت من الفراش وقالت :

— ست الحاجة .. ست الحاجة .

فتقلبت الحاجة فى فراشها وهمهمت ، فقالت المرأة فى صوت عال :

— ست الحاجة ! ماتت دجاجتان ، وها هما .

فقالت الحاجة فى نعاس :

— ألق بهما خارجا .

فهبطت المرأة فى سرور ، ودفعت إلى سلفتها التى تآمرت معها دجاجة ، على أن تقوم بنصيبها فى العمل فى اليوم الثانى .

٤

أغلقت أم عباس الندابة باب قاعتها فى حذر ثم أحكمت رتاجه ، واتجهت إلى الكوة الوحيدة التى كانت أشعة الشمس تتسلل منها فى صعوبة وعسر وأغلقتها ، فساد القاعة ظلام دامس ، فأنارت الذبالة وتناولتها فى يدها واتجهت إلى ركن القاعة البعيد ، ووضعت الذبالة على ظهر ماجور مقلوب ، ثم أزاحت حجرا فلاحت تحته قطعة من حصير قذر ، فطوت الحصير فى عناية ، فبانت تحته صفيحة صدئة طويلة ، فأزاحتها فإذا بجحر واسع عميق ، فمدت يدها وأخرجت صرة كبيرة من قماش أبيض قذر ، نشرتها على الأرض فانداحت الدراهم ، وراحت أم عباس تقبض القطع الفضية المختلفة الأحجام فتفصل ذوات الخمسة القروش عن ذوات العشرة عن ذوات العشرين ، ثم تسوى كل نوع بعضه فوق بعض ، فبدت الدراهم أمامها كأعمدة قصيرة من فضة متباينة الأقطار والارتفاعات . ولما انتهت من تسوية الدراهم جميعا ابتدأت تعد كل جنيه على حدة ، وتضع جنيها بجوار آخر فى صفوف مستقيمة ، حتى إذا ما انتهت من عد كل ما ادخرت كانت مساحة كبيرة من القاعة قد غطيت بالجنيهات

الفضية المتراصة فى انتظام ، وراحت تعد الصفوف الكثيرة فى حرص ، وقد كتمت أنفاسها ، وكانت كلما اقتربت من الصفوف الأخيرة إزداد وجيب قلبها ؛ وراحت تعد الصف الأخير وقد استولى عليها حنق وضيق ، فما انتهت منه حتى عقدت ما بين حاجبيها ، وتغضن جبينها ، وتقلصت عضلات وجهها ، فازدادت كآبة على كآبتها ، فإن ما ادخرته لم يبلغ ما طلبه الحاج أسعد ثمنا لقاعتها ؛ إنها تود أن تشتريها ، وقد حسبت أنها تستطيع الآن أن تنقده ثمنها ، ولكن كان عليها أن تنتظر مدة أخرى ، فإنها ما تزال تحتاج إلى خمسين جنيها ليتم المبلغ ، ولتصبح القاعة لها .

وأخذت الصرة وفتحتها ، وجعلت تجمع الدراهم فى تبرم واستياء ، ثم أعادتها سيرتها الأولى ، وفتحت باب قاعتها ، وفرشت قطعة حصير خلقة جلست عليها ، وأطرقت تفكر وتحلم . إن ما ينقصها لتصبح مالكة للقاعة خمسين جنيها ، وهى تستطيع أن تجمعها فى شهرين لو أن عزرائيل أكرمها ، وما عليه لو أنه قبض كل يوم شابا أو شابة من الأسر الكثيرة الغنية التى تعرفها ، فتندبه أو تندبها ، وتعود بجنيهات تضمها إلى ثروتها .

واستراحت إلى أفكارها ، فأطلقت لخيالها العنان ، فراح يجوس خلال البيوت الغنية ينقب فيها عن الشباب الغض الذى يطلب له الموت لتندبه أم عباس ، فتقبض من النقود بقدر ما تذرف العيون الثاكلة من الدموع .

ورأت بعين خيالها عزرائيل رهن إشارتها ، يقبض هذا وذاك ، وهذه وتلك ، فانبسطت صفحة وجهها الجاف القبيح ، وانفرج فمها الكريه عن ابتسامة صفراء تقطر سما ، وراحت مآتم تتلوها مآتم تنصب فى مخيلتها فتتهلل أساريرها .

وداعب أذنيها صوات خفيض ، فرفعت رأسها فى انتباه ، وأصاخت السمع فبلغ الصوات أذنيها فى وضوح ، فنزلت الطمأنينة على قلبها ، فقد لبى عزرائيل

نداءها ، وحقق رجاءها ، ولم تنتظر حتى تقدم الناعية الكريمة ، بل نظرت إلى قاعتها ونادت فى لهفة .

— عباس ... عباس !

فأقبل صبى يهرول ويقول :

— نعم يا أم ..

— اذهب حالا للم الندابات . .

فانطلق الصبى مسرورا ، فقد فتح الله عليهم فى يومهم ذلك ، وأقبلت الناعية تصك الخدود ، فما أن رأتها أم عباس حتى اربد لونها ، وانقلبت سحنتها وأحست دوارا ، ولكنها تماسكت وأقبلت على الناعية تستفسر فى قلق :

— ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟

— ماتت .

— من .

— بنت أختك .

فامتلأت أم عباس غيظا ، وأطرقت حزنا ، وكان حزنها مضاعفا ؛ حزنت لموت ابنة أختها الشابة ، كما حزنت لانهيار آمالها وتقوض أحلامها ، ثم أحست بحركة فرفعت رأسها ، فرأت عربة تحمل عرائس كثيرة من عرائس المولد تنطلق الهوينى ، وراءها رجل يحمل لوحا خشبيا مستطيلا عليه حلاوة حمصية وسمسمية ، ووراءه ثان يحمل لوحا آخر صفت عليه أنواع الحلوى الشهية ، وكان يسير بجوار الركب شاب فى ثياب بلدية نظيفة ، كور فوق رأسه عمامة صغيرة جميلة . فلما رأته أم عباس عرفته ، فإنه خطيب زكية جاء بنفقة المولد ، فأحست فى صدرها لسعا ، وانقبض قلبها حقدا ، وتطلعت إلى السماء فى ثورة ، وانفجرت معاتبة :

— لم يارب فعلت بنا هذا ؟ لم أحزنتنا يوم المولد ، والناس جميعا فى سرور ؟ لم يارب ؟! .

وسارت باسرة الوجه ، يلوح عليها الضيق والحنق ، لقد كانت المرة الأولى التى تذهب فيها إلى مأتم كسيرة القلب .

ووقفت العربة التى تحمل العرائس أمام دار الحاج أسعد ، فتقدم الخطيب ودق الباب فى رفق ، وانقضت برهة قبل أن تفتح الجارية قدم خير الباب . وما أن فتحته ورأت العرائس والحلوى حتى أطلقت زغرودة طويلة عالية ، ففتحت نوافذ الجيران ، وراح النسوة يتطلعن من وراء خصاص النوافذ ؛ وفتحت الشبابيك التى تطل على فناء الدار ، وأطلت زوجات أبناء الحاج أسعد وأولادهن ، وفتحت الأبواب ، وأخذ أطفال الدار يهرولون فى الدرج فرحين ؛ وارتفعت أصواتهم فغطت على الزغاريد التى كانت تطلقها قدم خير والخادمات اللاتى نزلن يساعدنها فى حمل « النفقة » .

وحملت الهدية وصعد الخادمات بها ، والأطفال من خلفهن يهللون ويموجون موجا ، وهمت الخادمات بإدخال العرائس والحلوى عند زكية ، ولكن أمها نفيسة راحت تهتف بهن فى توسل :

— اذهبن بها إلى الحاجة .. اذهبن بها إلى الحاجة .

فقد كانت تخشى ما يتولد عن توزيعها من استياء وغضب ، وقيل وقال .

وصعد الخطيب إلى غرفة قريبة من الباب ، كانت معدة لاستقبال الزوار الأغراب ، وجلس وحيدا ينتظر القهوة ، فما كان فى الدار رجال فى تلك اللحظة ليشاركوه فى جلسته .

ووزعت الحلوى على من فى الدار فاختفت فى لمحة عين . وتذكرت زكية أن أمينة ، بنت خالتها وزوجة أخيها حسن ورفيقة صباها ، وصديقتها الحبيبة فى

البيت ، فى فراشها لم تبرحه فلم تأخذ نصيبها من الحلوى ، فحملت عروسا من العرائس التى حجزتها الحاجة لأبناء أختها ، وذهبت بها إلى أمينة وقدمتها إليها فى سرور ، فتقبلتها أمينة شاكرة ، ودعت لها بالتوفيق فى زواجها ، وجلست زكية على حافة الفراش ، وجعلت تذكر فى زهو ما جاءها به خطيبها . وتذكرت فجأة أنه فى حجرة الضيوف الأغراب ينتظر القهوة ، فقامت مهرولة تجهزها له ، وتبعث بها إليه مع خادم من الخادمات .

٥

كانت أمينة ممددة فى فراشها تحس آلام الوضع ولكنها كانت تتجلد وتحتمل آلامها فى صمت ، وكانت على الرغم من أنها صبية لم تتجاوز الخامسة عشرة قوية القلب ، معتدة بنفسها ، معتزة بقوتها ، لا تحب أن تظهر أمام سلائفها بمظهر يشى بالضعف . كانت تحس فى قرارة نفسها أنها تمتاز عنهن فى كثير ، وكانت تعتقد أنها أكثر منهن رزانة ، وأكبر عقلا ، ولكنها ما كانت تتعالى عليهن ، بل كانت تحافظ على شعورهن حتى لا يسلقنها بألسنتهن ، فهى تخشى أن يجرح شعورها إنسان . وكانت فى الواقع ذكية ذكاء فطريا ، ولكنها من بيئة لها عاداتها العتيقة المتوارثة ، فلم يستطع ذكاؤها أن يحطم قيود تلك العادات الثقيلة البغيضة ، ولكنه كان يمدها دائما بما يبرر تلك العادات ، ويزيدها فى نفسها رسوخا .

وأقبل الليل ، وازداد وجع أمينة ، فأخذت تعض فراشها ، ولم تبعث فى طلب أحد ممن يشغلون الدار الكبيرة ، وانتظرت أوبة زوجها فى لهفة ليجلس بجوارها يشد من أزرها ، ويؤنسها فى كربتها .

وفتح الباب ودخل حسن ، وكان شابا فى الثانية والعشرين ، أبيض البشرة ، حلو التقاطيع ، أميل إلى الامتلاء والقصر ، أصفر الشعر والشارب ، فى وجهه بشر وهدوء ، وكان وديعا ساكنا ، متهلل الأسارير دائما ، تحب أن تتطلع إلى وجهه وتتأمل فيه . اتجه إلى فراش زوجه ، ومال عليها فى حنان ، ونظر إلى وجهها الأسمر الدقيق فى رقة ، فألفى أمارات الألم فى وجهها ، فهمس فى قلق :

— ما بك ؟

فقال وقد قبضت يدها على يده ، وأخذت تضغط عليها فى شدة :

— أحس ألما شديدا ، إنى أضع .

فخفق قلبه وأحس ارتياعا ، فقد ورث عن أمه رقة قلبها وحنانها وشفقتها ، ومد يده يسوى من شعرها الأسود السبط الذى تهدل على وجهها ، ثم مال وطبع على وجنتها قبلة هادئة ، وتركها ليستدعى كل من فى الدار .

وأقبلت نفيسة تهرول وخلفها زكية وأختها الصغرى سكينة ، وهى على عكس أختها ، طفلة مرحة تحب الضحك ، ولا ترى من الدنيا إلا ناحيتها البهيجة ، فبينا تميل زكية بطبعها إلى التشاؤم ، ولا تعرف من الدنيا إلا ناحيتها الجادة ، إذا بسكينة طروب ، تحب الفرح ، وتسعى إليه أبدا .

سارت زكية إلى فراش أمينة ، وقد ارتسم الجد فى وجهها ، فاقتربت منها وراحت تعيد ترتيب فراشها ، وكانت تحاول أن تظهر متأثرة لها ، قلقة عليها ، فعلا وجهها جد صارم ؛ وأخذت سكينة تقفز فى مرح وتحاكى أمينة فى حركاتها ، فإذا ما جزت على أسنانها جزت على أسنانها مثلها ، وإذا ما تأوهت تأوهت ، فما كان يسع أمينة إلا أن تبتسم على الرغم من آلامها ، ولكن ذلك لم يرض زكية ، فنهرت أختها ، وذهبت لتوقد فحم المجمرة لتحرق البخور .

وهبط حسن فى الدرج مسرعا ، وانطلق فى الظلام يتحسس الطريق إلى بيت

خالته لينبئها بأن أمينة تضع ، وكان يحس قلقا ممتزجا بنشوة وفرح ، إنه قلق على زوجه ، ومغتبط لأنه سيصبح عما قليل أبا لطفل ، فابتسم ، واقترب من دار خالته ، فأغذ السير ، وازداد وجيب قلبه ، فلما بلغ باب الدار ألفاه موصدا ، فدق الكف الحديدى المثبت فى الباب ، وما صك الصوت آذان من فى الدار حتى فتح الباب ، فقد كانت سقاطته متصلة بحبل متدل من إحدى النوافذ ، فإذا جذب الحبل ارتفعت السقاطة وانفتح الباب .

ودلف حسن إلى صحن الدار ، فسمع صوتا يستفسر :

— من ؟ ..

— أنا حسن .

فسألت خالته فى لهفة ، فقد كانت هى التى فتحت له :

— خير ؟

فقال فى هدوء :

— خير اطمئنى .

وتناولت خالته المصباح وأسرعت تنير له الدرج ، فأخذ يصعد فيه قفزا ، وقبل أن يبلغ نهايته سألته فى قلق :

— ما جاء بك الساعة ؟

— أمينة تضع .

فأسرعت لترتدى ملابسها على عجل ، ولتذهب إلى ابنتها الوحيدة التى جاءت بها بعد أن يئست من أن تنجب بنتا : أسرعت لتكون بجوارها فى أول ولادة لها .

ورجع حسن وخالته ، فلما وجد المكان يغص بنساء الدار انسحب وذهب إلى حيث كان أبوه وجده ورجال البيت وجلس ، كان معهم بجسمه أما ذهنه

فقد شرد إلى الحجرة التى تمددت فيها زوجه ، وأرهف السمع ، فما كان يسمع همسة حتى يتلفت فى قلق . ومرت مدة قصيرة حسبها دهرا ، ولم يستطع صبرا فنهض وسار إلى مسكنه فى وجل واضطراب ، وسأل أول من قابل ، فقيل له إنها لن تضع قبل الصباح .

وانقضى من الليل ثلثه ، فأخذ النسوة يتسللن واحدة وراء الأخرى ويذهبن إلى فرشهن ، ولم يبق مع أمينة إلا أمها ونفيسة وزكية . وجاء حسن وجلس معهن ، وانتصف الليل ، فداعب النعاس الجفون ، وجعل حسن يهوم فى جلسته ، فالتمست منه خالته أن يذهب لينام فى حجرة أخرى ، فقام فى تثاقل ، وما اختفى عن عيونهن حتى استلقين على الأرض ورحن فى النوم .

واشتد الألم بأمينة فتأوهت ، وندت منها صرخة ، فهبت أمها من نومها ، واقتربت منها تضمها إلى صدرها ، واستيقظ حسن وجاء يهرول ، فقامت أمه وأخته واتجهتا إلى أمينة تحوطانها برعايتهما وعطفهما .

وجعلت أمينة تئن وتتوجع ، فيحس حسن كأنما ينهصر قلبه ، وكأنما أناتها وخزات تخز نفسه ، فكان يطاطىء رأسه ويفر بعيدا حتى لا تبلغ أناتها أذنيه . ومرت ساعات وأمينة فى آلامها تقاسى كربتها ، ووهنت وبان عليها الإعياء ، فابتدأت أمها تحس خوفا فاضطربت ، وأخذ قلبها يدق دقا .

ودلف حسن إلى الحجرة وتطلع إلى زوجه ، فألفاها تلتقط أنفاسها فى جهد ، فغامت عيناه بالدموع . وطلعت الشمس وأمينة فى ضيقها وألمها ، فبدا فى وجه أمها الأسى ، وانتابها قلق وهم . وخطر لها خاطر فأسرعت إلى ثيابها وارتدتها ، وتركت الدار وقد وسعت من خطاها ، وسارت قدما فقد كانت تعرف غايتها .

وما انقضت دقائق حتى عادت أكثر هدوءا وأمنا ، ودخلت على أمينة وقد

انبسطت أساريرها ، وأخرجت مفتاحا كبيرا من طيات ثيابها ووضعته تحت رأس بنتها ، ورنت إليها فى حنان وقالت لها فى ثقة واطمئنان :

ــ اهدئى واطمئنى فقد جئتك بمفتاح الفرج .

لقد جاءتها بمفتاح المسجد القريب من الدار !

وصرخت أمينة وارتفع صراخها ، ولكنه لم يعد يفزع أمها ، فإنها مطمئنة بمفتاح الفرج ، مؤمنة به وبقدرته ، فراحت تشجع ابنتها فى رزانة وهدوء ؛ وانقضى الضيق وجاء الفرج ، وارتفعت وأواة الوليد ، فأنعشت القلوب ، وردت إلى النفوس الهدوء ، وما دغدغ صوت المولود أذنى حسن حتى امتلأ نشوة ، وأحس غبطة وخفة ، فأسرع إلى حيث كانت زوجه ، فقابلته أمه على الباب متهللة الأسارير وقالت فى سرور :

ــ مبروك ، يتربى فى عزك .

٦

هدوء شامل ، وظلام يلف كل شىء ، ودنيا نائمة ، ولم يكن فى الطريق إلا الخفير يغدو ويروح ، وكان إذا ما كلت قدماه جلس على حجر أمام الأرض الفضاء التى اشتراها الحاج أسعد ، والتى ابتدأ العمال يحفرون فيها . وراح الخفير يضرب إلى غير غاية ، يسير حتى نهاية الطريق ثم يقفل راجعا ، واقترب من الأرض الفضاء فسمع حركة تعكر سكون الليل فأحس اضطرابا ؛ ولكنه لم أطراف شجاعته وتقدم فاتضح له الصوت ، كان صوت آلة حادة تضرب الأرض ، فسرت فى جسم الخفير رعدة خوف ، ولكنه تمالك نفسه وقبض على هراوته فى قوة ، وهتف بصوت عال شق غلاله الصمت :

ـــ من هناك ؟

وأرهف السمع ، فلم يبلغ أذنيه إلا همس النسيم السارى فى الليل ، فتقدم فى حذر ، ثم هتف ثانية ليعيد إلى نفسه الوجلة بعض هدوئها :

ـــ من هناك ؟

فسمع صوتا مرتجفا مضطربا يرد عليه :

ـــ أنا .

فتمالك الخفير روعه ، فإن صوت الرجل يدل على خوفه وارتباكه ، فتقدم ثابت الخطو فلمح فى الظلام رجلا فى ثوب أدكن ، فصرخ فيه :

ـــ تقدم .

فأقبل الرجل ترتعد فرائصه ، وقد انتابه ذعر ، وجف ريقه ، كأنما إسفنجة جافة وضعت فى حلقه . وأيقن الخفير أن الرجل يرتجف فرقا ، فاستأسد وصاح به :

ـــ ما تفعل هنا ؟

ـــ بعثنى الحاج أسعد لأحضر له هذه القدر .

ـــ فى هذه الساعة من الليل ؟

ـــ نعم .

ـــ ولم لم يأخذها معه بالنهار ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ وما بها ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ أنت تكذب .

فصمت الرجل برهة ، فصاح به الخفير :

ــ جئت لتسرق .

فتلعثم الرجل وقال فى اضطراب :

ــ لا والله ، تعال معى للحاج أسعد .

ــ تعال .

وسارا معا ، الخفير يدق الأرض بهراوته ، والرجل يحمل القدر بين يديه ويفكر فيما سيفعله الحاج أسعد ، إنه يطمع فى كريم خصاله ، ويأمل أن يقول إنه بعثه لإحضار القدر ، وأوغلا فى السير ، وترك الخفير منطقة حراسته ، ولكن ما يهمه ذلك إذا كان قد وضع يده على سارق ، وبلغا دار الحاج أسعد ، فجعل الخفير يدق الباب بهراوته ، فاستيقظ من فى الدار مذعورين ، وهبط أحدهم ليفتح الباب ، فلما رأى الخفير ارتجف ، وسأله بصوت مبحوح :

ــ ماذا جرى ؟

ــ أريد الحاج أسعد .

فلم يجرؤ على أن يسأله فيم يريده ، ولكنه انسحب إلى فناء الدار وهو يتساءل فى نفسه عما فعله الحاج أسعد حتى تطلبه الحكومة فى مثل هذه الساعة ..

وفتحت جميع الشبابيك التى تطل على صحن الدار ، وجعل كل يتساءل عما هناك ، فصاح من فتح الباب :

ــ خفير يطلب الحاج أسعد .

خفير ! لابد أن هناك أمرا .. وأحست النفوس رهبة وقلقا ، وهبط الحاج وقد ارتدى ثيابه وخلفه أبناؤه الثلاثة . وكانوا جميعا مضطربين ، فما دقت الحكومة بابهم قبل اليوم أبدا ، وأقبلوا على الخفير وحيوه فى احترام ، فلما رأى الحاج أسعد قال له :

ــ أتعرف هذا الرجل ؟

ــ نعم .. إنه ممن يحفرون جدار بيتى الجديد .

ــ هل أرسلته الآن ليحضر لك شيئا ؟

ــ لا ..

ــ أما بعثته ليحضر لك هذه القدر ؟

ــ لا ..

ومد الحاج أسعد يده وتناول القدر فألفاها ثقيلة ، فراح يفحص ما بها فأشرق وجهه وغمغم فى فرح :

ــ ذهب !

وهمس أبناؤه فى غبطة :

ــ ذهب كثير !

وسرى الهمس وانتشر فى سرعة الريح ، فإذا بمن فى الدار جميعا يرددون فى سرور : « قد عثروا فى أرض الحاج أسعد على كنز » .

وذهب الحاج سعد وأبناؤه والخفير والرجل إلى المخفر ليبتوا فى أمر هذه اللقية ، وجعل النسوة يتحدثن من النوافذ ، فهذه تقول لسلفتها القريبة من نافذتها : « عثروا على عشر قدور مملوءة ذهبا » فتلتفت الثانية إلى جارتها ، وتقول : « عثروا على عشرين قدرا من الذهب » . وراحت القدور تتضاعف عددا ، وتكبر حجما حتى إذا أصبح الصباح كان الحى جميعه يقص نبأ الكنز العظيم الذى عثر عليه الحاج أسعد .

وجلست أم عباس الندابة على باب قاعتها ، فاقتربت منها امرأة وهمست :

ــ أما بلغك ؟

ــ ماذا ؟

ــ عثر الحاج أسعد على كنز .

فأحست أم عباس ضيقا وغما ، وكأن كارثة نزلت بها ، وغمغمت فى غضب :

— كنز ! ..

— أربعون قدرا وعشرون رقبة جمل ملئت كلها ذهبا .

فأحست أم عباس أبخرة الحسد تملأ صدرها وتضيق من نفسها ، وأحست كرها للحاج أسعد كأنما سلبها أشياءها فغمغمت فى ضيق وحنق :

— المسعد مسعد من يومه .

٧

أقبلت ليلة الأسبوع ، فراحت أم أمينة وأختها نفيسة وزكية ، يطبخن ويجهزن طعاما كثيرا ليطعمن أهل الدار جميعا فى اليوم التالى ، فلما انتهين من الطبخ صفت الأوانى النحاسية فى المطبخ فازدحم بها ، وجيء بوعاء كبير وضع به سمن كثير ، ثم وضع الوعاء على النار ، وأخذت أم أمينة تحمر المغات وتدق البندق لتقدم فنجانا من المغات اللذيذ لكل من يقدم للتهنئة بالمولود ، بينما جلست نفيسة وابنتها والجارية يفركن الكسكسى فى همة ونشاط .

ولما تم تجهيز كل شىء ، ذهبن ليعددن غرفة أمينة ، فأحضرت نفيسة دورقا ملىء ماء ، وطلبت أم أمينة من سكينة أن تحضر قطعتين من الخشب لتصنع منهما عروسا تضعها فى الدورق ، فأسرعت سكينة ، وأخذت تقفز فى الدرج صاعدة حتى بلغت سطح الدار ، واتجهت إلى قفص من الجريد وسلتت منه جريدتين ، ثم عادت إلى خالتها ودفعت بهما إليها ، فربطت الجريدتين على شكل صليب ، ثم كستهما بقماش ، فضحكت سكينة وقالت :

ـــ لبس البوصة تبقى عروسة .

فنظرت إليها زكية نظرة تأنيب ، فالتزمت الهدوء على مضض ، ووضعت العروس فى فم الدورق ، فأسرعت سكينة وأحضرت عود ثقاب احترق بعض خشبة ، وجلست ترسم للعروس عينين وحاجبين ، ولمحتها زكية فصاحت :

ـــ بنت !

فقالت خالتها :

ـــ دعيها يا زكية .

ـــ إنها لا تعرف غير الضحك واللعب .

ـــ أحسن .

وجيء بطبق فيه ملح ، ووضع به أرز وعدس ولوبيا وفاصوليا وبن وفول ، ووضع الطبق بجوار الدورق ، وجيء بفاكهة وبندق ولوز ووضعت تحت سرير المولود ، وراحت زكية وسكينة ونفيسة يجمعن حلى الذهب من البيت ويعدن بها إلى غرفة أمينة ثم يضعن الأساور فى ذراعى العروس ، والقلائد فى جيدها فبدت كأنما كسيت بالذهب ، واطمأنت نفس أمينة ، فإنها تعتقد أن الذهب الكثير الذى تتحلى به العروس ليلة الأسبوع يجلب السعد للمولود .

ونظرت سكينة إلى العروس طويلا ثم قالت :

ـــ إنى أتمنى أن أكون هذه العروس الليلة !

وسكتت قليلا ثم قالت :

ـــ ما رأيكن لو تحليت بكل هذه الحلى ، ووقفت هنا طوال الليل بدل هذه العروس التى لا تحس شيئا ، والله كنت أكون سعيدة .

وكأنما أعجبتها الفكرة فقامت إلى العروس تتناول الحلى وتتزين بها ، فضحكت أمها وخالتها وابتسمت أمينة ، أما زكية فصاحت فيها :

ـــ بنت ! ما هذا العبث .

فأعادت سكينة إلى العروس حليها فى هدوء .

وجىء بشمعة كبيرة وضعت فوق رأس المولود لتنير له طول الليل ، فإن نورها هو الذى سيهديه السبيل ويبدد له ظلمات حياته .

وأقبل حسن منشرح الصدر ، فلما رأى العروس بما تحمل ابتسم وقال :

ـــ ما أسعد اللص الذى يحملها الليلة !

فقالت سكينة فى همس :

ـــ خفض من صوتك وإلا جاءت صواحب الحلى وأخذنها خشية ضياعها .

فضحك حسن وكأنما لم يكتف بالسعادة التى ستجلبها الحلى للمولود فوضع فوق رأسه كيس نقوده ، حتى يشب غنيا .

وأدبر الليل ، وبقيت الملائكة ـــ فى زعمهم ـــ تحوط المولود ، تنتظر بدر الملح لتنصرف وتدع الطفل فى أمان ، وجاءت نفيسة وجردت العروس من حليها ، وهمت سكينة بالشرب من الدورق ، فصاحت زكية بها :

ـــ لا تشربى ودعى الدورق وإلا جاء الطفل طائشا مثلك .

فتركت سكينة الدورق ، واتجهت زكية إليه ورفعته ، فصاحت بها سكينة :

ـــ لا تشربى ودعى الدورق وإلا جاء الطفل عابس الوجه مثلك .

وفرت من أمامها حتى لا ينالها ما ينالها كلما سخرت منها ، وقدمت زكية الدورق إلى خالتها وقالت فى جد :

ـــ اشربى يا خالتى حتى يشب مثلك طويل البال .

وجاءت المولدة ، فهتفت نفيسة بها فى صوت يدل على أنها تشفق على الملائكة الذين باتوا طوال الليل يحرسون المولود :

— أسرعى لنبدر الملح حتى ينصرف الملائكة الكرام .

فراحت المولدة تبدل للطفل ثيابه ، وقدمت لنفيسة الجزء الذى جف من سرته ، فأخذته وأخذت من الملح والبقول سبع فولات ، ثم أخرجت من جيبها قرشا وصرت الجميع فى صرة صغيرة علقتها تميمة فى صدر المولود .

وغص المكان بالنساء والصبيان ، وحملت المولدة المولود ، وأخذت الطبق الذى وضع فيه الملح والبقول ، فأطلقت الزغاريد ، وارتفع تهليل الأطفال ، وخرجت المولدة بالطفل من الغرفة لأول مرة ، والأولاد خلفها يحملون الشموع ، وراحت تبدر البقول ، وترش الملح وتقول :

— أول بدرة للملوك ، وثانى بدرة للمولود ، وعاشق النبى يصلى عليه .

فيصيح الأولاد خلفها :

— يا رب يا ربنا ، يكبر ويبقى قدنا .

وهبطت المولدة بالطفل فى الدرج ، والأولاد خلفها يهللون ، والنساء على رأس الدرج يزغردن ، فشاع فى البيت السرور . ثم عاد الموكب إلى غرفة أمينة ، فوضع الطفل فى غربال ، وأخذت المولدة تغربله حتى يذهب عنه الخوف ، ثم وضعت الغربال على الأرض ، وقامت أمينة تخطى المولود سبع مرات حتى لا يسقط شعره . ولما تمت المرات السبع ، حمل المولود ، وأخذت المولدة الغربال واستعدت لتدحرجه ، فنظرت أمينة إلى الغربال فى وجل وقلق ، فإذا تدحرج الغربال طويلا كان ذلك دليلا على طول عمر المولود ، أما إذا سقط كان ذلك فألا سيئا ونذيرا بقصر عمره . وانطلق الغربال فأحست أمينة بقلبها يخفق ، واتسعت حدقتاها فى تطلع ورهبة وهى تنظر إلى مصير ابنها ، ومال الغربال فى دورانه قليلا ، فأحست خوفا ، وأخذت ترقب الغربال فى دورانه قلقة النفس ، وترنح ولكنه لم يسقط واستمر فى سيره حتى ارتطم فى آخر حائط الردهة ،

فهدأت نفس أمينة ، وشاع فى وجهها السرور ، فإن ابنها سيعيش طويلا !

وأقبل النسوة على أمينة يهنئنها ، فأخذت كل واحدة منهن تقول لها :

— عقبى للعودة يا أم ممدوح .

وانتهى الحفل فى غرفة أم ممدوح ليبدأ فى غرفة السفرة ، وهو أهم ما فى اليوم جميعه ، فإن النساء والأولاد انتقلوا لتناول الطعام الشهى اللذيذ خفافا فرحين ، ولم تنس نفيسة فى هذه الزحمة طبعها ، فتذكرت جيرانها فبعثت لكل منهم بصينية عليها أطباق الخضر واللحم والبندق والكسكسى ، وبعثت إلى أم عباس بصينية كبيرة عليها خير كثير ، فما رأتها حتى ابتسمت ، ولكن ما لبثت ابتسامتها أن غاضت وحل مكانها عبوس ، فإن نفسها كالبحر القلب لا يهدأ قليلا إلا ليزمجر ويثور ، ونظرت إلى الطعام الذى تعددت ألوانه وقالت فى حسد :

— يأبى الذهب إلا أن يطل برأسه ، كأنما كان ينقصهم أن يعثروا على كنز ، حكمتك يا رب .

٨

زفرات تنطلق من صدر مكروب ، ودموع تنهمر من عيون لم تألف انهمار الدموع ؛ كانت زكية بجوار سرير أختها سكينة وكانت تهذى من الحمى ، فيقطع هذيانها نياط قلب أختها الرءوم فراحت تذرف الدمع السخين .

وتقلبت سكينة فى فراشها وهمست فى صوت خفيض :

— أشرب .

فقامت زكية تهرول وأحضرت كوبا به ماء ، ورفعت رأس أختها فى حنان ،

ووضعت الكوب على شفتيها المرتجفتين من الحمى والضعف ، ورفعتها فى رفق ، فشربت سكينة قطرات ، ثم زمت فمها ، فأعادت زكية رأسها على الوسادة ، ومررت كفها على جبين أختها ، فشعرت بحرارة الحمى الشديدة ، وأحست لسع النار فى قلبها ، فعبس وجهها ، وأقبلت أمها وقالت لها :

— قومى يا زكية كلى .

— لا شهية للأكل عندى .

— مر يومان ولم ينزل جوفك شىء .

— لا أحس جوعا .

— قومى وكلى ، إنها بخير .

فطفرت دموعها من عينيها ، فهى تحس أن أختها ليست بخير ، وقد رأت فى الغفوة التى غفتها فى الليل الطويل أنها كانت ترتدى السواد يوم زفافها ، فقامت من غفوتها مفزوعة مرعوبة ، تضم أختها إليها وتتساقط دموعها على وجه سكينة الذى كاد ينصهر من الحمى .

وأقبل محمد ليرى ابنته ، فوضع يده على رأسها وغمغم :

— حرارة بسيطة وغدا تنقشع .

فلم تطمئن نفس زكية ولم تهدأ ، بل اضطرب قلبها وانقبض ، ولم تصدق ما سمعت ، فإن البومة قد نعبت فى سكون الليل نعيبا بغيضا مزق قلبها ، وما كانت البومة تنعب إلا لخراب .

والتفت محمد إلى زكية وقال لها :

— هيا لتأكلى معنا .

— عافت نفسى الطعام .

— قومى يا زكية .

وقبل أن تهم بالقيام أقبل الحاج أسعد واتجه إلى فراش سكينة وجسها وقال لنفيسة :

— عليك بالليمون ، فالليمون حكيم مخفى لا تقولى لعدوك عنه ، اقطعى ليمونة فوق يافوخها ، وضعى على جبينها خرقة مبللة بالخل .

— حاضر .

— افعلى ذلك وسينقطع دابر هذه الحمى اللعينة .

— حاضر .

— هاتوا ليمونة حالا .

وأسرعت نفيسة وأحضرت طبقا به ليمون ، فأخذ الحاج أسعد ليمونة وقطعها ودعك بها رأس سكينة وجبهتها ، ثم وضعها فى وسط رأسها وعصبها بعصابة ، وقال لنفيسة :

— ذوبى قليلا من الملح فى كوب ماء وهاتيه .

وعادت نفيسة بالكوب فتناوله الحاج أسعد ، وصب قليلا منه فى أذن سكينة ، ثم سحب عليها الغطاء والتفت إلى الموجودين وقال :

— دعوها الآن تستريح ، وستقلع الحرارة عنها بعد قليل .

وانسحب من الغرفة ، وقال محمد لزكية .

— هيا زكية نأكل .

فقامت ، وجلسوا حول السفرة ؛ ومدت نفيسة يدها وتناولت لقمة ، ولكنها لم تستطع ازدرادها ، وشرقت بدموعها ، ولمحت زكية الدموع تترقرق فى مآقى أمها فلم تستطع أن تحبس دموعها ، وهبت نفيسة وهى تغمغم :

— كيف أسيغ الطعام وسكينة لم تذقه من أيام ؟!

وقامت زكية خلف أمها تكفكف عبراتها ، ونظر محمد إلى الطعام

الموضوع أمامه فلم يستطع أن يمد إليه يدا ، فقام حزينا ، وانسل من الدار باسر الوجه كسير الفؤاد .

قبعت زكية بجوار سرير أختها ترقبها وتحرسها وترعاها ، وتذرف الدمع من أجلها ، وقامت تجسها فألفت حرارتها قد انخفضت فاطمأنت بعض الشيء ، وصلك أذنيها أصوات غريبة فى الحجرة المجاورة فقامت لترى من هناك ، وما أطلت برأسها من باب الغرفة حتى أحست ضيقا وغضبا ، وعادت حانقة ، ولحتها أمها فجاءت خلفها وهمست :

— لماذا لم تسلمى عليها ؟ أهكذا نقابل الضيوف ؟!

— ما جاء بأم عباس الندابة هنا ؟

— جاءت تستفسر عن أختك .

— لا نود استفسارها .

— عيب يا زكية .

— ولا أحب أن ترى أختى .

— أنطردها !

— لا تدخل عليها .

— وما تقول عنا ؟

— لتقل ما يحلو لها .

— لا أستطيع أن أمنعها من رؤيتها يا زكية وقد كلفت خاطرها لزيارتها .

— لن تراها وهى مريضة أبدا .

— ولمه ؟

— إنى أحس كأنما ستخطفها منا .

— اهدئى .

وخرجت أمها ، وبقيت زكية تنظر إلى أختها وتفكر فى زيارة أم عباس الندابة لها ، فلم ترتح لهذه الزيارة ، فعزمت على أن تفر بأختها منها . فلفتها بغطائها جيدا وحملتها فى رفق . وانسلت بها ، وراحت تصعد بها فى الدرج على مهل حتى إذا بلغت شقة جدتها دلفت من الباب ، واتجهت إلى الفراش ، ووضعت أختها فيه ، وجلست بجوارها تلتقط أنفاسها .

ومرت ساعة أو بعض ساعة تيقنت بعدها أن أم عباس قد انصرفت ، فحملت أختها وهبطت بها ونومتها فى سريرها ، ومرت بيدها على جبين أختها فوجدت حرارتها قد ارتفعت فراحت تسب أم عباس واليوم الذى جاءت فيه ؛ وفكرت فى أن تداويها بليمونة ، ولكن خطر لها خاطر ، فارتدت ثيابها ، ونادت الخادمة وأمرتها أن تحضر إبريقا كبيرا وأن تتأهب للخروج معها .

وخرجت زكية والخادم ، وانطلقتا إلى المسجد القريب من البيت وملأتا الإبريق من ماء بئره ، ثم قفلتا عائدتين إلى الدار ، وحملت زكية أختها ودخلت بها الحمام لتغسل لها جسمها بماء البئر المبارك .

ومرت أيام ، وانقشعت الحمى وبرئت سكينة ، فانشرح صدر زكية وهبطت السكينة عليها ونزلت قلبها ؛ ولكن صفوها لم يدم فإنها تذكرت حلمها أنها فى ثياب سود ليلة زفافها ، ونعيب البومة تلك الليلة ، فاضطربت نفسها ، وانقبض صدرها ، فعادت إلى تشاؤمها .

٩

حركة دائبة فى المسمط ، وغوغاء الزبائن ترتفع وتشتد ، والمعلمة صباح تقلب رءوس الضأن والأكراع بمغرفة ضخمة فى قيزان كبير . فتوسوس أساور الذهب فى معصمها وسوسة خفيضة ، لا تكاد تسمع بين جلبة الآكلين فى المسمط ، والمنتظرين أمام شتا زوج ابنتها الذى كان يأخذ الرأس فى يد ، ويعمل فيه شاطوره فى مهارة جراح ماهر ، فيقطع الأشداق ثم يخرج اللسان سليما ، ثم يفصل لحم الرأس عن العظام ، ثم يكسر الرأس ويخرج المخ ، ويعطى كلا ما يطلبه ، ثم يتناول رأسا آخر ، وما كان الرأس يستغرق فى يده إلا هنيهة فقد كان يعمل فى كفاية ويسر .

وصفت أوانى الفتيت على لوح من الخشب أمام المعلمة ، فأخذت تملؤها بالمرق ، فكانت ترفع أوانى لتحل مكانها أوانى أخرى متباينة فى الشكل والسعة ، وإن كانت كلها تتفق فى القدم والقذارة .

وخرج من الحارة صف طويل من باعة لحم الرأس الجوالين يحمل كل منهم على رأسه قرصا مستديرا من الخشب صفت فوقه الرءوس وغطيت بخرقة من قماش أبيض ، وعلق كل منهم فى كتفه نضدا أسطوانيا من الجريد ليضع فوقه قرص الخشب ، وانتشروا فى شوارع المدينة العتيقة يهتف كل منهم يا جابر .

وكان هتافهم كافيا للدلالة على بضاعتهم ، فما كان ينافسهم فيه غيرهم من الباعة الجوالين .

وانصرف زبائن المسمط يحمل كل منهم فى يد إناء الفتيت . وفى الأخرى ورقة لف فيها لحم الرأس ، وهدأت الرجل ، وابتدأ عمال المسمط ينظفونه ،

وجلست المعلمة على كرسى حقير تشد أنفاسا من نارجيلة أمامها فى لذة وشغف .

واقترب شتا من المعلمة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم مال على أذنها قليلا وقال :

ــ إنى فى حاجة إلى نقود .

فدست المعلمة يدها فى جيبها وأخرجت من صدرها كيسا من قماش أزرق حلت وكاءه ، وأخرجت منه قروشا عدتها ومدت بها يدها إليه وقالت فى تبرم :

ــ خذ .

فنظر إلى القروش فى يدها وقال فى استهجان :

ــ ما هذا ؟

ــ ريال .

ــ ريال ! ولم كل هذا التبذير ؟ أما كان يكفى خمسة قروش ؟

ــ مالك يا شتا ؟

ــ آخذ ريالا فى ثلاثة أيام !

ــ ألا يكفيك أنى أتكفل بك وبزوجتك ؟

ــ لا يا ست ، أعطينا حقنا ودعينا نعش كما يحلو لنا .

ــ شتا أقصر الشر وخذ .

ــ لا ، أعيدى قروشك إلى كيسك حتى لا تبرد .

ــ وما تريد الآن ؟

ــ أريد أن تجعلى لى راتبا آخذه فى نهاية كل أسبوع ، وأن آخذ زوجتى وأسكنها حيث أحب .

ــ لا ، بلوغك النجوم أقرب لك من هذا .

ـــ سأدع لك المسمط من اليوم وسآخذ زوجتى وندع لك الدار .

ـــ اذهب أنت ، أما هى فلن تستمع إليك .

ـــ سنرى .

ـــ والله لو ذهبت معك لا هى ابنتى ولا أنا أعرفها .

فانصرف شتا غاضبا يصرف أنيابه ، وأغلقت المعلمة المسمط ، وصعدت إلى شقتها .

وخيم الليل فمد رداءه الأسود يحجب كل شىء ، وشمل الحارة هدوء ، وجاء شتا يترنح من السكر ويخبط فى الظلام حتى بلغ المسمط ، فاتجه إلى باب الدار ودلف منه ، وراح يصعد فى السلم الضيق يرتطم بالحائط مرة وبالدرابزين الخشبى أخرى ، وبلغت جلبته سمع المعلمة فاعتدلت فى فراشها وهتفت فى رعب :

ـــ من ؟

فأجابها فى صوت المخمور :

ـــ أنا شتا .

فاطمأنت وتمددت فى فراشها ثانية ، فقد عاد إليها ندمان ، وجاء يطلب صفحها كما اعتاد أن يفعل كلما غضبت عليه . وفتح الباب ودخل ، فرأى على النور الضعيف الذى ينبعث من مصباح بعيد المعلمة ممددة ، فاقترب منها وانحنى عليها وقال :

ـــ أين النقود ؟

فدفعته فى صدره فانبطح على الأرض ، ووسوست الأساور فى يدها ، فاعتدل وقد امتلأ حنقا ، وقبض على يدها وراح يعبث فى الأساور ويقول فى غضب :

— تزينى والبسى واكتنزى ولنمت نحن جوعا .

وبرقت عيناه ، فأحست المعلمة فزعا ، وقالت فى صوت مرتجف :

— شتا أنت سكران .

وجذبت يدها من يده . وهمت لتفر من أمامه ، ولكنه ركز ركبته على صدرها ، ولف شعرها على يده ، وفى مثل لمح البصر مد يده الأخرى إلى السكين المثبتة فى ساقه ، وراح يقطع شدقى المعلمة ، ويفصل فكيها ، ثم يهبط بالسكين إلى رقبتها ؛ لقد كان رأس المعلمة فى يده كرأس ضأن يجهزه لزبائنه . وتدفق الدم الحار على يده ، فأفاق من سكره . ورأى بشاعة فعلته ، فتركها وأسرع يفر من جريمته .

وفى هجعة الليل ارتفع صوات ابنة المعلمة :

— قتلوك يا اماه .. قتلوك يا حبيبتى ..

وهب كل من فى الحارة فزعين ، وهبطوا الدرج مسرعين يحملون فى أيديهم المصابيح ليروا تلك الجريمة التى ارتكبت بليل . واستيقظ الحاج أسعد وأهله مرعوبين ، وجعلوا يتساءلون عما جرى ، فعلموا أن المعلمة صباح ذبحت ذبح الشاة فارتجفوا فرقا ، وارتجت الحارة ، ودوى الناس دويا ، ولم يجرؤ أحد من دار الحاج أسعد على الخروج ، بل لم يجرؤ أحد منهم على أن يطل من النوافذ التى تشرف على دار المعلمة . واستمرت الجلبة والضوضاء ، ثم أخذت تتلاشى شيئا فشيئا حتى ساد الحارة السكون ثانية ، وسيطر عليها هدوء كهدوء الرموس ، وأحست زكية عطشا ، فلم تقم لتشرب ، فإن القلل كانت على شباك قريب من دار القتيل ، وانكمشت فى فراشها ، وغطت وجهها بلحافها ، فإنها كانت تخشى أن يظهر لها عفريت المعلمة صباح ، كانت المعلمة تملأ الحارة أنسا ، فباتت تملؤها فى الليل رعبا .

* * *

عاد الحاج أسعد مبكرا ، فصلى العصر وراح يقرأ فى كتبه التى كان يحبها ، ودخلت سكينة وجلست فى حجره ، وأخذت تعبث بلحيته ، فوضع الكتاب الذى كان فى يده ، وأقبل عليها يبش لها ، وقال وهو يبتسم :

ــ أتحبين أن يكون لك لحية كهذهْ ؟

فهزت رأسها موافقة فى سرور ، ولكنها أردفت :

ــ ولكنى لا أحب أن تكون بيضاء كلحيتك ، إنى أريدها سوداء كشعرى .

فابتسم الحاج وضمها إليه وقال :

ــ وممن من أبناء عمك ستتزوجين ؟

فقالت فى براءة :

ــ من مختار .

ــ ولكنه ثقيل السمع .

ــ لا بأس فإن صوتى عال .

ــ أرينى كيف تنادينه .

فوضعت سبابتيها فى أذنيها ، وهتفت بصوت رفيع راح يرن كالجرس :

ــ مختار ... مختار .

فضحك الحاج ، وراح يقص عليها قصة خلق آدم وحواء ، فقد كان غارقا فى قصص الأنبياء يقرؤها فى شغف ، ويقصها فى شغف ، ويستمع إليها فى شغف .

ومالت الشمس للمغيب ، فبدأ أهل البيت يفدون ، إنهم اعتادوا أن يرجعوا مبكرين ، ولكنهم ما كانوا يرجعون قبل غروب الشمس أبدا . أصبحوا اليوم يخشون البقاء خارج الدار لا يهجم عليهم الليل فيضطرون إلى الرجوع فى

الظلام ، فيطلع لهم عفريت المعلمة ، لقد أحسوا جميعا رهبة وخوفا لما اقتربوا من المسمط وما كانت أنوار النهار اختفت ، فما بالهم لو أنهم عادوا فى عماية الليل ؟!.

وتناولوا عشاءهم كل فى شقته ، ثم ذهبوا إلى غرفة الحاج أسعد يقطعون جزءا من الليل فى السمر ، وراح كل منهم ينظر إلى الآخر دون أن يسأله لم عاد مبكرا اليوم ، فقد كانوا جميعا يعلمون سبب ذلك ، وجعلوا يتجاذبون أطراف أحاديث متشعبة إلى أن قالت واحدة :

ـــ أسمعتم ذلك الصوات الخفيض الذى كان يعكر سكون الليل البارحة ؟ إنى سمعته وميزته ، كان صوت صباح .

فأمنت أخرى على قولها وقالت :

ـــ وسمعتها تولول وتقول : « لم ذبحتني يا شتا ؟ وما أخذت يا شتا ؟ قبضوا عليك وسجنوك » . فقمت إلى النافذة أنظر ، فرأيت شبح امرأة محلولة الشعر تجرى فى الحارة ، وتقف عند باب المسمط ، ثم تعود تجرى وتولول .

فرنت إليها زكية فى ذهول وقالت فى خوف :

ـــ يا قلبك ! نظرت من النافذة ولم تخافى .

فاعتدل الحاج أسعد وقال :

ـــ أتخافين العفاريت يا زكية ؟

ـــ إن جسمى يرتجف لذكرها .

فابتسم وقال فى زهو :

ـــ إنى لا أخشاها أبدا ، وقد وقعت لى معها حوادث كثيرة ولم تصبنى بسوء . فى ليلة حالكة الظلام كنت عائدا إلى البيت ، فرأيت طفلا صغيرا يبكي وينتحب ، فاقتربت منه وربت على كتفه وسألته لم يبكى ، فأخبرنى أنه

خرج من بيتهم فى العصر فدهمه الليل ولم يعد يعرف كيف يعود . فطيبت خاطره ، وقلت له إنى سأصحبه إلى منزله ، وأخذت يده فى يدى وسرنا ، ولم أشعر إلا والطفل ينمو فى يدى ثم أخذ يعلو ويعلو حتى أصبح طول المئذنة ، فعلمت أنى التقيت بمارد .

فقالت زكية :

ــ أو لم تخف يا جدى ؟

فقال فى ثقة وثبات :

ــ والله لم تختلج فىّ شعره .

وساد السكون لحظة ، ثم قالت نفيسة تروى ما تعرفه عن العفاريت :

ــ كان أبى يبنى داره وكان يشغل فعلة من الفتيات ، فبينا كن يحفرن جدار البيت انهار عليهن جرف ، فماتت سبع فتيات ، وتم بناء البيت ، وحملنا حوائجنا إليه ، فكنا إذا وضعنا شيئا فى غرفة وجدناه بعد قليل فى غرفة ثانية . فلما رأت أمى ذلك أقسمت ألا تسكن فى ذلك البيت المشئوم ، فاضطر أبى إلى كراء رجل يحرسه . وفى ليلة من الليالى نام الحارس فى السطح فجاءت العفاريت ولفته فى الحصير النائم عليه ، وأخذت تدحرجه فى الدرج ، وهو يصرخ ويستغيث ، حتى بلغ باب الدار فهب مفزوعا ، وأطلق ساقيه للريح .

وسرت رهبة ، وأحس الموجودون خوفا فصمتوا قليلا ، ثم قال أحدهم :

ــ اضطررت فى ليلة مظلمة أن أخترق حارة مسكونة بالعفاريت ، ما قطعت منها أمتارا حتى شعرت بحركة خلفى ، فالتفت ، فرأيت رجلا له رجلان كأرجل المعيز ، فاضطربت ووسعت من خطاى ، وبلغ أذنى وقع حوافر معيز كثيرة تضرب الأرض خلفى ، فالتفت مذعورا ، فرأيت أشباحا كثيرة تطاردنى ، فعدوت وعدت الأشباح ورائى ، وأمدنى الرعب بقوة فكنت كأنما

أطير ، وبدأت أصوات حوافر المعيز على الأرض تخفت وتتلاشى ، فرحت ألتقط أنفاسى وأغالب تعبى ، حتى إذا بلغت رأس الحارة لمحت شيخا جالسا متدثرا فى ثيابه ، فارتميت بجواره ، ورحت أقص عليه قصتى وأنا مقطوع النفس ، قلت له :

— عدت خلفى عفاريت لها أرجل كأرجل المعيز .

فمد الشيخ يده فى هدوء ورفع ثيابه عن رجليه ، وقال

— مثل هذه ؟

فنظرت فإذا له رجلا ماعز غزيرتا الشعر ، فقمت من جواره مرعوبا ...

فقالت زكية فى صوت مرتجف :

— بالله أخفوا هذه السيرة .

فضحك الحاج أسعد وقال :

— ستظهر لك صباح الليلة ، وستجرك من رجليك .

فقالت زكية فى تبرم :

— أوه يا جدى ! والله لن أنام وحدى .

فضحكوا ، وابتدأ كل ينصرف إلى شقته ، وقامت الحاجة لقضاء حاجة وبقى الحاج أسعد فى الغرفة وحده ، وسرى النسيم من نافذة قريبة من رأس الحاج أسعد فداعب نور الذبالة ، فأحس الحاج وحشة ورهبة ولفه الخوف ، فقام فى اضطراب يقفل النوافذ التى تطل على المسمط .

١٠

وجاء أوان الحج ، فطليت واجهات دور الحجاج ورسمت عليها مناظر الحج ، فهنا خطوط سوداء كثيفة لولا الدخان المنبعث من أعلاها والدوائر الساذجة التى فى أسفلها لما فطن أحد إلى أن الرسام يريد أن يرسم قطارا ، وهنا خطوط صفراء توحى بأنه يريد أن يرسم جملا وجمالا ، وعلى هذا الجدار نقش محمل بألوان فاقعة تنم عن انحطاط فى الذوق وجهل فاضح بأبسط قواعد الرسم . وعلى ذلك الجدار رسم هودج أو سفينة تحملها سمكة كبيرة . كانت الرسوم بدائية ساذجة ، ولو أن الزمن تأخر براسميها قليلا ، لأمكنهم أن يدافعوا عن جهلهم بأنهم من أنصار مذهب « السورياليزم »٠، ولسارعت مجلات ذلك المذهب إلى إظهار بدائعهم وعبقرياتهم الفذة !

ووقف أولاد الحارة يتطلعون إلى الرسوم فى عجب وإعجاب ، فقد بهرتهم ؛ وكانوا فى قرارة نفوسهم يتمنون أن يروا سفينة أو قطارا ، وما كان يجرؤ أحدهم على أن يتمنى أن يركب القطار يوما ، فأين ذلك القطار ؟ وإلى أين يركبونه ؟ ، إنهم يحسبون أنه لا يستعمل إلا فى السفر إلى الحجاز ، وإن غاية آمالهم أن يمتطوا يوما حمارا ، وأن يضربوا به فى شوارع المدينة بدل أن يسيروا على أقدامهم تلك المسافات الطويلة التى يقطعونها عادة قبل أن يبلغوا غاياتهم .

وما كان أحدهم يرى فى حمل السمكة للسفينة أمرا عجيبا يدعو إلى التساؤل أو الدهشة ، وما وجه العجب فى ذلك وهم الذين يسمعون ليل نهار أن الأرض محمولة على قرن ثور ، فإذا تعب الثور نقلها من قرن إلى قرن وعندها تقع الزلازل التى يحسها أهل الأرض !

وأقبلت عربات تكركر فى الحارة ووقفت على باب دار بجوار الحاج أسعد ، جاءت تحمل متاع حاج يسافر اليوم . وأطل محمد من نافذته وجعل يرقب العربات ، فقد عزم على أن ينطلق إلى المحطة مع الحاج المسافر ليودعه ، فإن الرجل صاحبهم إلى المحطة يوم سافر الحاج أسعد إلى الحجاز . ووضعت الأمتعة على عربة ، وركب المودعون عربتين أخريين ، واندس محمد بين المودعين ، وأخيرا نزل الحاج بين البكاء والعويل ، فقد كان المسافر إلى الحجاز فى تلك الأيام كالمسافر إلى ميدان القتال ؛ الذاهب مفقود ، والعائد مولود .

وانطلقت العربات فى شوارع المدينة الضيقة تخب خبا ، وراح المارة يفسحون لها الطريق ، وعندما يرون الحاج بين أصحابه تنفرج أساريرهم ويغمغمون :

— يا رب أوعدنا .

ولمح رجل جالس أمام دكانه الحاج فى طريقه إلى المحطة ، فترك مقعده وراح يعدو وراء العربات ، حتى إذا لحق بها مد يده إليه مصافحا وأخذ يصيح فى نبرات كلها توسل ورجاء :

— الفاتحة أمانة يا حاج ... الفاتحة أمانة يا حاج .

وبلغت العربات المحطة ، فتركها الحاج ومودعوه ، وساروا يخترقون الجموع الحاشدة ، ورافقهم محمد فى سيرهم ؛ كانوا يتقدمون فى جهد ، فقد غطيت الأرض بزكائب الحجيج وقدورهم وأمتعتهم ، وغصت الساحة الضيقة بآلاف المودعين ، فراح محمد يلتقط أنفاسه فى ضيق ، ويتمنى أن يتحرك القطار بمن فيه سريعا حتى ينفلت من ذلك الزحام البغيض .

وحانت ساعة الرحيل ، فراح كل يودع أهله وأصحابه ، فتلاصقت الصدور وطفرت الدموع ، وتقدم محمد يعانق جارهم ويودعه ، وأطلق القطار

صفير الرحيل فهبط منه المودعون وانطلق بمن فيه حتى اختفى عن الأنظار .

وتحركت جموع المودعين ، وتحرك محمد معهم ، فلما خرج من المحطة راح ينظر إلى مداخل الطرقات المتعددة أمامه فى حيرة ، فإنه لا يدرى فى أيها يسير ، ووقف يتذكر من أيها أتى فأعياه التفكير ، إن مداخل الطرقات متشابهة ، وإنه ليخشى أن ينطلق فى أحدها فلا يكون الطريق الموصل إلى الدار أو الدكان ، إنه يعلم أن بينه وبين الدار مسيرة دقائق قليلة ولكن فى أى طريق يسير .

ووقف ينظر إلى العربات السائرة بجواره لعله يجد من يعرفه ، ولكنه لم يجد أحدا ، فانتابه ضيق ، ولمح على البعد موقف حمير . فسار إليه ووقف بالقرب منه وهو يفكر فيما يفعل ، ثم اقترب من حمار وقال :

— أتعرف دكان الحاج أسعد القريب من الحسينية !

— بالطبع أعرفه .

فامتطى الحمار وقد هدأت نفسه ، والتفت إلى الحمار وقال :

— إلى دكان الحاج أسعد .

واجتمعت الأسرة فى الليل عند الحاج أسعد كما اعتادت أن تجتمع كل ليلة ، وأخذ محمد يقص ما وقع له فى نهاره ، وكيف أنه لم يعرف أن يعود من المحطة وحيدا ، فراحوا يضحكون ، ثم أخذ الحاج أسعد يقص عليهم ذكريات الحجاز ونتفا من شجاعته ، قال :

— كنا ننام أنا والحاجة فى خيمتنا ذات ليلة ، وكانت الحاجة تلبس أساورها ، وشعرت بحركة غريبة بالقرب منا ، ففتحت عينى ونظرت . فرأيت عربيا يزحف على بطنه وفى فمه شفرة حادة ، فانتصبت واقفا ، وفى لمح البصر قبضت على عنقه ، وحملته بين يدى وخرجت به من الخيمة ، وجلدت به الأرض ، ورآنى الأعراب فأخذوا يتهامسون « انظروا هذا الرجل الشجاع ! » .

١١

ومرضت الحاجة فانتاب البيت قلق وراحت زكية تمرضها وقد نزل بها هم ثقيل . إنها كلما تطلعت إلى وجهها تذكرت حلمها يوم مرضت سكينة ، تذكرت نفسها فى ثياب سود يوم زفافها ، وتذكرت نعيب البومة فى صباح ذلك اليوم البغيض . لقد نعبت فوق دارهم فلابد أن يخرج أحد ساكنيها محمولا إلى المقابر . إنها ظنت يوم مرضت أختها أن نعيب البومة نعيها ، فإذا بها تراه اليوم نذيرا بموت الحاجة .

ورنت إلى الحاجة فألفت هزالا وشحوبا وضعفا ، كانت الحاجة تخبو وعما قليل تنطفىء . غامت عينا زكية بالدموع فهى تحبها ، وتذكرت أن فى موت الحاجة تأخيرا لزفافها فطفرت الدموع من عينيها . وخشيت أن يؤلم بكاؤها الحاجة فهرعت إلى حجرة أخرى لتنفرد بأحزانها .

وبقيت الحاجة ممددة فى فراشها ، وانشغل أهل البيت فى أعمالهم ، وأخذت قدم خير تعمل معهم لتعد للحاج طعامه ، وكانت بين لحظة وأخرى تطلق ضحكة خليعة ترن فى البيت جميعه ، وتصك أذنى الحاجة فتهز جسمها المحموم ، وتضيق من أنفاسها ، وتحرك غيرتها . إنها تمقتها أشد المقت ، وتتمنى أن تموت قبلها ولو بساعة واحدة لتموت فى طمأنينة وهدوء .

ووفد الليل ، وعاد الرجال إلى الدار ، وكان كل منهم يذهب إلى الحاجة ليراها قبل أن يدخل شقته ، وجلس محمد بجوار أمه ينظر إليها فى عطف وكانت مسبلة عينيها وقد بان الفناء فى وجهها ، فحركت رأسها فى وهن . وفتحت عينيها ، فرأت محمد إلى جوارها ، فأشرق وجهها الذى شحب وتلون بصفرة

الموت ، ومدت يدها إليه ، فتناولها بين يديه ، وجعل يضغط عليها فى رفق وحنان ، وتحركت شفتاها بالكلام ، فأنصت محمد :

— وصيتى إليك ألا تدع أباك يتزوج بعد موتى .

فأطرق الحاج أسعد ولم يحرك ساكنا ، واستمرت الحاجة فى وصيتها :

— إن أباك كبر يا محمد ، فإذا تزوج جعلكم أضحوكة الناس ، وصار ألعوبة النسوان .

فاربد وجه الحاج أسعد ، وأحس بما يحس به المطعون فى كرامته ، وهم أن يذود عن نفسه وأن يرد عن الحاجة فريتها . ولكنه وجد أن المجال ليس مجال مقارعة وجدال ، فسكت على مضض ، وازدرد الإهانة على كره .

ومرت أيام فزادت حالة الحاجة سوءا ، وأصبح صدرها كمنفاخ كير . ثم ضاق تنفسها حتى كأنها تتنفس من ثقب أبرة . وتعلقت بها العيون ، ثم لفظت نفسا لم تستنشق غيره ، فانهمرت الدموع من العيون غزيرة ، وأخذ النسوة يجهزن فراشها فى وسط الغرفة ، ثم غيرن ملابسها وحملنها ووضعنها فى الفراش النظيف ، ثم أسرعت كل منهما لتبدل ثيابها الملونة بثياب سود ، ولما تم تجهيز كل شيء ، وأصبحت الدار معدة لاستقبال المعزين ، انطلق الصوات من حناجر سليمة ، فطوف بالحى موحشا يقبض القلوب ويذهب بالألباب .

وهرع النسوة من كل صوب وحدب كأنما كن والصوات على ميعاد ، واندفعن إلى الدار التى لم تستقبل من قبل أحدا ، فإن أهلها منطوون على أنفسهم لا يزورون ولا يزارون ، وجاءت أم عباس الندابة تهرول فى خفة ، وتستفسر متفتحة النفس منبسطة الوجه عما جرى . فلما علمت أن الحاجة قضت ترحمت عليها ، وأظهرت حزنها ؛ كانت حزينة نوعا ، فإن الموت لم يقبض أيفع من فى الدار فتدوى دفوفها ليالى المأتم الثلاث ، ويجلجل الصوت

بالندب ، وتطرب أذناها بالعويل ، ثم تقبض بعد ذلك الجنيهات ! .

وذرفت النساء الدموع الغزيرة وبكى الرجال أحر البكاء ، وخيم على الدار الوجوم ، فقد كان هذا أول رزء ينزل بهم ، فما عرف الموت بيتهم قبل الآن ، وإن كان سيعرفه بعد الآن ، وسيزورهم بين آن وآن ، ولو أنهم عرفوا ما يخبئه لهم الزمن فى طياته ، لوفروا دموعهم ليوم تلتمس فيه الدموع فلا تجود بها المآقى .

وانقضت أيام المأتم الثلاثة ، وشاء الحاج أن يذهب إلى شقته لينام ، ولكن محمدا شاء ألا يدع أباه وحيدا بعد موت الحاجة ، فأمر أن ينقل فراشه عنده ، ولم ير أن يتركه وحده فى غرفة بجوار غرفته ، بل رأى زيادة فى إكرامه أن ينام الحاج معه فى حجرة واحدة ، فوضع فراشه فى غرفة نومه ، واندس محمد ونفيسة فى فراشهما ، ونام الحاج فى فراشه الذى وضع قبالتهما .

وخيم الحزن على الدار ، وتنافست النسوة فى إظهار حزنهن ، فجعلت كل منهن تحرص على ألا تطهو من الطعام الألوان التى تثير القيل والقال ، والتى تدل على الفرح وهدوء البال ، فما كانت تجرؤ إحداهن على قلى السمك أو صنع المهلبية أو المشمشية أو أى صنف من أصناف الحلوى التى لا يتناولها الحزانى ، فللحزانى طعامهم وللفرحين طعامهم ، كأنما كان على الفم أن يشارك القلب فى الإحساس بلوعة المصاب ! .

وهبط النسوة ذات يوم إلى صحن الدار لتجهيز الطعام ، واحتجن إلى طواجن كثيرة يوضع فيها اللحم ، فهرعت إحداهن إلى طواجن الحاجة وأحضرتها ، فلما رأت زكية ذلك أحست حسرة ، وهاجت شجونها ، وساءها أن يرث جدتها زوجات أبنائها ، وخطر لها أنه لو كان للحاجة بنت لمنعتهن من استعمال حاجات أمها ؛ ولما كانت هى بنت ابنها ، فعليها أن تفعل ما كانت تفعله بنتها ، فجذبت يد الهاون فى ثورة ، وجعلت تدق بها طواجن الحاجة دقا ،

قرنا إليها النسوة فى ذهول ، ولم تنبس إحداهن بكلمة . ولما أتت زكية على تركة جدتها ، انخرطت فى البكاء ، فأحست براحة فى بكائها .

١٢

فتح باب الغرفة التى تكدس بها جهاز زكية ، ودخلت أمينة تحمل منفضة من الريش الطويل وزكية تحمل مكنسة ، وراحتا تنظفان الأثاث وتزيلان عنه الغبار ، وفتحت زكية صوان الملابس ، وجعلت تنظر إلى الثياب العديدة الجديدة فى لوعة وحسرة ، ولمحت ثوب عرسها ، فتذكرت حلمها وأنها كانت تخطر فى ثياب سود ليلة زفافها ، فغامت عيناها بالدموع ، لقد كانت تحب أن تكون الحاجة حاضرة يوم فرحها ، فاذا بها تمضى وتخلف الأحزان ، وتؤجل زفافها إلى عام ، فلن يتم الزواج قبل أن تنصرم سنة الحداد !

وراحت نفيسة تلم ثياب الحاجة وتصرها ، فما كان لأحد أن يرتدى تلك الثياب غيرها ، وفكرت فى إعدامها فما ينبغى للثياب أن تبقى بعدها ، لقد كانت تتمنى أن تبلى الحاجة الثياب ، فإذا بالحاجة تبلى ، وإذا بالثياب باقية لا تبلى ، وهمت بتمزيقها ولكن نفسها الخيرة أبت عليها ذلك ، وأوحت لها أن تفعل ما كانت تفعله الحاجة لو أنها خيرت ، كانت الحاجة تحب أبناء أختها ، وما كانت تبخل عليهم بشىء ، فلو أنها سئلتِ قبل موتها عمن تحب أن يرث ثيابها لما أشارت بغيرهم ، فعزمت نفيسة على أن تبعث بالثياب إليهم ، ولكنها لا تستطيع أن تتصرف فى الثياب قبل انقضاء عام ، فانتظرت تصرم سنة الحداد !

ودخلت أمينة حجرة نومها ، فألفت ابنها نائما على السرير وقد لف رأسه بذراعه ، ووضع رجلا فوق أخرى ، فابتسمت وخرجت من الغرفة تدعو

زوجها ، فلما دخل حسن ، ورأى الصغير فى نومته ضحك ، فما كان حسن ينام إلا كذلك ، فرنت أمينة إلى زوجها وقالت :

ــ هذا ما ورثه منك .

فابتسم ، وأشار إلى شعر الطفل الأسود ، وسمرة وجهه وقال :

ــ وهذا ما ورثه منك .

وصمتا هنيهة ثم قالت فى حسرة :

ــ سيؤخر موت الحاجة ختانه عاما .

فقال حسن مطيبا خاطرها :

ــ لا بأس فما أسرع ما تنقضى الأيام .

ــ كنت أحب أن أفرح به هذه الأيام .

ــ وما الذى يمنعنا أن نفرح به ؟ أهو الختان !

فضحكا وقالت أمينة :

ــ كنت أحب أن أراه فى حلته المحلاة بالقصب ، وقد تزين كتفاه بالتيجان .

ــ ألبسيه حلته ، وانظرى إليه حتى تشبعى من النظر .

ــ إنى أود أن يراه الناس جميعا فى العربة المكشوفة فى ثيابه الجميلة .

ــ لا تتعجلى فما أسرع مرور الأيام . سينقضى العام ويتم الختان ، ثم تمر الأيام وتنقضى الأعوام ويشب ممدوح ويتزوج ، وتفرحين بزواجه ؛ ثم تمر الأيام وإذا بأبناء ممدوح فى أحضانك ، وإذا ...

فضحكت أمينة وقالت :

ــ كفى بالله لقد شيبتنى قبل الأوان .

فابتسم حسن وقال :

— فاصبرى إذن ولا تتعجلى حتى تشيبك الأيام .

— لن أشيب أبدا ما دمت بجانبى .

فالتفت حسن إلى ممدوح وقال :

— سيشيبنا هذا وإخوته .

فمدت أمينة بصرها ساهمة ، كأنما تحاول أن تقرأ ما سطره الغيب لها ، ثم غمغمت :

— إنى أتمنى أن أنجب بنات .

— لم ؟

— إنى وحيدة لا أخت لى ، فإذا أنجبت بنتا كانت لى أختا ، وإذا ما مت وقفت يوم موتى تجهز خرجتى وتتلقى العزاء فى .

فابتسم حسن وقال :

— وما قيمة هذا إذا ما مات الإنسان !

فقالت أمينة فى حرارة كأنما تدافع عن رأى خطير :

— ما قيمة هذا ! إن معرفة المرأة أنها خلفت بنتا تحضر وفاتها تجعلها تموت مطمئنة ، والله إنى بكيت يوم ماتت الحاجة على أنها لم تخلف بنتا أكثر ما بكيت على موتها . مسكينة الحاجة ماتت غير مطمئنة .

واغرورقت عينا أمينة بالدموع ، فلما لمح حسن دموعها لم يشأ أن يستمر فى حوارها حتى لا يعكر صفو الليلة التى ابتدأت مرحة لطيفة ، فقال فى لهجة دعابة :

— بالله لا تبكى ، وأنجبى ما يحلو لك من البنات .

* * *

واندس الحاج أسعد فى فراشه وحاول أن ينام ولكن النوم جافاه ، وجعله

يتقلب فى الفراش ، وأحس ضيقا فقام من نومه وجلس ، وراح يمرر يده على لحيته الغزيرة الكثة ، ثم نظر إلى جانبه فرأى الفراش الذى نام فيه محمد وزوجته هادئا وقد أسدلت عليهما الكلة ، وبلغ أذنيه صوت تنفسهما فاضطرب وانقبض صدره ، أكتب عليه أن يمضى بقية أيامه فى غرفة ابنه وزوجته كأنما قد عاد طفلا صغيرا ! إنه قد ترك ذلك الطور من ثمانين سنة يوم كان ينام مع أمه وأبيه فى غرفة واحدة ، إنه يحس هوانا ، وإنه ليود أن ينام فى غرفة مستقلة ، ولا بأس من أن تكون بجواره امرأة تؤنس وحدته . إنه سيتزوج ما فى ذلك عار ، فقد تزوج الأنبياء والخلفاء أكثر من واحدة ، ولكنه سيتزوج مضطرا ، فقد ماتت زوجته وهو فى حاجة إلى من تخدمه ، فكيف يعيش رجل مثله عزبا ؟ أيود ابنه أن يدفعه إلى المعصية !

وعزم على أن يتزوج ، وعزم على أن يفاتح ابنه فى رغبته ، ولكنه تذكر أنه لم ينقض على موت الحاجة سنة ، وأن ابنه قد يتعلل بذلك ، فقرر أن ينتظر الأشهر الباقية على مضض ، ثم يفاتح ابنه فى أمر زواجه .

ولكن ما أصبح الصباح ، وخرج محمد والحاج أسعد من الدار ليذهبا إلى الدكان حتى ألفى الحاج أسعد رغبة الإفضاء بحاجته إلى الزواج تراوده ، فحاول كبتها ولكنه لم يستطع ، فقال لابنه دون أن يلتفت إليه :

— أصبحت فى حاجة إلى من تخدمنى يا محمد .

فقال محمد متغابيا :

— إن كل من فى البيت يتمنون خدمتك يا أبى .

فصمت الحاج قليلا ، وراح يجمع أطراف شجاعته فقد عزم على ألا ينهزم سريعا ، قال :

— إنى أعلم أن كل من فى البيت يتمنون خدمتى ، ولكن هناك حاجات لا

يستطيعون قضاءها لى .

— إنهم يقضون لك كل حاجاتك .

— مضت سبعة شهور منذ ماتت الحاجة ، ولم أجد من يدلك لى ظهرى ، إنى أحس كأنما الأوساخ تقرصنى .

وأخذ يحرك كتفيه كأنما يحاول أن يفر من قرص الأوساخ ، فقال محمد فى نبرات حادة ليدخل الروع فى نفس أبيه :

— وما تريد الآن ؟

فقال الحاج فى صوت ضعيف :

— أتزوج .

فقال محمد فى إنكار :

— تتزوج ! هذا محال .

— أتزوج أمرأة تخدمنى .

— محال .

وعاد إلى الحاج هدوءه فقد اجتاز أدق مرحلة فى الأمر : مرحلة الإفضاء برغبته ، فراح يتكلم دون أن يضطرب بينا أخذ محمد يرتجف ، قال الحاج :

— إن الله لا يستحى من الحق يا محمد ، إنى لا أستطيع أن أعيش بغير امرأة .

فأخذ محمد ، وخشى أن ينهزم ، فرأى أن يهاجم الحاج ، فقال له فى سخرية :

— كيف تتزوج وقد بلغت الخامسة والثمانين !

فقال الحاج فى يقين :

— وما فى ذلك ؟ وقد عاش أبى إلى التاسعة بعد المائة وأنجب وهو فى السابعة والتسعين .

وأفحم محمد فلم يدر ما يقول ، ولكنه رأى أن يستدر عطفه وشفقته فقال فى صوت متهدج حزين :

— تتزوج ولم يجف دم أمى فى قبرها بعد ؟

فأطرق الحاج ، وصمت قليلا ثم غمغم :

— يا ليتها ما ماتت يا محمد ، والله ما خسرها أحد غيرى .

وبلغا الدكان فاندمجا فى عملهما وشغلا عن حديث الصباح ، حتى إذا أمسى المساء عادا إلى الدار ، وعادت إلى الحاج فكرة الزواج . فما أن جلس فى غرفته وأقبل زوجات حفدته وزوجات أبنائه يجلسن معه ، حتى قال لهن وهو يتلفت خشية أن يقبل محمد فيقطع عليه حديثه الذى أصبح يهواه :

— سأتزوج .

فتعلقت العيون الذاهلة بوجهه ، فأدار عينيه فى الوجوه المدهوشة ، فأحس تلك النشوة التى يحسها شاب مقبل على مغامرة لذيذة ، واستمر فى حديثه :

— سأتزوج من صبية ، أصغر منك يا أمينة ، وأحلى منكن جميعا .

فضحكت سكينة ، وابتسم الأخريات ، أما زكية فلم تضحك ولم تبتسم فقد حز قول جدها فى نفسها . وغاظ الحاج ضحك سكينة وابتسام الأخريات فقال فى انفعال :

— والله لن أتزوجها إلا تركية .

وجاء محمد فسكت الحاج على مضض ، وسكتت النسوة ولكن سكينة لم تسكت ، بل قالت لأبيها وهى تضحك وتغرق فى الضحك :

— سيتزوج جدى من صبية تركية .

فاربد وجه محمد ، فما كان يحسب أن أباه سيتحدث فى هذا الأمر جهارا ، واكفهر وجه زكية فما كانت تحب أن يسمع أبوها ذلك الحديث الذى يؤلمه ،

وأطرق النسوة متظاهرات بعدم الاهتمام وإن كن فى قرارة نفوسهن يتمنين أن يستمر الحديث ليعرفن نهاية هذا الأمر . ولم تحس سكينة أثر قولها ، فراحت تقول وهى تضحك :

— وسيتزوجها أصغر من أمينة .

فقال محمد :

— من قال لك ذلك ؟

— جدى .

فشاء محمد أن ينهى الحديث فى هذا الموضوع فقال لها :

— إنه يريد إضحاككن .

فلم يعجب ذلك الحاج أسعد فقال فى إصرار :

— بل أقول حقا . سأتزوج ، وسأتزوج من صبية تركية .

— لن تتزوج ما دمت أنا حيا ، أتود أن تجعلنا أضحوكة ، إنك رجل كبرت فاحفظ وقارك .

— أحفظ وقارى ! إن الزواج هو الذى يحفظ وقارى .

— ما يقول الناس عنا ؟

— يقولون حرموا أباهم نصف دينه .

— بل يقولون تركوا أباهم ألعوبة فى يد امرأة ، ستكون أضحوكة الحى .

— إنكم لا تخشون أن أكون أضحوكة ، إنكم تخافون أن اتيكم بوريث جديد .

— بالله كفى .

— لن أسكن حتى أتزوج .

— خفض من صوتك لئلا يسمع الجيران فضيحتنا .

— أفى زواجى فضيحة ، والله لأصرخن بأعلى صوتى ، سأتزوج .. سأتزوج .

فأحس محمد نارا تشوى وجهه ، وكأنما يد قوية تكتم أنفاسه ، فغمغم فى جهد :

— إنك ستذهب بعقلى ، ستدخلنى البيمارستان .

فقال الحاج أسعد فى عناد :

— أريد أن أتزوج ، فما فى ذلك ؟!

فنفد صبر محمد وملأه الغضب ، ولم يجد منفسا لغضبه إلا قميصه ، فقبض على جيبه بكلتا يديه وشقه ، فبان لحمه الأبيض ، فأسرع النسوة إليه يسترنه ، ونهض الحاج أسعد وخرج من الغرفة فى خطوات وئيدة كأنما لم يفعل شيئا .

١٣

داعب آذان النوم صوت المنادى قبل الفجر : « الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، الصلاة خير من النوم » ، فهب أهل البيت من رقادهم ، وقام النسوة يجهزن أبناءهم المرضى لزيارة ضرائح الأولياء فى الفجر يلتمسون البرء من أسقامهم ، وفتح باب الدار فى عماية الصبح وخرج ثلاث خادمات يحملن ثلاثة أطفال ، وما بلغن الشارع الرئيسى حتى افترقن ، فما كن ذاهبات إلى ضريح واحد ، فإن الأطفال لا يشكون من مرض واحد ، فلكل طفل مرضه ، وإن المشايخ لا يشفون أى مرض كان فلكل شيخ مرض يشفيه ، لقد عرفوا التخصص قبل أن يعرفه الطب الحديث !

فسيدى البيدق يشفى من الصداع ، ويزوره المرضى بعد صلاة العصر ،

فسره الباتع يتجلى بين العصر والمغرب ، وأولاد عنان يشفون المرضى المهازيل ، وسيدى الشعراوى يشفى مرضى النفس والجسد ، ولابد من زيارة ضريحه مرتين فى اليوم فى الفجر وعند الغروب ، إنه كبعض الأطباء الذين يحتمون على مرضاهم عيادتهم فى اليوم مرتين وإن لم يكن هناك ضرورة ! أما السيدة نفيسة فيزورها مرضى العيون ، ولما كانت كريمة لا ترد سائلا ، فلم يحدد لزيارتها وقت ما ، بل يقدم ماء بئر الضريح طول النهار لتغسل به العيون الذابلة المريضة .

ولم تبعث أمينة بابنها المريض مع الخارجين ، فإنها تعلم سبب مرضه وهزاله ، إنها قد حملت فغار ممدوح ومرض ، وإنها تعلم أن المتخصص فى أمراض الغيرة هو سيدى الجلشانى ، ولكن سيدى الجلشانى كأولئك الأطباء الذين يحترمون المواعيد ، فلابد أن يزور المرضى ضريحه وقت أذان العصر بالضبط ، فإن بركاته تفيض فى أثناء الأذان فتذهب بالغيرة النازلة بصدور مرضاه الواقفين ببابه .

وأشرقت الشمس ، ودبت الحياة فى الكون ، وذهب عباس إلى بيت الحاج أسعد وطلب مقابلته ، وكان عباس طفلا ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد أخلى الطريق الموصل إلى غرفة الحاج أسعد من النسوة والبنات قبل أن يؤذن له بالدخول .

ودخل عباس على الحاج أسعد وقال له :

— أمى تود مقابلتك .

— لم ؟

— تريد أن تشترى منك القاعة .

فلم يأذن لها الحاج أسعد بمقابلته فى داره ، فإنه يحب ألا يدخل أحد بيته ، وقال لعباس :

— سأمر عليها عند خروجى إلى الدكان .

لقد ادخرت أم عباس الندابة ثمن القاعة ، وعما قليل تصبح من الملاك .

وجلست أم عباس على باب قاعتها ترقب خروج الحاج أسعد ، وقد أعدت كانونا بجوارها لتجهز عليه القهوة إذا أقبل الحاج وابنه . ولمحت الحاج مقبلا وحده فقامت تستقبله ، وتهلل وجهها القبيح فبدت أسنانها الصفراء الكريهة ، وشاءت أن تدخله القاعة ولكنه اعتذر وفضل الجلوس على بابها ، فما كان يود أن تقتله رطوبة القاعة أو تخنقه رائحتها .

كانت أول مرة ترى فيها الحاج وحده ، إنها منذ نزلت القاعة لم تره إلا فى رفقة محمد ، وعلى الرغم من أن للحاج ابنين آخرين ، فما كان يرافقهما أبدا ، وشاءت أم عباس أن تبدأ الحديث ، فسألت :

— وأين اسم النبى حارسه سى محمد ؟

— غضبان .

— غضبان ؟! ممن ؟

— منى .

— وهل يغضب منك أحد ؟

فصمت الحاج قليلا ، ورأى الفرصة سانحة ليخوض فى الحديث الذى صار يشتهى أن يردده ، فقال :

— أبديت رغبتى فى الزواج فغضب .

وشاءت أن تكسب الحاج فقالت :

— لا ، إنه محقوق ، ليس له أن يغضب ، إن عليه أن يرى راحتك .

— إنه يرى أننى أصبحت لا أصلح للزواج .

فقالت فى تملق :

— أبدا والله ، إن من يرك يحسبك أصبى منه .

فتملك الحاج أسعد زهو ، فقال فى ثقة :

— سأتزوج وأثبت لهم أنى ما زلت فتيا .

— تزوج . ومن له أن يمنعك من الزواج ؟

ودار الحديث بين الحاج وأم عباس الندابة هنيهة ما انقضت حتى أصبحت القاعة ملك أم عباس ، وحتى تجدد عزم الحاج على استئناف القتال فى سبيل الزواج ، إنهم يريدون أن يحرموه نصف دينه فحق عليه الجهاد !

ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، ثم مالت إلى الغرب قليلا فما يبقى على أذان العصر إلا ساعة ، فألبست أمينة ابنها ثيابا نظيفة ، ثم دفعت به إلى خادم لتذهب به إلى سيدى الجلشانى قبل أن يؤذن المؤذن ، ولتسقيه من الماء الذى يوزعه مغاربة أوقفوا حياتهم على خدمة الجلشانى ، إن ذلك الماء يغسل الغيرة من الصدور ، ويجعلها راضية مطمئنة .

وخرجت الفتاة تحمل ممدوحا ، وكانت فتاة تحب الخروج ، فأخذت تتلفت هنا وهناك وتنظر إلى هذا وذاك ، وسارت فى شوارع المدينة المتعرجة حتى بلغت بوابة المتولى ، فرأت خرقا كثيرة معلقة بها : هى قطع من عصابات النساء اللائى كن يشكين الصداع ، فالشفاء من الصداع مؤكد ما دامت الخرقة معلقة يرفرف بها الهواء ، فما حاجتهن بعد ذلك إلى أسبرين أو أسبرو أو أسبيرون .

وأوحت الفتاة إلى نفسها أنها مصابة بوجع الرأس ، فأحست كأنما تحس ألما ، فأزاحت ملاءتها عن رأسها ، وفكت عصابتها فتهدل شعرها ، وكان شاب يراقبها فرأى الطفل يعوق حركتها ، فاقترب منها وحمل الطفل عنها ، فابتسمت ولم يبد عليها استياء ، ومزقت طرف منديلها وأخذت تثبته فى بوابة المتولى ، وهى ترنو إلى الشاب وتضحك .

وارتفعت أصوات المؤذنين من المآذن العديدة القريبة ، فهرع الناس إلى

المساجد يصلون العصر ، وبلغ الأذان سمع الفتاة ، ولكنها لم تتحرك ولم تهرع إلى سيدى الجلشانى الذى كان على قيد خطوات منها لتسقى الطفل « ماء إزالة الغيرة » فإنها كانت نشوانة، وما كانت تحب أن تحرم تلك النشوة .

واقتربت الشمس من المغيب ، فعادت الفتاة منشرحة تحمل كعكة مرصعة بالسمسم وورقة بها ترمس ، وهذا أصدق دليل على أنها أمضت وقتها عند سيدى الجلشانى رضى الله عنه وأرضاه !

وأغلق الحاج أسعد دكانه . وسار ومحمد صامتين ، ثم قال الحاج أسعد فى انكسار طمعا فى أن يكسب قلب ابنه :

— لم تعمل على تنغيصى يا محمد ؟

— أنا أعمل على تنغيصك ! إنى لا أعمل إلا على راحتك .

— لو كنت تعمل على راحتى ما عارضت فى زواجى .

— لو أننى أعلم أنك ستستريح فى الزواج لزوجتك بنفسى .

— وما أدراك أنى لن أستريح فى الزواج ؟

— لكل شيء أوان ، وقد مضى أوانك .

فأحس الحاج أسعد ضيقا وقال فى ثورة :

— والله إنى أصبى منك ، وسأتزوج .

فقال محمد فى قسوة :

— تزوج ... تزوج امرأة تأتينا بغلام تلحقه بنا ونحن لا ندرى من أبوه .

فوجم الحاج ، وأحس كأنما انهار جدار على رأسه ، فما كان يحسب أن ابنه يصفعه تلك الصفعة القاسية ، لقد عاش شريفا نظيفا ، فما كان له أن يلوث شال عمامته بعد هذه السن .

وبلغا الدار والحاج صامت ، وإن كانت فى نفسه ثورة وفى فكره أشباح

وخيالات .

واجتمع أهل الدار فى الليل كما اعتادوا أن يجتمعوا كل ليلة ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وارتفعت أصواتهم والحاج فى صمته وسكونه . كان فى عالم آخر ، يفكر فيما قاله له ابنه فيغتم وينقبض صدره ، ويحس كأنما نار تلسع قلبه ، وكأنما يد قوية تكتم أنفاسه ، وضاق بألم نفسه فلم يستطع أن يكتمه ، فرفع بصره إلى السماء وقال من قلب مكروب :

ـــ الله ينكد عليك يا بنى يا محمد .

١٤

الحى فى حركة غير مألوفة ، والفلاحون يفدون زرافات ، والفلاحات فى ثيابهن الداكنة فرحات مستبشرات ، فاليوم مولد سيدى البيومى ، والتج الضريح بالوافدين ، وغصت الطرقات الضيقة المؤدية إلى الضريح بالرجال والنساء والمجاذيب ، وعربات الترمس والقلل القناوى ، وعربات اليد جهزت لتكون مقهى متنقلا ، وعربات صفت فوقها أساور الزجاج بألوانها الزاهية البراقة ، تجذب أبصار الفلاحات الساذجات فتهون عليهن من النقود ، ويدفعن ما يطلب منهن راضيات مغتبطات .

وأقبل أصحاب النذور يوزعون على الشحاذين والفقراء أرغفة الفول النابت ، ويضعون أمامهم أناجر الفتيت ، ويفرقون عليهم النقود ؛ وكان الحملية يخترقون الجموع يحملون قدورا شدت إلى صدورهم ، وبأيديهم كئوس يملئونها بالماء ليطفئوا غلة الظامئين ، وينقلوا جراثيم الأمراض فى يسر ، وهم يهتفون : « عطشان سبيل » .

ووفد أتباع البيومى فى موكب عظيم ، فجلجلت أصوات الدفوف ، وجاوزت الحى فهرع الصبيان من أزقة الحسينية وحاراتها يشاهدون الحدث العظيم ، وأخذ من فى الموكب يرددون فى أصوات عالية منغمة : « مدد مدد يا بيومى ... مدد مدد يا بيومى » . وبلغ الضجيج آذان النسوة فى دار الحاج أسعد ، فأسرعن إلى السطح لعلهن يلمحن شيئا من بعيد ، وداعبت أصوات الدفوف أذنى سكينة ، فأحست كأنما سحرت ، وكأنما تلك الدفوف تدعوها ، فانسلت من بين أهلها . ونزلت فى الدرج مسرعة ، وراحت تعدو فى الحارة حتى بلغت الجموع ، فوقفت تنظر فى غبطة وسرور غلمانا أقوياء قذرين يحملون رايات سوداء . ورجالا حفاة يتعممون بعمائم حمر ويتمايلون بأجسامهم ينشدون : « مدد مدد يا بيومى » ، إنها تحس دقات الدفوف تدغدغ قلبها ، وأصوات الهاتفين تشيع فى روحها خدرا لذيذا .

وانتهى مرور الموكب ، فلم تعد سكينة إلى الدار ، بل ألفت قدمها تدفعها للسير مع الجموع ، فانطلقت حتى بلغت الضريح ، ووجدت نفسها تجرف فى تيار الناس المتدفق ، فلم تعد تدرى إل أين تسير ، وحاولت أن تفر من ذلك الزحام البغيض لتعود إلى الدار فلم تقدر ، وأحست أنفاسها تضيق ، وخنقتها عبراتها ، ولكنها لم تقدر حتى على البكاء ، وتصبب العرق منها ، وراح يسيل على وجهها ويدخل عينيها فيؤلمها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفع يدها لتجففه أو تبعده عن عينيها ، وراحت تقاوم وتجاهد حتى خرجت من الزحام ، مبهورة النفس تكاد تسقط من الإعياء .

ووقفت على ناصية الطريق تلتقط أنفاسها ، وتسترد روعها ، ورفعت عينيها فتملكها رعب شديد ، فقد رأت أخاها أحمد مقبلا فى أصحابه ، وقد رآها أحمد ولاشك ، فقد التقت عيناه بعينيها ، وقد اكفهر وجهه وبان

الغضب فيه . ارتجفت سكينة وأحست فرقا ، فراحت تعدو إلى الدار فى فزع ؛ حتى إذا ما بلغت المسمط المهجور زاد فزعها ورعبها ، فقد خيل إليها أن عفريت صباح يجد فى أثرها ، وشاءت أن تصرخ ولكن حبس صوتها . وبلغت الدار وأغلقت الباب خلفها ، ولكن لم يسكن روعها ، فراحت تسرع فى الدرج حتى دخلت على أمها مذعورة فلما رأتها نفيسة مقطوعة النفس مرعوبة مضطربة ، قامت إليها وقالت :

— ما بك يا سكينة ؟

فقالت فى صوت متقطع كان يخرج مع أنفاسها المضطربة :

— رآنى أحمد فى المولد .

فقالت نفيسة فى انكار :

— فى المولد ! يا نهارنا الأبيض !

وأحست نفيسة حزنا ما لبث أن امتزج برهبة ، حزنا على أن سكينة خرجت إلى المولد منسلة ، ورهبة مما سيحدث عما قريب ، إنها تعلم أن أحمد قاس لن يغفر تلك الزلة ، وكيف يغفر خروج أخته التى بلغت الثامنة لتندس بين الرجال فى ذلك الزحام الفظيع !. وقالت نفيسة فى عتاب مرير :

— ولم خرجت يا سكينة ؟ وما نفعل الآن ؟

فأطرقت سكينة فى خوف وألم ولم تحرك شفتيها ، فتحركت شفقة نفيسة فقالت لابنتها :

— ادخلى إلى فراشك ونامى ، ولا تنهضى فى الصباح حتى يخرج أحمد .

فانطلقت سكينة ذليلة ، واندست فى فراشها ، ولكن لم تغمض لها عين ، فهى تخشى أن يقبل أحمد ويضربها على ما اقترفت من ذنب ، ولم تهدأ نفس نفيسة ، واستمرت قلقة على ابنتها تخشى المجهول ، إنها تخشى أن يأتى أحمد

بشره فيضربها فى قسوة فيترك بها عاهة أو يقتلها ! إنها ما كانت تظن أن هناك ضربا لا يؤذى الجسد أو يفضى إلى الموت ، وإنها لتبغض الضرب أشد البغض لا تطيق أن ترى أحدا يضرب ، فما بالك لو كان المهدد بالضرب هى ابنتها ؟

واجتمع أهل الدار فى الليل يتسامرون ، وبقيت نفيسة فى قلق شاردة اللب مبلبلة الخاطر على وجهها وجوم . ودخل أحمد وقد احمر وجهه يتطاير الغضب من عينيه . فلما رأته أمه غاص قلبها واضطرب ، وتعلقت عيناها به ، وراحت ترقبه فى وجل . وصاح أحمد فى غضب :

— أين سكينة ؟

فقالت نفيسة فى صوت متهدج مرتعش :

— نامت .

فقال أحمد فى ثورة :

— والله لأوقظنها ولأضربنها حتى تقطع النفس .

فقالت نفيسة فى توسل :

— أحمد لا ترهب البنت .

وقال الحاج أسعد :

— ماذا جرى ؟

فقال أحمد فى صوت ثائر عال :

— رأيتها اليوم فى المولد مندسة بين الرجال .

فسكت الجميع .. كان ذلك ذنبا حقا .. فتاة فى الثامنة من عمرها بين الرجال !

وتحرك أحمد ليقتحم غرفة سكينة ، ولكن أمه اعترضت سبيله ، وقالت فى توسل :

ـــ دعها يا أحمد وكفاها ما هى فيه من رعب .

وحاول أحمد أن ينحى أمه عن طريقه فسالت عبراتها ، فلما رأى حسن دموع أمه تحركت شجونه ، فقال لأخيه الأكبر :

ـــ دعها يا أحمد الليلة ، وفى الصباح نفهمها أنها أخطأت .

فقال أحمد فى انفعال :

ـــ إنها ليست صغيرة .

فقال حسن ليهدئ من حدة أخيه :

ـــ إنها لن تعود لذلك مرة أخرى .

فقال أحمد فى ضيق :

ـــ إنكم تتلفونها بلينكم ، والله لأتركن لكم البيت .

ثم خرج ثائرا كالعاصفة ، ونهض من فى الغرفة ينسلون واحدا فى إثر واحد .

١٥

صلى الحاج أسعد العشاء ، وقام إلى الغرفة التى اجتمع فيها أهل البيت ، وهم أن يأخذ مكانه بينهم ، وإذا الباب يطرق ، فهرعت قدم خير لترى الطارق ، ثم عادت تقول :

ـــ فريد أفندى تحت فى المنظرة .

فنهض الرجال الموجودون لاستقباله ، فقد كان نسيبا لهم ، ونزلوا إلى المنظرة يؤانسونه ، وراح فريد أفندى يتحدث عن نفسه ، ويقص نتفا مما صادفه من مفارقات ، فيبتسمون طورا ، ويضحكون طورا ، وأرضى فريد

أفندى إقبالهم عليه ، فاستمر فى قصصه حتى مضى من الليل ثلثه أو أكثر قليلا ، فاستأذن وانصرف ، وقام الرجال إلى شققهم متأخرين ، فما اعتادوا أن يسهروا كذلك ، ولكن لا بأس فإنها ليلة ولن تعود .

ولكن ما صلى الناس صلاة العشاء فى اليوم التالى حتى سمع طرق على الباب ، لقد جاء فريد أفندى ليمضى سهرته عندهم ، فلم يهبط لاستقباله إلا رجلان ، وراح فريد أفندى يتحدث والرجلان يتبسمان غصبا ، وبان عليهما الضيق والضجر واستمر فريد أفندى فى حديثه ، فتثاءب أحدهما كأنما يومىء إليه بالاستئذان والانصراف ، ولكن فريد أفندى لم يفطن لشىء من ذلك بل استمر فى ثرثرته التافهة ، والرجلان يتململان فى حنق ، ولولا بقية من حياء ، لطلبا منه أن يتفضل بالانصراف .

واستمرت زيارة فريد أفندى لهم كل ليلة ، واستمر إعراضهم عنه وإظهار سأمهم منه ؛ ولكن فريد أفندى لم يلتفت إلى إعراضهم ، ولم يهتم بسأمهم . فحسبه أن يتكلم وأن يجد من يستمع إلى كلامه .

وفى يوم جاء أحمد إلى الدار وفى يده صندوق عجيب ، وهرع إلى شقته متهلل الأسارير ، ثم عاد إلى حيث اجتمع أهله ، ووضع الصندوق بينهم وفتح غطاءه ، فنظروا إليه جميعا مستغربين وسألوه :

ـــ ما هذا ؟

فقال لهم وهو يضحك :

ـــ انتظروا وسترون العجب العجاب .

ووضع إبرة على أسطوانة كهيئة الكوب تدور ، فانبعث صوت يتكلم . فارتجف الحاج أسعد وحوقل وبسمل ، ولاح الذهول فى وجه الجميع ، واقتربوا من الصندوق ينظرون ، فرفع أحمد الإبرة خشية أن يتلف الجهاز ،

وصاح فيهم :

ـــ عودوا إلى أماكنكم حتى تستطيعوا أن تسمعوا .

وحدث فى الغرفة هرج ومرج ، وضجيج وعجيج ، وراحوا جميعا يتساءلون :

ـــ ما هذا يا أحمد ؟ ما هذا يا أحمد ؟

فيقول لهم فى صوت عال :

ـــ فونو غراف .. فوتو غراف .

ولم يكن فى قوله ما يشفى غليلهم ، فما يدرون ما يقصد « بفوتو غراف » ، وعلام تدل هذه اللفظة ، وما وراءها ، فعادوا إلى أماكنهم وجلسوا صامتين يتطلعون فى تشوف إلى الصندوق العجيب .

ووضع أحمد الإبرة على الكوب الدائر ، فانبعث صوته يقلد قدم خير حينا والحاج أسعد حينا ، ويقلد نفيسة والنسوة الأخريات حينا آخر . راح الصوت يجلجل فى الغرفة : « من الذى طرق الباب . فريد أفندى . وما يريد سى فريد ، جاء أثقل خلق الله ، قم يا محمد لاستقباله ، لا إنى تعب اليوم فليقابله أحد غيرى ، قم يا إبراهيم . والله ما أقوم ، إنه رجل ثرثار ينام النهار ليقلق راحتنا فى الليل ، إننا أناس وراءنا أشغال . عيب يا أولاد فلينزل أحد ليجلس معه ... دعوه وحده ليلة فلا يعود أبدا ، ما أفظع الضيف الثقيل ... قم يا أحمد وقابل الرجل ... » .

وارتفعت ضحكات السامعين ، وهاجوا وماجوا فلم يسمعوا الطرق على الباب الخارجى ، ودخلت قدم خير وقالت وهى تضحك :

ـــ فريد أفندى فى المنظرة تحت .

فأسرع أحمد إلى الأسطوانة فى اضطراب ، وراح يمسحها على عجل

ليزيل ما سجله حتى لا يبلغ فريد أفندى فيغضب . وكان الغضب قد ملأ صدر الحاج أسعد ، فصاح فيه :

ـــ قم من هنا بآلتك التى صنعها الشيطان .

ـــ لن أبرح هذا المكان .

ـــ والله إن لم تقم لأحطمنها تحطيما .

فقام أحمد غاضبا وقال :

ـــ والله لأتركن لكم البيت .

وحمل الصندوق وترك الدار ، وارتسم الأسى فى وجه الحاج أسعد ، ونزل به هم ثقيل ، فراح يغمغم :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ، اقتربت الساعة وتكلم الحديد .

ونهض متثاقلا منكسر القلب ، منقبض الصدر ، واستقبل القبلة ، وراح يصلى فى خشوع ، ثم رفع كفيه والدموع تسح من عينيه فتبلل لحيته الكثة ، وقال :

ـــ اقتربت الساعة وتكلم الحديد . ولا تقوم الساعة إلا على الكفر والضلال ، اللهم ثبت إيمانى ، وأمتنى على ملة الإسلام .

ودخلت زكية لتنام وهى تفكر فى « الفونوغراف » ، فتذكرت يوم دخلت على جدها فرأته يبكى ، فلما سألته قال لها : « سيأتى أوان تخرج فيه النساء عرايا سافرات الوجوه كاشفات الصدور ، ويتكلم فيه الحديد » فها هو الحديد قد تكلم ، ولم يبق إلا أن تخرج النساء سافرات . وما فكرت فى هذا حتى أحست خجلا ، فسحبت اللحاف على وجهها ، واستسلمت للنوم .

١٦

انقضى عام على موت الحاجة ، فرأى الحاج أسعد أن من حقه أن يتزوج ، فقد صبر طويلا ، وذاق مرارة الحرمان ، فلم لا يدعونه يحيا الحياة التى يريدها ؟ .

إن محمدا يعارض فى زواجه لأنه يود أن ينفذ وصيته للحاجة ، وما كان للحاجة أن تحجر عليه بعد موتها ، وما دفعها إلى التماس هذا الطلب الأنانى إلا غيرتها ، فإنها لا تود أن تتمتع غيرها برجلها ، ولو شاءت الحاجة أن تنصفه لقالت لابنها بعد موتها : « وصيتى إليك يا بنى أن تزوج أباك بعد موتى ، فإن أباك لا يطيق أن يعيش بلا زواج » ، ولكن أين المرأة المنصفة التى تتنازل عن بعض حقوقها ولو بعد الممات !.

إن الحاجة ظلمته ، وإن محمدا ينفذ الحكم الجائر فى قسوة وصرامة ، ولكنه لن يخضع لظلمهم وتعنتهم بعد اليوم .. سيخطب بنفسه وسيتزوج دون أن يعلمهم ، فيضعهم أمام الأمر الواقع . ولكن أيفعل ما يفعل الشباب الطائش ؟ أيكون قدوة البيت ويحطم تقاليد البيت ؟ أحر به أن يفاتح ابنه ويناقشه ويجادله ، ويرغمه على النزول عن رغبته .

قال الحاج لابنه :

ـــ انقضى عام على موت الحاجة .

فقال محمد معقبا :

ـــ ما أسرع مرور الأيام .

ما أسرع مرور الأيام ، أجل ما أسرع مرورها . إنه لا يحس الليل الطويل

فهو ينام وزوجه ملء جفنيه بينا يمضى هو أغلب الليل مسهدا وحيدا . إنه ما عرف الأرق وما أحس السأم والملل إلا بعد الحاجة ، فلو أنه تزوج لمرت الأيام سهلة هينة ولقال ما يقوله ابنه الآن : ما أسرع مرور الأيام . ولم الحاج أطراف شجاعته وقال :

— إنى لا أدرى متى أموت ، فقد تطول بى الأيام . فلماذا أعيش ما بقى من أيامى وحيدا ؟

فقال محمد فى عجب :

— من قال لك إنك وحيد ؟ إنك تعيش معى وتنام فى حجرتى .

فقال الحاج فى انفعال :

— وما أفعل بك ؟

فابتسم محمد وقال :

— وما تريد ؟

— أتزوج .

وشاء محمد أن يرضى الحاج وألا يعارضه ، فقد علم أنه كلما عارضه ازداد تشبثا وإصرارا ، فقال له :

— سأزوجك بعد أن أنتهى من زواج الأولاد .

— أى أولاد ؟

— زكية وسكينة .

— أنتظر حتى يتم زواج زكية ، فهى تتزوج بعد أيام ، أما سكينة فلا .

— ولن يتأخر زواج سكينة طويلا فإن مختار قد كبر .

فقال الحاج فى ضيق :

— والله ما أدرى ما علاقة زواجى بزواج زكية وسكينة .

ـــ اصبر .

ـــ سأصبر ، وستتزوج زكية وستتزوج سكينة ، وستطلب منى من بعدها أن أنتظر حتى يتزوج ابنك الذى لم يمش بعد .

فابتسم محمد ولاذ بالصمت ، واستمر الحاج يتحدث ليثبت حقه فى الزواج .

ودخل حسن على زوجته يسألها هل عزمت على ختان ممدوح يوم زفاف زكية ، فقالت أمينة :

ـــ إنى أود أن أفرح به .

ـــ وما يمنعنا أن نفرح به ؟

ـــ إنهم لن يفعلوا شيئا ، إنهم حزانى على الحاجة .

ـــ وما نفعل ؟

ـــ ننتظر حتى يأتينا الفرج .

واجتمعت الأسرة وراحوا يتحدثون عما يفعل ليلة الحناء ، فاتفقوا على ألا يفعلوا شيئا ، فإن موت الحاجة يحز فى نفوسهم جميعا .

ودخل أحمد وعلم بما اتفقوا عليه ، وقال :

ـــ إن هذا لن يكون .

فقال أبوه :

ـــ ولم يا أحمد ؟ لم ينقض على موت الحاجة إلا سنة ، فما يقول الناس عنا ؟

ـــ كلنا سنموت .

فقالت نفيسة :

ـــ عيب يا بنى ، إن دموعنا لم تجف عليها لحظة ، ثم تحضر الطباخ وتطعم

الناس ونقيم الأفراح ونحن حزانى ، إن هذا لا يكون أبدا .

ــ إنكم تحبون الحزن وتفرون من الفرح ، فليعطكم الله مما تحبون .

فقالت سلفة نفيسة :

ــ ما كانت الحاجة تستحق منكم هذا .

فغضب أحمد ، وثار وهب منتصبا وهو يقول :

ــ والله لأتركن لكم البيت .

وخرج أحمد ، وما كان خروجه يخيف أحدا ، فهم جميعا يعلمون أنه يتصيد الفرص ليغضب حتى يخرج ويمضى سهرته مع أصحابه .

وجاءت ليلة الحناء ، فعجنت قطعة صغيرة لا تكفى إلا العروس ، وراحت زكية تضعها فى يديها .وأقبلت سكينة وطلبت أن تتحنى فزجرتها أمها فأخذت تصرخ ، وشاء بنات الدار أن يخضبن أيديهن فنهرن فأخذن يبكين ، وتذكرت زكية الحاجة فبكت وبكى الحاضرات .

١٧

وساد شقة أمينة هدوء وسكون بعد الحركة التى استمرت أكثر من ساعة ، وانتشرت أبخرة الماء المغلى ، وامتزجت بدخان البخور ، وجاء الحاج أسعد بقامته الطويلة المديدة ودلف إلى الحجرة التى كانت تنام فيها أمينة ، ورأى حسنا جالسا على مقعد بالقرب من زوجه ، فابتسم وقال لأمينة :

ــ حمدا لله على سلامتك .

ــ الله يسلمك .

ــ يتربى فى عزكم .

— يدوم عزك .

وقدم حسن لجده مقعدا ، فجلس وقال :

— وما نويتم أن تسموه ؟

فقالت أمينة وحسن معا :

— أسعد .

فبان الرضا فى وجهه ، وشاء أن يجاملهم كما جاملوه ، فقال :

— لو أنجبت ممن سأتزوج طفلة لأسميها أمينة .

فابتسم حسن ، وأشرق وجه أمينة سرورا ، وصمت الحاج أسعد قليلا فتذكر أنه لم ينجب من الحاجة بنتا فقال :

— ولكنى لا أنجب بنات ، إنى رجل قوى لا أخلف إلا رجالا ، فلو خلفت ممن سأتزوج طفلا لأسميته حسنا .

وشاعت غبطة فى الحجرة ، ولو استأذن الحاج ونهض فى تلك اللحظة لكان اليوم من أيام أمينة السعيدة ، ولكنه شاء أن يداعب حسنا فقال :

— وإنى أرى أن حسنا قوى كجده ، فلن يخلف إلا ذكورا .

ثم نهض وانصرف ، وبقيت أمينة ساهمة ، فرنا إليها حسن وسألها :

— ما بك ؟

— لا شىء .

— ولكنك غير راضية !

فقالت وهى تحاول أن تخفى تأثرها :

— أما سمعت ما قال الحاج ؟

— وما قال ؟

— قال إنك مثله لن تخلف إلا ذكورا .



.. واني أرى أن حسنا قوى كجده فلن يخلف إلا ذكورا

فضحك حسن وأقبل عليها :

— ما هذا العبط ! أدخل الحاج فى علم الغيب ؟ غدا تخلفين بنات حتى تقرفى منهن .

— لن أقرف منهن أبدا .

ومرت أيام وشهور ، وخيم على الدار قلق ووجوم ؛ فإن إبراهيم ابن الحاج أسعد سقط مريضا ، واشتد عليه المرض وبدا بريق عينيه يخبو وعلت وجهه صفرة الذبول ، وجلس الحاج أسعد إلى جوار ابنه الشاب المسجى فى فراشه ينقل عينيه بينه وبين أبنائه الصغار الذين تعلقت عيونهم بوجه أبيهم ، فيحس كأنما يطعن قلبه خنجر . إن الحاج يشعر بحزن ما شعر بمثله قبل اليوم ، فلو مات ابنه فلمن يترك هؤلاء الصغار ؟ إنه لن يعيش طويلا حتى يتم تنشئتهم ويبعد عنهم ذل اليتم ، وإن مختارا أكبر أبناء إبراهيم ما يزال صبيا طرى العود لا يستطيع أن يقوم وحده بالعبء الثقيل .

وأصبح الحاج حليف القلق والأسى ، لا ينام حتى يهب من نومه مفزوعا ، ولا يرى فى نومه إلا رؤى مروعة ، ولا يختلى بنفسه حتى تنهمر دموعه ، لقد أصاب إبراهيم البوار ، وما هى إلا أيام حتى يقطع الطريق التى قطعتها الحاجة من قبل .

وذاع فى الحى خبر مرض إبراهيم ، فكان الناس يتمنون شفاءه إلا أم عباس إذ كانت تنتظر موته بشعور التاجر الذى ينتظر زبونه . لقد اشترت القاعة ، وهى فى حاجة إلى مال كثير لتشيد دارا كالدور العالية التى تطل فى ازدراء على قاعتها الحقيرة المتواضعة .

وانقضت أيام إبراهيم على الأرض ، فذهب إلى حيث قدر له أن يذهب ، وتجددت الأحزان فى الدار ، ونزل بالحاج هم ثقيل ، فما شعر عمره بلوعة

كتلك ، وما عرف ألم الثكل قبل اليوم ، لقد عرف الموت يوم فقد أباه ، ويوم فقد أمه ، ويوم ماتت الحاجة ، ولكنه لم يحس إذ ذاك بتلك النار التى تحرق جوفه .

ونظر الحاج إلى أبناء إبراهيم الصغار ، فزاد حزنه ، وتحركت شفقته ، فاستدعى ابنه محمد وقال له فى صوت واله حزين :

ـــ مات إبراهيم وترك أبناء صغارا ليس لهم ما يعيشون عليه .

فقال محمد فى حزن :

ـــ البركة فيك .

ـــ لن أعيش لهم حتى يكبروا .

ـــ وما تود أن نفعل ؟

ـــ أرى أن أكتب لهم نصيب أبيهم لو كنت مت قبله .

فقال محمد موافقا :

ـــ افعل ما ترى .

فقال الحاج فى صوت أقرب إلى النحيب :

ـــ وما رأى أخيك ؟

ـــ لم أفاتحه وما لأخى رأى ، المال مالك والأولاد أولادنا وأولادك .

ـــ سأكتب لهم البيت القريب من الدكان والمسمط والأرض الفضاء المجاورة للمسمط .

ـــ الرأى لك .

انقضى الحديث بين الحاج وابنه ، وما خطر الزواج على قلبه ، فقد شغله الحزن فلم يعد يلتمس الزواج أو يلح فى طلبه .

١٨

ونزل مختار إلى دكان أبيه ، وكان فتى نحيلا ليس فى جسمه أوقية من شحم ، إنه فى حاجة إلى من يرعاه ويسهر عليه ، فإذا بالزمن يعلق فى عنقه أمه وأختيه وأخويه ليرعاهم ويسهر عليهم . إن الحمل ثقيل عليه ، ولكن الحاج لم يدعه وحيدا ، فقد راح يعاونه ويشد من أزره ، ويطمئنه إلى أن هناك من يحنو عليه ويحاول أن يعوضه حنان أبيه .

وراح النسوة ينتظرن أيام الخميس ليصنعن الفطير ويأخذنه والفاكهة إلى المقابر فيفرقنه على روح إبراهيم . ولكن أهل الدار كانوا يأكلون معظم الفطير وأغلب الفاكهة ، ولا يفرق على الفقراء إلا القليل ، ولكن لا بأس فإن كل ما يؤكل رحمة ونور على روح الفقيد !

أخذت نفيسة تفعل ما كانت تفعله الحاجة لو كانت حية ، وكانت تصر كل خميس صرة كبيرة من الفطير والفاكهة وتبعث بها إلى أبناء أخت الحاجة ، ولا شك أن نفيسة كانت تحس أن روح الحاجة راضية عنها فى سمائها ، فهى الوحيدة من زوجات أبنائها الثلاث التى بقيت على وفائها .

ومرت سنة ولا هم للنسوة إلا البكاء والعديد ، فإذا انصرفت إحداهن إلى عمل أخذت تعدد فى غناء حزين ، وإذا جلست جماعة يصنعن الفطير رحن يندبن ويذرفن الدموع ، وأصبح الندب والعديد سمة البيت حتى إن الواحدة منهن كانت تعدد إذا اختلت بنفسها فى الحمام .

واشترى أحمد قطعة أرض خارج بوابة الحسينية ، وأخذ يشيد عليها دارا ، وفى يوم دخل على أهل البيت متهلل الوجه وقال :

ـــ تم بناء الدار ، وسأسكنها عما قريب .

فقال الحاج أسعد فى إنكار :

ـــ أتترك العمار لتسكن تلك الجهة المقطوعة ؟

ـــ غدا تعمر فإنها لا تبعد عن البوابة إلا أمتارا .

ـــ لن تعمر أبدا فليس هناك مجانين مثلك يبنون فى الخراب .

ـــ إن لهذا الخراب مستقبلا .

ـــ لن يكون له مستقبل أبدا ، لقد عرض على متر الأرض فى العباسية بمليم فلم أقبل أن اشترى مترا واحدا ، أأرمى مالى فى الهواء ! إن من يشترى هناك كمن يشترى مترا فى الهواء .

ـــ اشتريت وبنيت وانتهى الأمر .

فقالت سكينة :

ـــ أتسكن وحدك فى البيت ولا تخاف العفاريت ؟

فقال أحمد ليطمئن نفسه :

ـــ إن العفاريت يخافوننا .

فقالت نفيسة :

ـــ والله ما يسكن مع العفاريت غيرنا ، إن صباح باتت تصرخ طول الليل .

وانتقل الحديث من العباسية وأرض العباسية إلى صباح والعفاريت .

* * *

وتأهب أحمد لحفلة « التزعيف » ، وهى حفلة فرح تقام فى الشقة الجديدة أو الدار الجديدة قبل الانتقال إليها لتحل بها السعادة ولتكون أيامها كلها فرحا وهناءة . وأخذ الفراش ينقل إلى الدار الجديدة السجاجيد

العجمية والمقاعد الذهبية ، وما جاء الليل حتى أضيئت الأنوار ، ووقف أحمد يستقبل المدعوين فى غبطة وانشراح وكان يحس نشوة لا للحفلة نفسها ولكن لأنها ستتيح له أن ينظر إلى الراقصات ، ويمزح مع العالمة ، وينظر إلى هذه وتلك من المدعوات فهو يحب أن يتطلع إلى النساء ، وما من امرأة أو فتاة تسير فى الطريق إلا ويتبعها بنظرة فاحصة ، وما من امرأة أو فتاة تقبل عليه فى الدكان إلا ويحادثها ويمازحها ، وقد يخرج فى المزاح معها ، وغالبا ما كان يفعل ، فلا يزددن إلا احتفاء به ، وإقبالا عليه .

وأطعم المدعوون ، وقامت العالمة تغنى وترقص ، فأخذ يتبعها بنظره ويبدى إعجابه بها ، حتى إذا تلاقت عيناه بعينيها غمز لها ، فتبتسم له وتزيد من تخلعها وتثنيها .

وقامت فتاة ترقص على دق الطبول ، فجعلت تهز أردافها هزا لا فن فيه ، ولكن أحمد كان يتطلع إليها فى أشتهاء ، وكان على استعداد ليرى فى أية امرأة جمالا ، فأخذ يبدى إعجابه فى اطمئنان ، إذ كانت زوجته مشغولة بتوزيع الطعام والحلوى على معارفها والخدم .

وقرب موعد انتهاء الحفلة ، فتأهبت العالمة لتجوس خلال غرفات الدار جميعها ، لتملأها فرحا وحبورا ، فتوقفت فى الوسط ، وعن يمينها ويسارها فتياتها يحملن الدفوف ، وارتفع صوتها بالغناء بين دقات الدفوف العالية . وسار الموكب وحوله المدعوات يزغردن ، وسار أحمد فى الركب يضحك ويغمز ويبتسم .

وانتهت حفلة التزعيف ، فانصرف المدعوون وهم يتمنون أن يكون البيت الجديد قدم خير على ساكنيه ، وبعث أحمد بزوجته مع أهله لتستعد لنقل الأثاث فى الصباح . وهبطت العالمة ، وهبط أحمد معها ليوصلها إلى

دارها ، وليحيى أول ليلة من ليالى الدار السعيدة .

١٩

وما انقضت سنة ونصف على مولد أسعد حتى تأهبت أمينة لتضع مولودها الجديد ، فبعثت فى استدعاء أمها وتمددت فى فراشها تنتظر الفرج ، ومرت الساعات ووضعت أمينة غلاما ذكرا ، وأخذت أمها تغدو وتروح وهى حاملة أسعد على يدها . فقد كان طفلا سمينا لا يقدر على القيام أو السير بعد . ومرت أيام وأسعد لا يفارق جدته ، ففكرت فيما تفعل ابنتها بهؤلاء الأطفال الصغار الذين يحتاجون إلى عناية ورعاية إذا انقضت الأيام السبعة وعادت إلى بيتها وتركتها وحدها ، فرأت أن ابنتها لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء فقالت لها :

ـــ سآخذ أسعد معى ليعيش عندى حتى تتفرغى للمولود الجديد .

فحسبت أمينة أن أمها تمزح فقالت :

ـــ خذيه .

وما انقضت الأيام السبعة حتى حملت الجدة أسعد وانصرفت به إلى دارها ، وخشيت أمينة أن تطلب منها أن تتركه حتى لا تجرح شعورها .

وجاء حسن فى الليل ، وكانت عادته أن يدخل إلى فراش الأولاد يغطيهم ويتطلع إلى وجوههم ، فقد كان يحبهم ويحس غبطة ونشوة إذا داعبهم أو تحدث إليهم ، فلما دخل إلى حيث كان ينام أسعد وجد فراشه خاليا ، فالتفت إلى أمينة وسألها :

ـــ أين أسعد ؟

فرنت إلى المولود الجديد ، وقالت وهى تبتسم :

ـــ طرده سليم .

ـــ أين ذهب ؟

ـــ أخذته جدته .

ولاحظت أن وجهه تغير ، فما كان يحب أن يغيب عنه أحد أبنائه ، فقالت له معتذرة :

ـــ لم أستطع أن أطلب منها أن تدعه .

فقال فى صوت متغير :

ـــ لا بأس .

ونامت أمينة ونام حسن ، ولكنه قام فى منتصف الليل كعادته فغطى أمينة وغطى ممدوحا ، ثم اتجه إلى فراش أسعد ، ولكنه تذكر أنه ليس فيه ، فأحس انقباضا خفيفا ما لبث أن انقشع ، فابتسم وعاد إلى فراشه لينام ، ولكنه تذكر أنه لم يغط المولود الجديد ، فاتجه إليه وسحب عليه الغطاء فى رفق وقد أشرق وجهه وتهلل .

ولاح الصباح ، ونهض حسن يصلى الصبح ، وما انتهى من صلاته حتى جلس على أريكة مرتفعة ، وأخذ يقرأ فى مصحف كبير ، ويرقب زوجته النائمة . فلما استيقظت أغلق المصحف وقال لها :

ـــ والله إن لأسعد وحشة .

فابتسمت وقالت :

ـــ أوحشك سريعا !

ـــ لكأنى لم أره من سنين .

وصمت قليلا ثم عاد يقول :

ـ سأذهب لإحضاره .

ولم ينتظر رد أمينة ، بل نهض ولبس قفطانه الجديد فى عجل ، ثم تناول حذاءه ودس رجليه فيه ، ولبس معطفه وطربوشه وخرج يغذ فى السير كأنما ينطلق لأمر خطير !

ودخل على خالته فسلم عليها ، ورأى أسعد محمولا على يدها ، فراح يبتسم له ويناغيه ، والتفت إلى خالته وقال لها :

ـ أظن أنه قد أقلق راحتك ولم يدعك تغمضين .

وانتظر ردها لعله يلمح أثرا للتبرم فيتعلل به ويطلب ابنه ، ولكن الجدة قالت فى هدوء :

ـ أبدا ، إنه نام هادئا ولم يتقلب طوال الليل .

ـ إنه سيتعبك ويقلل من راحتك .

فابتسمت وقالت :

ـ إن عبئه يسير .

فلم يدر حسن ما يقول ، فقد غلبه خجله وحياؤه فلم يقدر أن يصرح برغبته فى استعادة ابنه ، فقام وسلم وانصرف .

ومرت سنتان على موت إبراهيم ، فمست يد الزمن الساحر جرح قلب الشيخ فاندمل ، وأخذ يفكر فى زواج مختار وسكينة ، وقد عقد العزم على أن يقيم فرحا عظيما يفرح مختارا اليتيم .

وعلقت الزينات ، وتأهبت الدار لفرح عظيم ، وراح الناس يتهامسون عما دهى الشيخ وما أصابه فى عقله ، أيقيم الأفراح بعد موت ابنه الشاب الذى ولى وهو متعلق بالدنيا ولم يشبع منها ! وقال الناس فى تعليل ذلك إن المال والحزن لا يجتمعان ، وإن الكنز العظيم الذى عثر عليه الحاج أسعد أنساه حزنه

على ولده ، وشغله عن التفكير فيه .

وجعلت أمينة تتأهب لختان ممدوح ، فإن الفرح قد جاءهم وإنه لفرح عظيم ، وأقبلت الموسيقى تعزف ألحانها العالية الصاخبة ، فاجتذبت أولاد الحارة والحارات المجاورة ليشاركوا أهل الفرح فى فرحهم ؛ وأخذ كل يرقص على الأنغام بطريقته . هذا يقبض على عصا يطوحها فى الهواء فى خيلاء ، وذاك يقفز على رجل واحدة كالغراب ثم يعود فيقفز على الأخرى فى حركات أشبه بحركات القرود ، وهذه تحزمت بمنديل رأسها وأخذت تهز جسمها هزات مثيرة ، تشف عن الأنثى الحبيسة فى الجسم الضاوى الهزيل ، وتلك تحرك جسمها حركات موزونة على تصفيق الأولاد الموزون ، لقد شاعت الغبطة والسرور فى الحارة كلها .

وأقبلت عربة مغلقة مذهبة فاخرة تجرها خيول مطهمة ، وأمامها سائسان حافيان فى ثياب بيضاء مزركشة بالقصب ، وعلى رأسهما طاقيتان من الجوخ الأحمر تدلى منهما زران طويلان جدا يتأرجحان فى ثورة إذا عدا الرجلان أمام عربة العروس ، وأقبلت عربات أخرى مغلقة كانت أقل زينة من العربة الأولى ، وعربة مكشوفة فاخرة شد إليها جوادان أشهبان قويان ، ووقفت العربات أمام دار الحاج أسعد ، ورنت الزغاريد عالية متتابعة مدوية ، فكان ذلك إيذانا بنزول العروس ، واقتربت العربة الفخمة ما أمكن من باب الدار ، وراح رجال الدار يبعدون الناس والأطفال عن العربة حتى لا يروا العروس ، وأخذ أحمد يدفع هذا وذاك فى ثورة ، وهبطت سكينة فى ثياب زفافها ، وجعلت تهرول لتركب العربة الفاخرة فى غبطة الأطفال ، وهل كانت إلا طفلة؛ فى الثانية عشرة على الأكثر .

وأغلقت عربة « زينب هانم » على العروس ومن معها ، وتقدمت

العربات الأخرى ليركبها المدعوات ، فوقف أحمد ليفتح لهن الباب ويتطلع إليهن ويتفرس فيهن وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ترتسم عليه دائما كلما رأى امرأة أو تحدث إليها .

وتقدمت العربة المكشوفة فركبها ممدوح يرتدى حلة ضابط زينت بالقصب ورصع كتفاها بالتيجان والنجوم ، وزوق رأسه بخطوط حمراء كتلك التى يزوق بها خروف العيد قبل ذبحه . وجلس رجل وحمل ممدوحا على حجره ثم ركب معه رجلان ليملآ فراغ العربة !

وصدحت الموسيقى وتحرك الركب ، وسار الرجال حول العربات المقفلة المسدلة الستائر يحرسونها ويمنعون الأغراب من الاقتراب منها أو محاولة التطلع إلى داخلها ، وسارت الزفة فى شارع الحسينية فى طريقها إلى الحسين ، فإن ضريح الحسين هو قبلة هذه الأسرة فى أفراحها وأحزانها ، ما من عروس تدخل دار زوجها قبل مرور موكبها على ضريح الحسين وقراءة الفاتحة له ، وما من ميت يموت لهم إلا ويصلى عليه فى الحسين ، مهما بعدت الشقة ومهما أصاب المشيعين من نصب .

وفتحت الشبابيك على طول الطريق وأطلقت الزغاريد منها ، فإن ساكنات الدور المطلة على الحسينية من زبائن الحاج أسعد ومحبيه ، ولو أن أحد السائرين فى الزفة عاد بذهنه القهقرى سنتين يوم سار مشهد إبراهيم من نفس الطريق ، لرأى أن ما يحدث اليوم هو نفس ما حدث ذلك اليوم . مع فارق بسيط هو أن النسوة كن يطلقن الصوات بدل الزغاريد .

وبلغت الزفة شارع النحاسين الضيق فتمهلت فى سيرها ، وعلم أصحاب محال الحلوى على جانبى الطريق أن العروس حفيدة الحاج أسعد وبنت محمد وأخت التجار المعروفين الذين يتعاملون معهم ، فراحوا

يتنافسون فى بدر الملبس فيتخاطفه الناس ، ومهما بدروا فهم الرابحون ، فهم يعلمون أنهم فى الغد سيبيعون حلواهم للحاج أسعد وحفدته بالسعر الذى يروقهم .

ورأى أحد التجار ممدوحا ابن صديقه حسن ، فود أن يعبر عن سروره ، فقبض قبضة من النقود الموضوعة أمامه وبدرها على الناس ، فأخذ الناس يتقاتلون ويتناحرون فى سبيلها ، وهو يتطلع إليهم فى غبطة ونشوة .

وبلغت الزفة ضريح الحسين ، فتوقفت قليلا ليقرأ كل من فيها الفاتحة للإمام العظيم ، ثم استأنفت الزفة سيرها لتعود من حيث أتت ، فإن سكينة ستزف فى نفس الدار التى خرجت منها .

٢٠

الليل ساكن والمدينة هاجعة ، والناس يغطون فى نومهم مطمئنين ، ولكن الحاج أسعد طار النوم من عينيه وجعل يتقلب فى فراشه ويغمض عينيه لعل النوم يطوف به ، ولكن هيهات ، فجلس فى فراشه فرأى ابنه وزوجه وقد أسلما جنبيهما للفراش وراحا فى سبات عميق . وهب النسيم من النافذة المفتوحة فأخذ يداعب الكلة المسدلة عليهما ، وراحت الخيالات تداعب الحاج أسعد . فتذكر أيام كان ينام بجوار الحاجة هادئا هانئا ، وتذكر وعد ابنه إياه أن يزوجه بعد أن يفرغ من زواج زكية وسكينة ، ها هى ذى زكية قد تزوجت من سنين ، وها هى ذى سكينة قد تزوجت من شهور . فلم لا يفى ابنه بوعده؟ إنه لا يطيق أن يعيش عزبا أكثر مما عاش ، فقد انقضت سنون خمس على موت الحاجة كأسوا ما تكون السنون ، وقد نسى الحاج أنه كان

متزوجا فى يوم من الأيام !

وتذكر ابنه إبراهيم فانقبض صدره ، وأحس غصة فى حلقه ، وأخذ يؤنب نفسه على تفكيره فى الزواج بعد إبراهيم ، ولكن حزنه ما لبث أن انقشع ، ونفسه ما لبثت أن أمدته بما يبرر ذلك التفكير ، إن الموت أمر لا مفر منه ، والزواج أمر لا مفر منه ، فما دخل الموت فى الزواج ؟ إن الزواج ضرورة كالطعام ، فهل امتنع عن الأكل لما مات إبراهيم ، فلماذا يمتنع عن الزواج ؟! إن الزواج نصف الدين ، وهو لا يحب أن يموت نصف دينه . فبيت النية على أن يفاتح ابنه فى رغبته فى الزواج إذا ما أصبح الصباح .

وجلس الحاج وابنه محمد يتناول الفطور . ورأى الحاج الفرصة سانحة ليحدث ابنه ، فقال :

ـــ أصبحت عبئا عليكم ، كنت أتمنى أن أتناول طعامى فى شقتى وأن أنام فيها وأن أعيش كما يعيش الناس .

ولم يفطن محمد إلى ما يود الحاج أن يتطرق إليه ، فهو لم يفاتحه فى أمر زواجه من سنتين ، وأنه يظن أن تلك النزوة قد انتهى أمرها ، وأن الحاج قد وضح له أن زواجه أمر يدعو إلى الهزء والسخرية ، فقال فى حماس :

ـــ لا تقل هذا ، إننا نضعك فى أعيننا ، وإننا كلنا منك .

فقال الحاج فى عتاب :

ـــ لو أنك تركتنى أتزوج بعد أن ماتت الحاجة لأمضيت فى هدوء السنوات الخمس التى مضت فى نكد وعذاب .

فأحس محمد كأنما لسعته نار ، ونظر إلى أبيه فى التياع ، فما كان ينتظر بعد كل ما فعله له فى السنوات الخمس أن يصف تلك السنين بأنها سنو نكد وعذاب ، وما كان يتوقع أن يعود لحديث الزواج بعد موت إبراهيم ، فقال فى

تأثر :

ـــ ما كنت أنتظر أن ترى فى حبنا لك نكدا وعذابا ، فنحن كلنا نحبك ونعمل على راحتك .

فقال الحاج فى سخرية :

ـــ قالوا لجحا : « تحب مين فى العيلة ؟ » قال : « التى تنام فى حضنى كل ليلة » .

فثار دم محمد ، وتدفق إلى رأسه ، فما يدرى أكان الحاج يتحدث عن نفسه أم يسخر منه ويعرض به ، وشاء أن يرد عليه ولكن الحنق تملكه ، ولم يسعفه ذهنه بما يقول ، فهب فى غضب وصاح :

ـــ والله لن ترجع حتى تقتلنى .

فلم يلتفت الحاج إلى ثورة ابنه وقال فى هدوء :

ـــ والله لا أدرى ما الذى يضيرك من زواجى .

فلم يجد محمد جوابا أشفى من أن يخلع عمامته . ويلقى بها على الأرض ، ويغادر الغرفة كعاصفة ثائرة .

وجلس الحاج ذات ليلة هانئا يتحدث ، وأقبلت سكينة وقد نمت قليلا وانتفخ بطنها وإن ظلت طفلة فى حركاتها ولفتاتها ، وأرادت أن تجلس فجلست فى عنف كما كانت تفعل قبلا ولم تأبه بما فى بطنها ، ففزع الحاج وصاح بها :

ـــ الله ينكد عليك ، وعلى من زوجك ، وعلى من تزوجك .

فبان التأثر على وجه سكينة ، وغامت عيناها بالدموع ، ورأت نفيسة حزن بنتها ، فشعرت بيد تهصر قلبها ، وبدموعها تترقرق فى مآقيها ، وخشيت أن تخونها عيناها فيغضب الحاج ، فتجلدت ولكنها لم تستطع أن

تكبت حزنها فقالت للحاج فى عتاب :

ــــ حزنت البنت يا سيدى .

وقالت إحدى زوجات حفدته :

ــــ صالحها يا سيدى .

فقال الحاج :

ــــ لا تغضبى يا سكينة ، لقد خفت عليك ، فلم أتمالك نفسى .

فقالت زوج حفيده :

ــــ هذا لا يكفى .

فقال الحاج فى استغراب :

ــــ أتودون أن أقوم فأقبل رأسها !

فقالت :

ــــ إنها تود ريشة من ماس ، فإذا شئت أن تصالحها فأعطها ثمنها .

فصمت الحاج قليلا ، وهرع طفل من أطفال الدار إلى السطح ، ثم عاد وهو يغالب الضحك وقد خبأ وراء ظهره شيئا ، فاقترب من سكينة ورشق فى شعرها ريشة دجاجة ، وقال :

ــــ هذه هدية جدى إليك .

فضج الحاضرون بالضحك ، وعبس الحاج أسعد وقال فى غضب :

ــــ أتسخر منى يا ولد !

ثم مد يده فى جيب قميصه ، وأخرج كيسا أخذ منه عشرين جنيها ذهبيا وقال :

ــــ خذى يا سكينة واشترى ما يعجبك .

فقامت سكينة متهللة الوجه ، وأسرعت إلى جدها تأخذ الجنيهات

الحمر ، وجعلت تقفز دون أن تلتفت إلى ما فى بطنها ، ونظرت نفيسة إلى ابنتها ، فلما رأتها راضية مغتبطة أشرق وجهها بابتسامة تنم عن الطيبة والفرح وصفاء النفس .

٢١

عادت زكية إلى دارها عقب الوليمة التى صنعت لمرور أسبوع على ولادة سكينة بنتا ، فتمددت فى سريرها تنتظر أوبة زوجها ، وأخذت تفكر فيما وقع ذلك اليوم : رأت أمينة تعرض على سكينة ممازحة أن تتبادلا فتعطيها سليما وتأخذ بنتها . إذ كان مختار يشتهى أن ينجب غلاما فابتسمت ابتسامة خفيفة ؛ ثم رن فى أذنيها أصوات النسوة وهن يقلن لها :

— عقبى لعوضك .

فتلاشت الابتسامة على شفتيها ، إنها تزوجت من سنين ولم تنجب ، بينا أن سكينة أنجبت بعد زواجها بسنة واحدة .

وفكرت كيف تقضى أيامها إذا لم تخلف أولادا يملئون فراغ حياتها . إنها تشتهى أن يكون لها ولد تفيض عليه من حبها وحنانها وعواطفها المذخورة . إن زوجها يخرج فى الصباح الباكر ، ولا يعود إلا بعد أن ينقضى من الليل ثلثه ، فلو أنها أنجبت ولدا لما أحست ذلك السأم الذى تحسه الآن ، ولما شعرت بالملل الذى تحسه خلال ساعات النهار الطويلة . فهى تحس أنها وحيدة فى الدنيا وإن كان أفراد أسرتها يعدون بالمئات ! وإنها تتمنى أن تكون أصلا لأسرة ، تتفرع وتزدهر أمام عينيها فتمتلئ نفسها بهجة .

إن من يولى ربيعها دون أن تعقب ، تقضى بقية حياتها فى خريف مظلم بارد .

أحست ذلك بغريزتها فأخذت تفكر فيما يقعدها عن أن تعرض نفسها على طبيب ، فلعله يصف لها ما يزيل عقمها ، ولكنها تخجل أشد الخجل أن يفحصها رجل .

وتذكرت أن قرب دارهم مولدة معروفة ، فرأت أن تعرض نفسها عليها ، لعلها تعيد إلى نفسها طمأنينتها .

وذهبت زكية إلى المولدة وجلة مضطربة ، تخشى أن يقطع اليأس الرجاء ، إنها تعيش الآن على أمل تتعلق به وإن كان سرابا ، فهى تنتظر كل شهر فى رجاء وخوف ، فإذا انقضى الشهر وثبت أنها لم تحمل ، تنقبض قليلا ، ثم تعود تنتظر الشهر التالى ، فما يكون حالها لو قالت لها المولدة إنها لن تحمل ؟

ودخلت على المولدة يخفق قلبها ، وتحس كأنما سحبت منها روحها ، وسألتها السيدة عما بها ، فقصت عليها قصتها فى نبرات مضطربة ، وفحصتها ، ثم قالت فى هدوء :

— كل شيء طبيعى ، وليس بك إلا بعض الشحم الزائد . سيرى كل يوم ساعة فيذوب الشحم ، وأنا أضمن لك أن تحملى بعد شهور .

وخرجت زكية من عندها راضية ، منشرحة الصدر ، فما أيسر العلاج ! ورأت أن تبدأ العلاج من فورها ، فأخذت تضرب فى الفضاء القريب من دارها ، حتى إذا أحست بالتعب عادت يتفصد العرق منها ، فيبلل برقعها ، ويجرى على وجهها ، وينقط من ذقنها .

٢٢

وهن الحاج أسعد ، وانحلت قواه ، ولكنه راح يغالب وهنه ، ويشد من أزر نفسه ؛ إن جسمه أمسى ضعيفا ، ولكنه لا يحب أن يعترف بضعفه ، فأخذ يجاهد ، ويخرج كل يوم إلى الدكان . وإن كان يلاقى فى سبيل ذلك تعبا ونصبا .

وسار الحاج وابنه ، وأخذ الحاج ينقل رجليه فى بطء وجهد . ولمح ابنه ذلك فقال له :

ــ لم لا تستريح فى البيت حتى تسترد صحتك ؟

فقال الحاج مكابرا :

ــ ما بى من شىء .

ــ إنك مجهد .

ــ تعب خفيف .

ــ ابق فى البيت حتى تستريح .

ــ لا أطيق .

ــ إن الجسم يحتاج إلى راحة .

ــ لم أعود جسمى الراحة ، إنى لو استرحت مرضت .

فصمت محمد ، وصار يتمهل فى سيره ويترفق حتى لا يجهد أباه .

واضطر الحاج أخيرا أن يلازم الدار ، ونالت الشيخوخة منه ، وأصبح خروجه عسيرا ، فراح يجمع الأطفال حوله يحدثهم ويفقههم فى أمر دينهم !

جلس أسعد فى حجره وكان قد عاد من المدرسة الأولية التى التحق بها ،

فسأله :

ــ ما تعلمت فى المدرسة اليوم ؟

ــ خروج سيدنا آدم من الجنة .

فقال الحاج فى ابتهاج :

ــ ما شاء الله . ولم خرج ؟

فأعاد أسعد ما سمعه فى المدرسة كببغاء لا تفقه ما تردد :

ــ لأنه أكل من شجرة الحنطة .

وراح أسعد يروى قصة الخروج فى صوت رفيع متلعثم ، والحاج يصغى إلى القصة التى رددها آلاف المرات لأبنائه وحفدته وحفدة أبنائه فى شغف ؛ إنه يحس الآن نفس النشوة التى كان يحسها يوم كان يروى القصة لابنه محمد إذ كان طفلا من نيف وأربعين سنة .

واشتد بالحاج المرض ، فلم يعد يبرح فراشه ، وأصبح لا يكاد يستطيع أن يجلس ليتناول طعامه ، وراح أقاربه يعودونه ، فرأى أهل البيت أن ينقلوه إلى غرفة أخرى غير غرفة نوم ابنه ، ففرشوا له حشيتين فى غرفة أخرى وجاءوا ليحملوه إلى فراشه الجديد ، ولكنه أبى أن يحمله أحد . إنه لا يحب أن يحمل وفيه نفس يتردد . وأسقط فى أيديهم فما يفعلون لينقلوه ؟ إنه لا يستطيع أن يقوم أبدا ، وبانت الحيرة عليهم ، فصاح فيهم :

ــ هاتوا قطعتين من الحصير .

فجاءوه بحصيرتين ، فقال لهم :

ــ ضعوا حصيرة هنا بجوار الفراش ، وضعوا الأخرى بعدها .

ففعلوا ما أمرهم ، وجعل الحاج يزحف فى الفراش حتى هبط إلى الحصيرة الأولى ، وأخذ يزحف عليها حتى وصل إلى أخرها ، ثم أخذ يزحف على

الحصيرة الثانية حتى إذا اقترب من آخرها ، نقلوا الحصيرة الأولى ووضعوها أمامه ، واستمر يجاهد فى زحفه ، وبان عليه الجهد الشديد ، فاغرورقت أعين الواقفين بالدموع . وأخيرا بلغ فراشه الجديد ، فجعل يتسلقه فى جهد ، وارتمى عليه مبهور النفس ، يظهر عليه الإعياء الشديد . إنه يصارع الحياة ولا يود التسليم .

واشتد ضعف الحاج ، فعافت نفسه الطعام ، وأصبح لا يتناول إلا السوائل بين آن وآن ، وأصبح يروح فى غيبوبة طويلة تستغرق معظم النهار . وفتح عينيه فرأى نفيسة عند رأسه ، ورأته يتطلع إليها فقالت فى حنان :

— كيف حالك يا سيدى ؟

— سأموت يا نفيسة ، وأحب أن أرى الأولاد .

— بعد الشر عنك .

— إنى أعلم أنى سأموت ، فإنكم تنقطون الماء فى فمى .

فاغرورقت عينا نفيسة ، وقال الحاج :

— لم البكاء والموت نهاية كل حى ؟ أين محمد ؟

— سيأتى حالا ، ذهب يصلى .

وجاء محمد ، فلما رأى أباه يحادث زوجه أقبل عليه وقال :

— كيف أنت ؟

— دنا الفراق .

واغرورقت عيناه بالدموع ، فلم يتمالك محمد نفسه ، فسالت عبراته على خديه .. وقال الحاج :

— أوصيك يا محمد بأولاد إبراهيم .

— اطمئن .

ــ إنهم أمانة فى عنقك .

فطأطأ محمد رأسه ، وقال الحاج :

ــ إذا مت أنزلنى على ولدى ، ووسده ذراعى .

وتذكر الحاجة ، فشخص ببصره إلى سقف الغرفة وقال :

ــ إن الحاجة تنتظرنى ، إنها تدعونى .

ثم عاد إلى غيبوبته ، وما انقضى الليل حتى قضى ، وصعد إلى السماء ليتزوج أربعين من الحور العين !

٢٣

وضعت سكينة فتاة ثانية ، فتمنت أمينة أن تضع فتاة مثلها هذه المرة . وما انقضت أيام حتى وضعت زوجة أخيها فتاة أيضا ، فاغتبطت وإن لم يغتبط أخوها ، فإنها ترى فى هذين الحادثين بشيرا لها ، وقالت فى نفسها : إن هذه السنة سنة البنات . وراحت تنتظر الأيام الباقية على الوضع فى صبر نافد ، وخرجت تبارك لامرأة أخيها مغتبطة ، وكان أخوها يسكن وأمه فى دار واحدة ، فدخلت على أمها أولا ، فرأتها تطعم أسعد ، فابتسمت واقتربت منه وقالت :

ــ ستعود معى يا أسعد .

فقال وهو يملأ فمه بالطعام :

ــ لا سأبقى .

ــ والمدرسة ؟

فقالت الجدة :

— إنى أرسله كل يوم .

فقالت أمينة وهى تضحك :

— ولم يأتى عندنا وعروسه هنا ؟

ودخلت على زوج أخيها وسلمت عليها وجلست ، وحملت الوالدة الطفلة ودفعت بها إلى أمينة ، فأخذتها فى رفق وقبل أن تنظر إليها قالت :

— إنها ليست حلوة .

وما كانت تقصد ما تقول ، ولكنها العادة المتبعة حتى لا يقال إنها حسدت الطفلة ، فأسرعت الأم تنفى التهمة عن بنتها ، وقالت :

— إنها كالقمر .

فقالت أمينة وهى تبتسم :

— لا تخافى عليها ، فلن تبور ، العريس موجود .

ومدت أمينة يدها إلى حافظتها فأخرجت خميسة صغيرة من الذهب شبكتها بصدر المولودة ، فقالت الوالدة :

— ولم هذا التعب ؟ سلمت يدك .

فقالت أمينة فى انشراح :

— إنها شبكة أسعد ، إنه يحبكم ولا يود فراقكم ، وسيزداد حبه لكم بعد أن جئتم له بعروس .

وجاء الأخ وسلم على أخته فى اشتياق وترحيب ، وجلس بجوارها يحادثها ، فقالت له زوجته فى فرح .

— انظر . لقد شبك أسعد النونو .

فنظر إلى الخميسة وضحك وقال :

— مبروك عليه .

وقالت أمينة :

ـــ وما سميتم العروس ؟

فقال الأخ :

ـــ سنسميها أمينة .

وانقضت الأيام ووضعت أمينة مولودها ، وراحت تنظر إلى أمها فى استفسار كأنما تسألها عما وضعت ، ولكن أمها تشاغلت عنها وتركت الغرفة لتحضر لها الحلبة الساخنة ، فنظرت إلى المولدة فألفتها متهللة الوجه فانقبضت ، فهى تعلم أن أساريرها لا تنفرج إلا إذا كان المولود ذكرا ، وأرادت أن تستريح من قلقها ، فقالت للمولدة :

ـــ هاتى البنت هنا .

فقالت المولدة فى إنكار :

ـــ بنت ! إنه ولد .. يتربى فى عزك وعز أبيه .

فأحست أمينة ضيقا وحزنا ، لقد كانت تتمنى أن يكون بنتا .

ودخلت أمها تحمل سلطانية الحلبة ، ورأت وجوم ابنتها ففطنت إلى سببه . لقد كابدت هى نفس ما تكابده ابنتها اليوم . وشاءت أن تخفف عنها فقالت لها :

ـــ لا تعكرى دمك وأنت طرية ، ولنحمد الله على سلامتك .

ولكن أمينة ظلت فى وجومها ، فقالت أمها فى حنان :

ـــ كفى يا أمينة ، إن من تخلف الولد تخلف البنت ، إنى لم آت بك إلا بعد أن خلفت ستة أولاد ، بكرة ربنا يرزق بنات .

وساد السكون ، وغفت أمينة غفوة استراحت فيها من عناء الوضع ، ثم استيقظت فألفت أمها قد جهزت لها دجاجة سمينة فى الحساء وقالت لها :

ـــ كنت سأوقظك لتأكلى .

ـــ لا شهية عندى .

ـــ لا شهية عندك ؟ إن بطنك خاو الآن ، ضعى الدجاجة مكان المولود . واعتدلت أمينة فى فراشها ، وأخذت تحتسى الحساء الساخن ثم أكلت جزءا من الدجاجة ورفعت يدها عن الطعام ، فقالت لها أمها :

ـــ كلى بقية الدجاجة ، أنت الآن هفتانة .

ـــ لا أستطيع .

ـــ إنى لما كنت مثلك كنت أتناول دجاجتين .

ورفع الطعام ، وتمددت أمينة ، وارتفعت وأوأة المولود ، فلم تلتفت إليه ، فقالت لها أمها :

ـــ جاع الولد ، أرضعيه .

فاستدارت أمينة وأولته ظهرها .

واستمر الطفل فى صراخه ، فقالت الجدة :

ـــ حرام يا أمينة ، وما ذنبه ؟

ولكن أمينة ظلت فى وضعها لا تتحرك ، فقامت الجدة وحملت الطفل ووضعته فى حضن أمه .

فأخرجت أمينة ثديها فى تأفف ، وألقمته فم مصطفى وهو يصرخ ، وقالت فى غيظ :

ـــ خذ انكتم .

٢٤

انفرط عقد الأسرة بعد موت الحاج أسعد ، فاشترى محمد الدار المجاورة لقاعة أم عباس الندابة ، وانتقل إليها هو وابنه حسن والجارية قدم خير ، إذ آلت إليه بعد موت أبيه . وشيد مختار دارا على الأرض الفضاء المجاورة للمسمط وانتقل إليها هو وأمه وإخوته ، وانتقل آخرون إلى دار اشتروها ؛ ولم يبق بالدار الكبيرة إلا شراذم من الأسرة الضخمة .

وراحت قدم خير تحاول أن تلفت نظر محمد إليها بعد موت الحاج ، فكانت إذا رأته تضحك فى خلاعة لسبب ولغير سبب ، إذ كانت تريد فتنته لتصير محظيته ، ولكن محمدا ما كان يهتم بها ، وكان يعرض عنها فى ازدراء ، فساء ذلك الجارية ، وعزمت على أن تنتقم ممن فى البيت جميعه .

وفى يوم تركت لها نفيسة الطبيخ لتقلبه ، فرفعت غطاء الحلة وأسرعت إلى وعاء الملح وأفرغته فى الطبيخ ، وفى الليل جلس من فى الدار يأكلون ؛ وما تناول كل منهم لقمة حتى لفظها فى امتعاض ، فقد كان الطعام ملحا أجاجا .

وارتبكت نفيسة ولم تدر ماذا حدث ، فالتفتت إلى أمينة وقالت لها :

ـــ هل وضعت ملحا فى الطعام بعدى ؟

فقالت أمينة فى إنكار :

ـــ لم أر الطبيخ اليوم فقد كنت مشغولة بالغسيل .

ـــ فمن وضع كل هذا الملح إذن ؟

فقالت أمينة :

ـــ لابد أنها بنت الحرام قدم خير .

فساء ذلك نفيسة ، فما كانت تحب أن يهاجم أحد أحدا ، فقالت فى شفقة :

ـــ حرام عليك ، لعله أحد الأولاد .

ورفع الطعام دون أن يمسه أحد ، وبعثوا فى شراء طعام من السوق ، وقدم خير فى حجرتها القريبة من باب الدار تضحك فى غبطة وشماتة .

وفى يوم بينا كانت تدعك النحاس ، وتغسل الأطباق ، تملكها الشر فانتقت طبقا صينيا كبيرا وحطمته ، وسمعت أمينة ونفيسة الصوت فأسرعنا إليها ، ورأت أمينة الطبق المحطم فاغتاظت ، وقالت :

ـــ ما هذا يا قدم خير ؟!

ـــ انفلت من يدى .

ـــ والله لقد كسرته متعمدة .

ـــ لم ، هل جننت !

ـــ لا أعرف ، ولكنى أعرف أنك كسرت الطبق قاصدة ، لقد أصبحت متعبة ، ولا نجنى منك إلا الخسارة .

ورأت نفيسة أن أمينة تغيرت ، وأن قدم خير اعتدلت كأنما تتأهب لرد الاعتداء ، وخشيت أن ينشب بينهما العراك ، فقالت وهى ترتجف :

ـــ كفى يا أمينة ، حصل خير ، سقط منها غصبا ، أخذ الشر وراح .

وراحت نفيسة تدفع أمينة أمامها ، فقالت أمينة فى ثورة وغضب :

ـــ والله ما أفسدها إلا طيبتك .

وخرجت أمينة تغلى من الغيظ ، بينا برقت أسنان قدم خير البيضاء فى رقعة وجهها الأسود .

* * *



— فمن وضع الملح إذن ؟

— لابد أنها بنت الحرام قدم خير !

وارتفع صوات قدم خير فى سكون الليل ، فهرع محمد وحسن وأمينة ونفيسة إلى فناء الدار مرعوبين ليروا ما حدث ، وتقدم محمد والمصباح فى يده وحسن وأمه وزوجه فى أثره ، ودلفوا إلى منظرة قدم خير ، فألفوها جالسة فى فراشها ، فقال لها محمد :

— ماذا حدث ؟

— تسلق لص الحائط ، وقبض على قضبان الشباك ، ونظر إلى بعينيه الواسعتين ؛ ولعب لى حواجبه ، فصرخت ، فلما سمع صواتى فر .

فأطرق محمد فى غيظ ، ووقفت نفيسة تنظر إليها مشفقة ، فقد كانت تصدق كل ما يقال ؛ أما أمينة فكانت تحس نحوها مقتا ، فلم تستطع أن تقبل ذلك القول الواهى ، وقالت فى انفعال :

— والله العظيم كذابة ، كيف رأيت فى الظلام عينيه الواسعتين وحواجبه التى يلعبها ؟

فقالت قدم خير فى خذلان :

— كانت عيناه براقتين ، وكان حاجباه مضيئين ، لعله كان عفريتا .

فأحست نفيسة خوفا ، فاقتربت من محمد حتى لمس جسمها جسمه ، وقال حسن فى هدوء :

— عفريت فى عينك .

وقال محمد وهم ينصرفون :

— الله ينكد عليك وعلى اليوم الذى رأيناك فيه .

وقالت أمينة :

— امرأة ملعب .

وعادوا من حيث أتوا ، وتمددت قدم خير لتنام ، وقد زاد كرهها لأمينة

وأخذت تفكر فى إغاظتها .

وفى يوم شغلت أمينة بتجهيز الطعام ، وكان عليها أن تحمى الأولاد والنهار أوفى على نهايته ، فطلبت من قدم خير أن تحمى سليما ، فدخلت قدم خير الحمام مع الطفل وكان الماء يغلى على النار ، فخطر لها خاطر شرير لم تحاول أن تثنى نفسها عنه ، بل راحت تنفذه وقد ضيقت عينيها وجزت على أسنانها ، ملأت الشيطانة الكوز بالماء المغلى وصبته على جسم الطفل الصغير ؛ فقفز صارخا . وصك صراخه أذنى أمينة فتركت كل ما فى يدها وهرعت إلى الحمام مفزوعة لترى ما دهاه .

فتحت باب الحمام على عجل ، فرأت الولد يقفز ويصرخ وقد سلخ ظهره ، ففطنت إلى كل شىء ، فهجمت فى غير وعى على قدم خير وجذبتها من شعرها خارج الحمام ، وأخذت تضربها فى عصبية ، وهى لا تدرى ما تفعل .

ورأت قدم خير ألا قدرة لها على دفعها فصوتت ، فجاءت نفيسة ترتجف فرقا ، فلما رأت قدم خير مطروحة على الأرض ، وأمينة تعجنها بيديها ورجليها ازداد فزعها ، وصرخت فى أمينة :

ـــ دعيها يا أمينة وإلا ماتت فى يدك .

ـــ أحسن .

ـــ وهل تتركك الحكومة !.

ـــ سأقتلها كما قتلت ولدى .

فقالت نفيسة فى رعب ، وقد حسبت أنها قتلته فعلا :

ـــ قتلته ! يا نهار أسود .

ودقت صدرها بيدها ، وتقدمت إلى الحمام وهى تكاد تسقط من

الإعياء ، ورأت الغلام يصرخ وقد سلخ جلده ، فأحست قلبها يغوص ، وتقدمت منه ولفته فى ثوب وحملته ، وخرجت إلى حيث كانت أمينة وقالت :

— كفى يا أمينة ، وتعالى نعالج الولد .

وكلت أمينة من الضرب ، فتركت قدم خير تئن وتتوجع وحملت سليما . والتفتت نفيسة إلى الجارية وقالت فى عتاب :

— حرام عليك .

فقالت قدم خير وهى تبكى :

— لم أقصد ، أردت أن أملأ الكوز بالماء البارد فاختلط علىّ الأمر .

فقالت أمينة فى ثورة :

— كذابة . والله لا أدرى ما الذى يبقيك هنا بعد أن عتقت ، اغربى عن وجهنا .

فقالت نفيسة :

— كفى يا أمينة قدر ولطف .

وجاءت أمينة بوعاء وبضع بيضات ، وجعلت تكسر البيض وتأخذ الزلال تدهن به جلد الولد المسلوخ ، ونفيسة تنظر وقد بان عليهما التأثر الشديد .

٢٥

المدينة فى حزن ووجوم ، فقد أعلنت الحماية البريطانية على مصر ، وما طلبت مصر الحماية وما فعلت ما يغضب المحتلين ، إن كل جناية مصر أن تركيا انضمت إلى ألمانيا فى حربها ضد الإنجليز ، فانتهزت إنجلترا فرصة زوال السيادة العثمانية ، لتهب البلاد المهيضة الجناح سيادة بريطانية ! .

وسخط الناس على ما ارتكبه المغتصبون ، وما كان لهم أن يظهروا سخطهم واستياءهم إلا همسا وهم يتلفتون ، فإن الجنود البريطانيين يملئون البلاد ، وإن أى بادرة عصيان لقمينة بهدر دم السكان العزل من كل سلاح ، فقبلوا الذل وهم كارهون .

وما أفاق الناس من هول النبأ حتى فاجأتهم بريطانيا بنبأ آخر مروع ، إذ خلعت الخديو عباس الثانى ، وكان فى تركيا ، وولت عرش البلاد الأمير حسين كامل . وساد الناس استياء مكبوت ، وما جرؤ أحد أن يرفع صوته لينفس عن الحنق الحبيس فى صدره ، وفتشت منازل الوطنيين ، واعتقل ناس كثيرون .

وعاد حسن إلى الدار وهو حزين ، ثم دخل غرفة الاستقبال وأخذ ينظر إلى الصور المعلقة بها ، كان بينها صورة الخديو ، وصورة محمد رشاد سلطان تركيا وأمير المؤمنين ، وصورة بطل المسلمين صلاح الدين ، فرفع الصور فى استياء ، ولفها فى عناية ، ووضعها فى مكان حريز . إنه يخشى أن تفتش داره ، فهو صديق رئيس جريدة من جرائد الوطنيين ، فتأخذ الصور قرينة على أنه من أنصار الأعداء ، ويزج به فى السجون .

كان حسن يميل إلى تركيا ، وكان يتمنى أن تهزم الإنجليز ، فقد كان يربطه بها رباط الدين ، وكان يرى فى انتصارها انتصارا للمسلمين . إنه يريد النصر لأمير المؤمنين وإن كان لا يستطيع أن يمد له يد العون ، فالاضطهاد والشدة والعسف كانت سمات السلطة العرفية التى وضعت يدها على البلاد .

* * *

وأصبحت قدم خير فى حزن ووجوم ، وأحست أنها مبغوضة فى الدار لا يعطف عليها أحد ، فسيدها لا يلتفت إليها ولا يحس بوجودها ، بينما كان

الحاج أسعد يعطف عليها ويغمرها بحنانه .. إن إعراض سيدها عنها هو ما يضايقها ويحرك حفيظتها ، فلو كان يرعاها ويفكر فى الطواف بها بين وقت وآخر ، لأمكنها أن تتحمل إساءات من فى الدار ، أما ومحمد لا يلتفت إليها فهى لا تطيق أحدا ، بل ولا تطيق نفسها .

وأحست ضيقا ، وخطر لها أن تترك هؤلاء الناس الذين لا يحبونها ، ولكن إلى أين تذهب ؟ إنها تنام فى سرير عال ، وتملأ بطنها بألوان شهية من الطعام والشراب ، ولا تكاد تعمل شيئا .

ولكن ما قيمة السرير العالى إذا كان لا يؤنسها فيه أحد ، وما قيمة الطعام والشراب إذا كانت نفسها جائعة ظمأى .

إنها لا تطيق أن تصبر أكثر مما صبرت ، وهى تحس فى نفسها فورة لا تقوى عليها ، فإما أن ينتبه محمد لوجودها ، أو تترك ذلك البيت لتبحث خارجه عما عز عليها داخله .

وعزمت قدم خير على أن تبرز فتنتها وأن تستغل مواهبها لتجذب محمدا ، فجعلت تسرح شعرها المفلفل ، وتدعك وجهها بحجر خاص وترطبه بالماء ، فبدا كزيتونة سوداء وضعت فى الزيت ، ثم ارتدت ثوبا نظيفا ، ونظرت إلى نفسها فى المرآة ، فاطمأنت إلى تسلحها .

وارتفع صوت أمينة :

— قدم خير ... قدم خير .

فسارت تلبى النداء فى خيلاء ، فلما رأتها أمينة فى زينتها ابتسمت وقالت فى سخرية :

— ما هذا الجمال !

فضحكت قدم خير فى نشوة ، وبدت أسنانها كهلال أبيض فى رقعة

سوداء ، فإن جمالها اليوم ملحوظ ظاهر للعيان .

وقالت لها أمينة :

ـــ خذى مصطفى لأتفرغ لإعداد سفرة العشاء ، فقد اقترب موعد عودة الرجال .

فتناولت قدم خير الصبى ، وخفق قلبها ، فهى الأخرى تنتظر عودة الرجال ؛ ثم عادت بالصبى إلى غرفتها ، وجعلت ترقب الباب فى خوف ورجاء .

وسبرح خيالها ، فلم تفطن إلى أن النهار ولى ، وأن الليل هجم ، وأن الظلام ساد المكان . وظلت غائبة عن نفسها حتى صكت أذنيها أصوات باعة اللبن الزبادى ينادون على بضاعتهم ، فتنبهت ، فقامت وأنارت مصباحها ووضعته فى الفناء قرب الباب لتكشف الداخل .

ونظرت إلى الطفل فتحركت غرائزها ، فضمته إلى صدرها بقوة وقبلته . وبلغ سمعها صرير الباب فالتفتت ثم هبت واقفة ، إنها تحس بخدر لذيذ يدغدغ حواسها ، فلو أعارها الداخل التفاتة !

لمحت محمدا يدلف من الباب ، فأولته ظهرها وأخذت تلاعب الطفل وتناغيه فى صوت متهافت منغم .

وتظاهرت بأنها لم تر الداخل ، فراحت ترسل ضحكاتها ناعمة لينة متكسرة ، وسار محمد فى طريقه ، فلفت بجسمها وهى تداعب الطفل فاصطدم بجسمه ، فرفعت عينيها إليه وابتسمت ، إنها الآن فى صدره ، وما عليه إلا أن يرفع يديه ويلفهما حولها .

ولكن محمدا انفلت من جوارها ، ووسع من خطوه ، وراح يصعد فى الدرج مهرولا كأنما يجد فى أثره عفريت .

وضاق صدرها بالأحاسيس المتباينة ، وعصفت بها رغبتها المكبوتة ، فتقلصت أطرافها وضغطت على الغلام بقسوة فصرخ ، فأفاقت إلى نفسها ، وجمعت فلولها وصعدت فى الدرج ودفعت بالطفل إلى أمه .

وأخيرا قررت قدم خير ترك الدار ، فإنها بعد أن حررتها الحكومة بقيت فيها برغبتها إكراما للحاج أسعد ، أما وقد قضى الحاج ، ولم يعرف أبناؤه قدرها ، فهى ستترك الدار غير آسفة .

وجاءت إلى نفيسة وقالت لها :

— إنى راحلة !

ولما كانت نفيسة تتمنى رحيلها ، ولا تعرف أن تخبىء شيئا فى نفسها ، فقد قالت فى سذاجة :

— أحسن يا بنتى .

كان ردا قاطعا ، فهبطت قدم خير إلى حجرتها تجمع حاجاتها ، وفتحت صندوقها الكبير وأخذت تضع فيه فرشها وثيابها ، وجعلت تلم أشياءها من هنا وهناك وأسعد وسليم يرقبانها ، ورأى أسعد أنها تعتدى على حاجات البيت ، فأسرع إلى نفيسة وقال :

— جدة .

— نعم يا أسعد .

— وضعت قدم خير الدقيق والبصل والخزين فى صندوقها .

فقالت نفيسة وهى تشير بيديها فى تسليم :

— لتأخذ يا بنى ما يحلو لها ، ولترحل .

وجاءت عربة وقفت أمام البيت ، ووضع عليها الصندوق ، وركبتها قدم خير وانطلقت بها إلى حيث لا يدرى أحد .

وكانت نفيسة وأمينة ينظران من وراء خصاص النافذة فى ارتياح ، فلما ابتعدت العربة تناولت أمينة قلة وكسرتها وراءها ، حتى لا تعود أبدا .

٢٦

عرضت زكية نفسها على هذه وتلك من المولدات ، وانتظرت الشهور بين يأس ورجاء ، ولما غلب اليأس الرجاء طرحت خجلها وعرضت نفسها على هذا وذاك من الأطباء ، ومرت الشهور فى أثر الشهور ولم يظهر للعلاج أثر .

وفى يوم جاءت تزورها امرأة من جاراتها وكانت تعلم تلهفها على الخلفة ، فقالت لها تطمئنها إنها بقيت سبع سنين دون أن تلد ، فوصفوا لها زيارة المندورة فلما زارتها حملت فى نفس الشهر .

فلما سمعت زكية ذلك أحست برد الراحة وعزمت على أن تزور المندورة . ثم بعثت إلى أمينة لترافقها فى زيارتها ، وفى الصباح الباكر استقلتا عربة انطلقت بهما فى طرقات القاهرة ميممة شطر الجيزة . وبلغت العربة دير النحاس فتوقفت ، وهبطت منها أمينة وزكية ودلفتا من باب خشبى حقير ، فوجدتا نفسيهما فى أرض فضاء كسيت بالنجيل الأخضر ، وفى وسطها حجرة صغيرة بنيت من الخشب حول شجرة كبيرة ، فيممتا شطر تلك الحجرة فوجدتا رايات صغيرة ممزقة يداعبها النسيم ، لقد علقتها بعض النسوة اللاتى حملن بعد زيارة المندورة اعترافا لها بالجميل .

وهب النسيم العليل من ناحية النيل فأنعش روح زكية ، فعزت تلك إلى بركة المكان ، والتفتت إلى أمينة وقالت :

— هذا المكان يرد الروح .

فقالت أمينة موافقة :

— لا ريب ، فهو مكان طاهر .

وتطلعتا إلى الحجرة الخشبية برهة ثم قالت أمينة :

— وما تفعلين للمندورة إذا حملت ؟

فقالت زكية فى حماس :

— أبدل كل هذه الرايات القديمة ، وأطعم كل من يخدمون المندورة وأكسوهم كل عام مرة .

وردد المكان زغاريد نسوة ، فالتفتت زكية فإذا قرويات يقبلن فرحات مهللات ، يقدمن الشكر للمندورة ، فقد حملت واحدة منهن بعد زيارتها وما كانت تحمل قبل ذلك ، فالتفتت أمينة إلى زكية وهمست فى دعاء :

— عقبى لك .

ومس ذلك أوتار قلب زكية ، فرفعت بصرها إلى السماء .

ودخلت زكية إلى باب الحجرة الضيق وتبعتها أمينة ، فوجدتا شجرة ضخمة قصيرة انحنت كقوس ، كأنما لتحنو على هؤلاء النسوة اللاتى جئن من كل صوب وحدب يمررن من تحتها ليلتمسن بركتها ؛ كانت تلك الشجرة هى المندورة !

ورأت زكية امرأة قروية ترشد النسوة إلى ما يفعلن ، ففطنت إلى أنها الموكلة بالمندورة ، فاقتربت منها ودست فى يدها خمسين قرشا ، فانبسطت أسارير المرأة وأقبلت على زكية ترشدها إلى ما تفعله فى حماسة . وطافت زكية بالمندورة سبعا ، وهمت بالخروج ، فقالت لها القروية ناصحة :

— لابد من عبور النيل فى قارب حتى تنمحى العكوسات .

وخرجت زكية منشرحة الصدر ، يداعبها الأمل ، وقالت لها أمينة :

ـــ هيا نعبر النيل .

فقالت زكية فى خوف :

ـــ ولكننى لم أركب البحر عمرى .

ـــ تعالى ولا تخافى .

وسارتا حتى بلغتا الشاطىء ، فوجدتا قاربا كبيرا امتلأ بالنسوة اللاتى جئن يعبرن البحر لفك العكوسات ، فقالت أمينة :

ـــ اهبطى .

ـــ لا يا أمينة إنى أخاف .

ـــ هل نحن أحسن من كل هؤلاء الناس !

ولما كان ما ترغب فيه زكية يستحق المغامرة ، فقد لمت أطراف شجاعتها وهبطت إلى المركب واجفة القلب ، مضطربة النفس ، وجلست فى وسط المركب ، وأخذت تقرأ الفاتحة فى سرها .

وسار المركب ، ثم مال حتى أصبحت حافته قريبة من سطح الماء ، فاضطربت زكية وتعلقت بأمينة وردّدت فى فزع :

ـــ أعجبك .. أعجبك ؟ انتهينا وقضى الأمر .

فأخذت أمينة تهدىء من روعها وتطمئنها ، وإن كانت فى قرارة نفسها لا تقل عنها خوفا ، ولكنها كانت لا تحب أن تنم عن خوفها أو ضعفها .

وعبر المركب النيل ثم كر راجعا ، وزكية متشبثة بكلتا يديها بأمينة ، وأخيرا رسا على الشاطىء ، فهبطت منه زكية ، تلتقط أنفاسها ، وتتلفت حولها فى فرح ، كأنما خلقت من جديد .

عادت زكية من المندورة منشرحة الصدر ، راضية النفس . .

وراحت تعد الأيام فى رجاء وخوف ، فلو تحقق أملها لكانت أسعد الناس ، ولحجت إلى المندورة تقدم لها شكرها وتوفى بنذرها .

٢٧

تدفقت الجيوش البريطانية على مصر ، وقاسمت الناس أرزاقهم ، فاجتاحت مصر موجة من الغلاء كانت وطأتها شديدة على الناس ، وراحت السلطة العسكرية تحشد العمال وتجمع المؤن والدواب قسرا ، فاستاء الناس ، وما كانوا يقدرون أن يجأروا بشكواهم ، أو يعلنوا سخطهم ؛ وكان الرجال يحشرون فى سيارات ويرسلون إلى مختلف الميادين ، فكانوا ينفسون عن صدورهم بالابتهال إلى الله أن يزيح عنهم ذلك الكابوس ، كانوا يرددون دعاء : « يا عزيز .. يا عزيز ، بمبة تأخذ الإنجليز » وكان الفلاحات يعددن وهن يطفن شوارع القاهرة على عربات كارو : « بلدى يا بلدى والسلطة أخذت ولدى » .

وراح الجنود يتحرشون بالناس ، يضربون هذا ، ويسبون ذاك ، ويغازلون النساء ويرفعن البراقع عن وجوههن ، فنزل بالمصريين كرب شديد ، وذاع أن الجنود يهجمون فى بعض الأحيان على الدور الآمنة يفضحون نساءها ، فرأى حسن أن يحصن داره وأن يتسلح ، فصنع لباب الدار الخارجى مزلاجا من حديد ، وأرسل إلى البيت سكينا كبيرة وبعض هراوات !

وحاول الترك اجتياز القناة ، فنشبت بينهم وبين الإنجليز معارك ، وأخذ أنصار الخديوى عباس يوسعون الأرض إذاعة أنه قادم فى أثر تلك الجيوش ،

وكانوا ينشرون أنباء انتصارات الترك العظيمة ، فتداعب الناس آمال حلوة ، يحسبون أن احتلال البريطانيين قد آن له أن يزول .

وراح الأولاد يعلنون فى سذاجة عن أمانى الشعب فكانوا يرددون وهم يلعبون « الله حى .. عباس جى » ، ولكن الجيش التركى انهزم هزيمة نكراء وارتد عن القناة ، فحزن الناس ، إذ ثبت الاحتلال أقدامه وباتوا تحت رحمة البريطانيين .

وكان التجار يفتحون جزءا من أبواب محالهم ، وكانوا على أهبة أن يغلقوا ذلك الجزء إذا همس هامس أن الجنود أقبلوا فى الشارع ، فمعنى إقبالهم بدء النهب . وفى يوم بينما كان أحمد فى دكانه القريب من منزله ، إذ جاءه إنجليزيان وجعلا ينظران إلى الرفوف ، فتوجس منهم خيفة ، وقام عن كرسيه ، وانتظر ما يفعلان ، فأشارا إلى علب السردين المرصوصة على الرف فأحضر لهما علبتين ، فالتفت كل منهما إلى الآخر وضجا بالضحك ، وأشارا إليه أن يحضر كل ما على الرف ، فأحس حزنا وغيظا ، إنهما يسلبانه أشياءه ولا يستطيع أن يحرك ساكنا ؛ لقد أصبح كهؤلاء التجار الذين كان يسخر منهم كلما سمع ما فعله الإنجليز بهم . ووضع علب السردين أمامهما فلم يكتفيا بها بل أشارا إلى أصناف أخرى ، فأحضرها لهما وكاد مرجل غضبه ينفجر ولكنه تحلم كارها وصبر ، وما كان من طبعه الحلم أو الصبر .

ومد أحد الجنديين يده ليأخذ النقود من الدرج ، فطار صواب أحمد ودفع الرجل فى صدره دون أن يحس خطر ما يفعل ، فزمجر الرجلان وكشرا عن أنيابهما ، فأيقن أحمد أن المسألة تحرجت وأصبحت مسألة حياة أو موت ، ورأى أن يعاجل الرجلين بالهجوم ليشق لنفسه طريقا يفر منه فقد كانا يسدان المنفذ الوحيد للدكان ، وفى مثل لمح البصر رفع كرسيه وهوى به على رأس

أحد الرجلين ، ثم رفعه وهوى به على رأس الثانى قبل أن يفيق من هول المباغتة ، وترنح الجنديان ؛ وهمّ أحمد بالفرار فجرى نحوهما ليخرج من الدكان ، فحسبا أنه يهجم عليهما ليفتك بهما فارتبكا ، ودفعهما فى هروبه فسقطا على شريط الترام .

وأسرع أحمد مرعوبا إلى مقهى قريب ، فلما رأى صاحب المقهى فزعه ، وكان صاحبه ، سأله عما به ، فأخبره بما جرى . فرأى الرجل أن يسارع لعون صديقه ، فحمل كرسيا وخرج ليرى المعتدين . ورأى صبيان المقهى خروج المعلم فخرجوا خلفه يشدون أزره ، ورأى الجنديان إقبال الرجال وفى أيديهم الكراسى ، فأطلقا سيقانهما للريح . وهرع أحمد إلى الدكان وأغلقه على عجل ، وأسرع إلى بيته يفكر فى أمره .

وجد أحمد أن من صالحه ألا يذهب إلى الدكان ، فإنه لا يأمن أن يعودا ليثأرا لنفسيهما فيحطما الدكان ويحطما رأسه ؛ ورأى زيادة فى الحيطة أن يتنكر ، فلم يسعفه خياله إلا بخلع عمامته ولبس الطربوش ، وقبع فى داره يحسب للجنديين ألف حساب .

وبلغ نفيسة أن أحمد تشاجر مع الإنجليز ، فانتابها فزع شديد ، وأخذت ترتدى ثيابها وتولول ، فهى تحسبهم قتلوه ، وما كانت تصدق أن ابنها ضربهم وفر ، وما كانت تعتقد أن هناك من يستطيع أن يضرب الإنجليز ، والسعيد فى رأيها من ينجو من شرهم وأذاهم .

راحت تقطع الطريق واجفة مضطربة ، يزداد اضطرابها كلما وقعت عيناها على جندى بريطانى ، فهى تخشى مجرد النظر إليهم ، ودخلت على ابنها وصدرها يعلو وينخفض ، وقلبها يخفق خفقانا شديدا ، ولما رأت ابنها سليما لا أثر فيه لجروح أو رضوض ، طفرت دموعها من عينيها وأقبلت عليه

تعاتبه وتصغى إلى قصته فى انتباه ، وجعل يروى لها كيف ضربهم ويبالغ فى روايته فترتجف فرقا ، وتحمد الله على أنه نجاه من أيديهم .

وانتشر فى الأسرة أن أحمد ضرب جنديين إنجليزيين ، فجاء محمد ليرى ابنه ، وأقبل حسن يطمئن على أخيه ، وجاء الأقارب مظهرين اهتمامهم ، وجلسوا يتحدثون ، فقال محمد لابنه :

— وما نويت أن تفعل ؟

فشاء أحمد أن يظهر عدم مبالاته ، فقال :

— لا شىء . سأنزل إلى الدكان غدا .

فقال محمد :

— هذا ليس من العقل .

فقال أحمد فى ثورة مفتعلة :

— أتود أن أغلق دكانى ؟

فقال حسن فى هدوء :

— أرى أن يبقى أحمد فى البيت لا يبرحه ، ويفتح ابنه الدكان حتى يمر هذا الحادث بسلام .

فأمن محمد على قول حسن ، وأحس أحمد راحة فى نفسه ، ولكنه ود أن يظهر عدم اكتراثه فقال :

— سأفتح دكانى بنفسى ، وليكن ما يكون .

فقال محمد :

— لا يا أحمد ، الرأى ما قال حسن .

وجلس أحمد فى الدار راضيا مطمئنا . وفتح ابنه الدكان ، وما انقضت ساعات من النهار حتى أقبل الجنديان يبحثان عن أحمد ؛ فلما لم يجداه سألا عنه

ابنه ، فقال لهما إنه عامل عنده وقد طرده أمس لما علم بما حدث منه ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث . فعقدت أواصر الصداقة بينهم ، وسألاه عن بيته فوصفه لهما .

وفى صبيحة اليوم التالى أقبل الجنديان يدعوان صديقهما المصرى ، ولمحهما أحمد فاضطرب وأسرع يختفى ، وخطر له أن يختبئ تحت السرير ولكنه رأى فى ذلك هدرا لكرامته . فقبع فى ركن سحيق يكاد يغمى عليه من الخوف .

وهبط ابنه للقاء صديقيه الجديدين ، وصافحهما وانصرفوا يضحكون ، وعلم أحمد أن ابنه خرج معهما فازداد حنقه ، فإن معنى هذه الصداقة أن يبقى شبح التهديد قائما ، وأن يظل هو فى سجنه لا يبرحه .

وعاد ابنه إلى البيت بعد ساعات ، فاستقبله فى ثورة وغضب وصاح به :

— لم أحضرتهما إلى البيت ؟

فقال ابنه معتذرا :

— لم احضرهما ، سألانى عن بيتى فوصفته لهما ، وما كنت أظن أنهما سيحضران إليه .

— إياك وإحضارهما إلى هنا مرة أخرى .

ومرت أيام وأحمد فى البيت لا يبرحه ، فأحس مللا ، وأراد أن يخرج فى ظلمة الليل ليجتمع بأصحابه ، ولكن ما يقول لزوجه ؟ رأى أن خير طريقة للخروج أن يجر زوجه إلى المجادلة ، ثم يظهر غضبه ويترك لها الدار .

وجلس بجوارها وأخذ يجرها إلى المجادلة ، حتى إذا جادلته هب حانقا وصاح :

— والله لأتركن لكم البيت .

ووضع طربوشه على رأسه ، وفتح الباب وأغلقه وراءه فى ثورة وعنف .

٢٨

امتطى ممدوح حمارا وذهب يزور جدته ويحضر أسعد الذى أمضى عندها أسبوعين ، وخرج سليم إلى الحارة يلعب مع الأولاد ، ووقف مصطفى على عتبة الباب يتلفت لا يدرى إلى أين يذهب ، ورأى أم عباس الندابة تجلس على باب بيتها ، فسار نحوها ووقف بالقرب منها ينظر فى فرح الأطفال إلى الكتاكيت الصغيرة التى كانت تجرى حولها ، وتشجع فتقدم يلعب بالكتاكيت ، فخشيت أم عباس أن يخنق كتكوتا ، فمدت يدها وجذبته وهى تقول :

— تعال ، اجلس هنا أحسن .

وجلس مصطفى فى حجرها ، وراحت تحتسى القهوة ، فلما انتهت من شربها قدمت إليه الفنجان وليس فيه إلا الثمالة ، فلوث فمه ولم ينزل فى جوفه شىء ، وشاءت أن ترى أهله أنها تفضلت على ابنهم بالقهوة فلم تغسل فمه بل راحت تزيد فى تلويثه بيديها . ثم حملته وصعدت الدرج حتى إذا بلغت شقة نفيسة صفقت ، فخرجت نفيسة لترى القادم ، فرأت أم عباس تحمل حفيدها وقد تلوث فمه وذقنه وجزء من خده بالقهوة ؛ وابتسمت أم عباس ابتسامة بغيضة ، فبدت أسنانها الصفراء المقوسة ، ولما أيقنت أن الجدة رأت آثار البن فى فم حفيدها ، قالت فى دعابة متكلفة :

— اسم النبى حارسه شرب القهوة كلها .

وفطنت نفيسة إلى ما ترمى إليه ، فمدت يدها وحملت مصطفى ، والتفتت إلى أم عباس وقالت :

ــ انتظرى يا أم عباس .

وغابت قليلا ثم عادت تحمل ورقة ملفوفة وقالت :

ــ خذى هذا البن .

فقالت أم عباس وهى تتناول القرطاس :

ــ لا والله . ولم هذه الكلفة ؟

وأخذت من هذا الوقت ترقب هبوط مصطفى إلى الحارة ، فقد أصبح مورد رزق لها ، فالبن غال ، والسكر غال ، فلو أن مصطفى نزل عندها لأمكنها أن تستفيد من جيرانها التجار الذين لا يحسون وطأة الغلاء ولا قيود التموين !

وهبط مصطفى واتخذ سمته إلى أم عباس ، فقد وجد مكانا يقصده إذا ترك الدار ، فلما لمحته فتحت له ذراعيها وصاحت بصوت عال لعله يصل إلى آذان أهله :

ــ أهلا بزوجى ... أهلا بزوجى .

وضمته إلى صدرها وأخذت تقبله ، ثم أجلسته إلى جوارها ، وأحضرت طبق باميا أخذت تأكل منه ، وما كان فى الطبق شىء كثير ، فلما انتهت لوثت فم الصبى ، ومسحت يدها فى صدره ، فتركت آثارا تدل على أنه لوث نفسه وهو يتناول الطعام فى نهم ، ثم حملت الصبى وصعدت به إلى أمه ، وهى حريصة على أن تدل القرائن على أن الولد شرب الطبيخ شربا ، ولما اقتربت من شقة نفيسة انسلت فى خفة فما كانت تحب أن تراها هذه المرة ، فالبن الذى أخذته لم ينقض عليه يومان ، وإنها تود أن تأخذ هذه المرة من أمينة ، مرة من هنا ومرة من هناك فلا يحس أحد مللا أو ضيقا .

ونقرت الباب فى رفق فأقبلت أمينة ، فلما رأت ابنها وقد تلوث فمه

وملابسه ، قالت فى إنكار :

ــ ما هذا الوسخ ؟

فلم تعجب هذه المقابلة أم عباس ، فقالت فى سخرية خفيفة :

ــ وسخ ! هذا طبيخ . اسم النبى حارسه شرب البامياء .

فأخذت الطفل منها وقالت :

ــ انتظرى قليلا .

وعادت تحمل طبق طبيخ يتصاعد منه البخار وقدمته إلى أم عباس ، فأخذت تنظر إليه وقد سال منها اللعاب ، لقد كان طبيخا طازجا ترصعه ثلاث قطع من اللحم الضأن الذى ندر فى تلك الأيام ، وما كان بائتا خلوا من اللحم كطبق البامياء الذى تناولته ولوثت بيقاياه فم الغلام .

وأصبح مصطفى يجلس عند أم عباس طول النهار ، فإذا غابت عن الدار فى مأتم جلس مع عباس وأخذ يرقبه وهو ينظر فى مرآة صغيرة فى يده ، ويجذب الشعيرات الصغيرة التى فى ذقنه بملقط ، فما كان عباس يحب أن تنبت له لحية أو شارب ، وما كان يحب أن يخلق رجلا ، فما يشارك الرجال أعمالهم ، بل كان يذهب للم الندابات ومحاسبتهن ، وكان يشبههن فى حديثه ، فكان يمط الألفاظ فى نعومة مثلهن ، وكان إلى عهد قريب يتزين بقرط وأساور من ذهب .

ودخل مصطفى حجرة أم عباس كعادته فألفاها وضعت نقودا فضية فى غربال وأخذت تعدها ، فلما رأته أسدلت عليها طرحتها وصاحت فى غضب :

ــ عباس ، خد الولد .

فوضع عباس المرآة والملقط على عتبة الباب ، ودخل وحمل مصطفى

وجعل يغنى له أغنية مشهورة فى صوت أجش ، لا هو صوت رجل ولا هو صوت أنثى ! وحان موعد الغداء ، فتغدى عباس وأم عباس ، وتلوث فم مصطفى وملابسه كالمعتاد ، ولم يعد هناك حاجة لأن تحمل أم عباس الطفل وتصعد به ، فقد علم الجميع أنه يشاركها طعامها ، وأنه أصبح زوجها ، وكان يكفى أن تقف فى وسط الحارة وتهتف بصوتها البغيض :

ــ مصطفى ... مصطفى ، لتهبط خادمة تحمل الطفل وتعود بطبق الطبيخ ، وأصبح ذلك الطبق ضريبة لابد من دفعها .

وفى يوم كسرت أم عباس زجاجة المصباح ، وكانت الزجاجات غالية نادرة ، فحزنت لكسرها ، ولمحت حسنا خارجا فى الصباح ، فتقدمت منه وقالت فى صفاقة :

ــ النبى حارسه كسر الزجاجة .

كأنما كان مصطفى نائما عندها ، ونهض فى الليل وكسرها ، فمد حسن يده فى جيبه وأخرج مبلغا دفعه إليها فى سكون .

وهبط مصطفى على رغم تحذير أمه ، وذهب إلى أم عباس ، فوجد عندها كلبا صغيرا ففرح به وأراد أن يأخذه ، فقالت له فى خبث :

ــ دعه يا مصطفى ، إنه لم يأكل .

ــ سآخذه وأطعمه .

ــ إنه لا يأكل إلا سكرا .

فأطرق الصغير قليلا . ولم تدعه أم عباس يقدح فكره ليحل هذه المعضلة فقالت له :

ــ عندكم سكر كثير ، اصعد وأحضر بعضا منه .

وصعد مصطفى ، وذهب إلى أمه وجعل يتمسح بها فالتفتت إليه

وقالت :

ـــ ما تريد يا مصطفى ؟

ـــ سكر .

ـــ لم ؟

ـــ لأم عباس .

ففتحت صوانا وأخرجت منه علبة كبيرة ، وأعطت مصطفى بعض السكر ، فهبط إلى أم عباس فى سرور ، ودفع إليها بما أحضر ، فتهللت أساريرها ؛ ولكن جشعها لم يقنع ، فالتفتت إليه وقالت :

ـــ هذا للكلب فأين نصيبى ؟

فوقف مصطفى لا يدرى ما يفعل ، فهمست له :

ـــ اذهب وأحضر لى بعض السكر دون أن تراك أمك .

وأرادت أن تزيد فى إغرائه فقالت له :

ـــ خذ الكلب .

فحمل الغلام الكلب فى فرح ، وأخذ يصعد فى الدرج مغتبطا حتى إذا بلغ السطح ترك الكلب فى الشمس ، ونزل إلى شقتهم ليحضر السكر لأم عباس دون أن تراه أمه ، وسار على أطراف أصابعه حتى إذا بلغ الصوان فتحه فى رفق وأزاح غطاء العلبة وأخذ يملأ جيوبه ، وفاجأته أمه فارتبك وبان عليه الفزع ، فلما رأت اضطرابه قالت له :

ـــ ماذا تفعل ؟

فلم يحرك ساكنا ، بل ظل فى وجومه ، فاقتربت منه ومدت يدها فى جيبه وأخرجت السكر وقالت فى غضب :

ـــ لمن هذا ؟

فقال فى خوف :

ــ لأم عباس .

فصفعته على وجهه وقالت فى ثورة :

ــ ستعلمك أم عباس السرقة !

فأطرق فى خزى ، وتذكر أنه أخذ الكلب مقابل السكر ، ولما كانت أمه قد أخذت السكر منه ، فإن ذلك الكلب لم يعد له ، فصعد إلى السطح فى حزن ، وحمل الكلب وهبط به حتى إذا ما بلغ بيت أم عباس لم يجرؤ على الدخول ، فترك الكلب على عتبته ، وعاد حزينا يحس جرم ما فعل .

٢٩

التحق ممدوح بمدرسة ابتدائية ، وذهب أسعد وسليم إلى مدرسة أولية كانت فى نهاية الحارة ، وبقى مصطفى يلعب فى البيت ، وجاءت زائرات ففتحت لهن أمينة غرفة الاستقبال ، فخلعن أحذيتهن حتى لا ينجسن البساط ، فقد كان الناس فى ذلك الوقت يصلون على تلك الأبسطة .

وأقبل مصطفى ليجلس مع الزائرات ، فلمحته أمينة فأسرعت إليه وأخذته بعيدا ونهرته ، فقد كانت ترى أن مشاركة الأطفال الزوار فى جلساتهم قلة أدب وسوء تربية ، فشب أبناؤها جميعا يهابون الناس ويفرون منهم كأرانب مذعورة ، ويتعثرون فى مشيهم إذا سدد إليهم أحد نظره طويلا ، وكانوا يذوبون خجلا إذا ما دخلوا على أحد أو اضطروا إلى التسليم على أحد .

وشاءت أن تغريه بالخروج فأعطته مليمين ، فنزل ووقف على باب البيت

يفكر أين يذهب ، فخطر له أن يذهب إلى المدرسة ليرى أسعد وسليما ! وما عليه إلا أن يقطع الحارة المتعرجة كثعبان حتى يجد المدرسة أمامه .

وسار مصطفى ، كان كلما وجد أطفالا يلعبون وقف ينظر إليهم ، ولا يجرؤ على أن يشاركم لعبهم ، حتى إذا رأى باب المدرسة هرول ودلف منه ، ثم راح يجوس خال الفصول وهو يصيح فى فرح :

ــ معى نيكلة .. معى نيكلة .

فضحك المدرس وضحك الأولاد لضحك مدرسهم ، وأحس أسعد وسليم خجلا ، واحمر وجهاهما ، فإن أخاهما يقول هذرا يجلب الغضب ، ولمح مصطفى أخويه جالسين على مقعد واحد ، فأسرع إليهما فى سرور وجلس بجوارهما ، فازداد ارتباك الولدين ، واستمر مصطفى فى جلبته وضوضائه فقال المدرس لسليم .

ــ أرجع الولد إلى البيت وعد :

فقام سليم وقد صهدت أذناه ، وأخذ يد مصطفى وسار فى ارتباك حتى ترك الفصل ، حتى إذا خرج من باب المدرسة راح يعنفه ومصطفى لا يفهم لغضبه سبيا .

وفى العصر جاء أسعد وسليم فانضم مصطفى إليهما ، وأخذ يلعب معهما فى الحارة ، ومالت الشمس للمغيب ، فراح الناس يعودون إلى دورهم ، وأقبلت عربة كارو تكركر فى الحارة ، ثم وقفت أمام المسمط المهجور ، وتخلف الحوذى قليلا ليصلح من شأنه ، ورأى مصطفى العربة فتقدم منها ومد يده الصغيرة وسحب الحمار ، ولمح الحوذى العربة تسير ، فصاح بالحمار أن يقف ، ولكنه استمر فى سيره ، فقد كان هناك من يسحبه . وأسرع الرجل خلف العربة ، فرأى من خلل عجلتها شيئا صغيرا يسحب

الحمار فى الظلام ، ففزع وفر وهو يصيح :

ـــ العفريتة أخذت الحمار ، العفريتة أخذت الحمار ..

صور له خياله أن عفريت صباح ظهر له واستولى على حماره ، وأقبل معه رجلان ، وتقدموا من العربة فى احتراس وقد ملأ الخوف جوانحهم ، حتى إذا ما رأوا العربة تسير وحدها اطمئنوا بعض الشيء ، ومد الرجل يده فتناول زمام حماره وأخذ يستحثه على العدو ، ويتلفت خلفه فى خوف .

* * *

غابت الشمس ، ولم يظهر القمر ساطعا كالليلة السابقة ، بل بدا مغبشا محجوبا . كانت ليلة من الليالى النادرة التى يخسف القمر فيها ، فسرى فى الحارة أن القمر مخنوق ، فشخصت الأبصار إلى السماء فى خوف . واستمر القمر فى احتجابه فأحس الناس رهبة ، وراح الأولاد يجمعون قطع الصفيح يضربون بعضها ببعض ، أو يضربونها بعصى فتهتك أصواتها سكون الليل ، وترتفع الضوضاء والجلبة ، فتنزل بالقلوب رهبة ، ورأى أسعد وسليم ومصطفى أن يفعلوا كما يفعل الأطفال وينشدون : فأخذوا صفيحة الغسيل وجعلوا يدقون عليها فى شدة وفرح :

« يا بنات الحور   سيبوا القمر ينور

دا القمر شاب وغندور »

واستمر الخسوف ، كأنما جعجعة الصفيح الصاخبة لم تصل إلى بنات الحور ، وكأنما ابتهال الناس إليهن لم يحرك قلوبهن فيتركن القمر الغندور ، وزاد فزع الناس فصعدت النسوة إلى الأسطح يضربن الطساس النحاس ، وصعدت نفيسة إلى السطح وتطلعت إلى القمر المخنوق فسكنت الرهبة قلبها ، فجعلت تهتف فى خشوع :

— « يا لطيف الطف بنا ، نحن عبيدك كلنا .. يا لطيف الطف بنا ، نحن عبيدك كلنا » وارتفعت أصوات الابتهال من كل جانب ، وأخذ الناس يموج بعضهم فى بعض كأنما كان هذا نذير الساعة ، وكأنما القيامة قائمة عما قليل .

ولم تغمض عين تلك الليلة ، وكيف تغمض والقمر مخنوق ، وكيف تغمض وجلبة الصفيح والطساس تصم الآذان ، وتطرد النوم إذا فكر أن يطوف بمجهد أو نئوم !

وابتدأ الخسوف ينقشع ، فخفتت الضوضاء ، ونزل بالقلوب أمن ، وساد الكون هنيهة صمت رهيب ، فقد أطل القمر من السماء بصفحة وجهه على الناس ، فأحسوا كأنما يشكرهم على مشاركتهم إياه فى محنته ، فارتفعت الأصوات وجلجلت زغاريد النسوة .

* * *

وسكن الشقة المتواضعة التى بنتها أم عباس فوق منظرتيها مدرس من مدرسى المدرسة الأولية التى تتشرف بمواجهة الحارة ، ويتشرف أسعد وسليم بالانتساب إليها ، وحسب المدرس أن من حقه بصفته المربى الجليل أن يسخر الأولاد فى قضاء حاجاته ، ففى يوم رأى سليما فخطر له أن يبعثه لشراء سمن ومخلل ، فالتفت إليه وقال :

— تعال يا سليم معى .

فارتبك سليم ، وسار خلف مدرسه صامتا ، ورأى مصطفى ، وكان يقف على عتبة الباب ينتظر بائع الحلوى ليشترى منه أى شيء بالمليمين اللذين كان يقبض عليهما فى حرص ، رأى أخاه يسير خلف المدرس ، فناداه وهرول نحوه ، ولكن سليما ظل على صمته وتأدبه ، فكيف يتكلم وهو فى حضرة المربى المفضال .

ودلف المدرس من الباب ، ودلف خلفه سليم وتبعهما مصطفى ، وساروا فى الدهليز المعتم يتحاشون الاصطدام بالمواجير التى انكفأت هنا وهناك ، أو بأقفاص الجريد التى بعثرت فى غير نظام ، وصعدوا فى الدرج وكان بلا درابزين ، فكان مصطفى يلتصق بالحائط خشية السقوط فى بئر السلم ، حتى إذا بلغوا باب الشقة دخل المدرس ووقف سليم ومصطفى ينتظران .

وعاد المدرس يحمل كوبا وسلطانية دفعهما إلى سليم . وأعطاه قرشا وقال له :

— هات فى الكوب سمنا بستة مليمات ، وفى السلطانية مخللا بأربعة .

فهبط سليم ومصطفى ، وانطلقا إلى تاجر فى الشارع الرئيسى ، وطلب سليم سمنا بستة مليمات ، فلما دفع التاجر الكوب إلى سليم نظر إلى الكمية الضئيلة فى خوف ، وخشى أن يظن المدرس أنه لم يشتر بالنقود كلها ، فاضطرب وأحس الدم يصعد إلى وجهه ، وخطر له خاطر ، إن معه نصف قرش ، فلم لا يشترى به سمنا يضيفه إلى ذلك السمن فيوفر على نفسه غضب المدرس ، وأعجبته الفكرة ، فمد يده فى جيبه وأخرج مصروف اليوم ودفع به إلى التاجر .

وأخذ سليم السمن ، وسار ومصطفى إلى بائع المخلل ، واشترى منه بأربعة مليمات ، ولكن ما اشتراه لم يعجبه ، فما يفعل وقد نفد ما معه من نقود ؟ إن مع مصطفى مليمين ، وهو لا يبخل بهما عليه ، فالتفت إليه وقال :

— هات يا مصطفى المليمين نشترى بهما مخللا للمدرس .

فدفع مصطفى بالمليمين إليه ، وطلب أن يحمل السمن ، فأعطاه سليم

الكوب وعادا إلى المربى المحظوظ سعيدين راضيين .

ونظر المدرس إلى ما أحضر سليم وقال متعجبا :

— أهذا كله بقرش ؟

فأومأ سليم برأسه ؛ فقال المدرس فى تأكيد :

— لن أبعث أحدا لشراء حاجاتى سواك .

ودخل المدرس مغتبطا ، بينا هبط سليم منقبضا ، فلن يتمتع بمصروفه بعد اليوم .

٣٠

وانتقل الأولاد إلى مدرسة ثانية أوسع من الأولى ، فيها بنون وبنات ، ومدرسون ومدرسات ، وناظر وناظرة ، ولكن كان بين كل جنس وجنس سد منيع ، لا يجتازه إلا الناظر الهمام .

وذهب مصطفى إلى المدرسة أول يوم فى سرور ، فقد كان يحسبها دار لعب وتسلية ، وما خطر على قلبه أنها دار تعذيب . فلما انقضى اليوم الأول علم أنه دخل سجنا بغيضا ، فقرر ألا يذهب فى اليوم التالى . فلما أصبح الصباح لم يغادر فراشه ، وتناوم لعل أمه لا توقظه ، ولكن أمه جاءت إليه وهزته ثم حملته ، وأخذت تلبسه ملابس المدرسة وهو يتوسل إليها أن تدعه يبقى ذلك اليوم فقط ، ولما لم تلتفت إلى توسلاته علم أنها قررت أن يذهب إلى المدرسة فبكى ، ونام على الأرض ، وأخذ يضرب بيديه وبرجليه . وتقدم أسعد وسليم ليأخذاه معهما فارتفع عويله ، فأمرت أمينة أسعد أن ينادى عباسا ، فلما جاء حملته مصطفى ، وطلبت منه أن يذهب إلى المدرسة ،

فجعل مصطفى يضربه فى صدره ، ويحاول أن يتملص من يده ، ولكن عباسا هبط به وأسعد وسليم فى أثرهما . فلما رأى مصطفى ألا فائدة من البكاء ، صمت على مضض .

ودخل الأولاد فصولهم ، ودخل مصطفى مع أخويه وجلس معهما ، وجاء مدرس ذو عمامة صغيرة ، وقفطان مخطط ، وجبة زاهية ، وكان كأولئك المقرئين الذين يرتدون ثيابهم الفاخرة يوم الجمعة ، ويقفون عند المدافن ، ويتقدمون من السيدات ، ويرددون فى إلحاح : « سورة يا ست ؟. سورة على روح المرحوم ؟ » وتقدم من السبورة وكتب عليها : « إملاء » ، ففتح الأولاد كراساتهم ، وتطلعوا إلى مدرسهم فى انتباه ، وراح المدرس يقطع ممرات الفصل صاعدا هابطا فى خيلاء وقد وضع يديه خلف ظهره تحت الجبة ، وهتف : « اكتب » فأصاخ الأولاد السمع ، وتعلقت عيونهم بفمه ، وابتدأ فى الإملاء ، وراح يمط الحروف ، ويتشدق بالألفاظ ، كأنما ينطق بالدر المكنون ، وجلجل الصوت ، وجعل يملى فى ثقة واطمئنان : « أكل السمك على اللبن ليلة الأربعاء يورث الجنان. » . وانتهت الإملاء ، فصاح فى الأولاد : « ضعوا الأقلام » فوضع الأولاد الأقلام فى شدة متعمدة ، وهرعوا إلى النوافذ المهدمة وإلى أركان الحجرة يحضرون بعض التراب الناعم ينثرونه على الحبر ليجف ، وراح المدرس العلامة يمر على تلاميذه يصحح لهم أخطاءهم !

كان الأولاد يلعبون فى الفسح فى فناء المدرسة الضيق ، وكان يحلو لمصطفى أن يقف بجوار الباب المحرم الذى يقود إلى مدرسة البنات ، إنه يود أن يدلف منه ليرى ما وراءه ، فإن كل ممنوع مرغوب ، وراح يمد بصره لعله يرى شيئا ، فلمح الناظر مقبلا من الباب ، وتقدم إلى الباب الآخر الذى يقود

إلى فصول البنات ، ومصطفى يغبطه على ما هو فيه من نعيم ، فإنه يستطيع أن يذهب حيثما يحلو له ، بينا لا يستطيع هو أن يتجاوز عتبة ذلك الباب .

وخطر له أن يدخل ، ولم يستطع مقاومة إغراء الفكرة ، وتقدم حتى إذا أصبح فى منتصف الطريق بين الباب الخارجى والباب الذى يقود إلى فصول البنات سمع فراشا يصيح :

— ولد .

ففر واندس بين الأولاد يرتجف خشية أن يقبض عليه ويسلمه إلى الناظر .

وفى يوم تأخر الأولاد فى الصباح ، فراحوا يجرون فى الطريق الطويل الموصل إلى المدرسة ليبلغوها قبل دق الجرس ، فانبهرت أنفاسهم ، وتصبب العرق منهم ، وخفف مصطفى من عدوهم ، فبلغوا المدرسة وقد اصطف الأولاد صفوفا ، فأسرعوا يدخلون الصفوف ، فلمحهم الناظر ، فأشار إليهم فتقدموا منه يرتجفون ، فطلب منهم أن يقفوا فى ناحية ، فوقفوا ينتظرون القضاء ، وجاء أولاد آخرون متأخرين فانضموا إليهم ، وسارت الصفوف إلى الفصول ، وخلا فناء المدرسة إلا من المتأخرين وحضرة الناظرة وفراش ومدرس ، فصاح الناظر فى الفراش :

— الفلقة حالا .

فهرول الفراش وأحضر قطعة حصير فرشها على الأرض ، وقدم الفلقة لحضرة الناظر ، وكانت عبارة عن قضيب من الخشب شد إلى طرفيه حبل ، توضع فيه قدما المذنب ، ويلف القضيب فيمسكهما بطريقة جهنمية ، ويهوى حضرة الناظر عليهما بعصاه الخيزران كما يحلو له ، دون أن يهز قلبه عويل الطفل وتوسله بالأولياء والنبيين ، وصراخه وقسمه أنه قد تاب من الذنب العظيم .

وبكى الأطفال لما رأوا آلة التعذيب ، وجعلوا يتضرعون إلى حضرة الناظر أن يعفو عنهم ، ولكن حضرة الناظر لم يلتفت إلى دموعهم ، ولم يرحم فزعهم ، فقد اعتاد أن يرى تلك المناظر يوميا ، وقد اعتاد أن يضرب الأولاد فى لذة ، كما اعتاد أن يأكل طبق الفول المدمس كل صباح فى شهوة .

ولمح الناظر مصطفى بين المذنبين فأخرجه من بينهم ، لا شفقة عليه ، ولكن خشية أن يموت فى يده ، وأشار إلى أسعد أن يتقدم ، فتقدم يرتجف ودموعه تسح من عينيه ، وقبض الفراش عليه كما يقبض الجزار على خروف العيد ، وطرحه أرضا فى قسوة ، وخلع نعليه ، ووضع قدميه فى الفلقة ورفعهما إلى أعلى ، وأهوى الناظر عليهما بعصاه ، ورأى مصطفى ذلك ، فأخذ يبكى ، كأنما كانت الضربات التى تنهال على رجلى أسعد تنهال على رجليه هو .

وترك الفراش أسعد ، يحاول أن يدس قدميه فى الحذاء : وجذب سليما ، فارتجف فى يديه ، وصرخ فى رعب ، فأحس مصطفى كأن شوكة تنغرز فى قلبه ، وألقى الفراش الصبى على الأرض فى قسوة ، ورفع رجليه فى الفلقة .

ثم ترك سليما وجذب ضحية أخرى . كأنما انقلب فناء المدرسة ساحة سجن ، وكأنما انقلب الناظر جلادا لا قلب له ، وكأنما انقلب التلاميذ الأبرياء مجرمين خطرين ، وما كان ينقص هؤلاء العتاة إلا طبيب يكشف على التلاميذ قبل ضربهم ، ويشرط مواضع الضرب بسلاحه حتى يصبح حرم المدرسة ساحة جلد قانونية .

ودس سليم رجليه فى حذائه ، وسار فى أثر سعد يتمايل من الألم ، وخلفهما مصطفى يمسح بكمه الدموع التى تنهمر من عينيه .

٣١

ووضعت أمينة مولودها الخامس ، وجاء ذكرا أيضا فبكت أو كادت لميل بختها ، فهى لن تنجب بنتا أبدا ، وهى تذكر قول الحاج أسعد إذ يداعب زوجها : أنت رجل مثلى لا تنجب بنات . وهى تعتقد فى ذلك القول الآن ، وتنظر إليه على أنه نبوءة لن تنزل الأرض . لقد رفعت الحجب عن عينى الحاج أسعد فى تلك اللحظة ، فقرأ فى سجل الزمن ما يخبئه لها القدر .

وجاءت زكية وهنأت زوجة أخيها بمولودها الجديد ، ثم عادت إلى دارها تفكر فى نفسها ، لقد سخر الزمن منها مدة طويلة ، وأمعن فى سخريته إذ استصحبت أمينة فى زيارة المندورة ، فإذا بها لا تحمل ، وإذا أمينة هى التى تحمل .

ولم ينفع الأطباء ، ولم تجد الوصفات ، وما ظهر للمندورة أثر .. وقيل لها أن تزور دار الآثار فرؤية المومياء ــ ويقولون عنها المساخيط ــ تنفعها ، فذهبت إلى دار الآثار ، وطافت بها ، ورأت المساخيط جميعا ، ومع ذلك لم تحمل .

فنزل بما هم ثقيل ، وانتابتها حالات عصبية . فصارت ترتمى على الأرض فاقدة النطق ، فتهرع خادمتها إلى الجيران تدق بابهم ، فيسرع إليها النسوة يرششن على وجهها ماء الورد ، ويضربنها على صدغها فى رفق حتى تفيق إلى نفسها ، وتعود إلى وعيها .

وفى يوم ارتمت على الأرض ، وتخشب جسمها ، وشخص بصرها إلى السقف ، وثبت لا يتحرك ، وجاء النسوة إليها وحاولن إفاقتها ، ولكن دون

جدوى . فطلب النسوة من الخادمة أن تستدعى الست الكبيرة ، فخرجت تجرى حتى بلغت الدار ، وأخذت تفضى إلى نفيسة بالنبأ مبهورة النفس ، فأحست نفيسة بالقلق ، وأخذت ترتدى ثيابها على عجل ، وذهبت تهرول وهى لا تدرى كيف تسير ، حتى إذا دخلت على ابنتها ، ورأتها ممددة والنسوة حولها ، انحطت على الأرض ، وأقبلت عليها تناديها :

— زكية .. زكية .. أنا أمك .. ردى على يا حبيبتى .

وجعلت تضربها على صدرها برفق دون جدوى ، وظلت زكية فى تشنجها وتصلب أطرافها ، وسرى فى المكان همس أن جسدها لم يعد خالصا لها ، وقيل إنها نامت حزينة فشاركها فى جسمها العفاريت ، ولما بلغ ذلك الهمس مسامع نفيسة ، اطمأنت نفسها بعض الشيء ، فلو أن الذى بها من العفاريت لأمكن ترضيتهم ، وكأنما اقتنعت نفيسة بما قال النسوة ، فجعلت تستعطف العفاريت الذين يؤذون ابنتها .

— دعوها يا أولاد الحلال ، دعوها وأنا أفعل كل ما يرضيكم .

وأخذت تتوسل إليهم فى صوت مختنق ، ولكن زكية ظلت فى غيبوبتها . وكسرت امرأة بصلة وقربتها من أنف زكية ، فتحركت وامتعض وجهها وزاد تصلبها ، فقالت نفيسة راجية .

— ارفعى هذا البصل فرائحته تؤذيهم .

ورفع البصل فقالت :

— شوية بخور .

فأحضرت امرأة ورقة صغيرة ملفوفة فى عناية ، وذهبت إلى المطبخ وأشعلت موقد « السبرتو » ووضعت فوقه قطعة صفيح صغيرة ، فلما سخن الصفيح وضع فوقه البخور فتصاعد الدخان . ووضع تحت أنف زكية

وبخرت به فلم تفق وظلت فى تمددها ، فقالت إحدى الحاضرات :

— أحضروا مؤذنا يكبر فى أذنيها .

فقالت نفيسة فى وجل :

— أخشى أن يؤذوها !

فقالت أخرى :

— هذا آخر حل .

ووجدت نفيسة نفسها مضطرة إلى معاداة « الأسياد » الذين لبسوا بنتها ، إذ بدأت تقلق عليها ، فاستدعت الخادمة وقالت لها :

— اذهبى إلى سيدك محمد فى الدكان ، وقولى له أن يأتى ويحضر معه من يكبر فى أذن ست زكية ، فإنها « ملموسة » .

فخرجت الخادمة ، وازدادت حالة زكية سوءا فحسبت نفيسة أن هذا القرار لا يعجب « الأسياد » ، فأخذت تتوسل إليهم :

— لم هذه الأذية يا أولاد الحلال ! دعوها يا أولاد الحلال وأنا أفعل كل ما تطلبون .

وجاء محمد يتبعه مؤذن الجامع القريب من دكانه ، فهرع النسوة إلى حجرة قريبة وأغلقن بابها عليهن ، ولكنهن تركن فرجة ينظرن منها ما يجرى فى حجرة زكية ، ودخل محمد واجما فرأى زوجه بجوار ابنته الممددة كلوح من الخشب ، فسألها فى اضطراب :

— ما لها ؟

فقالت نفيسة والدموع تطفر من عينيها :

— لم يعد جسمها خالصا ، لمسها إخواننا ، ومن ساعتين وهى على هذه الحال .

فقال محمد وقد أطرق فى حزن :

ــ وما العمل ؟

ــ دع المؤذن يكبر فى أذنيها فتفر العفاريت إذا سمعت الأذان .

ونظر محمد إلى نفيسة كأنما يقول لها : وأنت هل تظهرين هكذا أمام الرجل ، وفهمت نظرته ، فانسحبت إلى الغرفة الأخرى ، وأدار محمد عينيه فى المكان ، حتى إذا وقعنا على ملاءة كبيرة على أحد المقاعد ، تناولها وستر بها جسد ابنته ، ثم أذن للرجل بالدخول .

ودخل الرجل وركع بجوار زكية ، ورفع رأسها بين يديه وعاونه محمد فى رفع جذعها ، وراح الرجل يكبر فى أذنيها بقوة ، ليرهب العفريت الذى تسرب إلى جسمها ، وليرغمه على الفرار .

وانتهى الأذان وزكية على حالها ، وانسحب المؤذن ، فخرجت نفيسة وجلست بجوار ابنتها تناديها وتفرك يديها فى قلق وخوف .

وبعد مدة تحركت زكية ، وفتحت عينيها وراحت تجيلهما فى الحاضرين فى ذهول ، فأشرق وجه نفيسة وأحس محمد أمنا .

* * *

وأخذت زكية تروح فى غيبوبة بين وقت وآخر ، وأخذت نفيسة تهرع إليها فى كل مرة لتكون بجوارها فى محنتها ، ولما رأت نفيسة ما تقاسيه ابنتها عزمت على أن تضع لعذابها حدا ، فقررت أن تعرضها على شيخة الزار .

وذهبت زكية ونفيسة إلى ربع عتيق فى حى عتيق ، ودخلتا على الشيخة وسلمتا فى توقير واحترام ، وجلستا أمامها صامتتين ، حتى إذا سألتهما عما دعاهما لتشريفها ، أخذت نفيسة تقص عليها ما يحدث لابنتها ، ولما انتهت من قصتها ، تطلعت إليها فى انتباه ، فأطرقت الشيخة إطراقة طويلة كأنما تفكر فى

أمر خطير ، وجعلت تنكت الأرض بعود فى يدها ، ونظرت إلى العود نظرة طويلة كأنما تستلهمه الرأى ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— لابد أن يبيت عندى « أثرها » الليلة قبل أن أبت برأى .

فدفعت زكية إلى الشيخة بمنديلها ، فطوته ودسته فى صدرها وقالت :

— مرا على غدا عند غروب الشمس أخبركما بالنتيجة .

وانصرفت زكية ونفيسة ، وفى اليوم التالى عادتا إلى الشيخة ليسمعا حكمها ، فلما جلستا إليها قالت فى ثقة كأنما تقرأ فى كتاب مفتوح :

— نامت ست زكية فى حجرتها وحدها ، وبكت قبل أن تنام ، فآذى بكاؤها إخواننا الذين يشاركونها فى حجرتها ، فالأرض كما تعلمان ليست لنا وحدنا ، فلمسوها ليؤذوها كما آذتهم .

فأحست نفيسة رهبة ، وقالت فى همس :

— ما يودون الآن ؟ .

— ترضية .

فقالت نفيسة فى سذاجة :

— نحن على استعداد لنقدم الترضية التى يطلبونها .

ورأت الشيخة أن الصيد سهل ، وأنه فضلا عن ذلك غنى ، فرأت أن تعمل على ابتزازه ، فأطرقت قليلا ثم قالت فى نبرات أخاذة ، هزت قلبى زكية ونفيسة :

— اتصلت بهم وعرضت عليهم أن نذبح على السكت ما يطلبون ، وأن نكتفى « برضوة » ، فقبلوا وكدت أنجح فى مسعاى لولا السجان فإنه أصر على دق الدفوف ، فانحاز إليه الباقون جميعا .

ولم تفطن نفيسة تماما إلى ما تريد أن تفضى به الشيخة فسألت :

— وفيم يرغبون الآن ؟ .

— فى إقامة زار بالطبول والدفوف .

فتنفست الصعداء وقالت :

— لهم ما يريدون .

واطمأنت الشيخة إلى إقامة الزار ، فالتفتت إلى زكية وسألتها :

— أما رأيت فى منامك طيورا وحيوانات ؟.

فقالت زكية بعد قليل :

— لا أذكر .

— ألا تذكرين أنك رأيت دجاجة سوداء أو حمراء ، أو عجلا أو خروفا له علامة خاصة أو أى شىء من هذا القبيل ؟

فقالت زكية فى ارتباك :

— والله لا أذكر يا ست الشيخة .

— تذكرى كل ما ترينه وقصيه علىّ .

— حاضر .

وانصرفت نفيسة وزكية ، وعادت زكية إلى بيتها ورقدت فى فراشها ، فجعلت تستعرض ما مر عليها ذلك اليوم ، ثم راحت تفكر فى الطيور والحيوانات قبل أن يطوف بها المنام .

وفى عصر اليوم التالى أقبلت الشيخة ودخلت على زكية ، فراحت هذه تكرمها وتتودد إليها ثم قالت لها :

— رأيت بالأمس ...

فأسرعت الشيخة وقالت :

— خيرا ؟.

وأعارتها سمعها فأخذت زكية تروى لها ما رأت :

إنها لم تر إلا حيوانات لها سمات خاصة ، فهذا خروف أسود (غطيس) فى جبهته هلال أبيض ، وهذا ديك رومى أبيض به نقط حمراء ، وهذا عجل أحمر قرب ذيله شامة بيضاء .

وأخذت زكية تقص رؤياها ، والشيخة متهللة الوجه منبسطة الأسارير ، فإن ما رأته زكية كفيل بإقامة زار عظيم يستمر ثلاثة أيام بلياليها .

وانتهت زكية من روايتها ، فاعتدلت الشيخة وقالت :

— اشترى كل هذه الأشياء ، فإن الأسياد أوحوا بها إليك فى المنام .

فقالت زكية ممتثلة :

— حاضر .

وأخذت الشيخة تسرد لها ما تشتريه من أحجبة ، وخواتم ، وملابس ، وزكية تعى كل ما تقول خشية أن تشرد منها شاردة تغضب أحد الأسياد ، فيضيع كل ما عملته هباء .

واكترت زكية خياطة لتحيك لها ملابس الأسياد ، راحت تخيط ملابس مختلفة الأشكال والألوان : من حمراء وخضراء وصفراء وسوداء ، وملابس بحار ، وملابس كناس ، وملابس قسيس ، وملابس سجان ، فكان من يراها يحسب أن فرقة مسرحية تستعد لإخراج رواية استعراضية تعتمد على روعة الملابس وشذوذ أشكالها .

وجاءت الأحجبة والأقراط والخواتم فإذا بها تزن أرطالا من الذهب والفضة والياقوت والفيروز . ومن بينها مكنسة صغيرة من أسلاك الفضة لفت بأسلاك الذهب ، ومكتل من الفضة ، هما لحضرة الكناس المحترم ، فهو ليس ككناسينا المتواضعين الذين يكنسون بمكانس من القش ويجمعون ما

يكنسون فى مكاتل من الخوص ، إنما هو كناس راق ، فى مملكة الجن الغنية ، لا يكنس إلا بالفضة ، ولا يجمع الزبالة إلا فى الفضة .

واقترب اليوم الموعود ، فأرسلت الحيوانات والطيور والملابس إلى بيت سكينة ، فإن به رحبة واسعة تصلح للزار الكبير .

ورأت سكينة الملابس الغريبة فاستهوتها ، وأحست رغبة فى ارتدائها لم تستطع مقاومتها ، فقامت وارتدت ملابس القسيس ، ووقفت أمام المرآة تطول وتقصر وتتفرس فى نفسها وتضحك ، وخطر لها أن تذهب إلى أمها فى البيت المقابل الذى لا يبعد عن بيتها إلا خطوات ، فأعجبتها الفكرة ، فهبطت فى الدرج وأبناؤها خلفها يضجون بالضحك ، حتى إذا بلغت الباب الخارجى وقفت خلفه ومدت رأسها تكشف الحارة ، فلما اطمأنت إلى أن الحارة ساكنة ليس فيها أحد ، هرعت إلى البيت المقابل . ثم سوت من هندامها ، وأخذت تصعد فى الدرج مهرولة حتى بلغت باب شقة نفيسة فدقته فى رفق ، فأقبلت أمها تفتح الباب ، فرأت أمامها شبحا غريبا ففزعت وفرت إلى الداخل ، فضحكت سكينة وهلل الأولاد ودخلوا على جدتهم يتصايحون . فلما اطمأنت نفيسة إلى أنها ابنتها الماجنة فى ثياب الزار ، قالت وهى تبتسم :

— والله لن تعقلى أبدا .

وتذكرت نفيسة أن سكينة تسخر من ملابس الأسياد فخافت عليها ، وخشيت أن يغضب الأسياد لما يلحق بهم من إهانة ، فقالت لابنتها فى توسل :

— بالله اخلعى هذه الملابس ، ولا تعودى إلى مثل هذا الهذر ، فقد يغضبون عليك .



واطمأنت الشيخة إلى إقامة الزار ، فسالت
ما رأيت فى منامك طيورا وحيوانـات ؟

فقالت سكينة وهى تضحك فى سخرية :

— دستور يا أسيادى .

وأقبلت أيام الزار ، فذهبت زكية إلى بيت أختها ، وذهبت أمها وأمينة لتجهيز « الكرسى » . والكرسى نضد مرتفع يوضع فى وسط المكان ، ويوضع فوقه صينية كبيرة يكدس فوقها سكر وبن وبندق ولوز وسلطانية لبن زبادى وفطير وجبن رومى وزيتون وبوظة ، وتصف حول الكرسى شموع كبيرة تنار طول الليل .

وفى أول يوم قامت الشيخة وألبست زكية ثيابا بيضا ، فهى تعتبر عروس ذلك اليوم ، ثم اتجهت إلى الكرسى وأخذت السكر والبن وكثيرا مما فوق الصينية وحجزته لنفسها ، ووزعت مما بقى على الواقفات ، وخصت فتياتها اللاتى سيدققن الدفوف معها بالنصيب الأوفى .

وشاء أسعد وسليم ومصطفى أن يبقوا فى البيت ليتفرجوا على الزار ، ولكن أمينة نهرتهم ، فانسلوا إلى المدرسة محزونين وهم يتمنون أن ينقضى النهار سريعا ليعودوا إلى الدار ليشاهدوا الحدث الجديد !

وجىء بالحيوانات والطيور ، فاختارت الشيخة لنفسها ما يحلو لها ، وبعثت به إلى دارها ، ثم بخرت ما تبقى ، وذبحته وحفظت الدم فى وعاء كبير ، ولطخت منه وجه زكية وذراعيها وثيابها ، ثم أخذت مصاغها وغمسته فيه ، فبدت زكية كأنما خرجت من معركة قاسية استعملت فيها السكاكين وسالت الدماء فيها .

وارتفعت دقات الدفوف ، وجلجلت أصوات فتيات الشيخة بأناشيد العفاريت ، فأخذت زكية تدور حول الكرسى وقد وضعت يديها خلف ظهرها ، واتسعت حدقتا عينيها ، وقام النسوة يتمايلن بجسومهن على دقات

الدفوف ، وارتفعت الدقات واشتدت ، حتى استولت على المشاعر فاهتز كل شيء ، حتى الحيطان بدت كأنما تهتز .

وخلعت زكية ثيابا وارتدت ثيابا ، وكانت تنزل إلى حلبة « التفقير » كلما دقت الشيخة دقة جديدة ، وتمايل بجسمها الضخم ، وتضرب برجلها الأرض فيهتز السقف تحتها ، ويئز زجاج الأبواب والشبابيك أزيزا . ومالت على الصينية وقبضت قبضة مما عليها ونثرتها على الجالسات بجوار الحيطان ينظرن ، فرحن يجمعن ما نثرت فى سرور ، فإن العفريت راض عنهن .

وجاء العصر أخيرا ، وما إن دق جرس المدرسة مؤذنا بانصراف التلاميذ حتى خرج أسعد وسليم يعدوان فى الطريق لا يفكران إلا فى الزار الذى حرماه طوال النهار ، وبلغت سمعهما دقات الدفوف فأحسا نشوة ، وأخذا فى عدوهما حتى وصلا إلى الدار فدلفا ينظران إلى ما يجرى أمامهما فى غبطة وسرور .

ومالت الشمس للمغيب ، ودقات الطبول تدوى فى الحارة دويا ، وانسلت أمينة لترى هل تناول أولادها طعامهم ، فرأت أسعد وسليم فسألتهما عن مصطفى فظهرت فى وجهها الحيرة ، لقد عادا إلى البيت دون أن يفطنا إلى أنهما تركاه فى المدرسة ، وهما لم يشاهداه منذ جاءا إلى البيت . فذهبا يبحثان عنه هنا وهناك فلم يقفا له على أثر . فأحسا انقباضا ، وخطر لهما أن يعودا إلى المدرسة يبحثان عنه ، فانطلقا والخوف يتملكهما ، فما يفعلان إذا لم يجداه ؟ وبلغا المدرسة فوجدا بابها موصدا ، ولكنهما قررا أن يطرقا الباب وألا يعودا حتى يبحثا عنه فى الفصل ، ودقا الباب فى شدة ففتح الفراش الباب ، فلما رآهما سألهما عما يبغيان فقال سليم :

— لم يعد مصطفى إلى البيت ، ونود أن نراه فى الفصل .

فظهر العجب فى وجه الرجل ونظر إلى الولدين فى إشفاق وقال :

ـــ كنست كل الفصول فلم أجد بها أحدا .

فقال أسعد :

ـــ لعله نام فى مقعده .

ولم ير الرجل بدا من أن يدخل الفصل مع الولدين ويريحهما ، فتناول مصباحا وسار الولدان فى أثره ، حتى إذا دخلوا الفصل ، وبدد نور المصباح الظلام رأوا مصطفى يغط فى النوم وقد وضع رأسه بين ذراعيه .

أسرع أسعد وسليم إلى مصطفى وأيقظاه ، وكاد يغلبه النعاس ثانية ولكنهما همسا فى أذنه يغريانه :

ـــ هلم نشاهد الزار .

فقام وخرج معهما يجد فى سيره ، حتى إذا ما بلغ مكان الزار وقف ينظر إلى ما يجرى مبهوتا .

إنه يرى عمته الوقور ترتدى ثيابا غريبة ، وفى يدها سوط تضرب به فى الهواء ، وتدور حول نضد مرتفع ووراءها خروف زين بالورود والأزهار ، وارتسم فى وجهها عبوس صارم . هو العبوس الذى يعلو وجه السجان !

واستمر الغلام فى عجبه وذهوله ، فما كان يتصور أن عمته زكية تفعل ذلك . فلو أن التى ترتدى تلك الثياب المضحكة ، وتتمايل ذلك التمايل ، وتقفز ذلك القفز الذى يدعو إلى الابتسام عمته سكينة لما بان فى وجه الصبى عجب أو ذهول ، فلطالما رآها تقفز وتضحك وتسخر ، أما أن يصدر ذلك عن عمته الجادة ، ففى ذلك العجب العجاب !

ومرت أيام الزار الثلاثة ، وأهريق دم كثير حتى كادت زكية تستحم فى الدماء ، وجهز الحمام ودخلت زكية تستحم وتبدل ثيابها الملوثة بالدم ، ثم

خرجت منه وجلست تستريح قبل أن تعود إلى دارها ، وقد أحست راحة تشيع فى نفسها ، فإنها لترجو بعد أن أقامت الزار أن تكون جميع « العكوسات » قد فكت ، وإنها لتأمل كل الأمل بعد ذلك الزار ، أن تحمل وأن تنسل نسلا تقر به عينا .

٣٢

اشترى محمد بيتا جديدا ، وانتظر حتى يخلو من ساكنيه لينتقل إليه ، ورأى أسعد البيت فأخذ يصفه لسليم ويسهب فى الوصف ، ولكن ذلك لم يشف غليل سليم ، فهو يود أن يراه بعينيه ، فطلب من أخيه أن يصحبه إليه ، فسارا فى الحارة المتعرجة حتى إذا خرجا منها عرجا إلى اليسار وانطلقا فى شارع ضيق ، ثم ما لبثا أن عرجا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، ثم إلى اليمين فوجدا نفسيهما يخترقان أرضا منزرعة ، فلما خرجا منها وجدا أمامهما فضاء واسعا فى نهايته بيوت قائمة ، فأشار أسعد بأصبعه وقال فى انفعال :

— انظر ، ها هو ذا .

فمد سليم بصره وقال :

— أين ؟ ..

— إنه ذلك البيت المخطط بالأصفر والأحمر .

فقال سليم بارتياح :

— آه ..

واقتربا من البيت ، وراحا يتطلعان إليه فى غبطة ؛ كان بيتا له شرفات وأبراج ذات زجاج أخضر وأصفر وأحمر وأزرق ، فامتلأت نفس الولدين

فرحا ، فإنهما عما قريب ينتقلان إلى هذا البيت الفخم ، ويقفان فى شرفاته ويلعبان فى الفضاء الواسع أمامه . وأخذا يجيلان عيونهما فى المكان وقد بان فى وجهيهما الفرح ، ثم عادا إلى حارتهما وهما يترجمان عن أمانيهما الساذجة الحلوة فى راحة ونشوة وسرور .

ووضعت الحرب أوزارها ، واستمرت الأحكام العرفية وتقرير المصير ، وترامت الأنباء أن الشعوب الصغيرة أخذت تتأهب لإرسال وفودها إلى المؤتمر لتحقيق الآمال القومية تطبيقا لمبادئ الرئيس ويلسن ، فأخذ سعد زغلول يعمل على تأليف جماعة لرفع صوت مصر والمطالبة بحقوقها . وفى يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩١٨ انطلق سعد وزميلاه عبد العزيز فهمى وشعراوى إلى دار الحماية وطالبوا برفع الحماية واستقلال البلاد .

وشاء الوفد أن يثبت لهيئته صفة التحدث عن الأمة . فوضع صيغة توكيل طبعت وأذيعت بين الناس ، فأقبلوا يوقعون عليها راضيين مستبشرين . وطلب سعد من قيادة الجيش الإنجليزى جوازا له ولأعضاء الوفد بالسفر إلى إنجلترا ، ولكن السلطة العسكرية أجابت بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من إجابته إلى طلبه فى الوقت الحاضر ، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر بإعطائه وصحبه الجوازات التى يطلبونها .

ورفض طلب السفر ، فأرسل الوفد نداء إلى معتمدى الدول الأجنبية بتأليف الوفد المصرى ومقاصده وخطواته الأولى ، وبموقف السلطة البريطانية إزاءه .

وانتقل محمد وابنه حسن إلى الدار الجديدة ، والتحق أسعد وسليم بمدرسة ابتدائية قريبة من الأزهر ، أما ممدوح فكان فى مدرسة قريبة من الدكان ، فكان يقضى كل وقته فى الدكان ، لا يشارك الأولاد لعبهم ، ولا يعرف إلا

كتبه ودروسه . والتحق مصطفى بمدرسة أولية قريبة من الدار .

ذهب أسعد وسليم إلى المدرسة ، وكانا منطويين على نفسيهما ، وكان سليم أكثر انكماشا من أسعد ، فلم يختلط بالأولاد سريعا ، وجلس بعيدا على مقعد منعزل ، يرقب الأولاد وهم يلعبون فى فناء المدرسة ، وتعرف أسعد بتلميذين فراح يلعب معهما ، ورأى أخاه وحيدا فذهب إليه وطلب منه أن يشاركهم فى لعبهم فأبى ، فجذبه ليقوم معه فأخجل ذلك سليما ، فلم يستطع حبس عبراته فسالت على خديه ، وما كان أسرع بكاء سليم !

ودق الجرس ، فأسرع الأولاد إلى الفصول ، وجلس سليم فى مقعده القريب من الشباك ، ودخل مدرس اللغة العربية ، وكان أستاذا يميل إلى القصر يرتدى عمامة وجبة وقفطانا ، تدل ملامحه على القسوة وغلظ القلب ، وإن كان يرسل لحيته ويتظاهر بالتقوى والصلاح .

ومر بقرب الشباك رجل ، فالتفت إليه سليم بحركة غير إرادية ، ولمحه الأستاذ فأشار له بأصبعه أن تعال ، فقام وذهب إلى الأستاذ خالى الذهن عن سبب استدعائه ، فسأله :

ـــ من رأيت فى الخارج ؟

فقال فى بساطة :

ـــ عم عويس الفراش .

فصفعه الأستاذ على وجهه صفعة شديدة وقال :

ـــ وتعترف !.

فأجهش سليم فى البكاء ، وما كان يبكى من ألم الصفع بقدر ما كان يبكى من ألم الظلم ، وارتفع بكاؤه فصاح به الأستاذ :

ـــ اكتم .. أقول لك اكتم .

ولكنه استمر يبكى ، فصفعه صفعة أقسى من الأولى ، فعلا صوت الصبى بالبكاء ، وأراد الأستاذ أن يركله ، فسقطت عمامته على الأرض ، فثارت ثائرته وانهال عليه بيديه ورجليه وهو يصيح :

— اكتم .. اكتم .. ورب عيسى ورب موسى ورب الكعبة إن لم تكف لأضربنك حتى قيام الساعة .

ورأى سليم أن من الخير أن يكتم ، فزم فمه ، وغالب دموعه التى كانت تنهمر على خديه .

وجاءت فسحة الظهر وخرج التلاميذ يتناولون غداءهم ، فراحوا يتدافعون فى الدرج مسرعين إلى محل الطعمية أمام المدرسة ، يشترى كل منهم رغيفا وثلاث طعميات أو أربع وسلطة فى طاجن صغير ، ثم يعود بما يحمل إلى حجرة الطعام ، فما كان بالمدرسة غداء .

وهبط أسعد وسليم فوجدا بواب البيت ينتظرهما وفى يده عمود وفى الأخرى سلة ، فأخذ سليم السلة وحمل أسعد العمود وانطلقا إلى غرفة الطعام . ثم جلسا بين التلاميذ ، وفتحا السلة وتناول كل منهما فوطة بيضاء وضعها أمامه ، وأخذ شوكته وملعقته وسكينته وابتدأ فى الأكل ، وما أن ازدرد كل منهما لقمة حتى كانت أنظار الأولاد تتطلع إليهما ، ثم راحوا يضحكون ويتغامزون ، فقد كانوا يرون فى تناول الطعام بالشوكة والسكين والملعقة تعاليا ، فهم جميعا من أسر فقيرة تقطن العطوف والجمالية والضببية والحسين .

ومد تلميذ يده إلى كوب الزجاج وأخذ يقلبه ويمط شفتيه ، ثم همس فى أذن جاره وضحكا ، فأحس سليم خجلا ، وصعد الدم الحار إلى وجهه ، فترك الطعام وقام ، ولحقه أسعد بعد قليل ، فأسرع الفراش إلى الطعام ينقله

إلى أطباقه .

وانتهى اليوم وعادا إلى البيت ، فأخذ سليم يتوسل إلى أمه ألا ترسل لهما شيئا ، وأن تعطى كلا منهما قرشا يشتريان به غداءهما كما يفعل الأولاد ؛ فرفضت أمينة ذلك ، ولكنهما أصرا ، وترقرق الدمع فى عينى سليم فقالت أمه :

ـــ حسبك يا سليم ، غدا أعطيكما ما تريدان .

وفى اليوم التالى أخذ كل من سليم وأسعد قرشا لغدائه ، فلما كان موعد الغداء ذهبا إلى محل الطعمية ، وعاد كل منهما يحمل طاجنا به سلطة وورقة بها طعمية وتحت إبطه رغيف ، ثم راحا يتناولان طعامهما وينظران إلى الأولاد فى سرور ، كأنما يقولان لهم :

ـــ انظروا ، نحن منكم .

٣٣

حالت السلطات البريطانية بين الوفد ومؤتمر السلام ، وقررت قطع الطريق عليه إلى المؤتمر ، فاستقالت وزارة رشدى باشا التى كانت تشد من أزر الوفد ، ورفض رجالات مصر أن يؤلفوا وزارة فى ظل الحماية ، وبعث الوفد إلى معتمدى الدول احتجاجا قويا كشف فيه سياسة بريطانيا الاستعمارية ، فتلبد الجو وأنذر بقرب هبوب عاصفة قوية جامحة .

ورأت السلطة البريطانية فى أعمال الوفد العدائية تحديا لها وتشهيرا بها وكشفا لسوء نيتها لدى الدول الأوربية ، فقررت أخذ الأمور بالشدة قبل أن يستفحل الأمر ويفلت زمام الموقف من يدها .

وفى يوم من أيام مارس سنة ١٩١٩ استدعى قائد القوات البريطانية فى مصر بالنيابة سعد زغلول وأعضاء الوفد لمقابلته فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وما وافى الموعد المضروب حتى كان سعد وصحبه بفندق سافواى أمام القائد البريطانى يلقى عليهم إنذاره فى عجرفة واعتداد ، وما درى أنه ينفخ فى النار ، وأن هؤلاء الواذعين سيهزون عما قريب دولته المتعالية ، وسيقضون مضاجع رؤسائه الأقوياء .

لم يفت إنذار القائد وتهديده فى عضد الوفد ، ولم يدخل الرعب فى قلوبهم ، فقد كانوا يؤمنون بعدالة قضيتهم . وأرسل سعد برقية إلى رئيس الوزارة البريطانية يطالب فيها باستقلال مصر ويعلن أنه وصحبه يضطلعون بواجب وطنى لا يتأخرون عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفهم ذلك ، فلما رأت السلطة البريطانية إصرار الوفد على موقفه ، ضاقت بها السبل ، ولم تدر ما تفعل لردع هؤلاء العزل الذين هبوا فى وجهها يصيحون بما يقلقها ، فعزمت على أن تنفذ وعيدها لتقتل الثورة فى مهدها ، فألقت القبض على سعد وثلاثة من صحبه ، وما علمت أنها بذلك قد أطلقت المارد الحبيس من سجنه .

علم الناس أن السلطة البريطانية ألقت القبض على سعد وصحبه ، فامتلأت الصدور غيظا وغضبا .. واندفع الناس فى مظاهرات يعلنون سخطهم واحتجاجهم على ما بدا من عسف وظلم وجشع استعمارى .

وأضرب الأزهر وخرج طلابه فى مظاهرة كبيرة ، وأخذوا يطوفون على مدارس الحى فينضم تلاميذها إليهم ، وترتفع حناجرهم بالهتاف بحياة مصر وسقوط الحماية .

وخرج أسعد وسليم مع الخارجين ، وانتقلت حماسة الجموع إليهما ،

فأخذا يهتفان فى ثورة ؛ إنهما يحسان كما كان يحس الجميع أن لهما عدوا ، ويتمنيان أن ينزل بذلك العدو الدمار .

كانت الجموع حانقة ثائرة ، وانضم إلى المظاهرة كثير من الدهماء ، وراحوا يتدفقون معها كالسيل ، ولم يستطع الدهماء أن يكبحوا جماح غضبهم وثورتهم فراحوا يقتلعون الأشجار ، ويحطمون واجهات المحال وزجاج المصابيح ، ويعتدون على الترام ، كانوا كالثائر الذى لم يجد متنفسا لثورته ، فأخذ يمزق شعره .

واستمرت المظاهرات فى القاهرة واندلع لهيبها ، فأضرب العمال وتعطلت وسائل النقل ، وراح الجنود البريطانيون يعتدون على المتظاهرين ويطلقون الرصاص على العزل الثائرين لكرامتهم ، فيسقطون صرعى الظلم والطغيان .

وخرج المصلون من مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة ، وأقبلت سيارتان إنجليزيتان مدرعتان ، ورأى الجنود البريطانيون جموع المصلين فحسبوهم من المتظاهرين ، فلم يحذروهم أو ينذروهم ، ولم التحذير أو الإنذار وآلات حصد الأرواح فى أيديهم ؟ فما عليهم إلا أن يضغطوا زنادها ، فيتكلم الرصاص وتسكت الألسن .

وانطلق الرصاص فدب الذعر فى الناس ، وسقط الشهداء مجدلين أمام مسجد الحسين أبى الشهداء ، وسالت الدماء ظلما وعدوانا كما سالت فى كربلاء الدماء . ولكن دولة الظلم ساعة ، ودولة الحق لا تدول .

وساء الناس ذلك الاعتداء المنكر ، فانطلقت المظاهرات تجوب شوارع القاهرة منددة بالإنجليز ، هاتفة بحياة ذكرى الشهداء . واعترض الجنود البريطانيون المظاهرات وراحوا يشتتونها بمدافعهم الرشاشة ، يحسبون أن

رصاصهم يميت تلك الجذوة التي تأججت في الصدور ، ولكن هيهات فقد صمم هذا الشعب على أن يعيش .

واستفحلت الثورة ، وأخذت السيارات البريطانية تطوف بالشوارع تحصد الأرواح البريئة حصدا ، فأخذ الناس يقيمون في الطرقات سدودا من الحجارة ، ويحفرون الخنادق ، وينصبون للسيارات الجهنمية الفخاخ .

وفى يوم ذهب سليم ومصطفى لزيارة عمتهما سكينة ، وخرجا إلى الحارة يلعبان ، ثم انطلقا إلى شارع الحسينية فوجدا الناس قد جاءوا بمدخنة وابور طحين ووضعوها فى منتصف الطريق ، وأخذوا يجمعون الورق والخرق ويضعونها فيها ، وأخذ سليم ومصطفى يجمعان الخرق والورق من خربة قريبة ، ويدسانها فى المدخنة ، ثم اشتعلت النار فبان لها وهج شديد .

وأقبلت سيارة بريطانية ورأت النار فأسرعت لتكشف أمرها ، فلما اقتربت من مكان المدخنة قذف المتظاهرون فى النار ملحا وفروا ، وفر سليم ومصطفى ، وانبعثت فرقعات شديدة متتابعة ، فحسب البريطانيون أن المصريين نصبوا لهم مدفعا ، فغيرت السيارة من اتجاهها ، وعاذت تفر من وجه المدفع المنصوب .

وعاد الناس إلى المدخنة يضحكون ، وعاذ سليم ومصطفى مسرورين ، وكان مصطفى يحسب أن الناس يلهون ، وما كان يحسب أن الموت كان منهم جد قريب .

واستمرت السيارة البريطانية فى انطلاقها حتى إذا بلغت باب الفتوح سقطت فى فخ ، هو حفرة كبيرة حفرها الناس وغطوها بحصير أخفوه بالتراب . وما إن سقطت السيارة فى الفخ حتى خرج الناس من الأزقة والطرقات يحملون الحجارة ، وراحوا يرجمون السيارة ليثأروا لإخوانهم

الذين سالت دماؤهم فى شوارع القاهرة .

وعاد سليم ومصطفى إلى حيهم الجديد ، ليقصا على أصحابهما الجدد نبأ ما رأيا فى غبطة وسرور .

وذاعت أنباء اجتماعات الناس فى الأزهر ، فخرج أسعد وسليم ليشاهدا ما يجرى هنالك ، حتى إذا اقتربا من الأزهر وجدا بعض الأزهريين يرشدون الناس إلى مسالك غير معروفة تقود إلى الجامع العتيد الذى أصبح معقلا للثورة .

وسارا مع السائرين فى دروب ضيقة ملتوية بعيدا عن أعين الإنجليز المتربصين أمام أبواب الجامع ؛ وقبل أن يصلا إلى وجهتهما دمدم الرصاص ، فقد أراد المجتمعون أن يخرجوا فى مظاهرة فمنعهم الإنجليز وأطلقوا عليهم الرصاص . فرد عليهم الأزهريون بالحجارة ، واستمرت المعركة دائرة ، وتسمر أسعد وسليم مكانهما وراء الأزهر ، وطفقت أنباء القتال الدائرة تنتقل بين الناس فى سرعة البرق ، روى الناس فى حماسة وإعجاب أن أزهريا هجم على الإنجليز وانتزع منهم مدفعا رشاشا ، وحمله وأخذ يعدو به حتى بلغ باب الأزهر وأخذ يدقه ، ولكن البريطانيين مزقوه برصاصهم .

واستمر أسعد وسليم يستمعان إلى الأنباء فى نشوة ، وإن كان ينتابهما بعض القلق ، وما كانا يقدران خطر الرصاص الذى كان يصب على الناس دون تفرقة أو تمييز ، ولكنهما كانا يخشيان أن يستمر حصارهما مدة طويلة ، فتبحث عنهما أمينة ، فلا تجدهما فتضربهما عند أوبتهما على ذلك الغياب !..

٣٤

الأعلام ترفرف فوق الدور ، والقلوب ترفرف فى الصدور ، فقد اضطرت السلطة البريطانية إلى الإفراج عن سعد وصحبه ، فكان ذلك اعترافا بخذلان سياسة العنف والقوة ، وأحس الناس أن ذلك نصر لهم ، فشاع فى نفوسهم الغبطة والسرور .

وذهب أسعد وسليم إلى الدكان يحضران علمين يرفعانهما فى شرفة الدار ، إعلانا لسرورهما ، ومشاركة للأمة فى فرحها العظيم . وأعطاهما حسن علمين كبيرين ، فأخذاهما وعادا إلى الدار ممتلئين فخرا ، فعما قليل يرفعان فى شرفة شقتهما علمين يزهوان على أعلام الحى جميعا .

وثبتا العلمين فى درابزين الشرفة ، وجعلا ينظران إليهما والنسيم يداعبهما ، فيداعب الفرح قلبيهما ، وخطر لهما أن يهبطا إلى الطريق لينظرا إلى العلمين من بعيد ، فأسرعا فى الدرج مهرولين ، حتى إذا بلغا الفضاء المواجه للدار أوغلا فيه ، ثم وقفا يتطلعان إلى العلمين فى بهجة ، وينظران إلى المارة ليريا هل جذب العلمان الأنظار إليهما ، كأنما خلت القاهرة إلا من علميهما !

وطافت المظاهرات بأحياء القاهرة تهتف بحياة سعد ، وكانت نفيسة تجلس على حشية تقشر بصلا للطعام ، فلما صكت أذنيها أصوات المتظاهرين ارتجفت واضطربت ، فهى تعلم أن المظاهرات تتبعها دائما دمدمة الرصاص . وما كانت تعرف أن ثم مظاهرات فرح وابتهاج ، فهبت من جلستها مفزوعة ، وجرت إلى مرافق البيت تختبىء بها ، لتكون بعيدا عن الرصاص الطائش ، ورأى الأولاد فرار جدتهم واختباءها فضحكوا ،

وأسرعوا خلفها يدقون عليها الباب الذى أغلقته فى إحكام ، ويهتفون بها أن تخرج فلا بأس عليها اليوم ، ولكنها أبت وظلت حبيسة حتى تلاشت أصوات المتظاهرين .

وذاع أن مظاهرة ابتهاج كبرى ستسير فى الثالثة بعد الظهر من ميدان محطة العاصمة إلى عابدين أمام السراى السلطانية ، فما وافت الساعة الثانية حتى انسل أسعد وسليم ورفاقهما إلى ميدان المحطة .

ورأى مصطفى نفسه وحيدا ، ولم يجد من يلعب معه ، ففكر فى زيارة عمته ، وكانت المسافة بين دارهم ودار عمته قصيرة ، كانت محطتى ترام فقط . فلما بلغ الطريق الذى يمر فيه الترام خطر له أن يركب ، ولم يسير وهو يعلم أن من حقه ركوب الترام مجانا ؟ إنه قد ركب مع أبيه كثيرا دون أن يدفع أبوه شيئا ، وقد ركب مع أمه ولم تدفع عنه شيئا أيضا ، إن شركة الترام تقرر أن من كان فى مثل سنه لا يدفع ثمن التذكرة .

وانتظر حتى أقبل الترام فصعد فى تؤدة ، وركب مطمئنا لا يفزعه اقتراب التذكرى ، ولم يفزع ؟ صحيح إنه لا يمتلك ثمن التذكرة ، ولكن من قال إن الرجل سيطالبه بثمنها !

وجاء الرجل يقطع التذاكر للناس ، فلم يلتفت إليه مصطفى وظل فى هدوئه ، ولكن هدوءه لم يدم طويلا إذ التفت الرجل إليه وقال :

— تذكرة .

فالتفت مصطفى إليه فى عجب ، فما كان يظن أن ثم رجلا واحدا يجهل بديهيات الركوب فى الترام ، وقال :

— أقل من ست سنين .

قالها فى ثقة الذين يقولون « اشتراك » ، وهم مطمئنون إلى الاشتراك

القابع فى جيوبهم . وما أن سمع الراكبون رد مصطفى حتى ضجوا بالضحك ، ولم يعجب ذلك الرد البارع الرجل ، فقال للغلام فى غلظة :

— تذكرة .

فاضطرب مصطفى وغادره هدوؤه ، ولاحظ رجل ارتباك الغلام واحمرار وجهه فقال :

— دعه إنه معى .

فقال قاطع التذاكر فى جفاء :

— لا .

فمد الرجل يده فى جيبه ودفع عنه ثمن التذكرة ، فأحس مصطفى خجلا شديدا ، وتمنى أن ينشق الترام ويبتلعه ، فما كان يظن أن الأمر يتطور إلى هذا . وبلغ الترام محطة الحسينية فهبط مغيظا محنقا على ذلك الجاهل الذى اضطهده دون مبرر ، ولو فطن الأطفال إلى منطق مصطفى لامتلأ الترام بالأطفال دون السادسة !

* * *

وفتحت المدارس وعاد الأولاد إلى فصولهم ، وعاد مصطفى إلى فصله ؛ واستأنف مدرس الدين تحفيظهم السور الطوال ، وكان يسمع لهم اليوم ما أعطاه إياهم أمس ، وراح الأولاد يرددون الآيات بعد معلمهم فى صوت عال ، ومصطفى يرددها معهم وقد أرهفت منه الحواس ، إنه يريد أن يحفظ ما يقولون ، فما كان يعرف طريقة أخرى للحفظ . وانتهت الحصة وقد علقت بذهنه الصغير بعض الآيات ، حتى إذا كان اليوم التالى نسى كل ما حفظ ، فلما بدأ المعلم فى التسميع على الترتيب ، أرهف أذنيه وحصر ذهنه ليلتقط الآيات من أفواه الغلمان ، حتى إذا جاء دوره طفق يعيد ما التقطه فى

جهد ، وكان يتوقف بين كل آية وآية ، وما كان يستطيع أن يتمم السورة كلها ، فكان المعلم يوقفه إلى جانب الحائط حتى ينتهى من الفصل جميعه ثم يتفرغ له فيصفعه ويضربه فى قسوة وغيظ .

وفى يوم ضاق به المعلم ذرعا ، فقال له بعد أن أشبعه ضربا :

ـــ أين مصحفك !

فقال مصطفى وهو يبكى :

ـــ لا مصحف عندى .

ـــ وفيم تحفظ ؟

ـــ أحفظ فى الفصل .

فضحك الغلمان ، وصاح به المعلم :

ـــ غبى .

وصمت قليلا ، وكأنما فطن إلى أن الغلام قد لا يفهم ما يجب عليه فعله فقال :

ـــ اشتر مصحفا اليوم واحفظ فيه .

وحسب مصطفى أن مأساته انتهت ، وأنه إذا اشترى مصحفا قضى الأمر ، وأصبح حفظ السور الطوال شيئا هينا ، ولكنه ما اشترى المصحف ، وما قلب صفحاته حتى أحس رهبة ووجوما ، إنه لا يستطيع أن يقرأ فيه آية ، وكيف يقرأ غلام فى السنة الثانية الأولية فى مصحف !

وجاءت حصة الديانة ومصطفى يرتجف فرقا ، فهو يخشى أن يبدأ التسميع ، وهو يعلم كيف تنتهى هذه الحصة . ولكن ما إن قال المعلم إن درس اليوم عن النبى ﷺ ، حتى اطمأن ، فهو يحب أن ينصت إلى ما يروى عن نشأة الدين ، فالقصص تستهويه ، وأخذ المعلم يقص على الغلمان قصة

النبى العربى الكريم ، ومصطفى يتتبعه فى شغف ، ولو أن المعلم طلب منه أن يعيد ما قال لرواه كلمة كلمة ، ولكن طبع المعلم غلبه ، فراح يحفظ التلاميذ عن ظهر قلب نسب النبى من جهة أبيه .

وأخذ كل من الغلمان يردد ما حفظه حتى إذا ما جاء دور مصطفى قال فى ثقة :

— نسب النبى من جهة أبيه : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن (عدمان) .

وكاد الأمر يمر ، ولكن المعلم شك فى الكلمة الأخيرة فسأل فى استفسار :

— ابن من ؟

فقال الغلام فى بساطة :

— ابن (عدمان) .

فضحك الأولاد ، وثار المعلم وهجم على الغلام يضربه فى ثورة وهو يصيح :

— انت ابن عدمان وابن .. وابن ..

وذكر أسماء الحيوانات الأليفة الوديعة التى ما كانت تؤذى أحدا ، والتى لو استشيرت لأنفت أن يكون ذلك المعلم من نسلها .

ولما انتهى من ضرب الغلام ضربا مبرحا ، قال مصححا :

— ابن عدنان يا غبى .

٣٥

ومرض ممدوح قبل امتحان الشهادة الابتدائية ، فهجر كتبه ، ولم يذاكر شيئا ، فلما أبل من مرضه أحس أنه تخلف عن رفاقه ، وما كان يحب أن يتخلف عنهم أبدا ، فعزم على أن يترك المدرسة وأن يبقى مع أبيه فى الدكان .

وكان حسن يود أن يتمم ممدوح علومه ، ولا بأس بعد ذلك أن يبقى معه فى الدكان ، فهو فى حاجة إليه ، ولكن ممدوحا رفض أن يعود إلى المدرسة . وأن يتخلف عن أقرانه ، فقد كان ترتيبه الأول طول سنى الدراسة . فهجر المدرسة ، وأخذ يعمل فى الدكان ، وعلم الناظر ما عزم عليه فساءه ذلك ، ورأى أن يذهب إليه بنفسه ويقنعه بخطأ رأيه ، ففى ذات يوم بعد انصراف التلاميذ ذهب الناظر إلى الدكان ، فأحسن حسن استقباله ، وأفضى الناظر بما اضطره إلى المجىء بنفسه ، فهو يرى أن ممدوحا ممتاز فى علومه ، ويستطيع أن يجتاز الامتحان بتفوق ، وأن المدة التى مرضها لن تؤثر فيه ، وهو يعتقد أنه لو استمر فى دروسه لكان أمامه مستقبل مشرق ملحوظ .

واستدعى حسن ابنه ، وأخذ الناظر يحاول أن يقنعه ويثنيه عن عزمه ، ولكنه باء بالفشل ، فإن ممدوحا لا يخضع إلا لوحى عقله ، وإن كان واضح الخطأ لكل إنسان .

وحبس ممدوح فى الدكان صغيرا ، فراح يلتقط معارفه من السوق ، يتثقف بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، فيقيس علاقته بالناس بمقدار ما تدره عليه تلك العلاقة من ربح أو خسران .

نشأ فى سوق المال ، فكانت عقليته حاسبة ، لا يتأثر بالعواطف كثيرا ،

ولا يجب أن يدخل حساب الظروف فى تقديره ، فإذا أراد أن يقدم على شىء يفكر فيه ، وأمعن التفكير ، وحسب كل شىء بالأرقام ، ثم يقدم أو يحجم دون أن يحسب أن ثم عوامل أخرى غير العوامل المادية تتحكم فى المصائر ، وتسير الناس إلى غايات غير التى يهدفون إليها .

وتعرفت زكية بسيدة عجوز ، ضئيلة الجسم جدا ، فتوطدت بينهما أواصر صداقة متينة ، وأصبحت تلك السيدة تمضى أغلب أوقاتها عند زكية وتنام فى غرفة منفصلة ، حتى إذا خرج زوج زكية ، قامت أم أحمد زنوبة إليها .

وفى يوم بعثت زكية بأم أحمد زنوبة إلى صديقتها وزوجة أخيها أمينة ، فإذا أواصر صداقة متينة تعقد بينهما ، وإذا بأم أحمد زنوبة تقسم وقتها بين زكية وأمينة ، كالملوك ينتقلون من قصر إلى قصر !

كانت أم أحمد زنوبة حلوة الحديث ، تعرف حكايات كثيرة مشوقة جذابة ، ترويها فى صوت هادئ عذب ، فكان الأولاد يفرحون بزيارتها ، ويتحلقون حولها ينصتون إلى حكاياتها فى شغف وسرور . حتى إذا جاء حسن وتناول عشاءه ، دخل إلى بعض الغرف ، ثم دخلت أمينة وأم أحمد وراءه ، وأغلق عليهم الباب حتى لا يعكر الأولاد خلوتهم .

ورأى الأولاد الباب الموصد ، فأحسوا رغبة فى الدخول . فهم يتشوقون إلى معرفة ما يجرى وراء ذلك الباب ، ويعجبون من ذلك التبدل المفاجئ ، فما أغلق بينهم وبين أبويهم باب قبل اليوم ، فما الذى طرأ حتى يحول هذا الباب بينهم !

وتغلب عليهم حب الاستطلاع ، فتقدم ممدوح وأدار أكرة الباب فى رفق وفتحت فى احتراس ، ودلف منه فى خفة وأغلقه وراءه . وراح الأولاد

يتطلعون إلى الباب لعل ممدوحا ينهره أبوه ويخرج ! ولكن مر الوقت ولم يحدث من ذلك شيء ، فتشجع أسعد واقترب من الباب ، وفتحه فى رفق ودخل وأغلقه وراءه .

ولم يطل تفكر سليم ومصطفى فاقتحما الباب ، فأشارت لهما أمينة أن يجلسا صامتين ، فانصاعا إلى إشارتها ، وجلسا ، وقد ارتسم العجب فى وجهيهما .

كانت أم أحمد زنوبة تجلس على حشية ، ويجلس حسن على حشية بالقرب منها ، وتجلس أمينة قبالتهما ، فجلس الأولاد على هيئة قوس إلى جوار أمهم وراحوا ينصتون فى ذهول .

إن أم أحمد زنوبة تتحدث فى نبرات خفيضة تختلف عن صوتها الذى سمعوه كثيرا ، وقد تكسر جفناها ، وبان فى صفحة وجهها هدوء . إنها ما كانت تتحدث حديثا عاديا بل كانت تتنبأ بأشياء ستقع عما قريب . ثم شبكت يديها خلف رأسها وانتفض جسمها بقوة ، وأخذت تسعل فى صوت متغير ، ولم تلبث أن انتفض جسمها انتفاضة أخرى وأخذت تتحدث بصوت فيه خفة وطيش :

ـــ مساء الخير .

فقالت أمينة وهى تبتسم :

ـــ يسعد مساؤك .

فضحك مصطفى ، وأخذت أم أحمد تشاغله وتحدثه فى صوت رفيع ، وكان جسمها يهتز فى طيش ، كأنما هو جسم طفلة غريرة ، وانقلب الجو الوقور إلى جو تشيع فيه البهجة والخفة ؛ وابتسم حسن واندمج الأولاد فى الجو فشاعت فيهم غبطة ، وعلم الأولاد من سياق الحديث أن أم أحمد يلبسها

جنيتان لطيفتان هما أم وابنتها : الأم وقور رزينة تتحدث فى ثبات وتؤدة وتدعى وردة ، والابنة طفلة غريرة تميل إلى عبث الأطفال وتتحدث فى خفة وتدعى زهرة ، وأن الأم هى التى كانت تتحدث منذ قليل فى وقار ، أما التى تعبث الآن مع الأولاد فهى زهرة اللطيفة الغريرة ، وراحت زهرة تصف نفسها ، فهى طفلة فى العاشرة ممتلئة الجسم قليلا . وسألتها أمينة أهى جميلة ؟ فأجابت فى خفر أنها لا تدرى ، وكأنما توحى بذلك إلى أنها حلوة خفيفة ، وسألتها أمينة أهى مخطوبة ؟ فغطت وجهها بطرف الطرحة البيضاء فى حياء ، وراحت تصدر أصوات إنكار ، وإن كانت توحى بالرضا فابتسم الجميع .

وراحت زهرة تتحدث عما تفعله للمريدة — وما كانت تدعو أم أحمد زنوبة إلا كذلك — قالت إنها تحضر لها تفاحا يشتهيه الناس ، وأخذت تسهب فى وصف ذلك التفاح ، وطال الحديث وتشعبت فنونه ، ثم استأذنت فى الانصراف ، فألحوا عليها فى البقاء ، ولكنها اعتذرت بأن أمها قد تنهرها لتأخرها ، والتمست منهم ألا يقصوا عليها ما فعلته ، فوعدوها بذلك ، ثم غطت وجه المريدة بالطرحة وانتفضت وأخذت تتثاءب وتمرر يدها على جبهتها ، ثم رفعت الطرحة فعادت أم أحمد زنوبة سيرتها الأولى .

أنبأت الست وردة أمينة أنها ستضع بنتا ، وأنبأت زكية أنها ستنجب غلاما ذكرا ، ولكن سيتأخر حملها ، ومرت الأيام ووضعت أمينة فجاء المولود أنثى ، فكادت تطير فرحا ؛ ولما علمت أم أحمد بوضع أمينة جاءت متهللة الأسارير ، فقد تحققت نبوءة الست وردة ، واستمرت أمينة تشمل أم أحمد بعطفها ، وتزجى إليها شكرها كأنما هى التى منحتها بنتا ، وقبل أن تنصرف أم أحمد دفعت أمينة إليها نقودا وهدايا فأبت أن تأخذها ، ولكن أمينة قالت لها : إن ذلك ليس لها ، وإنما للست وردة .

وأخذت أم أحمد الهدايا وانصرفت مغتبطة ، وأرادت أمينة أن تعترف بفضل الست وردة ، فسمت بنتها وردة .

ورأت زكية تحقق النبوءة الأولى ، فراحت تنتظر تحقق النبوءة الثانية ، وعاد إليها إشراقها وأملها ، وعادت تهيم فى عالم الأحلام ، بعد أن كاد يوصد فى وجهها ، وتوطد مركز أم أحمد زنوبة ، واحتلت عند زكية وأمينة مكانا مرموقا .

٣٦

وانحدرت الشمس وأمعنت فى الانحدار ، وآن أوان عودة مصطفى إلى البيت ، ولكنه انهمك فى اللعب ونسى نفسه ؛ وساد الظلام ففطن إلى تأخره ، فأسرع يجرى إلى الدار وهو يحسب لأمه ألف حساب .

صعد فى الدرج واجف القلب حتى إذا بلغ شقة جدته فكر أن يلوذ بها ، وأن يختبىء عندها حتى تمر العاصفة ، ولكنه وجد أن ذلك لا يجديه نفعا ، فإن أمه إذا علمت بعودته نزلت إليه وضربته ضربا أقسى مما لو صعد بنفسه دون شفاعة أو رجاء .

وبلغ شقتهم وقد ازداد اضطرابه ، ودلف من بابها فى خفة ، ولمحت أمينة تسلله فصاحت فيه :

ـــ أين كنت حتى الآن ؟

فقال فى ثبات :

ـــ ألعب .

ـــ قلت لك مئة مرة أن تعود قبل الظلام .

ولمحت أمينة قذارة جلبابه فصاحت فيه :

— ما هذا الوسخ ؟ لقد هددتم حيلنا من الغسيل .

واقتربت أمينة ودفعته فى صدره فقال فى حدة :

— ولم هذا الضرب ؟

— والله عال ..

وتناولت شبشبها وضربته ، فصرخ لا من الضرب ولكن ليسمع جدته ، وكانت تخف لنجدته دائما وتأخذ فى عتاب أمه فى حماسة ، وما إن صلك صراخ مصطفى أذنى نفيسة حتى تركت كل ما فى يدها ، وهرعت تصعد الدرج وهى تصيح :

— ما هذا الضرب يا أمينة ؟ كفاية وخلى فى قلبك رحمة ، والله لن ترجعى حتى يموت فى يدك مرة .

وكانت أمينة تتمنى أن تسرع الجدة لتأخذه من يدها ، فما كان يطاوعها قلبها على ضربه ، ولكنها ما كانت تكف من تلقاء نفسها ، فهى لا تود أن تظهر بمظهر الضعف أمام أبنائها وخالتها .

وخلصت الجدة الغلام من يدها ، فراحت تصيح به :

— بموتك إن تأخرت أو وسخت هدومك .

ووضع الطعام وجلس الأولاد يأكلون ، ولكن مصطفى أبى أن يأكل معهم وقال : إنه لا يحب السمك ، وإنه يريد أن يأكل بيضا ، فصاحت أمينة فيه :

— كل يوم بيض ، هو أنت ثعبان ! ليس عندنا إلا هذا الطعام .

وغضب مصطفى وهم بأن ينسحب ، ولكنه لمح أمه تقبل عليه وقد بان الشر فى عينيها ، فجرى من أمامها وجعل يقفز فى الدرج هاربا ، ولكنها لم

تدعه بل جرت وراءه ، فلما لم تلحق به قذفته بالقبقاب .

ووقف مصطفى فى الظلام على باب الدار حزينا ، لا يدرى سببا لذلك الاضطهاد ، واستمر فى إطراقه ووجومه ، وفكر أكثر من مرة فى الصعود ولكنه أحس أن فى ذلك إهانة له ، فكيف يصعد دون أن يدعوه أو يسترضيه إنسان ؟

وأقبل حسن ولمح ابنه واقفا فى الظلام ، فاقترب منه ومسح بيده على رأسه وسأله ما به ، فقال مصطفى :

ـــ لقد ضربتنى دون سبب .

فابتسم حسن ، ومد يده فأمسك يد ابنه وقال :

ـــ تعال ..

وأحس مصطفى أمنا ، فهو يرتاح إلى أبيه ويركن إليه ، ويحبه ويطيعه .

وصعد حسن ومصطفى ، وكان مصطفى على يقين أن أباه سيلبى طلبه ، فما رفض له ولإخوته شيئا ، فهو يعطف عليهم ولا يطيق أن يرى أحدهم متكدرا .

دخل حسن غرفته ومصطفى معه ، حتى إذا بدل ثيابه خرجا وجلسا إلى المائدة ، وأحضرت أمينة الطعام ووضعته أمامهما ، فراح مصطفى يأكل من السمك فى هدوء حتى لا يثير مشكلة قد تعكر صفو أبيه .

وانتهى العشاء ، وهبط حسن وأولاده وزوجه إلى شقة أبيه يمضون سهرتهم ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث كعادتهم كل ليلة ؛ وجاءت نفيسة بصينية كبيرة عليها أطباق البطيخ ، فأخذوا يأكلون ، وأكل محمد بطيخا كثيرا فقد كان يحبه ، وأخذ يتحدث إلى ابنه حسن فى شئون التجارة وهو يلتهم البطيخ . وحان موعد نوم الأولاد ، فهبطوا إلى الدور الأرضى وكانوا يبيتون فيه مع خادم عجوز .

* * *

وأحس محمد تعبا فقام إلى فراشه ، وقام حسن فى أثره ليرى ما به ، وجلست نفيسة وأمينة يتطلعان إليه فى قلق ، وارتسم الألم على وجه محمد ، وحشرجت روحه فى صدره ، فأخذ يلتقط أنفاسه فى جهد ، فصاحت نفيسة فى رعب :

— سيدى .. سيدى ما بك ؟

فرفع محمد بصره إلى زوجته ثم تكسر جفناه ، وخفت تنفسه ، وهمد كل شىء فيه ، وأخذت نفيسة تدعوه ، ولكن ما من مجيب ، فقد مضى فى دقائق معدودات مخلفا دنيا الأوهام ، فصاحت نفيسة من قلب كليم :

— يا مصيبتنا فيك يا سيدى .

وصوتت نفيسة وأمينة ، فشق صواتهما سكون الليل ، وأشاع فى النفوس رهبة ، وانسل حسن من الغرفة تفيض عيناه بالدموع . وهرع الجيران يسألون عن سبب ذلك الصوات ، فعلموا أن عميد الأسرة مات . فباذ عليهم الذهول ، فقد رأوه منذ قليل يدخل داره رافعا رأسه ، وما كان يخطر لأحد أن يخرج منها بعد ساعات محمولا على الأعناق .

وأسرع الخدم إلى بيوت الأسرة بالنبأ الفاجع ، فجاءوا مهطعين تذرف عيونهم الدموع ، وأقبلت زكية والهة حزينة ، وما لمحت الدار حتى صوتت من قلب محروق ، فجلجل صواتها فى الفضاء رهيبا مخيفا ، ينذر بالموت والفناء .

ووفد النسوة من كل صوب وحدب ، كأنما انتشر النبأ مع الريح ، ودوى الصوات وارتفع النحيب حتى جاوز الحى ، واستيقظ الأولاد على الصوات مفزوعين ، فرأوا رجال الأسرة الذين جاءوا بعد أن بلغهم النبأ المروع تكدسوا فى شقتهم ، وجلسوا على أطراف سررهم مطرقين ، وعلم الأولاد

أن جدهم مات ، فبان عليهم الوجوم ، وقام مصطفى وخرج إلى باب الشقة ، فرأى النسوة يتسللن فى ملاآتهن كفيران سود ، ويهرعن إلى شقة جده ينطلق الصوات من حناجرهن يخلع القلوب .

وجلس رجال الأسرة يتشاورون فى دفن المرحوم ، فقر رأيهم على أن ينزلوه على الحاج أسعد فقد كان الحاج يحب ابنه ، ولا يطيق فراقه ، وقد آن الأوان لالتقاء الحبيبين .

ومر الليل بطيئا ، وبدا كأنما ليس له نهار ، وراح النوم يداعب عيون القوم فيهومون فى جلستهم ، وأحس مصطفى رغبة فى النوم ، ولكنه خجل أن ينام وجده ميت فى الدار ، ورأى بعض الرجال يغلبهم النوم فيتمددون فى الفراش ، فتشجع ودخل فراشه ونام .

٣٧

وترك مصطفى المدرسة الأولية وهو فرحان ، فقد ترك مدرس الدين الذى ما كان يمر يوم إلا ويؤذيه ، وذهب مع أخويه إلى المدرسة الابتدائية يحسب أنه سيجد فيها دعة وأمنا ، ودق جرس اليوم الأول ، فدخل إلى الفصل الجديد مضطربا ، وكان يضطرب ويحس انقباضا إذا أقبل على ناس لا يعرفهم ، وجلس فى مقعد منعزل فشعر بوحشة ، ودخل مدرس قصير أخضر العينين منفوش الشعر ، يربط رقبته برباط على شكل فراشة ، وتأبط صندوقا من الخشب ، فلما رآه الأولاد قاموا تحية له ، فقال لهم باللغة الإنجليزية : « اجلسوا » وما فهم الأولاد شيئا مما قال ، ولكن إشارة يده كانت أكثر وضوحا من عبارته ، فجلس الأولاد يتطلعون إلى الصندوق .

وفتح المدرس الصندوق ، وأخرج منه مربعات خشبية صغيرة كتبت عليها حروف الهجاء الإنجليزية ، فكان يرفع الرقعة أمام التلاميذ وينطق الحروف فى وضوح ، ولما انتهت الرقع التى فى الصندوق ، راح يعيد الكرة ويطلب من الأولاد أن يرددوا النطق بعده .

وانتهت الحصة ومصطفى كالتائه ، يحس جوا غريبا ؛ كان فى المدرسة الأولية يردد آيات القرآن ، فإذا به اليوم يردد ألفاظا لها رنين غريب فى أذنه لا يفقه لها معنى .

وتتابعت الحصص ، وراح كل مدرس يحاول أن يحشو أذهان الأولاد بدروسه ، ولو أمكنه أن يجرعها إياهم لفعل واستراح ، واستمر الأولاد فى مقاعدهم طول النهار يصب عليهم العذاب ، حتى إذا وافت الساعة الرابعة دق جرس الانصراف ، فخرج الأولاد يترنحون من التعب .

وهبط مصطفى إلى الشارع ، ولكن الشمس كانت قد مالت للمغيب ، فأحس انقباضا ، إن معنى ذلك وفود الليل ، وما أسرع ما يمر ، ثم يطلع النهار ويذهب إلى المدرسة ، وهل هناك أتعب من الذهاب إلى المدرسة .

أصبح مصطفى يمقت المدرسة أشد المقت ، ونمىّ ذلك المقت فى نفسه غلظ المدرسين وقسوتهم ، فقد راح مدرس اللغة الإنجليزية مثلا يعطيهم كلمات يحفظونها عن ظهر قلب ، ويحفظون مرادفاتها بالعربية ، فإذا جاءت حصة التسميع أخذ يسأل كلا منهم عن معنى كلمة منها فى لهوجة ، فكان ذلك يربك الأولاد ، فلا يتمكنون من ذكر المعنى المطلوب ، فيخرّجهم من مقاعدهم ويرصهم إلى جانب الحائط ، ثم يأمرهم أن يفردوا أكفهم ، فيهوى عليها بخيزرانة رفيعة فى قسوة ، فيرتفع صياح الأولاد ، ولما ينتهى من ضربهم ، يأمرهم أن يعودوا إلى مقاعدهم ، فيعودوا يجهشون بالبكاء ، ثم

يجلس هو على كرسيه ويروح يدعك أسنانه بأصبعه ، ثم يرفع أصبعه إلى آنفه ليشمه ، ويميل بكرسيه إلى الحائط ، ويهوم فى جلسته ، ثم يلقى برأسه على صدره ويغط فى نوم عميق حتى يدق الجرس ، فيهب من نومه وينطلق إلى فصل آخر ، حيث يعجل بضرب التلاميذ ، ويعود يستأنف نومه اللذيذ .

وكان إذا انتهى بلاء مدرس الإنجليزية ، بدأ بلاء مدرس الحساب ؛ كان رجلا تركيا ، ينطق الأرقام فى لكنة ، ولولا رهبة الحصة لضحك الأولاد ، كان مورد الوجه ، طويل القامة ، أنيقا فى هندامه ، وكان كل شىء فيه كاملا إلا عقله ، فلو أن عقله كامل ، لما ضرب الأولاد على أم رأسهم بحد المسطرة الحديد !

كان يجلس على كرسيه ، ويأخذ فى تسميع جدول الضرب ؛ وهل كان يفعل المدرسون شيئا إلا التسميع ؟ ويطوح المسطرة الحديد فى يده فيحملق التلميذ فى المسطرة ويتبعها بناظريه وقد طار لبه ، وتملكه رعب شديد ، وما كان يقدر أن يجمع شتات ذهنه فى ذلك الجو الرهيب . فكان يخطىء وهو معذور ، فيضربه المدرس ضرب جنون .

ووقف مصطفى يرتجف وقد اتسعت حدقتاه رعبا ، وسرت فى جسمه رعدة شديدة ، ولو أن المدرس سأله عن اسمه فى تلك اللحظة ، لما استطاع أن ينطق به ، وقال المدرس فى سرعة : ٧ × ٩ ، فلم يحرك مصطفى ساكنا ، وازداد وجيب قلبه ، وتعطل ذهنه عن التفكير . وأشار له مدرسه بصبعه أن تعال فسار إليه كالمسحور ، ومد المدرس يده ، وجذب الغلام ، وخلع طربوشه ، ونزل على رأسه بالمسطرة الحديد ؛ وندت من الغلام صرخة ألم تفتت الحديد ، ولكنها لم تهز قلب المربى الفاضل والوالد الشفيق .

وعاد مصطفى إلى مقعده يذرف الدموع ، حتى انتهت حصة الحساب ،

وبدأت الفسحة ، وراح يفكر فى نفسه لم سمى ذلك الجدول البغيض جدول الضرب ، ففطن إلى أنه سمى كذلك لأن جميع الأولاد يضربون فيه !

اشتد مقته للمدرسة حتى إنه كان إذا دخل فراشه لينام أحس انقباضا لأنه لم يمت فيستريح من ذلك العذاب الأليم .

وفكر فى وسيلة يهرب بها من المدرسة ، وعلم أن بعض الأولاد يمضون نهارهم فى الحارات القريبة من المدرسة يلعبون ، حتى إذا دق جرس الانصراف انصرفوا إلى دورهم مع التلاميذ المواظبين ! ولكنه كره أن يشارك فى ذلك ، فهو يحس فى قرارة نفسه أن ذلك من ضعف النفوس ، وهو لا يحب أن يقف منكس الرأس أمام أحد ، ولا يحب أن يفقد أبوه ثقته فيه .

الاضطهاد فى المدرسة على قدم وساق ، والهروب أمر لابد منه ، ففكر فى وسيلة شريفة يهرب بها ، وأخيرا هداه تفكيره إلى وسيلة اطمأن إليها ، فعزم على إنفاذها فى الصباح .

سطعت الشمس ، وقام مصطفى من نومه يتأوه ويتلوى ، وصعد إلى شقة أبويه ، فقد أصبح الأولاد ينامون مع جدتهم فى شقة واحدة بعد موت جدهم ، فلما لمح أمه وقف يمثل الألم الشديد ، ورأته أمينة فأقبلت نحوه وسألته :

— ما بك ؟

— عندى مغص شديد .

فتفرست فى وجهه مدة وقالت :

— كذاب ، والله إن لم تلبس هدومك لأكسرن المقشة عليك .

وأخذ يرتدى هدومه ، وانسل ذليلا فى الدرج يتمسح فى الحوائط ، حتى إذا بلغ شقة جدته علم أن هنا أمله الوحيد ، فأجهش بالبكاء ، فخرجت

نفيسة تهرع ، فلما رأت دموع الصبى تحركت شفقتها وسألته فى حنان :

ــ ما بك ؟

ــ عندى مغص .

ــ ولم تروح المدرسة ؟

ــ ضربتنى .

ــ ضربتك ؟ اقعد .

وجذبت الولد من يده فى حنان عظيم وصاحت :

ــ ما هذا يا أمينة ؟ أقد قلبك من حجر ؟ والله لن تعودى إلى عقلك حتى يموت الولد .

وجلس مصطفى فى حماية جدته ، وقد أحس غبطة وأمنا ، فقد استطاع أن يفر من المدرسة دون أن يسخط أبوه عليه .

٣٨

كان أسعد وسليم ومصطفى يمرون على دكان لابن عم لهم فى ذهابهم إلى المدرسة ورجوعهم منها ، فأصبحوا يترددون على ذلك الدكان كثيرا ، وذلك لأنه كان لابن عمهم هذا حمار يستعمله فى جر عربة يحمل عليها البضائع فكانوا إذا ما رأوا الحمار يمتطونه فرحين ، ويسيرون به قليلا ثم يعودون ممتلئين غبطة وسرورا .

ولاحظ ابن عمهم تعلقهم بالحمار وحبهم له ، فقال لهم ممازحا :

ــ لم لا تشترون حمارا ؟

فتطلّع الأولاد إليه فى شغف ، وكأنما أعجبتهم الفكرة ، وسأل سليم فى

اهتمام :

— وكم ثمن الحمار ؟

فقال الرجل فى لهجة الخبير :

— ريال .

فغمغم الأولاد غير مصدقين :

— ريال ! ..

فقال شارحا لهم ما غمض عليهم :

— إنه حمار صيفى .

ولم يهتموا كثيرا بما تعنى هذه الصفة ، فهم يريدون حمارا أيا كان ، وأرادوا أن يطمئنوا على سعره ، فسأل سليم .

— ويباع بريال ؟

فقال ابن عمه مؤكدا :

— أجل ، يباع بريال لأنه حمار صيفى ولد فى الصيف ، فلا ينمو كثيرا ولا يكون قويا .

ولم يحفل الأولاد بذلك القول فكل أمنيتهم أن يحصلوا على حمار ، وما يهمهم ألا يكبر أو يكون ضعيفا ، ما داموا يعتلون ظهره وينطلقون به فى الطرقات فى زهو وخيلاء ، وقال سليم مؤكدا :

— سنحضر ريالا لتشترى لنا حمارا .

وانصرف الأولاد وهم يفكرون فى طريقة جمع الريال ، فقال سليم :

— ندخر مصروفنا وبذلك نجمع ثمن الحمار فى سبعة أيام .

وبان على أسعد التردد ، فقال :

— وأين نضع الحمار ؟



ندخر مصروفنا ، وبذلك نجمع ثمن الحمار فى سبعة أيام

فقال سليم :

ــ فى غرفة من غرف الشقة الأرضية .

فقال أسعد :

ــ لن تسمح أمنا بذلك .

فقال سليم فى ابتهاج :

ــ نضعه فى الوكالة المواجهة للدكان .

وأعجب هذا الرأى مصطفى فقال :

ــ هذا أحسن فلنا فى الوكالة حاصل كبير

فأطرق أسعد قليلا ثم قال :

ــ لن أشترك فى هذا الحمار .

فقال مصطفى فى حماسة :

ــ سنشترى الحمار أنا وسليم .

فقال أسعد ليثنيهما عن عزمهما :

ــ والله لو اشترينا الحمار لضربتنا أمنا كلنا .

فلم يفت ذلك فى عضد الغلامين ، فما كان ثَم شىء يثنيهما عن فعل شىء إذا عزما عليه ؛ ومرت أيام وسليم يدفع قرشا ومصطفى قرشا ، حتى إذا جاء يوم الخميس ذهب أسعد إلى بيت جدته كعادته ، وبقى سليم ومصطفى يلعبان مع رفاقهما ، وكان هواة الحمير يخرجون كل خميس إلى المحمدى ممتطين صهوات حميرهم المطهمة ، وينطلقون مزهوين يتطلعون إلى اليمين وإلى الشمال ليروا ما تتركه ركبتهم فى نفوس الناس من أثر .

ومر هواة الحمير بسليم ، وكانوا يمرون به كل خميس ، وما كان يلتفت إليهم أو يفطن إلى مرورهم ، ولكنه اليوم كان يتطلع إليهم فى إعجاب ، فعما

قريب يصبح مثلهم ، وينطلق إلى المحمدى كما ينطلقون .

وخطر له أن يذهب إلى المحمدى ليشاهد ما يجرى هناك ، حتى إذا اشترى حماره كان على بينة مما يفعله ، وعرض فكرة الذهاب على رفاقه فوافقوا ، وسار الأولاد يخترقون الشوارع الضيقة المزدحمة المؤدية إلى الساحة الواسعة المترامية أمام مسجد المحمدى ، ومرت الحمير بهم متبخترة مزهوة ، وكان وقع حوافرها على الأرض يداعب آذان سليم ومصطفى فيلتفتان فى إعجاب إلى الحمير ويتبعانها بأنظارهما .

وبلغ الأولاد الفضاء العريض المواجه للجامع ، فوجدا هواة الحمير يتسابقون فى ناحية ، والناس يتتبعون السباق فى اهتمام ؛ فوقف الأولاد ينظرون مدة ، فلما شبعوا من السباق ، ساروا إلى حلقات الناس المتناثرة هنا وهناك ، فوجدوا حواة يلعبون فى خفة ومهارة ، فراحوا يشاهدون ما يجرى أمامهم وينتقلون من حلقة إلى حلقة حتى رأوا حاويا قد خلع عن ابنه جميع ثيابه وألقاه على الأرض وبقر بطنه بسكين فتدفق الدم ، ولم يكتف بذلك بل راح يخرج أمعاء الصبى ، فارتجف الأولاد ولم يستطيعوا الصبر على ذلك المنظر الرهيب ، فولوا هاربين ولم ينتظروا حتى يعيد الرجل الحياة إلى الصبى .

وادخر سليم ومصطفى الريال ، فذهبا إلى ابن عمهما ودفعاه له والدنيا لا تسعهما من الفرح ، ومرا فى عودتهما على صانع براذع ، فخطر لهما أن يصنعا برذعة للحمار ، فدخلا على الرجل وسألاه عن ثمن البرذعة ، فقال لهما ثمنها سبعة قروش ، فانصرفا على يعودوا إليه بعد أيام ثلاثة .

واستأنف سليم ومصطفى ادخار مصروفهما حتى إذا انقضت الأيام الثلاثة ذهبا إلى صانع البراذع ودفعا إليه بالقروش السبعة ، وطلبا منه أن يصنع

لهما برذعة لحمار صيفي صغير ، وأخذ سليم يصف للرجل البرذعة التى يريدها .

وانطلقا إلى ابن عمهما يستفسران عما تم فى أمر الحمار فسيتم صنع البرذعة بعد يومين ، فأخبرهما أنه لم يعثر على الحمار بعد ، وأنه سيذهب إلى سوق الجمعة ليبحث لهما عن حمار يناسبهما .

ومر اليومان بعد أن ظن الصبيان أنهما لن يمرا ، فذهبا إلى صانع البراذع فوجدا برذعتهما جاهزة ، فتطلعا إليها فوجداها أفخم مما توقعا ، فشاع فى نفسيهما الرضا ، وحملا البرذعة وهما يكادان يطيران من الفرح .

حمل سليم البرذعة على ظهره ، وراح مصطفى ينظر إلى أخيه نشوان ، حتى إذا بلغا الدار ، رآهما أسعد فأسرع إليهما ، وأخذ ينظر إلى البرذعة فى عجب ، فما كان يظن أنهما يجهزان البرذعة قبل الحمار . وصعد سليم ومصطفى فى الدرج مهرولين ، وتأخر أسعد فهو يحس بما سيحدث بعد حين .

ورأت أمينة ابنها يحمل على ظهره برذعة فرنت إليه فى ذهول ، وفغرت فاها من الدهشة ، ثم وجدت لسانها أخيرا فقالت فى غضب :

— ما هذا ؟

فقال مصطفى فى فرح ولم يفطن إلى غضب أمه :

— اشترينا حمارا .

فصفعته على وجهه فغاض فرحه ، ووقف سليم كالمأخوذ لا يدرى ما يفعل ، فتناولت شبشبها وأخذت تضربهما وهى تصيح :

— هو انتم قرود ، والله إن لم تعيدوا هذه البرذعة لصاحبها ...

فقال سليم فى صوت ذليل :

ــ دفعنا ثمنها ، ولن يقبل الرجل أن يعيدها .

فدفعتهما فى عنف وقالت :

ــ اذهبا وإن عدتما بها قصفت رقبتكما .

وهبط سليم فى الدرج مطاطئ البصر ، ومصطفى خلفه يجر رجليه . وشاء أسعد أن يشاركهما فى عواطفهما ، فانطلق معهما يشجعهما على إعادة البرذعة . وضاق صدر مصطفى بما حدث فصاح فى غضب :

ــ وهى مالها ؟

ولكن لم يرد عليه أحد ، فالتزم الصمت ، وبلغوا دكان الرجل فتقدم أسعد وشرح له الظروف التى اضطرتهم إلى إعادة البرذعة ، فأعادها الرجل بعد أن اتفق على أن يعيد إليهم خمسة قروش فقط .

وقفل الأولاد عائدين إلى البيت مكسورى الفؤاد ، إذ انهار أمام أعينهم حلم من أحلامهم الجميلة العذبة .

٣٩

موسيقى صاخبة تدوى دويا ، ما إن تصك آذان الأطفال حتى يدعوا لعبهم ويهرولوا صوبها ، وهم يميزونها عن أى موسيقى أخرى ، وينشرحون لها فإن لها فى نفوسهم دلالتها ، فهى تذكرهم بالسينما الحبيب إليهم .

وما إن يصل الأولاد إلى العربة التى تحمل منشورا من الخشب لصقت على جوانبه صور الأبطال فى مواقف تثير الحماسة فى الأطفال والسذج ، وجلس فى جوفه رجال الموسيقى بملابسهم القديمة ، حتى يهرعوا إلى الصبى الذى يسير بجوار العربة يوزع الإعلانات ، فيأخذ كل منهم إعلانا ، ثم يتفرسون فى

الصور ، وينظرون إلى الشاب الذى يعتلى صهوة جواد ، ويرتدى فراء وقبعة ، ويقبض على مسدسين من الخشب ، ويسير أمام العربة فى خيلاء ، نظرة حسد وإعجاب ، فهو يذكرهم برعاة البقر الذين يحبونهم ويقبلون على رواياتهم فى لهفة وشغف .

قرأ الأولاد الإعلان ، فأبدى بعضهم إعجابه بالرواية العظيمة التى تعرضها تلك الدار التى لا تجلب إلا الروايات الفذة ، وراح البعض الآخر يدلل على سخفها مستندا إلى الملخص المطبوع بالإعلان . وكان الأولاد ينقسمون حزبين : حزب يؤيد دارا بعينها ويتعصب لها ولرواياتها . وحزب يؤيد دارا أخرى منافسة لها ويتعصب لرواياتها وأبطالها ، وكان الجدل يستمر يوم الخميس قبل الذهاب إلى حفلة الساعة الثالثة ، ويوم الجمعة بطوله . وحدث مرة أن عرضت رواية فى الدار الثانية لبطل محبوب من أبطال الدار الأولى ، فاعتبره أنصار هذه الدار من المارقين وقاطعوا رواياته ، وراح أنصار الدار الثانية يعيرونهم به ، ويتخذون من ذلك حجة على أن البطل وجد دارهم أفضل فانحاز إليها .

وعاد من السينما أسعد وسليم ومصطفى وحزبهم وأخذوا يقصون ما رأوه فى شغف ، ويذكر بعضهم بعضا بالمواقف المثيرة التى أعجبتهم ، وراح سليم يقص موقفا أعجبه كل العجب حتى تمنى أن ينفذه ، رأى فى الرواية المضحكة البطل وقد حاصره أعداؤه من كل جانب ، وما كان أمامه لينجو منهم إلا أن يقفز من الطابق السابع ، فتناول مظلة عادية وفتحها وقفز بها فى الفضاء ، فحملته وهبط إلى الأرض فى سلام . احتلت هذه الفكرة المضحكة ذهن سليم فراح يفكر فيها حتى اقتنع بإمكان إنفاذها .

وأصبح الصباح ، والفكرة لم تبرح ذهن سليم ؛ فعزم على إنفاذها ،

ودخل غرفة أبيه فألفى مظلته معلقة ، فتناولها فى خفة ، وانسل من الغرفة ، وهبط إلى رفاقه وقال لهم فى فرح :

ـــ سأقفز بالمظلة من شرفة الدور الأول .

فنظر الأولاد إليه فى ذهول ، وحاول أسعد أن يثنيه عن عزمه ، ولكن سليما أبى ، وأصر على القفز بالمظلة . وصعد إلى الطابق الأول ، ووقف فى الشرفة وفتح المظلة ، وتطلع الأولاد إليه وتعلقت عيونهم به وصاح أسعد فيه :

ـــ إياك أن تقفز ، وإن كان ولابد فاقفز من الدور الأرضى .

ونظر سليم تحته فارتجف ، وبان له أن الأرض بعيدة جدا ، فلو أن المظلة لم تحمله كما يقول أسعد لتحطم تحطيما ؛ وأحس رهبة ، فترك الشرفة وهبط إلى الطابق الأرضى ، ووقف فى شرفة مرتفعة قليلا وفتح المظلة وقفز .

وسرعان ما دك سليم الأرض واصطدمت ذقنه بركبتيه وتحطمت المظلة فى يده ، فقد ملأها الهواء فلما زاد ضغطه لم يحتمل السلك الضغط فتكسر . وضج الأولاد بالضحك وشاء سليم أن يبكى فهو يحس ألما فى ساقيه ، ولكنه خجل من البكاء ، فأخذ يغالب ألمه ويحاول أن يبتسم .

ومرت الأيام والأولاد يواظبون على الذهاب إلى السينما كل خميس ، فإذا غادروها تمنوا أن يقبل الخميس التالى على عجل ، فالدار تعرض رواية مسلسلة ، وما كانت تنتهى الحلقة المعروضة إلا والبطل فى مأزق من المآزق التى يشفق عليه الأولاد منها ، ويتشوقون إلى معرفة طريقة خلاصه منها .

وجاء الخميس الموعود الذى تنتهى فيه الرواية ، ويعرف الرجل الخفى الذى يعاون البطل والبطلة فى الخروج من المآزق التى يقعان فيها ، فاستعد الأولاد للذهاب مبكرين ، ولكن أمهم كانت قد عزمت على ألا تدعهم

يخرجون ، ففطن أسعد وسليم إلى نيتها ففرا هاربين ، ووقع مصطفى فى الكمين .

وبكى مصطفى وصرخ ، وتوسل وتضرع ولكن قلب أمه لم يلن ، وبقى حبيسا حتى إذا انقضى ميعاد السينما ، فكت عقاله ، فهبط إلى الشارع فلم يجد من رفاقه أحدا فقد ذهبوا جميعا لينعموا برؤية الخفى وهو يزيح النقاب عن وجهه ، فأحس حزنا ، وضاق بالظلم الذى نزل به فطفرت من عينيه الدموع .

وبقى ينتظر مرور الساعات فى غيظ وتبرم ، ولاح له أن الساعات التى تمر فى السينما كلمح البصر طالت ولا تريد أن تنقضى ؛ وأخيرا آذنت الشمس بالمغيب ، وأقبل الأولاد فى جمعهم ، فما إن لمحهم حتى هرول إليهم وسألهم فى لهفة :

ـــ من الرجل الخفى ؟

فأجابوه :

ـــ أبو البنت .

فقال فى سرور :

ـــ كنت أخمن ذلك .

ولكنه ما لبث أن غاض سروره ، فقد فاته أمر عظيم . لقد كان يود أن يرى بعينيه ، وأن ينفعل للرؤية ، وأن يشارك أبطال الرواية فى فرحهم ، كما شاركهم فيما نزل بهم من رزايا . ولم يستطع أن يشارك الأولاد فى سرورهم فانزوى وهو حزين .

ومر يوم الجمعة ويوم السبت وأقبل يوم الأحد ، ففكر مصطفى أن ثَم حفلة نهارية فى السينما ، وإنه يستطيع أن يذهب ليشاهد الحلقة الأخيرة التى

فاته أن يراها يوم الخميس ، ولكن كيف يذهب وهو لا يخرج من المدرسة إلا فى الساعة الرابعة ؟ فكر فى أن يدعى المرض فى الصباح ، وأن يلجأ إلى جدته كما اعتاد أن يفعل ، ولكنه تيقن أن أمه لن تدعه يهرب فى سهولة ، وأنه قد يعرض نفسه للضرب الشديد دون جدوى ، ولو كان على ثقة من أنها تضربه وتدعه ، لما اهتم بالضرب ، ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه أنها لن تدعه يهرب هذه المرة ولو اضطر الأمر إلى أن يحمله البواب ويذهب به إلى المدرسة . وذهب إلى المدرسة على مضض ومرت الساعات وهو فى ضيق يفكر فى الرواية التى ستنتهى دون أن يراها ، وأحس قلقا واضطرابا ، وجاء موعد الغداء فلم يتناول شيئا فقد عافت نفسه الطعام ، وخطر له خاطر سر له ، وذهب إلى أسعد وسليم فأسره لهما ، فأعجبتهما الفكرة فأخذاه وانطلقا به إلى ضابط المدرسة .

وضع مصطفى يده على بطنه وأخذ يتلوى ، وارتسم على وجهه الألم الشديد ، ودخل أسعد على ضابط المدرسة وقال له :

ــ إن مصطفى يحس مغصا شديدا .

وخرج الضابط فرأى الغلام يتلوى من الألم فقال فى ارتباك :

ــ وما نفعل له الآن والطبيب قد انصرف ؟!

فقال سليم فى رجاء :

ــ دعه يذهب إلى البيت ليتناول شيئا .

فالتفت الضابط إلى الأولاد وقال :

ــ اذهب معه يا سليم .

فقال سليم :

ــ أظن أنه لا داعى لذلك .

ووصلوا إلى باب المدرسة فقال الضابط للفراش :

ــ دع مصطفى يخرج .

فتقدم مصطفى وهو يتلوى ويتأوه ، ومرق من الباب فى خفة ، ولما رأى الباب يغلق وراءه ، أطلق ساقيه للريح .

أخذ مصطفى يعدو فى الطرقات كغزال نافر ، ولم يتوقف ليلتقط أنفاسه حتى بلغ دار السينما ، فدخل فى الدرجة الثالثة بعد أن دفع قرشا ، وجلس يرتفع صدره وينخفض فى قوة وسرعة ، ولكنه كان على الرغم من تعبه الشديد يحس نشوة عظمى .

وخرج مصطفى من السينما فرحان بعد أن رأى ما كان يتمنى أن يراه ، وكان الظلام ينشر ألويته ، فأغذ فى السير ليدخل البيت قبل عودة أبيه .

٤٠

ممدوح يعمل فى الدكان من الصباح إلى المساء ، يخرج مع أبيه ويعود معه ، ولا يعرف إلا أصحاب الدكاكين القريبة . وكان يمازحهم ويمازحونه ، وفى يوم أراد أحدهم أن يداعبه فقال لحسن :

ــ لقد كبر ممدوح فلم لا تزوجه ؟

فابتسم حسن فى هدوء ، ولم ينبس بكلمة ، وبلغ القول مسامع ممدوح فدغدغ حواسه ، وراح يفكر فيه ، إنه كبر حقا فلم لا يتزوج ؟ إنه بلغ الخامسة عشرة فأصبح من حقه أن يطمئن على حياته المستقبلة .

وفطن جيرانه إلى أن حديث الزواج يسره ويرضيه ، فراحوا يحرضونه على أن يطلب من أبيه أن يزوجه ، وكانوا يجلسون مع حسن ويفاتحونه فى أمر

زواج ابنه على مسمع منه فيغتبط ويبتسم حسن فى سكون .

واختمرت فكرة الزواج فى ذهن ممدوح ففكر فى أن يستعين بمن فى الدار لإخراجها إلى حيز الوجود ، فذهب إلى أمه وأفضى إليها برغبته فابتسمت راضية فإنه يسرها أن تزوج ابنها ، ولكنها أرادت أن تريه أن الأمر ليس هينا كما يظن فقالت له :

ـــ اصبر قليلا يا ممدوح حتى تكبر .

فلم يعجبه ذلك . لقد كبر وانتهى الأمر فعلام الانتظار ؟ ورأى أن يهبط إلى جدته يلتمس منها العون ، فجلس بجوارها واستكان لها وتودد إليها ، فإن من طبعه الاستكانة والتودد إذا كان فى حاجة إلى شىء ، ثم همس فى أذنها :

ـــ أريد أن أتزوج .

وبلغ الهمس مسامع الأولاد فضحكوا وأغرقوا فى الضحك فقالت لهم :

ـــ ما الذى يضحككم فى ذلك ؟ رجل يريد أن يتزوج !

وأرضى ذلك غروره ، فلم يأبه للأطفال الذين لا يفقهون شيئا ، وما كان يلتفت بطبعه إلى من لا يستطيع أن يسدى إليه يدا ، فهو يهتم بالناس بمقدار ما ينتظر أن يعود عليه منهم ، وشجعه رد جدته فاسترسل :

ـــ أريد امرأة ، أية امرأة ولو كانت سوداء كطرحتك .

ولم يستطع الأولاد أن يكتموا حواسهم فانفجروا ضاحكين ، وأخذ مصطفى يقهقه فى صوت رفيع حتى دمعت عيناه ، ولما فرغ من ضحكه أخذ يقلد أخاه :

ـــ أريد امرأة ، أية امرأة ولو كانت سوداء كطرحتك !

فاستأنف الموجودون ضحكهم ، حتى الجدة ابتسمت وأخفت فمها بطرف طرحتها ، ثم قالت :

— سأزوجه عندنا فيكم .

فنزل قولها بردا على قلب ممدوح ، ورأى من الحكمة ألا يسترسل فى حديث الزواج حتى لا يفسد ما وصل إليه من نجاح .

وفاتحت أمينة زوجها فى أمر زواج ابنهما ، وحادثت نفيسة ابنها فى ذلك أيضا ، فقرر ثلاثتهم تزويجه ، وأخذت أمينة تعرض على ابنها أسماء فتيات الأسرة ، فأخذ يرفض هذه بحجة أنها تكبره ، وتلك بحجة أنها لا تصلح له ، وظهر جليا أن من كان يريد أن يتزوج امرأة ولو كانت سوداء كطرحة جدته ليس هينا كما تظاهر أولا ، إنه يستكين حتى يضمن فرصته ، فإذا استحوذ عليها أملى إرادته .

واستمر العرض واستمر الرفض ، وفى يوم قالت له جدته :

— لم لا تتزوج عصمت بنت عمتك ؟

— إنها صغيرة .

— غدا تكبر .

وأطرق ممدوح وصمت ، فهو يحب عمته سكينة ، ولا يرى بأسا أن يخطب ابنتها وينتظرها حتى تكبر ، ورفع رأسه وقال فى نبرات المغلوب على أمره :

— افعلى ما تحبينه .

كانت الجدة تحب دائما أن توفق راسين فى الحلال ، وكانت كثيرا ما تفكر فى زواج حفدتها ، فإذا جلست بين زوجات أبنائها أخذت توزع الصبيان على البنات بالعدل والقسطاس ، حتى ترضى جميع فروع الأسرة ، فتقول فلان لفلانة وفلان لفلانة ، ومن العجيب أن أغلب الزيجات التى تمت فى الأسرة كانت وفق هوى الجدة ، وكأنما كانت تقرأ المسطور فى سجل القدر .

وقر الرأى على أن يخطب ممدوح عصمت ، فأرسلت نفيسة إلى ابنتها وزوجها وأفضت إليهما بالخبر ، فتقبلت سكينة النبأ فى خفة وسرور ، وراح مختار يبدى ويعيد ويقص ذكرياته ، ويروى فى فخر كيف زوج أخواته وكيف حمل العبء كله فى شجاعة بعد موت أبيه .

واتفق على يوم كتب الكتاب ، وجاء نساء الأسرة إلى البيت الكبير وما كان البيت كبيرا فى الحجم ، ولكن سمى بذلك لأن الجدة تقطن فيه ، وجاء موعد الغداء فانتظر النسوة إقبال العروس ، فقد كانت فى المدرسة الابتدائية ولم تنصرف منها بعد .

ودق جرس الغداء فاتخذت عصمت سمتها إلى البيت الكبير . لم تسرع ولم تهرول فما كانت تدرى خطر ما هى مقبلة عليه ، بل لقد رأت بعض زميلاتها يتلكأن ويلعبن ، فتلكأت معهن ، ولعبت قليلا . ثم انصرفت فى هدوء دون أن يخطر على بالها النسوة اللائى فى الدار ينتظرن أوبتها .

ووصلت إلى حيث كان النسوة فقابلنها بالتهليل ، وابتدأت أمينة تجهز الغداء للموجودات . فدخلت عصمت المطبخ وطلبت أن تقوم بغرف الطعام . فابتسمت أمينة وقدمت لها المغرفة ، ووقفت ترقبها ، فلما وجدتها لا تستطيع أن تحمل الطبق فى يد وتغرف باليد الأخرى تقدمت لمساعدتها . وتم إعداد الطعام فقام النسوة يلتهمنه ، ويدعون الله أن يتمم بخير .

كانت أمينة منهمكة فى خدمة المدعوات ، ولكن لم ينسها ذلك أمر ابنتها الحبيبة ، فكانت ترمق وردة وهى فى ثيابها الفاخرة وقد جلست فى حجر عمتها سكينة ، فيداعب السرور أوتار قلبها ، وتتفتح نفسها ، إن أمنيتها الكبرى أن تراها شابة كالشابات اللائى يخطرن فى ثيابهن الجديدة فرحات مزهوات .

وجلست أم أحمد زنوبة بعيدا ولم تشارك النسوة فى طعامهن ، فاتجهت أمينة إليها وغمزتها فى كتفها ، فنهضت وسارت خلفها ، ودخلت أمينة غرفة وأم أحمد فى أثرها ، ثم خرجت أمينة وعادت تحمل ما لذ وطاب ووضعته أمام أم أحمد .

ولما صلى الناس العشاء ، وفد المأذون وحسن ومختار وبعض الرجال ، وكتب الكتاب وأديرت أكواب الشراب ، وارتفعت الزغاريد وراح النسوة يهنئن أمينة ، ويقلن لها :

ــ عقبى لوردة .

فكانت تحس فرحا لا يقدر ، وتقول فى صوت متهدج :

ــ فى حياتك .

وانصرف المدعوون ، واقتعدت أم أحمد زنوبة حشية وثيرة ، فالتف حولها أهل البيت ؛ وجلست أمينة قبالتها وابنتها وردة فى حجرها ، وأخذت تمسح شعرها فى رفق وحنان . وغطت أم أحمد وجهها بطرف طرحتها البيضاء وانتفضت ، ثم رفعت الطرحة وقالت فى صوت متغير قليلا :

ــ مساء الخير .

فردت أمينة التحية فى احترام ، فإن التى تتكلم الآن هى الست وردة الوقور ؛ ومدت الست وردة يدها وأخذت سميتها الطفلة وجعلت تمسح على رأسها وتتمتم ببعض آيات القرآن ، ولما انتهت هنأت ممدوحا وأمه ، وأخذت تذكر تمنياتها السعيدة للزوجين فى رزانة وهدوء ، ثم استأذنت فى الانصراف ، فأذنت لها أمينة بعد أن شكرتها على تكرمها بزيارتهم فى هذه المناسبة السعيدة ، وفرح الأولاد لانصراف الست وردة ، لأنهم يعلمون أنها إذا انصرفت أقبلت ابنتها الصغيرة ، وهم يحبونها ويتمنون أن تمكث معهم .

وغطت أم أحمد وجهها بطرحتها وشبكت يديها خلف رأسها وانتفضت فعادت إلى سيرتها الأولى .

وبقيت صامتة مدة ، ثم ظهر على وجهها إعياء وجهد ، فغطت وجهها فانبعث صوت رفيع ، يمتاز بخفة وطيش ، وما إن صك الصوت آذان الأولاد حتى انتعشوا وظهر فى وجوههم الاهتمام .

كانت التى تتحدث هى زهرة الطفلة الغريرة ، فداعبت الأولاد ومازحتهم ، ثم هنأت ممدوحا ، وأرادت أن تشاركه فى بهجته فغنت له ، ثم زحفت حتى بلغت صوانا من الخشب ، فجعلت تنقر عليه بأصابعها نقرات موزونة ، تتناسب واللحن الذى تغنية ، وطلبوا منها أن ترقص ، فتمنعت فى دلال ، فلما ألحوا عليها قامت وتحزمت ، وراحت ترقص فى نشاط ، وضحك الموجودون جميعا ، فإن جسم أم أحمد زنوبة كان ضئيلا ، وكان شعرها أبيض ، ووجهها متغضنا ، وما كان فى فمها سن واحدة ؛ لقد كان منظرها وهى ترقص يضحك الثكلى .

وانصرفت زهرة وأفاقت أم أحمد إلى نفسها ، فوجدت الحزام فى وسطها ، فأظهرت استنكارها وغمغمت :

— الله يكافئك يا زهرة .

وأقبلت عصمت بعد يومين لزيارة جدتها ، فلما علمت أن ممدوحا مقبل إلى الحجرة التى هى فيها ، هرعت إلى المطبخ واختبأت به ، فقد أصبح من العيب أن يراها أو تراه .

٤١

ووفد إلى الحى سكان جدد ، نزلوا فى شقة أرضية فى منزل منعزل له مسالك متعددة ، وطالما رغب فى هذه الشقة بنات الهوى ، ففيها جميع الشروط التى تلزم البيوت التى يدهمها البوليس فجأة ، فللبيت أكثر من باب ، ونوافذ الشقة وطيئة تطل على نواحى متشعبة ، يسهل القفز منها والفرار تحت ستر الظلام ، فما تدب الحياة فى مثل هذه البيوت إلا فى جوف الليل ، بعد أن يهجع الناس الطيبون ، وتنام عيون الرقباء .

وما كان يعمر هذه الشقة سكان إلا لشهر أو بعض شهر ثم يرحلون ، فإن أمرها كان معروفا ، وما كان يحط فيها نسوة حتى يتغامز الناس ويهمس الجيران ، فتدهم الدار ويبتدئ الرحيل .

كان السكان الجدد أسرة تتكون من أم وبنتين كبيرتين وثلاثة أولاد ، فلما أصبح الصباح هبط الأولاد إلى الشارع يلعبون مع أبناء الجيران ، فما أيسر تعارف الغلمان ، وظلت نوافذ الشقة مغلقة ، فلم يتغامز الناس ، ولم يهمس الجيران ، فقد آن للشقة أخيرا أن ينزل بها أناس أشراف .

واختلط الأولاد الوافدون بأبناء الحى السابقين ، كانوا من طراز آخر جديد ، فلم يكتفوا بأن يشاركوا الأولاد فى لهوهم البرئ ، بل شاءوا أن يعلموهم بعض ما يعلمون ، وقد كان فيما يعلمون إثم كبير .

رأى أسعد وسليم أن هؤلاء الأولاد خطرون ، فقررا مقاطعتهم ، وعدم مشاركتهم فى لعبهم ، وراحا يحذران أصدقاءهما القدماء منهم ، فانضم إليهما فريق ، وانحاز إلى الآخرين فريق .

ونشبت معركة بين الخير والشر ، وما كان الخير بقادر إلا أن يزجى النصح والتحذير ، أما الشر فكان يقدم ما يرضى النفوس الصغيرة المتطلعة إلى المعرفة ، المشتاقة إلى كل جديد .

وفرشت فى الحارة الضيقة التى كان الأولاد يلعبون الكرة فيها قطعة حصير بالية ، وجلس الشياطين الثلاثة وحولهم حزبهم وأخذوا فى التدخين ، وأخذت السجائر تنتقل من فم إلى فم ، والأولاد يضحكون فى نشوة لما يروى من حديث مكشوف . كان أكبر الأولاد الثلاثة يتحدث عن العلاقات الجنسية حديث خبير ، ولو أن رجلا مجربا أنصت إلى ما يروى لصعق دهشا من علم الصبى الغرير الذى لا يحصله إنسان عادى على مر السنين !

ووقف أسعد وسليم ومصطفى ورفاقهم يرقبون ما يجرى من بعيد ، فلم يكتف الأولاد بالتدخين ، بل بعثوا فى شراء خمر ، وجاءت زجاجة وكوب ، فأخذ الأولاد يديرون الكوب ويشربون ، ثم يتمايلون ويضحكون ضحكات ناعمة نشوانة ، لا تصدر عن صبيان صغار لم يبلغ أكبرهم الثانية عشرة من عمره .

وانسل أسعد وسليم ومصطفى إلى بيتهم ، وعاد صحابهم إلى دورهم . وبقى الآخرون فى لهوهم وعبثهم وصخبهم ، وأخذ مصطفى يفكر فى الدخان المنبعث من أفواه الصبيان فيحس رغبة جارفة فى أن يفعل مثلهم ، فراح يتخيل أن بين أصابعه سيجارة فيشد أنفاسا منها حتى إذا امتلأ صدره بالهواء ، أخذ ينفثه فى شغف وهدوء واطمئنان .

وعزم مصطفى أن يشترى علبة سجائر إذا أخذ مصروفه فى الصباح ، ليتمتع بلذة التدخين كالآخرين ، فما إن أشرقت الشمس حتى ذهب إلى أبيه وأخذ منه قرشا ، ثم هرع إلى أقرب دكان واشترى علبة بها عشر سجائر ،

وأخذ يفكر فى مكان أمين يدخنها فيه ، فهو يعلم أنه مقبل على أمر عظيم ، فما من أحد فى أسرته الكبيرة يدخن ، وهو يعلم أنه لو انكشف أمره لنزل به عقاب شديد ، وخطر له أن يختبىء فى ركن مظلم خلف دارهم يخفيه جوسق صغير ، فاطمأن إلى ذلك وسار إليه يتلفت فى ذعر خشية أن يدهمه أحد إخوته فيسود نهاره ولا يتمتع بالتدخين .

وبلغ المكان الأمين ، ولكن نفسه ظلت على اضطرابها ، ثم أخرج علبة السجائر وتناول منها سيجارة وأشعلها ، وأخذ يشد منها أنفاسا فلم يشعر بأية لذة ، ولكنه أحس حرقانا فى حلقه ، وانتهت السيجارة الأولى فأشعل الثانية ، وانتهت الثانية فأشعل الثالثة ، وانتهت الثالثة فأشعل الرابعة ، وانتهت الرابعة فأشعل الخامسة ، وضاقت أنفاسه وأخذ يسعل سعالا متواصلا ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وشعر بضيق شديد ، ولكن كان عليه أن ينتهى من السجائر الخمس الباقية حتى تختفى معالم الجريمة ، فأشعل السادسة وأخذ يشربها وهو يكاد يختنق ، وأشعل السابعة وقد أحس دوارا ، فوضع السجائر الباقية تحت قدمه وداسها ، وخرج من الركن الذى لاذ به يسعل فى شدة ، ويلتقط أنفاسه فى جهد .

لم يجد فى التدخين لذة بل عذابا ، ورأى رجلا يدخن فلم يحسده بل أحس نحوه إشفاقا ، ولم تراوده فكرة التدخين بعد ذلك ، وما خطر على باله أن يعيد الكرة ، وأصبحت رائحة الدخان تضيق من أنفاسه حتى لا يستطيع أن يجلس فى مكان يعبق جوه بالدخان المتكاثف .

ومرت الأيام وأسعد وسليم ورفاقهما يقاطعون أولاد الجيران الجدد ومن لف لفهم ، وراحوا يرقبون دارهم ، فابتدأوا يتغامزون ويهمسون ، إذ وجدوا أن الجيران الجدد الأشراف لا يختلفون كثيرا عمن اعتادوا النزول فى

هذه الشقة ، فإن رجالا أغرابا يدخلون ويخرجون ، وإن شيئا مريبا يجرى فى الداخل ولاشك ، فإن الأولاد لا يجرؤون على الدخول إذا كان عندهم ضيف كريم .

وفى ليلة ليلاء ، انبعثت أصوات فزع تشق السكون ، فهب الناس من نومهم ، وفتحوا شبابيكهم يستفسرون ، فإذا بهم يفاجئون فينذهلون ، فإن الناس الذين حسبوهم أشرافا قد دهمهم البوليس ، وقبض على رجال أغراب عندهم ، فأغلق حسن شباكه وانسحب وهو يحس أسفا وخجلا ؛ واستمرت الضوضاء مدة ثم خفتت وتلاشت .

وفى الصباح راح الناس ينظرون إلى الشقة الموعودة ، فوجدوها مفتحة النوافذ لأول مرة ، وما كان فيها شيء ، فقد رحل سكانها بعد فضيحة الليل . ودخل أسعد وسليم ومصطفى وصحابهم الشقة الخالية ، وراحوا يجوسون خلالها ويضحكون ويتغامزون ، وجاء أصحاب الأولاد الراحلين ، فلما علموا بما حدث فى الليل طأطأوا أبصارهم .

ورحل الأولاد الشياطين بعد أن علموا أولاد الحى أشياء ، ووسموا بعضهم بعادات لم تفارقهم أبدا . إنهم نزلوا بالحى مدة ، ولكنهم تركوا به آثارا لن تمحى .

٤٢

ورزقت أمينة بنتا ثانية ، وسمتها زكية ، وكانت غبطتها عظيمة فلن تكون وردة وحيدة مثلها لا أخت لها .

وراحت أمينة تغمر وردة بحبها فتشترى لها الثياب الفاخرة ، وتعتنى بها ، ولاحظ الأولاد تعلق أمهم بأختهم ، فشاعوا أن يستغلوا ذلك الضعف ،

فكانوا إذا أرادوا أن يذهبوا إلى جهة ما ويخشون معارضة أمهم يستصحبون وردة معهم ، فتصرح لهم وتقدم لهم كل عون ومساعدة .

وفى يوم أراد أسعد وسليم أن يتصورا ، فقالا لأمهما إنهما يريدان تصوير وردة ، فسرت الأم وأعجبتها الفكرة ، وقامت فألبستها ثوبا فاخرا ، ورجلت لها شعرها الذهبى السبط ، حتى إذا اطمأنت إلى روعة هيئتها دفعت بها إليهما ، فأخذ سليم يدها ، وأخذت أمينة تتطلع إليهم فى نشوة ، وترمق ابنتها فى غبطة ، وهبطوا فى الدرج حتى إذا بلغوا نهايته أسرعت إلى الشرفة تتملى من منظر وردة وهى تخطر فى الطريق .

سارت وردة وأمينة تتبعها بقلبها ، وتذكرت فجأة أنها نسيت أن تعطيها منديلها ، فهرعت إلى الداخل وأخرجت منديلا صغيرا ونادت الخادم فى لهفة ، وأمرتها أن تطير لتلحق بوردة وتعطيها منديلها .

وراحت الخادم تقفز الدرج ، وهرولت أمينة إلى الشرفة فرأت الخادم تلحق بأولادها وتدفع بالمنديل إليهم ، فاطمأنت وانشرحت ، ولمحت أسعد يسوى شعر أخته بيده ليبعده عن عينيها ، فمس ذلك وترا حساسا فى قلبها ، فكادت دموع الفرح تطفر من عينيها .

وهبط مصطفى إلى الشارع يلعب مع رفاقه ، حتى إذا أخذت الشمس فى المغيب ، عاد إلى البيت ، وقد اتسخت ثيابه ، فضربته أمه ، وما كان يمر يوم دون أن تضربه على قذارته ، فهو يحمل التراب فى حجره ليبنى ورفاقه بيتا صغيرا مقلدين البنائين الذين كانوا يشيدون الدور فى الفضاء المواجه لدورهم .

وفكر مصطفى فى وسيلة يدرأ بها ذلك الضرب الذى ضاق به ، فهو لا يستطيع أن يحافظ على نظافة ثيابه ، ولكنه يريد أن يعود بها نظيفة ، فهداه

تفكيره إلى وسيلة اطمأن إليها .

ففى اليوم التالى أخذ صابونة ونزل بها إلى الدور الأرضى الذى خصص للعب الأولاد وتخزين الفائض من الأثاث ، وخبأ الصابونة فيه ، وخرج يلعب مطمئن البال .

انغمر مصطفى فى اللعب ، وكان كلما اتسخت يداه مسحهما فى جلبابه فى هدوء ، ولم يكتف بذلك ، بل التفت إلى أصحابه وقال :

ــ من تتسخ يداه فليمسحهما هنا .

ورفع جلبابه وهزه فى يده ، فهرع الأولاد إليه يمسحون أيديهم التى لطخت بالطين ، وهو يبتسم فى سرور . وفى العصر دخل إلى الدور الأرضى وأخرج الصابونة التى خبأها ، ثم خلع جلبابه وراح يغسله ، حتى إذا اطمأن إلى نظافته عصره ، ولكنه لم يستطع أن يعصره جيدا فعلقه فى الصنبور وأخذ يلفه بيديه فى قوة فيتصبب الماء من الثوب ، ويتصبب العرق من وجهه ، ثم تناول الجلباب ونشره بين يديه وأخذ يهويه فى الفضاء .

وجلس مصطفى ينتظر جفاف جلبابه ، وكان الجو حارا فلم تطل جلسته ، فما مرت ساعة أو بعض ساعة حتى كان الجلباب قد جف ، فارتداه مغتبطا وصعد فى الدرج شامخا بأنفه ، فهو يعود اليوم نظيفا كما خرج نظيفا .

ورأت أمينة نظافة الولد فتملكها العجب ، فما كانت تتصور أبدا أن يعود مصطفى فى مثل هذه النظافة بعد أن يمضى ساعات يلعب فيها فى التراب .

ومرت الأيام ومصطفى محافظ على نظافته ، وجاء يوم تأخر فى اللعب فلم يدخل الشقة الأرضية ليغسل جلبابه إلا عندما آذنت الشمس بالمغيب . وغربت الشمس والجلباب منشور لم يجف ، ولف الليل الكون بردائه ، فساد الظلام المكان ومصطفى جالس ينتظر ، وأخيرا لم يجد بدا من أن يرتدى

الجلباب المبتل ، وصعد إلى أمينة ينتظر ما يناله فى ثبات .

كانت الأم تجهز السفرة للعشاء ، وكانت منهمكة فى إعداد الأطباق ، فلما أحست دخول مصطفى قالت دون أن ترفع رأسها إليه :

— أين كنت ؟

— تحت .

وانتهى ما كان فى يدها واتجهت نحو المطبخ ، فلاحظت أن جلبابه مبتل ، فمدت يدها وتحسست الجلباب ، ففطنت إلى كل شىء ، فقالت :

— والله عال ، ومن أين جئت بالصابون ؟

فأطرق مصطفى ولم ينبس بكلمة ، فدفعته فى صدره وقالت :

— هو أنت قرد ؟

فقال محتجا :

— ولم هذا الضرب ؟

فصفعته على وجهه ، فصاح فيها :

— ما هذا الظلم ؟

فتناولت شبشبها وأخذت تضربه ، فارتفع صياحه ، وبلغ صوته مسامع جدته فأسرعت إلى السلم وراحت تهتف :

— أمينة ، دعى الولد ، والله لن ترجعى حتى يموت مرة فى يدك .

وهرعت الخادم إليه ، وأخذت تعمل على تخليصه من يدها .

وذهبت أمينة تغرف الطعام ، فصاح مصطفى وهو يبكى فى غيظ :

— والله لا ندرى ما نفعل ، إذا عدنا والملابس قذرة ضربنا ، وإذا غسلنا الملابس ضربنا . هذا شىء يحير .

فابتسمت أمينة ، ولكنها أخذت تجاهد لتخفى ابتسامتها .

وجاء حسن فوجد مصطفى يبكى ، فأخذه من يده ودخل غرفته ، ومسح على شعره وأعطاه بعض الحلوى ، فهدأت نفسه ، ورنا إلى أبيه فى حب وإعزاز .

٤٣

ذاع فى المدرسة الابتدائية أن عصمت كتب كتابها ، فراح البنات يتهامسن وينظرن إليها ، وأقبل صويحباتها يسألنها عما حدث ، فاحمر وجهها وأخذت تصف لهن ما جرى فى اضطراب وتلعثم ، وإن كانت تحس زهوا . إنها خطبت وهى فى السنة الثانية ، وعما قريب تترك المدرسة لتبقى فى البيت ، فما يجوز لفتاة كتب كتابها أن تغادر الدار وحدها ، وإن كانت طفلة لم تتجاوز التاسعة . وكان عليها أن تتعلم كيف تدير بيتها ، فلزم أن تبقى مع أمها لتتدرب على شئون البيت .

وبلغ المدرسات نبأ كتب كتاب عصمت فتلقوه فى دهشة ، وأحسسن فى أعماقهن شيئا ، فهن ناضجات مكتملات الأنوثة ، ولكن حرم عليهن الزواج ، فإن وزارة المعارف تخيرهن بين الطبيعة والوظيفة ، وحتى لو أباحت لهن الوزارة الزواج . فما كن ليجدن الزواج بهذه السهولة .

واستدعت المدرسات عصمت ، فذهبت إلى حجرتهن وهى تدرى سبب استدعائها ، وكانت راضية كل الرضا ، فهى تحس على الرغم من صغر سنها أنها صارت ملحوظة مرموقة ، ودلفت من الباب ، فلما رأينها قالت إحداهن :

— ادخلى يا شاطرة .

فضحكت مدرسة دميمة ضحكة مشوبة بمرارة وقالت :

ـــ بلى تفضلى يا هانم .

وقامت عن كرسيها وقدمته للفتاة الصغيرة ، فلم تضحك الأخريات ، ولم تغضب عصمت أو تختلج فيها خلجة فهي تحس فى تلك اللحظة أنها أفضل من مدرستها ، فقد نالت غرضها ، بينما أن مدرستها ما تزال بعد تنتظر ، وقالت لها إحداهن :

ـــ هل كتب كتابك حقا ؟

فقالت عصمت فى بشر :

ـــ نعم .

ـــ ومن ستتزوجين ؟

ـــ من ابن خالى .

ـــ وما يعمل ؟

ـــ تاجر .

ودخلت الناظرة ، فاضطربت المدرسات قليلا ، وقالت إحداهن :

ـــ هذه بنت فى السنة الثانية كتب كتابها .

فابتسمت الناظرة ابتسامة باهتة وأتأرتها النظر من تحت منظارها ، وبدا عليها التفكير الحزين . وساد السكون لحظة ، شردت فيها أذهانهن جميعا ، فقد كن يقارن بين حظهن وحظ تلك الطفلة الصغيرة ، التى منحها الحظ منحة لا تقدرها ، وليس يضيرها لو أنها تأخرت سنوات ، بينما أنهن يقدرنها ويترقبنها فى رجاء ويأس ، ويخشين أن تنساب من أيديهن فيبقين عوانس .

نكأت عصمت جرح قلوبهن ، وأفاقت الناظرة إلى نفسها ، وكانت أكثرهن كمدا ، فقد لاح فى مفرقها شعر أبيض ، فقالت للفتاة :

ـــ اخرجى يا شاطرة ، ومبروك .

وخرجت عصمت مرفوعة الرأس ، وانسحبت الناظرة ونفسها لم تصف بعد ، وخرج المدرسات إذ دق جرس الحصة الثالثة ، ومالت مدرسة على زميلتها وقالت :

ـــ ما أسرع مرور الأيام . غدا تأتى إلينا عصمت وفى يدها ابنتها لتلحقها بالمدرسة .

فلم تنبس الثانية بكلمة ، بل أطرقت تفكر فى هذه الحقيقة المرة ، فما أكثر الفتيات اللاتى تعلمهن ، وكانت تعلم أمهاتهن من قبل .

وحجز مختار ابنته فى البيت فتركت المدرسة ، وأصبحت تقضى معظم النهار فى المطبخ ، ولكنها كانت تحس حنينا إلى اللعب ، فكانت تلعب بالكرة فى صحن الدار ، وفى يوم وسوست لها نفسها أن تلعب فى الحارة ، فراحت تلعب مع أختها ، وانهمكت فى اللعب فنسيت أن ميعاد أوبة أبيها قد حان ، ورفعت رأسها فجأة فرأت أباها أمامها ، فصرخت مرعوبة ، وجرت إلى الداخل حتى إذا بلغت المطبخ ، انكفأت على وجهها .

وهرعت سكينة إليها ، وحاولت أن تقيلها من عثرتها ، ولكنها وجدتها ترتجف ، فحملتها ووضعتها فى فراشها ، ودخل مختار معبسا ، فلما علم ما انتاب ابنته انقبض صدره ، ولكنه أحس رضا فقد كان يسره أن يرى ابنته تخشاه كل هذه الخشية !

ومرضت عصمت ولزمت فراشها ، ووفد النسوة لعيادتها ، فكانت سكينة تقص عليهن ما حدث ، فكن جميعا يقلن لها :

ـــ لقد فزعت ، اسقيها من « طاسة الخضة » .

فكانت سكينة تبتسم ، وطال مرض عصمت فلم تعرضها على طبيب ،

ورأت أن لا مندوحة لها من اتباع مشورة النسوة ، فأرسلت تستعير طاسة من بيت من بيوت الأسرة ، وكانت الأسرة تملك طاسات « خضة » من غير شك .

وأحضرت الطاسة ، وكانت من النحاس الأصفر ، صغيرة مستديرة ، يتصل بحافتها أربعون مفتاحا من النحاس بسلاسل دقيقة ؛ ووضعت فيها كما قيل لها سبع بلحات وسبع زبيبات ، ثم غمرت البلح والزبيب بالماء ، ووضعت الطاسة فى الليل تحت الندى ، وكانت الليلة الجمعة ، فليس لهذه الوصفة مفعول إلا فى الليلة المباركة .

وفى الفجر أخذت سكينة الطاسة وجرعتها عصمت ، ثم أطعمتها البلح والزبيب ، وراحت ترقبها ، فقد قيل لها إنها إذا ما تقيأت ما تناولته ، تقيأت الفزع معه ، أما إذا لم تفعل فعليها أن تعيد الكرة ثلاث جمع حتى يذهب الروع عنها .

٤٤

وأحست وردة انحرافا ، وارتفعت حرارتها قليلا فشعرت أمينة بقلق ، وتركت كل شىء وجلست بجوار ابنتها تمرضها وتلبى لها ما تطلبه ، ومر يوم وازداد على وردة المرض ، وشحب لونها قليلا ، فأحست أمينة خوفا ، وأرادت أن تطمئن على ابنتها فبعثت تستدعى أم أحمد زنوبة .

وجاءت أم أحمد وجلست بجوار فراش المريضة ، وأخذت تقرأ الفاتحة لتستدعى الست وردة ، ثم تثاءبت وغطت وجهها بطرحتها البيضاء ، فأخذت أمينة ترقبها وقد غشيها شىء من الرهبة ، فهى تنتظر الست

وردة ، لتستفسر منها عما تخبئه الأيام لابنتها الحبيبة .

وتحدثت أم أحمد بصوت متغير وقالت :

— صباح الخير !

فقالت أمينة وقد بان فى نبرات صوتها قلق واضطراب :

— صباح الخير .

ولم تنتظر أم أحمد حتى تستفسر منها أمينة عن ابنتها فقالت لها فى ثقة وهدوء :

— اطمئنى ، وردة بخير .

فقالت أمينة فى لهفة :

— حقا ؟

— إنها ابنتى قبل أن تكون ابنتك .

— إنى أعتمد على الله وعليك .

— ثقى أنها بخير .

واطمأنت أمينة وأحست راحة ، فقد أكدت لها الست وردة أن ابنتها بخير ، وما كان ليخفى على الست وردة شىء .

وراح الأولاد ييممون شطر فراش أختهم كلما دخلوا الشقة ليطمئنوا عليها ، فهم يحبونها ويخشون أن ينزل بها مكروه ، بعد إذ أصبحت بهجة البيت ، ومبعث فرح الأم الذى يضفى على كل من فى الدار غبطة وانشراحا .

وأقبل حسن فى الظهيرة يتناول غداءه ، فاتجه إلى فراش وردة ، وجس يدها فأحس ارتفاع حرارتها فانقبض ، ثم وضع يده على جبهتها فأحس نارا تلسع قلبه . وأقبلت أمينة فالتفت إليها وقال :

— أرى أن نعرضها على طبيب .

ـــ لا داعى لذلك فقد رأتها الست وردة وقالت إنها بخير .

ـــ من الأفضل أن يراها طبيب .

ـــ لا يا حسن ، لو رآها طبيب فقد يأخذها إلى « العفنة » .

فاضطرب ولم يدر ما يفعل ، وسيطر على البيت قلق ، ولكن تأكيد الست وردة أن لا خوف عليها كان ينزل على قلوبهم جميعا بردا وسلاما .

وزاد على الطفلة المرض ، فبعث أمينة إلى الست أم أحمد زنوبة ثانية ، فجاءت على عجل ، وجلست بجوار المريضة تقرأ الفواتح حتى أقبلت الست وردة ، فقالت لها أمينة فى لهفة مشوبة بجزع :

ـــ بنتى .

ولم تستطع أن تتم جملتها فقد خنقتها عبراتها ، فقالت الست وردة فى هدوء :

ـــ اطمئنى وقولى يا رب .

ـــ أخشى أن ...

ولم تخرج الكلمة من شفتيها ، فإنها لا تستطيع أن تنطق بها ، فقالت الست وردة :

ـــ أوقدى نارا .

فذهبت أمينة إلى المطبخ توقد المجمرة ، وجاءت الجدة وجلست بجوار أم أحمد زنوبة ، ثم نظرت فى وجه الطفلة الممددة فى الفراش ، ومدت يدها وسوت لها شعرها الذهبى السبط وحدقت فى عينيها فألفتهما مطبقتين ، ووجدتها تلتقط أنفاسها فى جهد ، فغمغمت فى حزن عميق :

ـــ يا خسارة !

وأقبلت أمينة تحمل مجمرة كبيرة من الفخار وضعتها أمام الست وردة ،

فأخرجت هذه مجمرة صغيرة من النحاس وضعت بها جمرات ، ثم أخرجت حقا صغيرا فتحته وتناولت منه بعض البخور ووضعته فوق الجمرات ، فانبعث البخور وتصاعد فى الجو ، وهمت أمينة أن توقف ابنتها لتبخرها الست وردة ، ولكن هذه قالت لها :

— دعيها ، إنى سأبخرها فى فراشها .

وأخذت الست وردة تبخرها وهى تتمتم ببعض آيات القرآن ، وأمينة ترقبها فينقشع قلقها رويدا .

واقترب الأولاد من فراش أختهم ، وأخذوا يداعبونها ويحاولون إضحاكها ، ولكنها كانت فى كرب شديد ، فالدفتريا تخنقها وتكتم أنفاسها ، ولا يحس أحد بما تعانيه ، والتفت أسعد إليها وقال :

— سنذهب إلى السينما اليوم .. أتأتين معنا ؟

فهزت رأسها نفيا ، وقال لها مصطفى :

— سأشترى لك دمية كبيرة ، إذا نيمتها أغمضت عينيها ، وإذا أوقفتها فتحتهما .

فهمست فى صوت خفيض :

— متى ؟

فقال مصطفى فى حماسة :

— الآن .

وهب منتصبا ، ولكنه تذكر أنه لا يملك ما يشترى به الدمية ؛ فلو كان يملك ثمنها لدفعه عن طيب خاطر ، ورأى أن يأخذ ثمنها من أمه ، فذهب إليها وقال :

— هاتى عشرين قرشا أشترى بها دمية لوردة .

فأعطته ما طلب ، فخرج يجد فى السير ، يحس حرارة فى صدره .

وجاءت الخياطة ومعها ثياب جديدة لوردة وأختها زكية لا ينقصها إلا « الكلفة » ، فأخذت أمينة تعرض الثياب على وردة وتقول لها :

— انظرى ثيابك الجميلة ، لا ينقصها إلا الأزرار وتثبيت الكلفة .

والتفتت إلى الخياطة وقالت :

— ومتى تنتهى ؟

— بعد غد .

— بعد غد ترتدينها يا وردة ، انظرى ما أحلاها ، إنها ستنطق عليك .

فارتسمت على شفتى وردة ابتسامة باهتة .

وأخذ مصطفى يبحث عن دمية فى الدكاكين القريبة ، فلم يجد إلا دمية صغيرة أصغر مما كان يتمنى ، فاشتراها وأسرع إلى البيت ، وكان يفحصها فى الطريق بين وقت وآخر ليرى ما عسى أن تتركه من أثر فى نفس وردة ، وبينما كان يرنو إلى الدمية فى إعجاب إذ اصطدم به رجل فقصف رقبتها ، فاكفهر وجه مصطفى ، وأحس انقباضا ، ووقف كالمذهول لا يدرى ما يفعل ، يرى بعقله الصغير أن هذه الحادثة نذير شؤم ، وقفزت إلى خياله صورة أخته مسجاة فى فراشها ، فأحس لوعة ، وشعر بغصة فى حلقه ، وبالدموع تترقرق فى عينيه .

سار مصطفى حزينا يفكر فيما يفعل ، فهو لا يريد أن يرجع بالدمية وقد قصفت رقبتها ، فقد يغضب ذلك وردة ولكنه سيفزع أمه بلا شك ، فهو يحس فى قرارة نفسه أنها ستتطير وتتشاءم . وخطر له أن يذهب إلى نجار ليلصق الرقبة المقصوفة ، وسار يتلفت يمينا وشمالا حتى وقعت عيناه على دكان نجار فسأله أن يلصقها . ولكن الرجل أخبره ألا فائدة من لصقها فإنها

لن تثبت طويلا ، فتوسل إليه أن يفعل ، فألصقها الرجل تحت إلحاحه ، ورفض أن يتقاضى أجرا .

وسار مصطفى محاذرا حتى بلغ الدار وهو يحاول أن يبدو مطمئنا . ولكن ذلك لم يكن سهلا ، فهو يخشى أن تتحقق أوهامه ، ولا تزال صورة الدمية وقد قصفت رقبتها تحتل فكره .

ودفع مصطفى بالدمية إلى وردة فتناولتها بإهمال ، ولم تهش لها بل نظرت إليها بعينين ذابلتين ، ووضعتها بجوارها ، وأخذ مصطفى ينقل عينيه بين أخته والدمية ، فأحس صدره ينقبض ، فقد كانت الدمية أكثر حيوية من وردة .

وجاء الليل وثقلت عليها وطأة المرض ، وجلس الفتيان بجوار فراش أختهم صامتين ، وقد ارتسم الحزن فى وجوههم ، وراح حسن يرنو إلى ابنته رنوة إشفاق وعطف والألم يهصر قلبه ، وأسندت أمينة خدها بيدها وراحت الدموع تسح من عينيها ، وظل الجميع فى وجوم ، واستمر السكوت مسيطرا إلى أن قالت أمينة فى صوت متهدج :

ـــ قوموا لتأكلوا .

فلم ينبس أحد بكلمة ، وظلوا فى صمتهم الحزين ، ثم انسل الأولاد إلى فراشهم باسرى الوجوه ، مطاطئى الرءوس .

وانقضى الليل ولاح النور ، فهب مصطفى من نومه ، وأسرع ليرى وردة ، فألفاها تلتقط أنفاسها فى جهد شديد ، فانقبض صدره ، ورأى الدمية بجوارها وقد فصلت الرأس عن الجسد ، فأحس رعدة تسرى فى بدنه ، ومد يدا ترتجف وأخذ الدمية ، وخبأها فى طيات ثيابه وانصرف فما كان يريد أن تقع عينا أمه عليها .

وأقبلت أمينة ونظرت إلى وردة ، فرأت منظرا أقسى من ذلك الذى خشى

مصطفى أن تقع عيناه عليه ، رأت أبنتها الحبيبة تجود بأنفاسها الأخيرة وكانت الدفتريا تخنقها خنقا ، فانتابها فزع وهتفت فى صوت رهيب :

— وردة .. حبيبتى .

وسرى الصوت الرهيب فى الشقة يحمل اليأس والألم ، فجاء حسن يهرول ونظر إلى ابنته فغام وجهه بسحاب من حزن ثقيل ، وهرع الأولاد إلى فراش أختهم واجمين فزعين ، وصعدت الجدة تستفسر عن وردة فلما رأتها فى النزع الأخير راحت تضرب كفا بكف وتتمتم فى قنوط :

— يا خسارة .. يا خسارة .

وحشرجت الروح فى الصدر الصغير ، وبان الألم فى الوجه الذابل الحلو الدقيق ، ورأت الجدة ما تعانيه الصغيرة من سكرات الموت ، فراحت تردد فى صوت يقطع نياط القلوب :

— اسم الله .. اسم الله يا حبيبتى .

ولفظت وردة النفس الأخير ، فصوتت أمينة صوتا نزل كالصاعقة على الجميع ، فانهدت القلوب فى الصدور ، وانسل حسن من الغرفة وهو واله حزين يحس جفافا فى حلقه ، ونارا تشوى كبده ، انطلق إلى غرفته يرتدى ثيابه وهو يسح الدمع فى صمت وألم . وارتفعت أصوات الأولاد بالنشيج والنحيب ، وراح صوت الأم الثكلى يدوى فى الحى يخلع القلوب . وجاء النساء من كل صوب وحدب فى ثيابهن السود ، فانتظمت مناحة تذيب أقسى القلوب .

وما انقضت ساعة على موت وردة حتى كانت أم عباس الندابة تضرب الدفوف وتعدد بصوتها القبيح فتزيد النار لهيبا ، وتغتصب من العيون الجامدة الدمع العصى ، وتجيل عينيها فى النسوة فإذا رأت الدموع تنهمر غزيرة من

العيون ، أحست راحة ورضا ، فإن ذلك عنوان نجاحها وقدرتها .

وجعلت أمينة تصك خديها فى ذهول ، وكانت تحس كأن سكينا يمزق قلبها ، ونارا تشوى كبدها ، فلا تستطيع أن تكتم ما بها ، فتندب ابنتها فى سخط ومرارة ، ثم تذهب كالمأخوذة إلى حيث كانت تحفظ ثيابها فتأخذها وتمزقها ، وتذكرت أن ثياب وردة الجديدة عند الخياطة ، فذهبت إلى بنت أخيها وقالت لها :

ـــ اذهبى إلى الخياطة ، وخذى منها الثياب الجديدة وألقى بها فى القبر مع وردة ، فلن يلبسها أحد بعدها .

وقبرت وردة ، وقبرت معها ثيابها ، وانسل النسوة إلى دورهن ، وجاء الليل والأولاد فى الشارع يبكون لا يجرؤون على الدخول ، فإنهم يحسون فداحة المصاب ، وإنهم يقدرون ما سينتاب أمهم من غم إذا رأتهم داخلين وقد غابت وردة الحبيبة عن البيت .

وساد الظلام والأولاد واقفون بباب البيت ، وأخيرا انسلوا إلى شقتهم وقد طأطأوا أبصارهم ، ولما لمحوا أمهم تجلس فى ثيابها السود على قطعة حصير سالت عبراتهم ونزل بهم هم ثقيل .

٤٥

وسيطر الحزن على البيت ، وراحت أمينة تصرف أموره فى وجوم ، وارتدى الأولاد ثيابهم وانصرفوا إلى مدرستهم صامتين ، وجلس حسن على أريكة يبين فى وجهه الحزن العميق ، فهو يحس اليوم فراغا فقد غابت عنه وردة ، وكانت تؤنسه كل يوم فى مثل ذلك الوقت ، وكان يداعبها ، ويتملى

فى حسنها حتى تأتى أمها بصينية القهوة .

ودلفت أمينة إلى الحجرة فى صمت ، ووضعت صينية القهوة أمام زوجها ، فأحس كأن إبرة تخز قلبه ، وكأن إسفنجة تجفف حلقه ، وقد صور له خياله وردة بجواره بشعرها الذهبى السبط ، تبتسم له . وحاول أن يتجلد ، فمد يده وتناول فنجان القهوة ورشف منه رشفة ، فكأنما يرشف صابا ، وقهره حزنه ، فأعاد الفنجان إلى الصينية وظل فى صمته .

ومر الوقت بطيئا بغيضا ، فشعر بضيق ، ولم يستطع أن ينتظر موعد خروجه ، فقام وارتدى ثيابه وخرج يفر من ذلك الجو الذى يكاد يخنقه .

وجلست أمينة وحيدة تسح الدموع ، وتكفكفها بمنديلها الأبيض الصغير ذى الإطار الأسود ، إن نار الثكل تشوى جوفها ، فاستسلمت لأحزانها ، حتى شعرت بسخط وقنوط .

واستيقظت ابنتها زكية ، ونادت عليها لتأخذها من فراشها ، ولكن أمينة ظلت فى وجومها ، وثارت عواطفها ، فذرفت الدمع السخين ، وارتفع صياح الطفلة ، وانقلب الصياح بكاء ، وظلت أمينة فى جلستها الواجمة لا تحرك ساكنا ، وصك بكاء الطفلة أذنى الخادم العجوز ، فهرعت إلى الطفلة وحملتها ، وغسلت لها وجهها ثم عادت بها إلى أمها ، ولكن أمينة ازورت عنها وأشاحت بوجهها . كانت لا تود أن تحملها أو تراها ، فغمغمت فى نبرات حزينة :

— اغربى عن وجهى .

فقالت الخادم فى استعطاف :

— وما ذنبها يا سيدتى ؟ أمر الله نفذ .

— خذيها بعيدا ، لا أريد أن أراها .



فقام وارتدى ثيابه وخرج يفر من ذلك الجو الذى يكاد يخنقه

— ربنا يصبرك ، ويجبر خاطرك ، ويخليها لك .

— اخرجي من هنا .

وخرجت الخادم العجوز تضم زكية إلى صدرها فى حنان ، وتغمغم :

— الله يكون فى عونك .

كانت أمينة غارقة فى أحزانها ، وما كان عقلها يعكس إلا صور نفسها المكتئبة ، كانت لا تريد أن ترى ابنتها أو تحملها ، لأنها تراها ولدت للموت ، فلم تتعلق بها ؟ ليت قلبها يقسو عليها ، حتى إذا فقدتها لم تحس هذه اللوعة التى تحسها لفقد وردة .

ودق الباب دقات ، فأسرعت الخادم العجوز أم على وفتحته ، فوجدت أم أحمد زنوبة بجسمها الضاوى الضئيل فأفسحت لها الطريق ، فدخلت فى ثبات ، وانطلقت إلى حيث كانت أمينة وقالت لها مواسية :

— شدى حيلك .

فجرت دموع أمينة على خديها ، فقالت أم أحمد فى عتاب :

— أنت مؤمنة ، وهذا أمر الله .

فنشجت أمينة بالبكاء ، حتى شرقت بدموعها فقالت أم أحمد :

— كفى يا بنتى كفى ، العوض على الله ، ربنا يطرح البركة فى زكية .

وما إن سمعت اسم زكية حتى انقبض صدرها فهى تخشى ما يخبئه لها الدهر ، فقد يكون ادخرها ليوم يمزق قلبها ويشوى كبدها فيه ، فباتت تخاف المستقبل وتبكى منه فرقا .

وغطت أم أحمد وجهها بطرحتها السوداء وانتفضت ثم أزاحت الطرحة وتكلمت الست وردة بصوت حزين :

— البقية فى حياتك .

فقالت أمينة دون أن ترفع رأسها :

ــ حياتك الباقية .

ــ والله إن موتها حز فى نفسى كما يحز فى نفسك ، لقد كانت بنتى كما كانت بنتك ، ولكن ما نفعل ليس لنا إلا الصبر .

ــ ألم تقولى لى إنها لن تموت ؟

ــ أشفقت عليك ، ولم أشأ أن أعذبك .

ــ وما الفائدة وأنا الآن فى النار ، لو أنك قلت لى لما فارقتها أبدا ، ولبقيت بجوارها الساعات الباقية لها على الأرض ، لو أنك قلت لى ...

ــ كفى يا أمينة ، كفى وقولى يا رب .

وبكت أمينة فى صمت ، ثم قالت فى نبرات متشككة :

ــ أكنت تعرفين ؟

فقالت الست وردة بصوت هادئ يوحى بالثقة :

ــ كنت أعرف ، لذلك لم أشأ أن أتعبها آخر يوم بخرتها فيه ، فلم أنهضها من فراشها بل بخرتها وهى راقدة .

ــ إن حزنى عليها لن يبلى أبدا .

ــ تشجعى ، العوض على الله .

واستأذنت الست وردة فى الانصراف ، فأذنت لها أمينة ، فغطت وجه أم أحمد زنوبة بطرف الطرحة وانصرفت ، ثم تكلمت أم أحمد :

ــ من التى جاءت تعزيك ؟

ــ الست وردة .

فقالت معتذرة :

ــ كانت زهرة تريد المجىء هى الأخرى ولكن أمها منعتها حتى لا تجدد

أحزانك .

فقالت أمينة فى صوت خافض حزين :

ـــ كثر الله خيرها .

وصمتت أم أحمد زنوبة ، وأطرقت أمينة ، فساد بينهما صمت قاتل ، فرأت أم أحمد أن تنسحب لتفر من هذا الجو الحزين المقبض ، فاعتذرت بأنها مضطرة للانصراف .

وبقيت أمينة وحيدة ، منطوية على نفسها ، لا ترى بعين خيالها إلا وردة وهى قائمة ، وردة وهى نائمة ، وردة وهى ضاحكة ، وردة وهى عابسة ، وردة وهى مقبلة ، وردة وهى مدبرة ، فلم تستطع أن تستمر فى تفكيرها الصامت ، فانكفأت على الأريكة القريبة منها تبكى وتنتحب .

وانتصف النهار ، وزكية مع أم على لم تر أمها ، وشاءت الطفلة أن تذهب لترتمى فى الأحضان التى اعتادت أن ترتمى فيها كل يوم فهتفت :

ـــ ماما .. ماما .

فدق الصوت الرقيق باب قلب الأم الحزين ، فكاد أن ينفتح ، ولكن أمينة تذكرت الموت وقسوته ، فلن يدعها لها ، فلم تفتح لها قلبها ؟ ألتتعلق بها ثم تتلفت يوما فلا تجدها فتضطرم النار بين ضلوعها ؟ ليتها تغلق قلبها دونها حتى توفر على نفسها ذلك العذاب المرير ، والحزن الثقيل . وعاد الصوت الرقيق يهتف : « ماما .. ماما » فمس أوتار قلب الأم برغمها ، وكادت تهب من جلستها لتنطلق إلى ابنتها لتضمها إلى صدرها ، ولكنها كبتت عواطفها جاهدة ، وظلت مكانها ، وأقبلت أم على تحمل الطفلة ، ثم وضعتها فى حجر أمها وانسلت . ورأت زكية أمها فبرقت أساريرها ، فأخذت تعبث فى ذقنها ، فتفتح قلب الأم ، ومدت يدها وأخذت زكية وضمتها إليها فى حنان والدمع ينهمر من عينيها .

٤٦

واقترب امتحان آخر السنة ، فراح التلاميذ يستذكرون دروسهم ، وأخذ أسعد وسليم يتأهبان لامتحان الشهادة الابتدائية ، أما مصطفى فلم يفعل شيئا ، وما كان يدرى أن عليه شيئا يفعله ، إنه كان يظن أن الصباح للدراسة وأن العصر للعب ، وما كان يجد غضاضة فى أن يلعب فى الصباح ، ولكنه كان يجد كل الغضاضة فى أن يشرك مع اللعب شيئا آخر فى العصر .

كان أسعد مجدا ، وكان ثانى فصله ، أما سليم فكان كمصطفى لا يستذكر أبدا ولا يفتح كتابا مدرسيا ، وإن كان مشغوفا بالكتب الأخرى ، يشتريها من مكتبات الأزهر ، وينكب على قراءتها فى لذة ، دون أن يعبأ باقتراب الامتحان ودنوه .

وفى يوم التفت مدرس الحساب إلى أسعد وقال له :

ـــ قل لأبيك ألا يدفع رسوم الامتحان لسليم ، فدفعها حرام ، فهو لن ينجح ، وأبوك إنما يلقى بماله فى الأرض .

وتضايق سليم من ذلك القول ، واحمر وجهه وأحس خزيا ، ولكنه ما كان يحب أن يجبهه المدرس بهذه الحقيقة الأليمة .

وعاد الأولاد إلى البيت ، فأخذ أسعد فى استذكار دروسه ، وهبط سليم ومصطفى إلى الشارع يلعبان . وأقبل أبوهم فى المساء ، فلم يستطع أسعد أن يكتم ما قاله له المدرس ، فاقترب من أبيه وقال :

ـــ إنهم يطلبون رسوم الامتحان .

ـــ خذها غدا .

ــ لا داعى لأن تدفع لسليم .

ــ لمه ؟

ــ قال مدرس الحساب إنه لن ينجح . وإنك تلقى بمالك فى الأرض .

ــ لا بأس .

فقال سليم :

ــ لا ضرر من دفع الرسوم ، فإذا كنت سأرسب هذه السنة ، فإنى على الأقل سألم بنظم اللجان ، فإذا ما دخلت الامتحان فى السنة القادمة لا أحس للجنة رهبة .

فابتسم حسن وقال فى إيمان :

ــ من يدرى ؟

وامتحن مصطفى ، وانتهى امتحانه ، وراح أسعد يستذكر فى حماسة ، فلم يبق على الامتحان إلا أيام . وهبط مصطفى يلعب فى طلاقة فقد انقضى شبح المدرسة البغيض الذى طالما كدر صفوه فى ساعات لهوه .

ورأى صديقا من أصدقائه فهمس له :

ــ ما رأيك فى أن نذهب إلى ترعة غمرة لنصطاد ؟

فأعجبت الفكرة الصبى ، فوافق عليها ، وانطلقا فى سرور يقطعان الشارع المزدحم بالسيارات فى أمان ، ورأيا أن الطريق المطروق الموصل إلى الترعة طويل ، وشاءا أن يختصرا الطريق ، فانسلا من بين قضبان الحديد التى تفصل الطريق عن قضبان القاطرات السريعة ، وأخذا يجتازان قضبان السكك الحديدية فى طيش ، ولو أن الجدة رأتهما فى هذه اللحظة ، لصوتت ولسقطت مغشيا عليها من الرعب .

وأخيرا بلغا الترعة فى سلام ، فوقفا على شاطئها ينظران ويفكران فيما

يفعلان ليصطادا ، وما جاءا بشص ولا غاب ، ورأى مصطفى صبيا يصطاد بزجاجة كسر عنقها فبرقت أساريره ، فإنه يستطيع أن يفعل مثله . وراح هو وصاحبه يبحثان عن حطام زجاجة هنا وهناك حتى عثرا عليه ، فخلع مصطفى حذاءه ، وغاص فى الماء وشمر جلبابه ، وأخذ يضرب الزجاجة فى الماء ويرفعها ، ثم ينظر فيها فلا يجد شيئا .

وقعت عيناه على صفيحة أشبه بمصفاة ، فألقى الزجاجة وتناول الصفيحة وأخذ يملؤها بالماء ويرفعها ، فيتسرب الماء من الثقوب ويبقى ما عداه ، وتمكن مصطفى بذلك أن يصطاد بضع سمكات ، فبان الفرح فى وجهه ، وأخذ يهتف ويصيح فى سرور ، وناول السمك لصاحبه ، وهم بالخروج ، فانزلقت قدمه ، وكاد يهوى فى الماء ، ولكنه حافظ على توازنه سريعا وضحك يدارى خوفه ، ثم خرج وجفف رجليه فى جلبابه ولبس حذاءه .

ورأى مصطفى وصاحبه أن يأكلا السمك قبل أن يعودا ، فنظفاه ، وجمعا بعض الورق والأغصان الجافة ، وكانا فى حاجة إلى عود ثقاب يوقدان به النار ، فطلب مصطفى من صاحبه أن يلتمس عودا من أحد المارة ، فقد كان يخجل أن يطلب شيئا من أحد يعرفه أو لا يعرفه .

وقام صاحبه يسأل هذا وذاك عود ثقاب ومصطفى يرقبه ، وكان كلما اعتذر رجل وانصرف صاحبه إلى آخر ، أحس خجلا على البعد ، فيطاطئ رأسه ، ويتورد وجهه ، ويحس كأنما يود أن تبتلعه الأرض . وأخيرا عاد صاحبه يهرول فى سرور ، فقد تفضل عليه رجل بعود ثقاب ، وأشعل الولدان العود فى حذر . ولما قويت النار وضعا السمك فيها ، وارتفعت رائحة الشواء فداعبت أنفيهما ، وتحلب ريقهما ، حتى إذا تم شى السمك ، أخذا يأكلانه فى لذة وسرور .

وشبعا وهمّا بالعودة ، ولكن لِمَ يعودان وقد أكلا ؟ فهما سيلعبان عصرا فى الأرض القريبة من الترعة ، فلينتظرا حتى العصر ثم يذهبا إلى ملعب الكرة ، حتى إذا انتهى اللعب عادا إلى البيت مرة واحدة !

وبقيا على شاطئ الترعة يلعبان ، لا يفكران فى أهلهما ، وما ضرورة التفكير فيهم ما داما قد شبعا وملآ بطنيهما ؟ ومر الوقت وتقهقرت الشمس عن موقعها فى سمت السماء نحو الغرب ، فنهضا إلى الملعب يشاركان الأولاد فى لعبهم . وغاصت الشمس فى الأفق البعيد ، فعاد مصطفى وصاحبه إلى الحى منهوكين محطمين .

واقترب مصطفى من الدار فأحس انقباضا ، وأخذ قلبه يدق فى صدره ، فلقد تذكر أمه ، فلن تغفر له أبدا غيابه عن الدار النهار بطوله .

ولمح سليم وأسعد والأولاد مصطفى وصاحبه قادمين فهرعوا إليهما ، وأخذوا يسألونها أين كانوا ، فإنهم قد بحثوا عنهما فى كل مكان ، وعلم مصطفى أن أمه فى قلق عليه من الظهر فأحس غما ، إنه يعلم أنه سيدفع ثمن ذلك القلق مضاعفا ، وصعد فى الدرج مطأطئا صامتا ، وصعد صاحبه معه ليرى ما ستفعل أمه فيه ، وما إن وقعت عينا أمينة عليه حتى صاحت فى حنق .

— أين كنت ؟

فلم ينبس بكلمة ، وقال صاحبه :

— كنا فى ترعة غمرة ، وقد كاد يغرق لولا أننى انتشلته .

فتمالك الغضب الأم ، فهجمت على ابنها وأخذت تضربه فى قسوة ، ولما رأى صاحبه ما حل به ، هرب فرقا .

وأخذت أمينة فى سورة الغضب تعجنه بيديها ورجليها ، وهرع من فى الدار لتخليص الولد منها دون جدوى ، وأخذت تصيح :

— إننى أفضل أن تموت هنا بيدى على أن تموت غريقا .

وعلى الرغم من الآلام المبرحة التى كان يحسها ، فقد أحس فى نفسه ألما ، فما كان يظن أن يفترى الصديق على صديقه مثل هذه الفرية !

وتمكنوا من تخليصه من يدها ، ولكنها عاودت الهجوم عليه . ففر منها ولم يجد أمامه إلا الشرفة ، فأراد أن يقفز منها . فخفوا جميعا إليه . وقبضوا عليه وهو يتسلقها ، ثم راحوا يضربونه جميعا على ذلك الخاطر الجنونى .

ودخلت أمينة حجرة بعيدة تتظاهر بأنها تجهز شيئا ، ومسحت الدموع التى بللت عينيها .

وعاد حسن إلى البيت ، وعلم بما جرى فاستاء ، فهو لا يعترف بالضرب وسيلة من وسائل التقويم ، ويفضل الزجر الخفيف والنصح الهادئ ، ويعتمد فى التربية على القدوة الصالحة . دخل إلى حيث ينام مصطفى فألفاه ينتحب فى صمت . فتكدر ، وأراد أن يترضاه فاقترب منه وقال :

— قم يا مصطفى نأكل معا .

ولكن الغلام استمر فى بكائه ، فهو لا يستطيع أن ينهض بعد كل ذلك الضرب الشديد ، وانسل حسن من الغرفة ، وجلس وأمينة وحيدين ، فعاتبها على قسوتها ، وقال لها :

— إن الضرب لا يربى أبدا .

وإن تكن أمينة قد ندمت فى نفسها على قسوتها إلا أنها لم تشأ أن تعترف بندمها ، فقالت فى استكبار :

— إن لينك هو الذى أفسده !

— إنه لم يفسد ، ولكنه فى طور الطفولة يلعب كما يلعب الأولاد ، فإذا أخطأ أرشديه فى رفق إلى الصواب .

— إنه ليس كالأولاد ، إنه عجن بماء العفاريت .

وتذكر حسن أن الشباك القريب من سرير مصطفى مفتوح ، فخشى أن يلقى بنفسه منه ، فقام يهرول إلى غرفة مصطفى ، وأسرع إلى الشباك يغلقه فى عناية ، ووقفت أمينة على باب الغرفة ترقبه ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة استخفاف ولما عاد إليها غمغمت :

— ما أخف قلبك !

ولم ينم حسن فى تلك الليلة نوما هادئا ، فقد كان يقوم بين آن وآن من فراشه ويذهب ليطمئن على مصطفى .

ومرت الأيام وانقضى الامتحان ، وظهرت نتيجة الابتدائية ، ثم تقابل أسعد ومدرس الحساب الذى نصح بألا تدفع الرسوم لسليم فسأله :

— ماذا فعلتم فى الامتحان ؟

فقال أسعد فى انكسار :

— نجح واحد ، ورسب واحد .

فقال المدرس :

— ألم أقل لك ؟ إن سليما لا ينجح أبدا .

فقال أسعد فى صوت مضطرب :

— ولكنه هو الذى نجح ، ورسبت أنا .

فأخذ المدرس يضرب كفا بكف ، وسأل :

— وفيم رسبت أنت ؟ .

— فى الحساب .

٤٧

جاء الليل وتعشى حسن وأولاده ، ثم هبطوا جميعا إلى شقة الجدة يتسامرون ، ودار الحديث فقال حسن إنه يريد أن يشترى أرضا يشيد عليها دارا كبيرة ينقلون إليها ، فراح كل من الأولاد يشير بجهة ، ذكر أسعد وسليم جهة قريبة من السينما ، فقد كانت أمنيتهما فى الحياة أن يقطنا بجوار سينما ، وذكر مصطفى جهة قريبة من الأرض الفضاء التى يلعب فيها الكرة ، فهو يريد ألا يتجشم تعب الطريق الذى يتحمله فى الذهاب والإياب ، وهو يحب أن يسكن بيتا يطل على الملعب ، حتى إذا لمح أولادا يلعبون هبط إليهم يشاركهم فى لعبهم . أما ممدوح فلم يشر بجهة معينة ، فهو يريد أن يتم الشراء والبناء سريعا ، إذ يعلم أن ذلك التفكير إنما هو من أجله ، وأن أباه إنما يريد أن يجهز له الشقة التى يتزوج فيها ، وما كان حسن ممن يدع ابنا من أبنائه يعيش بعيدا عنه ، فهو يحبهم جميعا ولا يطيق فراقهم .

وقالت الجدة إنها لا توافق على الجهات البعيدة التى ذكرها الأولاد ، فلن تترك هذا الحى أبدا ، فهو قريب من المقابر ، وهى تزور المقابر كل أسبوع ، فكيف يفكرون فى أن يبعدوها عن المقابر ، أيريدون أن يحرموها زيارتها ؟! إنها لا تستطيع أن تتصور للحياة قيمة إذا خلت من زيارة القبور . إن ابنين من أبنائها الأعزاء يرقدان هناك ، وإن زوجها يرقد بجوارهما ، وإنها لتنتظر يوم الخميس لتخف لزيارة الأحبة الراقدين تحت التراب . إن صفة الجدة المميزة هى الوفاء للأموات ، والوفاء للأحياء إكراما للأموات .

وقرر حسن أن يشترى أرضا فى نفس الحى الذى يقطنونه ، فهو قريب من

دكانه ، وفى ذلك إرضاء لأمه .

ودخل ممدوح وأسعد إلى فراشهما ، وكانا ينامان مع جدتهما ، وصعد سليم ومصطفى إلى السطح فقد كانا يشاركان أم على الخادم العجوز حجرتها فى الصيف .

كانت أم على جالسة فى فراشها تقزقز لبا ، وتلفظ القشر من فمها فيقع على صدرها وينتشر كعقد نضيد ، حتى إذا فرغ اللب تناولت (كثيرة وأبا كبير) وبعض عطارة أخرى للسمنة فهى تذكر أيام شبابها فى حسرة إذ كانت مكتنزة باللحم والشحم ، وهى تتمنى أن تعيد شحمها الذى أذابته السنون .

ومدت يدها وأخذت فنجانا به عسل أسود وغمست أصبعها فيه وجعلت تمرره على جفنها الملتهب ثم تغمض عينيها وتفتحهما فى تعاقب حتى يدخل العسل فى عينيها المضعضعتين ، وكانت هذه إحدى وسيلتيها فى معالجة عينيها ، أما الوسيلة الأخرى فكانت أن تعصر فيهما بصلة !

وتمددت فى فراشها ، وأخذت أصوات معينة تبلغ آذان الولدين فى دوى مجلجل فيشمئزان منها ، وعبق جو الغرفة برائحة كريهة ، فلم يستطع الولدان صبرا ، فنهضا وحملا حشيتيهما بينهما وخرجا من الغرفة ، وأحست أم على بهما فصاحت فيهما :

— إلى أين ؟

فهتف سليم :

— إلى السطح ، الدنيا هنا حر .

وهمس مصطفى :

— نفر من الغازات السامة .

ولاحت تباشير الصباح ، واستيقظ الولدان ، ولكنهما ظلا فى فراشهما

يستقبلان مولد النهار ، وداعبت زقزقة العصافير آذانهما ، فأحسا نشوة وانتعاشا ، وشعر سليم بذهنه صافيا رائقا ، فأخذ يفكر فى هدوء ، فألفى نفسه يترنم بأبيات من الزجل ، لقد حاول أن ينظم قبل النوم ولكنه كان يحس تعبا ، أما اليوم فهو ينظم فى يسر .

ولاح فى وجهه الرضا ، وخطر له أن يصدر مجلة يحررها هو وأسعد . ويصورها صديقهما فريد ، فهو يجيد الرسم حتى إن مدرس الرسم بالمدرسة كان يضع اسمه الكريم على اللوحات التى يرسمها ويعلقها فى فناء المدرسة مزهوا ، ولو رأى بسمات الهزء التى ترتسم على شفاه الأطفال الخبثاء لحطمها تحطيما .

واسترسل سليم فى تفكيره ، فخطرت له فكرة قصة ، فأخذ يلفق حوادثها لتكون مثيرة كتلك القصص التى يراها فى السينما ، وما كان يدرى أن هناك قصصا مصرية ، وما كان يحسب أن فى مقدوره أن يجعل حسنا أو محمدا أو عليا أو زيدا أو عمرا بطلا لقصته بل كان يعتقد أن لابد أن يكون البطل أجنبيا لتكون القصة قصة ؛ وكان معذورا فقد كانت جميع الروايات التى يقرأها مترجمة ، يحمل أبطالها أسماء أعجمية ، فراح يفكر فى اسم أعجمى رنان لبطل قصته .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى ، فترك سليم ومصطفى فراشهما وهبطا إلى شقتهما فألفيا أسعد جالسا ، فقال له سليم فى نشوة :

— سأصدر مجلة .

فقال أسعد فى هدوء :

— راودتنى هذه الفكرة ، ولكنى وجدت إنفاذها صعبا .

فقال سليم فى إيمان :

— سأصدرها اليوم .

فابتسم أسعد ابتسامة هزء وقال :

— محال .

— ما أيسر ذلك ، فالمواد موجودة ، وفريد موجود ، والورق موجود ، ولا ينقصنى إلا الحبر الزفر والبالوظة ، وسأشتريهما الآن .

— وما تسميها ؟

فقال سليم فى فرح :

— نهضة الأشبال .

وتناول سليم طعام الإفطار على عجل ، وهبط مسرعا ليتمكن من إصدار العدد الأول قبل انقضاء النهار .

وهبطت أم على ترتب الشقة ، واستيقظت زكية ونادت عليها ، فهرعت إليها وحملتها فى حنان ، ثم غسلت لها وجهها ، وبدلا من أن ترجل لها شعرها شوشته ، وأدامت النظر فى وجه الطفلة فأحست وجلا ، إن زكية بيضاء البشرة ، وهى تخشى أن تصيبها عين ، فخطر لها أن تلطخ وجهها بالتراب لتخفى ذلك البياض ، ولم تحجم عن إنفاذ فكرتها ، فأخذت قليلا من التراب ولونت به وجهها.

وذهبت زكية إلى أمها ، فلما رأت وجهها المعفر بالتراب استاءت وهتفت فى حنق :

— ما هذا يا أم على ؟

— بالله دعيها يا سيدتى .

— لم فعلت ذلك ؟

— عيون الناس ، اللهم اكفنا شر العيون .

فغمغمت أمينة فى ضيق :

ــ خرف .

ثم حملت زكية ونهضت لتغسل لها وجهها ، ولما بلغت الحوض كانت نفسها قد صفت ، وخيل إليها أن كلمات أم على ترن فى أذنيها : « عيون الناس ، اللهم اكفنا شر العيون » فكادت تدع الطفلة دون أن تغسل لها وجهها ، ولكنها خشيت أن تظهر أمام أم على بمظهر الضعف ، فأزالت التراب عن وجه زكية ورجلت لها شعرها ، وشاءت أن تطمئن نفسها فقالت :

ــ الأعمار بيد الله

وانتهى سليم من كتابة القصة والزجل ، وانتهى أسعد من جمع بعض الحكم والمعلومات ، وانتهى مصطفى من الإنصات إلى القصة والزجل والحكم والمعلومات . ثم حملوا الأوراق والحبر الزفر والبالوظة وأصول المجلة وهبطوا تداعبهم آمال وأحلام .

جلس فريد على عتبة الباب يكتب بخطه الجميل « نهضة الأشبال » وجعل الأولاد يرقبونه فى زهو وإعجاب ، وأخذ يكتب المقالات ويرسم الصور والأولاد من حوله يتمنون أن يغمضوا عيونهم ويفتحوها فيجدوا المجلة انتهت ، ومر الوقت وقاربت الشمس للمغيب ، والأولاد بين اليأس والرجاء ، واستمر فريد فى عمله ، ولم تبق إلا الصفحة الأخيرة ، فأخذ يكتبها على عجل قبل أن يهجم الظلام .

وانتهت المجلة ، وطبع منها خمس نسخ ، وزع منها ثلاث على ثلاثة أولاد من أحياء مختلفة ليطلع عليها أبناء أحيائهم ، واحتفظ سليم بنسختين وقد امتلأ نشوة وسرورا .

٤٨

واشترى حسن أرضا فضاء لا تبعد عن دارهم إلا أمتارا ، واتفق مع مهندس على أن يقدم له رسم الدار الجديدة ، ولم تمض إلا أيام حتى جاء المهندس يحمل أوراقا مطوية . كان المهندس يرتدى جلبابا أزرق ، وعمامة يعلوها التراب ، هى عنوان الهندسة والبناء .

وقابل حسن الرجل وتناول الرسم وجعل يفحصه والأولاد يلتفون حوله ، يتطلعون إلى الورقة الزرقاء التى بانت بها حدود الغرف فى إعجاب ، ورأى سليم فى الناحية الشمالية فضاء فسأل :

ـــ أهذا الفضاء لنا ؟

فقال حسن :

ـــ أجل .

فقال سليم :

ـــ ولم كل هذا الفضاء ؟

فقال المعلم المهندس :

ـــ لكى لا يحبس الهواء البحرى عن الشقق .

والتمعت فى ذهن سليم فكرة فقال :

ـــ ولم لا نبنى سلاملك فيه ؟

فقال المعلم المهندس :

ـــ لا ضرورة لذلك .

وأعجبت الفكرة أسعد فقال :

— بل لابد من بناء السلاملك ، إذ فيه تستقبل الضيوف بدل أن يخوضوا فى الحريم .

وقال سليم فى إصرار :

— إن السلاملك ضرروری ، ولن يحبس الهواء عن الشقق .

ورأى حسن تشبث الأولاد بالسلاملك فقال :

— لا بأس ، ابن لهم ما يريدون .

وتناول المعلم المهندس قلما ورسم حدود السلاملك على الورق ، وطلب من سليم أن يكتب الأبعاد ، فقد كان المعلم المهندس لا يعرف الكتابة .

وفى يوم قفل أسعد عائدا إلى البيت فلمح صديقه فريد يتشاجر وغلامين فلم يخطر على باله أن يفض النزاع بالحسنى ، بل ألفى دمه يفور ، وانضم إلى صديقه فى قتاله ، فقد كان يرى أن ينصر صديقه ظالما أو مظلوما ، وتمزق جلبابه ، وأقبل الناس وفرقوا بينهم .

وانتهى الشجار ، وأقبل أسعد على صديقه يسأله عن سببه ، لقد كان سببا تافها لا يستحق تمزيق الثياب ، ومع ذلك لم يندم ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه أنه قام بالواجب عليه .

وفكر أسعد فى طريقة يتخلص بها من جلبابه الممزق ، فخطر له أن يستعين بمصطفى فناداه ، ودخلا إلى الشقة الأرضية وقال له :

— أحضر لى إبرة وخيطا .

— لماذا ؟.

— تمزق جلبابى .

— اخلعه وأنا أبدله لك .

وأعجبت الفكرة أسعد ، فقد كان لا يجيد رتق القطع ، فخلع الجلباب

ودفع به إلى مصطفى ، فأخذه ولفه جيدا وخبأه تحت إبطه ، وراح يصعد فى الدرج عدوا حتى بلغ الشقة فانسل فى خفة ، ودس الجلباب فى الملابس القذرة ، وفتح الصوان على حذر وأخرج جلبابا نظيفا لأسعد ، وعاد من حيث أتى دون أن يشعر به أحد .

واطمأن أسعد فلن تفطن أمه إلى مشاجرته ، وراح يلعب مع الأولاد فأحس عطشا ، فشاء أن يشرب فطلب من مصطفى أن يحضر له قلة ، فصعد مصطفى ثانية إلى الطابق الرابع وأحضر له قلة وهبط ، وما بلغ الحارة حتى أسرع الأولاد إليه وجعلوا يجرعون الماء حتى فرغت القلة وما شربوا كلهم ، وأخذ مصطفى القلة وقد لوثتها الأيدى القذرة ، فأحس رهبة ، فلو أن أمه رأته وهو يعيدها بهذه القذارة لثارت فى وجهه ولضربته .

ورأى أسعد أن الأولاد لم يشربوا جميعا فصاح فى مصطفى :

ـــ اصعد وأحضر قلة أخرى .

وما إن صك الصوت أذنى مصطفى حتى فزع ، إن أسعد يأمر وينهى وهو جالس على قاعدة شباك وطىء فى الحارة لا يهمه إلا أن تطاع أوامره ، فهو لا يفكر فيما يتبع تنفيذ هذه الأوامر من أذى ، ولم يفكر ما دام الأذى لا يقع عليه ! إن أمه ستغضب لتلويث القلل ، وإنها ستصب جام غضبها على مصطفى الذى عجن بماء العفاريت ، أما أسعد فلن يصيبه شىء .

وبقى مصطفى واقفا لا يتحرك ، فهو يخشى أن يصعد بالقلة القذرة ، ورآه أسعد فى وجومه فصاح فيه :

ـــ قلت لك هات القلة حالا .

فشاء مصطفى أن يعتذر ، إنه لا يريد أن يذكر السبب الحقيقى الذى يجعله يحجم عن تنفيذ الأمر ، قال :

— إنى قد تعبت ، لن أصعد إلى الطابق الرابع لأحضر قلة ثم أصعد ثانية لأعيدها .

فغضب أسعد فما كان يظن أن يعترض مصطفى وهو أطوع له من بنانه ، فصاح فى ثورة :

— امش وهات قلة حالا .

— سأصعد ولن أعود .

فهب أسعد من جلسته ، وصفع مصطفى وركله ، فسار مصطفى مطأطئا يكظم غيظه ، فلولا أنه يخشى ألا يستصحبه أسعد إلى السينما ، وإلى ملعب الكرة لكسر القلة على رأسه .

* * *

وتم بناء الطابق الأول ، فحملت أناجر الثريد من البيت القديم إلى البيت الجديد ، وأخذ الفعلة والبناءون يأكلون ويتضاحكون ، ووقف المهندس يمنيهم بأكلة دسمة مثلها لما يتم الطابق الثانى .

ومالت الشمس للغروب وانصرف العمال ، وأقبل حسن وبعض أصحابه وراحوا يجوسون خلال الغرف يشاهدون الشقق الجديدة ، وكان حسن يتمتم ببعض آى الذكر الحكيم فى خشوع ، ثم حان وقت صلاة المغرب ، فأذن أحدهم فى صوت مجلجل ، واصطفوا جميعا يصلون ، فقد كان حسن يحب أن يذكر اسم الله أول ما يذكر فى البيت الجديد .

وبعثت أمينة بأناجر الثريد إلى الضيوف ، وانطلق الأولاد يشاركون الزوار فى الطعام ، ووضعت الأناجر على الحصير ، والتف الجميع حولها وأخذوا يأكلون ويتحدثون ، فقال أحدهم وهو يدفع الملعقة فى الثريد :

— فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على ...

ولم يتبين الجالسون الكلمة الأخيرة ، فإن الملعقة كانت قد بلغت فم المتحدث وملأته بالثريد ، فابتسم حسن وضحك الآخرون .

٤٩

زكية الكبرى محطمة النفس ، كسيرة القلب ، فقد مرت السنون ولم تحمل كما منتها الست وردة ، وها هو ذا زوجها يمرض من إدمان الخمر ، ويصاب بشلل خفيف . وهي تحس في قرارة نفسها أن عذابها سيطول .

وأصبحت أم أحمد زنوبة تلازمها ليل نهار تؤنسها فى وحدتها ، وتحدثها أحاديث لطيفة ، وتقص عليها ذكريات بعيدة ، فتقصر عليها ساعات النهار الطويلة .

كانت أم أحمد تحب زكية وتعطف عليها ، وكانت تحاول جاهدة أن تروح عنها ، وأن تهدئ من نفسها القلقة . وكانت إذا أحست فشلها أفسحت الطريق للست وردة تفعل الأعاجيب ، فتعيد إلى النفس المضطربة هدوءها ، وإلى القلب الواجف طمأنينته .

وفى يوم جلست زكية على حشية صغيرة بالقرب من الأريكة التى تمدد عليها زوجها وأخذت تطرد الذباب عن وجهه بمنديلها ، وفتح الرجل عينيه فألفاها ساهرة عليه ، فبان فى وجهه الرضا ، ولما رأته استيقظ قالت فى حنان :

— تأكل ؟

فهز رأسه موافقا ، فقامت وعادت تحمل صينية صغيرة عليها سلطانية حساء وأرنب مسلوقة ، وأخذت تطعمه بيدها ، وتغمره بعطفها .

وشعر الرجل بعطفها السابغ ، ومس حنانها أوتار قلبه فأراد أن يترجم عما يحس نحوها من امتنان ، فقال :

— أحببتك يا زكية ، ولم أصغ إلى من حاولوا أن يبعدوك عنى ، قالوا لى تزوج غيرها لتعقب ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، فما كنت أطيق أن أعمل ما يكدرك ، وكان يكفينى من الدنيا أن تكونى معى .

وصمت الرجل وصمتت زكية ، وإن كانت تود أن تستفسر عمن حاولوا أن يبعدوه عنها . هى تعلم أن الرجل أصبح حطاما ، ولكنها أحست لكلامه لذعا ، فلو أنها أنجبت لما قالوا له دعها وتزوج من غيرها ، ولم تستطع زكية أن تكتم ما بها ، فهمت أن تسأله عمن أشار عليه أن يتزوج من غيرها ولكن الرجل استأنف كلامه :

— والله يا زكية إنى أخاف عليك بعدى ، إن أخى لا يحب النساء ، ولا يعتقد أن لهن حقا ، أما ما أخشاه ألا يعطيك حقك بعد موتى .

واغتاظت زكية ولكنها أرادت أن تدارى ما بها ، فقالت فى صوت حاولت أن يوحى بالثقة والطمأنينة :

— بعد الشر عنك ، غدا تبرأ .

فقال الرجل فى يأس :

— لا أظن ، إن يومى قد قرب .

وساد الصمت ثانية ، وشخص الرجل ببصره إلى سقف الحجرة ، وبان فى وجه زكية الأسى العميق ، ثم قال الرجل فى عزم :

— إن حجج البيوت والأراضى عندى ، خذيها وأعطيها حسنا .

فقالت زكية فى خوف :

— لا .. لا .

ـــ خذيها خير لك ، قبل أن يستولى عليها أخى .

فقالت زكية فى إصرار :

ـــ غدا تبرأ . إنك بخير ..

وصمت الرجل على مضض .

وفى يوم أقبل حسن لعيادة زوج أخته ، وأخذ هو والرجل يتجاذبان أطراف الحديث ، وتذكر الرجل فجأة أمر الحجج ، فقال لحسن :

ـــ عندى حجج البيوت والأراضى خذها عندك ، فإذا شفيت استعدتها منك ، أما إذا مت ..

فقاطعه حسن :

ـــ لا قدر الله .

فقال الرجل فى يأس :

ـــ إنى يا حسن سأموت ، فحرام أن يضيع حق أختك .

وأحس حسن كأن يدا قوية تهصر قلبه ، فقد حرك منظر الرجل اليائس عواطفه الرقيقة ، فقال :

ـــ لا تفكر فى هذا ، وفكر فى نفسك ، إن شفاءك بالدنيا .

ـــ طاوعني يا حسن ، وخذ الحجج .

ـــ لا . دعها عندك .

فتطلع الرجل إلى السماء وقال فى إيمان :

ـــ اللهم اشهد ، إنى لم أظلمها .

ومرت أيام تتبعها شهور ، وساءت حال الرجل ، فلم يعد يستطيع أن يتحرك أو يتكلم ، واستمرت زكية تبالغ فى تمريضه والعناية به ، وفى يوم أقبل أخوه ، ولما رأى سوء حاله دخل ينقب عن الحجج حتى عثر عليها فاطمأنت

نفسه ، وانطلق إلى الباب لا يلوى على شيء .

ورأى الرجل أخاه يخرج ويدس الحجج فى جيبه ، فبان فى وجهه الغضب وحاول أن يصيح ، ولكن لسانه كان ثقيلا فى حلقه ، لا يدور ولا ينطق ولا يهمس ، وصعد الدم إلى رأسه ، ونظر إلى زكية فى بأس فألفاها أطرقت ، لقد فهمت كل شيء ، فهمت أن أخاه سلبها حقها وقضى الأمر ، وتطلع الرجل إلى السماء فى غيظ ، وبان فى وجهه الأسى المرير ، ورأت زكية الثورة فى وجه زوجها ، فربتت عليه وقالت :

— لا تحزن ، منه لله .

وكأنما أشفق النوم على الرجل ، فمس بأنامله الرقيقة جفنيه فراح فى سبات ، وبقيت زكية وحدها ، وأخذت الذكريات تتوافد عليها وهى مطرقة فى جلستها ، فتذكرت حلمها إذ رأت نفسها فى ثياب سود يوم زفافها ، فازداد انقباضها ، كانت تتمنى الولد ولكنها لم تنجب ، وها هو ذا رجلها عما قريب يولى ، إنها منكودة .. ولم تستطع أن تحتمل حزنها ، فأجهشت بالبكاء .

٥٠

وتم بناء الدار الجديدة ، وراحوا يتأهبون للانتقال إليها ، فأخذوا يجمعون الأشياء القابلة للكسر فى سلال ، ورأى مصطفى زجاجة مصباح ، فأخذها وكسرها ، فرفعت أمينة رأسها وقالت :

— ما هذا ؟

فقال مصطفى فى عدم اكتراث :

— زجاجة مصباح .

— ولم كسرتها ؟

— لا لزوم لها هناك ، فسننير بالكهرباء .

فابتسمت أمينة ابتسامة خفيفة وقالت :

— أنت قرد .

وجلس أسعد وسليم يفكران فى تأثيث السلاملك ، ويجيلان أعينهما فى المكان يبحثان عن أشياء يأخذانها ، ورأى سليم مرآة كبيرة فقال :

— نأخذ هذه المرآة .

وقال أسعد :

— ونأخذ أريكتين وهذه الكراسى .

ولما قر رأيهما على الأشياء التى سيأخذانها ، انطلقا إلى أمهما فألفياها تصر الثياب فراحا يفاوضانها على ما سيستوليان عليه .

وانتقلوا إلى الدار الجديدة ، فاحتل الأولاد ورفاقهم السلاملك بالنهار وراحوا يلعبون النرد والشطرنج ، وأقبل النسوة يهنئن نفيسة وأمينة بالمنزل الجديد ويتمنين لهما أن يجعله الله منزلا مباركا ، وهن يدرن بعيونهن فى المكان ، وما من امرأة منهن لم تحسدهما ولم تتمن لو تكون الدار لها .

وجاءت بنت أخت الحاجة تزور نفيسة وتبارك لها ، وكانت تحب نفيسة فهى لم تتخل عنها بعد موت الحاجة كما فعل سلائفها ، بل ظلت تودها وتبعث إليها بالخيرات التى كانت الحاجة تبعث بها إليها فى المواسم والمناسبات .

وحان وقت الغداء ، فمدت الجدة السفرة ، ووضعت الطعام ودعت إليه بنت أخت الحاجة ، ثم تلفتت تبحث عن الخادم ، حتى إذا لمحتها نادتها :

— تعالى يا خضرة .

فأقبلت الفتاة فى ثبات ، وجلست إلى الطعام ، فما كانت نفيسة تأكل وحدها أبدا ، بل كانت تأكل وخادمها فى جفان واحدة ، وما كانت تدعو خادمها باسمها بل كانت تدعو أى فتاة تعمل عندها خضرة .

ورفع الطعام وقامت الجدة تصنع قهوتها بيدها ، فما كانت تحب أن يمس أحد غيرها قلتها أو تنكتها ، وخرجت خضرة تشاكس الأولاد وتشاغبهم ، فدفعها ولد فى صدرها ، فهرعت إلى المطبخ تتباكى ، فلما سمعت نفيسة نشيجها ، تحركت عواطفها ، وساءها أن تتألم الفتاة الصغيرة ، فأقبلت عليها وسألتها فى حدب :

— ما بك ؟

فتصنعت الفتاة البكاء وقالت :

— ضربونى .

فغضبت الجدة ، وتركت القهوة ، وانطلقت إلى الأولاد تنهرهم على فعلهم القبيح ، فقد كانت تصدق خادمها دائما وتنتصر لها .

وجلست الجدة تتجاذب وبنت أخت الحاجة أطراف الحديث ، وما كانت مقبلة عليها بكليتها ، بل كانت تشرد بفكرها أحيانا ، فقد كانت تفكر فى شىء تهديه إلى المرأة التى ما كانت تنصرف دون شىء .

ودخل مصطفى ، فنظرت إليه الجدة لحظة ، وبرقت أساريرها ، فهو يرتدى بذلة تصلح لابن ابن بنت أخت الحاجة ؟

وقر رأيها على أن تأخذ منه البذلة فقالت :

— تعال يا مصطفى .

فاقترب منها ، فمدت يدها وتحسست البذلة وقالت :

— ما هذه البذلة القديمة ؟ اخلعها .

فهم مصطفى بالانصراف ، فقالت له :

ـــ إلى أين ؟

ـــ ذاهب لأخلعها .

ـــ اخلعها هنا .

فابتسم مصطفى ، وأخذ يخلعها ، فهو على يقين أنها ستعطيها المرأة ، وماذا يهمه ؟ بل إن ذلك فى صالحه ، فهو سيطالب أباه بغيرها جديدة ، خلعها فى سرعة فائقة ، ثم هرع إلى شقتهم يرتدى جلبابه .

ولفت نفيسة البذلة ، فتناولتها المرأة وهى تغمغم بالدعوات الصالحات ، وقامت وانصرفت فى خفة كأنما كانت تخشى أن يعود مصطفى ليطالب ببذلته .

* * *

جلس أولاد الحى فى السلاملك يلعبون النرد والشطرنج ، ويتجاذبون أطراف الحديث ويتضاحكون ، وكانوا جميعا فى سن متقاربة ، وكانوا فى المدارس الثانوية ما عدا مصطفى فقد كان فى السنة الثالثة الابتدائية ، وكان يرسب سنة وينجح فى الثانية ، ثم يعود ويرسب ثم ينجح ، سبب ذلك أنه كان يعتمد على ما يحصل فى الحصص ، أما فى البيت فما كان يفعل فيه شيئا للمدرسة .

وعلى الرغم من تقارب الأولاد فى السن ، فقد كانوا يتفاوتون فى التفكير ، فبينما كان فوزى راجح العقل ، حلو النفس ، يشع نور الذكاء من عينيه الواسعتين ، وتشرق فى وجهه ابتسامة حلوة ، كان فهمى فارغا لا يهتم إلا بالسفاسف ولا يقيس الأمور إلا بالظواهر ، فما كان يحب أن يصادق شكرى لأنه ابن جزار ! وكان عبد الرحمن قصيرا جدا ، خبيثا ، يميل إلى

الدعابة ، يضحك دائما ، حتى ليخال للمرء أن فمه قد اتسع من كثرة الضحك ، وكان ذرب اللسان ، يركب الأصدقاء بدعاباته ، وكان إذا ما سخر من شكرى يبتسم فهمى فى شماتة ، فتظهر ثنيتاه الكبيرتان البارزتان ، وتلمع عيناه العسليتان فى سرور ، ويومئ إلى عبد الرحمن برأسه إيماءة خفيفة كأنما يدعوه إلى أن يستمر فى سخرياته .

كان شكرى يحفظ ألحان روايات الكسار ، وكان يؤديها أداء لا بأس به فكان الأولاد يقتربون منه ويلتفون حوله ينصتون إلى دندنته إذ كان صوته خفيضا ، أما فهمى فكان يجلس بعيدا ، وإن كان يرهف السمع ، ويتظاهر بعدم الاهتمام حتى لا ترفع الكلفة بينه وبين ابن الجزار .

وكانت ترن فى السلاملك بين وقت وآخر ضحكة فضية نقية ، كانت تنبعث من قلب خلى ، هى كل ما يملكه على من دنياه ، فقد كان فارغ الرأس ، فارغ القلب ، فارغ الجسم ، إنه هيكل عظمى شد عليه جلد أبيض رقيق .

استمر الأولاد فى لعبهم حتى حان موعد الذهاب إلى ملعب الكرة ، فخرجوا من السلاملك فى جلبة وضوضاء ، وساروا يتضاحكون ويتصايحون وما ساروا أمتارا حتى انحرفوا يمينا ، ولمح فوزى على شباك قريب من الأرض حلة ملوخية وضعت لتبرد ، فقفزت إلى ذهنه فكرة ، لم يستطع مقاومة إغرائها ، فمد يده وهو يضحك ضحكات متتالية ، ودفع الحلة فوقعت على أرض الغرفة ، ورأى الأولاد ما فعل فوزى ، فشاركوه فى ضحكه ، وأطلقوا سيقانهم للريح .

لقد كانت فى فوزى شيطنة على الرغم من ذكائه .

٥١

ذهب ممدوح إلى جدته وجلس إليها وقال لها فى استكانة مصطنعة :

ـــ إنى أريد أن أتزوج قبل دخول الشتاء .

فقالت له جدته :

ـــ إن شاء الله .

فقال فى نفس الاستكانة :

ـــ والله لا أدرى لم كل هذه العطلة ! الشقة خالية ، والأثاث يملأ الأسواق .

ـــ سأحادث مختارا .

ـــ اليوم ؟

ـــ اليوم عندما أراه .

وانصرف ممدوح إلى الدكان مغتبطا ، وجاء مختار وكان من عادته أن يمر على البيت الكبير كل صباح يتناول فنجانا من القهوة ويأخذ فى الحديث عن نفسه وعما فعله فى أمسه ، فهو يميل إلى الفخر ، ويضفى على نفسه أثوابا من المهارة والمعرفة والحنكة ، وهو نحيل جدا ، ضعيف جدا ، ويحس ذلك ولكنه يحب أن يوهم الناس أنه قوى ، فكان ينتهز كل فرصة ليقص قصة وقعت له تدل على قوته ورباطة جأشه وشجاعته .

جلس يقول فى انطلاق وهو ينظر إلى السامعين والسامعات بعينين فيهما زهو ورضا .

ـــ كنت فى ليلة حالكة الظلام أسير وحدى فى الطريق ، وكان السكون

يخلع القلوب ، وكانت فى يدى عصاى هذه — ورفع عصاه الرفيعة التى ما كانت تفارقه أبدا — وبينا كنت أسير لا يصل إلى أذنى إلا صوت وقع أقدامى إذ بلغ سمعى صوت آت من بعيد يصيح . أمسك .. أمسك .. أمسك .. فأرهفت حواسى ، ونظرت أمامى محاولا أن أخترق طيات الظلام الكثيف ، وكانت عيناى قد اعتادتا الظلام ، فأمكننى أن أكشف الطريق الذى كنت أضرب فيه ، فلمحت رجلا عملاقا يعدو نحوى ، وسمعت الصوت يصيح : أمسك .. أمسك ، فى وضوح ، فرفعت عصاى وقبضت على كعبها بيدى ، واستجمعت كل قواى وضربت الرجل ضربة شديدة فى صدره ، ولكن الضربة انحرفت قليلا ، واشتبك مقبض العصا فى عضد الرجل ، وحاول الرجل أن يخلص نفسه ، ولكنى جذبت العصا جذبة قوية ، فنظر إلىّ نظرة يتطاير الشرر منها ، وكان أسود اللون يبعث منظره الرعب فى القلوب ، ويفكك الأوصال ، ولكنى لم أضطرب بل أخذت أجذبه وأتقهقر حتى لا يصل إلى ، ومرت برهة هائلة قبل أن يصل الرجال الذين يقتفون أثره ، وكان قد رفع يده ليبطش بى ، ولكن الرجال أحاطوا به وقبضوا عليه وخلصوا عضده من عصاى ، وأخذوا ينظرون إلىّ فى إعجاب ويتهامسون فما كانوا يصدقون أبدا أن يقبض نحيل مثلى على مثل ذلك العملاق .

ورشف رشفة من فنجان القهوة الذى برد ، ثم وضع الفنجان ومد يده من جيب جلبابه الصوفى وأخذ يسوى قفطانه الذى يرتديه تحت الجلباب . ولم يظهر على الوجوه إلا ذلك الاهتمام المتكلف ، فقد سمعوا هذه القصة جميعا مئات المرات .

وصمت مختار لحظة ، فانتهزت الجدة الفرصة وقالت :

— ممدوح يريد أن يتزوج قبل دخول الشتاء ، فما الذى يؤخرك عن

إتمام الجهاز ؟.

فاعتدل مختار وقال فى زهو :

ـــ أريد أن أجهز جهازا لم يجهزه فى الأسرة أحد من قبلى .

فقالت الجدة فى بساطة :

ـــ السوق ملآنة .

ـــ لا تعجبنى النجارة التى فى السوق ، ولا النماذج التى فى السوق ، إنى أحب أن أجهز كل شيء بنفسى .

ورأى الفرصة سانحة ليتحدث عما فعله يوم زواج أخته ، وأن يفتخر ما شاء له الفخر فقال :

ـــ إنى جهزت زينب فى عز الغلاء ، وكلفت جهازها ألفين من الجنيهات ، اشتريت لها أفضل السجاجيد ، وغرفة سفرة فاخرة ، وغرفة نوم رائعة ، وغرفة استقبال أعجب بها كل من رآها ، أليس كذلك يا أمينة ؟

ووافقت أمينة على ما يقول ، وأخذ يقص كيف كان ينتقى الأثاث وكيف كان يختار الألوان ، ومرت ساعات وقام مختار وقد اتفق على أن يبدأ فى إعداد الجهاز .

واتفق مختار مع نجار على صنع غرفة نوم وغرفة سفرة وغرفة جلوس ، واتفق مع آخر على صنع صالون مذهب . وعاد إلى البيت الكبير يسهب فى وصف الغرف ويقص فى تفصيل ما قاله للنجار وما قاله النجار له .

وخرجت أمينة وعصمت وسكينة لشراء « النيشان » وهو هدايا يقدمها الخطيب لخطيبته قبل الزفاف ، ويتكون « النيشان » عادة من حذاء فضى ، وقماش من القصب الغالى ، وقفاز أبيض ، ومروحة كبيرة من ريش أبيض فاخر ، وطرحة بيضاء ، وجورب أبيض من الحرير الغالى ، ويطلق على

هذه الأشياء « الطقم الأبيض » وهو ما ترتديه العروس ليلة الزفاف ، ويحتوى « النيشان » كذلك على شباشب حمراء وصفراء وخضراء ، وجوارب ومناديل وروائح وصابون ممسك ، وصندوق تواليت فاخر ، وأقمشة متعددة وثياب داخلية .

وراحت أمينة وسكينة وعصمت ينتقلن طوال النهار من دكان إلى دكان حتى اشترين كل ما يحتجن إليه ، ثم عدن إلى البيت مغتبطات ، وإن كانت تلوح عليهن أمارات التعب .

ووضعت الأشياء فى غرفة عند الجدة ، فإذا وفد إلى البيت وافد أقتيد إلى تلك الغرفة ليتفرج برؤية « النيشان » بين صخب الأولاد وضجيجهم ، واستمر باب تلك الغرفة يفتح ويغلق ، والأولاد يذهبون إلى الغرفة كلما جاء متفرج ، ثم يعودون ينتظرون تشريف زائر جديد لينطلقوا فى ركابه إلى حيث وضع النيشان ، وليشاركوا أمينة فى عرض الأشياء وتقديمها .

ودارت عجلة الزمن ، وتم صنع غرف السفرة والنوم والصالون ، فحمل مختار الغرف على عربات ثم أسرع إلى البيت ينتظرها ، وجلس عند الجدة ، ولكنه لم يطق الانتظار فكان يقوم إلى الشباك بين لحظة وأخرى يطل منه .

وأخيرا لمح العربات مقبلة ، فصاح فى نشوة :

— افتحوا باب الشقة حالا .. افتحوا الشقة حالا .

وهرع إلى الدرج وراح يهبط فيه ، ووقف على الباب ينتظر فى فرح ، ويتطلع إلى نوافذ الجيران وشرفاتهم ليطمئن إلى أنهم يشاهدون الجهاز الفاخر ، وتمنى فى هذه اللحظة أن تطلق إحدى الخادمات زغرودة فيخرج الجيران إلى النوافذ ليروا الأثاث العظيم .

ووقفت العربات أمام الدار ، وأطلقت الزغرودة التى كان يتمناها ،

وملئت الشرفات بالرجال والنساء ، فامتلأ صدره نشوة ، وأحس زهوا ، وأمر الحمالين أن يحملوا قطع الأثاث فى رفق حتى لا تخدش أو تصاب بسوء ، وكانت عيناه تدوران فى الشرفات فيرتسم على محياه غبطة وبشر .

ووضع الأثاث فى الغرف ،وفتح مختار الشبابيك ليمكن الجيران من النظر ، وانصرف الحمالون ، ودعا مختار كل من فى الدار ليشاهدوا الجهاز البديع .

صعدت الجدة وأمينة وسكينة وعصمت ونساء كن فى زيارة الجدة ، وامتلأت الشقة بالأطفال ، وراح مختار ينتقل من غرفة إلى غرفة ويسهب فى الشرح ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة زهو :

ــ هذه نجارة ممتازة ، لا يوجد مثلها فى السوق ، إن الحمالين قالوا إنهم لم يروا أثاثا مثل هذا ، إنه متين وجميل ، انظرى يا أمينة إلى هذا الصوان ، إن الخرط الذى به عجيب ، وانظرى إلى ..

واستمر يقدم الأثاث قطعة قطعة ، وأمينة تقول :

ــ عال .. جميل .. بديع .. ألف مبروك .

وأضاف مختار :

ــ لو رأيتم الجيران وهم ينظرون ! لقد بان الإعجاب فى وجوههم .

وبعد أن تفرجوا برؤية الأثاث ، أغلقت الشقة فى عناية ، وهبطوا إلى شقة الجدة يستمعون إلى مختار وهو يقص ما فعله مع النجار وما تكبده من تعب حتى حصل على تلك الغرف النادرة .

وجلسوا يوما يفكرون فى خياطة تحوك ثياب العروس ، فأخذ النسوة يعرضن أسماء خياطات مصريات ، فلم يوافق مختار على واحدة منهن ، فهو يود أن تحوك ثياب ابنته خياطة أجنبية حتى يقول فى زهو : إن مدام فلانة خيطت ثياب ابنتى .

وخرج يبحث عن خياطة أجنبية ، فأرشده عامل من عمال صيدناوى إلى خياطة يهودية ، فاطمأن إليها دون أن يعلم عنها شيئا ، وعاد إلى الدار يسهب فى مديحها ، ولم لا يمتدحها ما دامت أجنبية ، وفى هذا خير دليل على أنها ماهرة لا يعلو على مقصها مقص !

وأخذت الخياطة اليهودية القماش ، وقصته وراحت تجرى التجارب مثنى وثلاث ورباع ، وواعدتهم ذات يوم على أنها ستحضر الثياب فى المساء ، فلما وافى الموعد انتظر حسن ومختار وأمينة وسكينة وعصمت تشريفها فى غرفة الاستقبال ، وجلسوا فى وقار كأنما كانوا ينتظرون شخصا كريما مهابا ، ومر الميعاد ولم تحضر ، فانتاب مختارا بعض الضيق ، وأخذ يلتمس لها المعاذير ، ولم يدر أنها من نساء الأعمال ، تعلم أنها كلما تأخرت ازداد الشغف إليها .

وأخيرا جاءت يتبعها ثلاث بنات يحملن على أيديهن ثيابا لفت فى ورق فاخر ، واعتذرت عن التأخير ، وراحت تصافح الموجودين ، فأقبل عليها مختار يهش لها ويبش ؛ وسلم عليها حسن فى وقار ، وما كان يخشى أن تنقض وضوءه فقد صلى العشاء .

وراحت عصمت ترتدى ثوبا وتخلع ثوبا ، ومختار يظهر إعجابه ، ويكيل المديح للخياطة اليهودية الأجنبية — وظل حسن فى صمته ووقاره لم ينبس بكلمة ، وارتدت عصمت أربعين ثوبا ، وما كان فى تفصيلها شىء جديد ، ولكن عين الرضا جملت الثياب ، وما ارتدت عصمت آخر ثوب حتى فتحت الخياطة حافظتها وأخرجت بعض الملبس الفاخر ونثرته فى حركة بارعة أرضت مختارا كل الرضا ، فدفع ما طلبته دون أن يناقشها فى الحساب .

وانصرفت الخياطة مغتبطة ، وخرج مختار خلفها يوصلها حتى السلم ، وقال حسن فى سخرية :

ـــ جنون ، ضحكت عليكم وأخذت الجنيهات منكم وطارت .

وتم إعداد الشقة ، وأخذ مختار يحضر أصدقاءه ليفرجهم على الجهاز ، فكانوا يكيلون له الثناء ، فيحس فرحة كانت تعوضه عن الحسرة التى كان يشعر بها أحيانا كلما فكر فى الجنيهات التى أنفقها .

واتفقوا على ليلة الزفاف ، وكان حسن يود أن تكون ليلة هادئة لا يدعو إليها إلا الأقارب فهو بطبعه لا يميل إلى الظهور ، ويحب أن يركن إلى الهدوء ، وأن يبتعد عن الصخب ووجع الرأس ، ولكن مختارا أبى وأصر على أن تكون ليلة صاخبة ، تتحدث عنها الأجيال ، فما كان يهتم بالفعال بقدر ما يهتم بالإعلان .

وقبل حسن وهو كاره أن يقيم فرحا كبيرا إكراما لأخته سكينة ، حتى لا يغضبها أو يكدر صفو الساعة ، وأخذوا يفكرون فيمن يحيى الليلة ، فاصطدموا بعقبة كأداء . فهم لا يستطيعون أن يحضروا مطربا معروفا ، فسيطلب المطرب ورجاله خمرا ، وهم لن يقدموا الخمر بحال ولو لم يتم الزفاف ، وقال أحدهم فى انتصار :

ـــ نحضر عبد اللطيف البنا ، فهو مطرب صالح ، يغنى وفى يده المسبحة .

فقال مختار فى ابتهاج :

ـــ عال وأنا أعرفه ، وأنا على استعداد لأن اتفق لكم معه .

وسرت موجة ابتهاج ، ولكن حسنا لم يشاركهم فى ابتهاجهم ، وقال فى هدوء :

ـــ ولكن رجاله لن يعزفوا ما لم نقدم لهم الخمور ، أنسيتم يوم فرح عثمان ؟

وتذكروا جميعا تلك الليلة ، فقد طلب رجال التخت خمرا ، ورفضوا أن يجيبوهم إلى طلبهم ، فقامت مشادة عكرت صفو الليلة ، وهم لا يريدون أن تتكرر تلك المأساة ، وأطرقوا جميعا يفكرون فى مطرب لا يتناول خمرا ، وأعياهم البحث والتنقيب ، وقال مختار :

ـــ ما رأيكم فى إحضار منيرة المهدية ؟.

فقال حسن فى سخرية :

ـــ أتغنى للرجال ؟ ومن ذا الذى يغنى للسيدات .. سيد شطا ؟!

وعلم الجمع أن الاقتراح لم ينل استحسانا ، فاستأنفوا التفكير ، وأخيرا قال أحدهم :

ـــ ليس هناك أفضل من الشيخ على محمود لإحياء الليلة .

فبان الرضا فى وجه حسن وقال :

ـــ إى والله إنه رجل صالح ، ما أحلى صوته وهو يقرأ المولد .

وتم الاتفاق على استدعاء الشيخ على لإحياء الليلة التى ستتحدث عنها الأجيال !

وجاء الفراش يعد العدة لليوم العظيم ، فأقام فى الشارع سرداقا فخما كبيرا ، وأقام فى السطح سرداقا آخر ، وأخذت الرايات ترفرف فى الحى معلنة أن حدثا عظيما سيجرى هنا عما قريب ، حدث يستحق كل هذه العناية والرعاية ، وكل هذه الضجة وذلك الاستعداد الهائل ، ألا وهو بناء شاب بشابة !

وأرسلت إلى حسن الهدايا من أقاربه وأصدقائه ، وكانت الهدايا خرافا تكفى لطعام الحى بأجمعه ، وأرسل زوج زكية على الرغم من مرضه عجلا ، وبات الأولاد ينتظرون اليوم الموعود بصبر ناقد ، أما سعد وسليم فما كانا

يفكران إلا فى صحابهما وهما يطلبان أن تجهز لهم سفرة خاصة بهم ، وكان ذلك اليوم بالنسبة لمصطفى يوما هاما ، فهو اليوم الذى يرتدى فيه البنطلون الطويل لأول مرة .

وجاء اليوم الموعود ، فأقبل أحمد من أول النهار ليعاون أخاه حسنا فى مهام ذلك اليوم الكثير الزحام ، وقد قام أحمد بعمل جليل خطير ، فقد أخذ كرسيا وجلس بجوار الباب يتطلع إلى النسوة اللاتى أخذن يتدفقن على البيت من أول النهار ، واللاتى أمضت أمينة وسكينة فى دعوتهن خمسة عشر يوما .

ولمح أحمد امرأة رائعة الجمال ، فالتفت إلى صديق كان يجلس بجواره وقال :

ـــ إنها أجمل من رأيت اليوم .. إنها امرأة .

ولم يستطع أن يكتم إعجابه ، فراح يهمس لها بغزل رقيق ، وانفلتت من جواره وهى تضحك ، ولما دلفت من باب البيت وقفت والتفتت إليه ، فألفى نفسه يقوم من على كرسيه وينطلق إليها ، فقد كانت فيه خفة ، ولما اقترب منها غاضت نشوته ، وأحس خزيا ، فقد كانت كبرى بناته .

وجاءت زكية تهنىء أخاها وأختها وتنصرف قبل وفود الليل حتى لا تترك زوجها المريض وحده ، ورأت النساء يقبلن سافرات الوجوه ، عاريات الأذرع والصدور ، فتذكرت قول جدها لها وهو يبكى : « سيأتى أوان تخرج النساء فيه عرايا ، سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور » فغمغمت :

ـــ الله يرحمك يا جدى ، تعال شف .

وراح مصطفى يخطر فى بنطلونه الطويل بين الكراسى المذهبة التى صفت فى السرادق الكبير ، وأخذ أسعد وسليم يجهزان سفرة خاصة لأصحابهما فى شقة منعزلة ، بعيدا عن المكان الذى أعد لسفرة المدعوين .

وقبع بجوار الطاهى أناس من الأسرة وظيفتهم فى كل فرح أو مأتم أن يرقبوا الطاهى ، وأن يخزنوا الحلوى لحين الحاجة إليها ، وأن يسربوا إلى بيوتهم كل ما يستطيعون تسريبه من الأصناف اللذيذة الفاخرة ، إنهم القط الذى تسلم مفتاح « الكيلار » .

وفى الساعة الخامسة سرى فى الجو صوت موسيقى قادمة ، فهرع الناس إلى النوافذ والشرفات ، وأقبلت موسيقى البوليس حتى إذا بلغت السرادق احتلت مكانها أمامه ؛ وأسرع ممدوح إلى رئيسها يصافحه فى حرارة ، فقد كان من المعجبين به ، وكان يذهب كل جمعة إلى حديقة الأزبكية ليشنف أذنيه بأنغامه العذبة التى كان يطرب لها .

ووقفت أمام باب البيت عربة هبطت منها امرأة مكتنزة اللحم ، قصيرة القامة ، بيضاء البشرة ، إنها العالمة المعروفة بمبة كشر ، فلما وقعت عينا أحمد عليها هتف فى بشر :

— اسم الله .. اسم الله .. النبى حارسك .

وأسرع إليها يصافحها فى شوق فقد كانت من معارفه . كان منظرا رائعا ، أحمد فى عمامته وجلبابه الصوف ، وبمبة كشر فى ثوبها الذى يتألق والذى لا يكاد يستر جزءا من جسمها الممتلىء ، إن من يراهما يتضاحكان على السلم يتذكر كشكش بك فى مباذله .

وأرخى الليل سدوله ، فساد الظلام ، ولكن السرادق كان قطعة من النهار فى جوف الليل ، ووفد الناس زرافات حتى اكتظ السرادق بهم ، ودار العشاء فى نظام ، ولكن بعد قليل فسد النظام الذى وضع لمعرفة من تناولوا الطعام ومن لم يتعشوا بعد ، فأكل أناس مرات ، وترك أناس بلا طعام .

وضاق السرادق بالناس ، فقد جاء سكان الحى والأحياء المجاورة ،

جاءوا يشاركون الناس الطيبين فرحهم ، وأسرع الفراش يصف الكراسى الخيزران بين صفوف الكراسى المذهبة .

وأحس حسن ضيقا ، ولكنه كظم غيظه ؛ إنها ليلة وتنتهى . وجاء الشيخ على محمود فابتدأ التهليل والتكبير ، وراحت الساعات تنقضى حتى إذا ما وافت الساعة الثانية عشرة انسل ممدوح وبعض أصحابه ، وارتدى ثياب الزفاف ثم هبط ورفاقه وركبوا سيارتين وانطلقوا إلى ضريح الحسين يقرءون الفاتحة .

وعاد ممدوح وصحبه ، ثم صعد بين شابين من أهله إلى سرادق النساء حيث كانت العروس جالسة على كرسى فاخر ، وما إن رأى النسوة ممدوحا حتى أطلقت الزغاريد متتابعة مدوية وجلس ممدوح بجوار العروس ، والتف النسوة بهما يتغامزن ويضحكن ، وجاءت سكينة تضحك وترسل نكاتها التى لا تنتهى ، ثم تناولت قليلا من الملح وأخذت ترشه فوق رأسى العروسين ، واستمر الضجيج والعجيج ، وأخذ النسوة يمجن موجا ، وحدث هرج ومرج ، وممدوح جالس صامت كأن على رأسه الطير ، ورأى مصطفى تلك الفوضى فاشمأز ، وانطبعت فى ذهنه صورة قبيحة للأفراح ، إنه لن يقبل أبدا أن يجلس فى يوم من الأيام تلك الجلسة التى يجلسها ممدوح ليكون أضحوكة النسوان .

وقام العروسان ، فدوت الزغاريد ثانية ، وارتفعت دقات الدفوف ، وصوت بمبة كشر المجهد ، وأسرعت الفتيات اللائى لم يتزوجن بعد إلى العروس ورحن يقرصنها ليلحقنها فى أسبوعها . كن جميعا يبتهلن إلى الله فى حرارة أن يبعث إليهن بابن الحلال .

وأغلق الباب على العروسين ، وارتفعت ضجة النسوة وغوغاؤهن ، فإن



إن من يراهما يتضاحكان على السلم
ليتذكر كشكش بك فى مباذله .

كلا منهن تطلب حاجاتها لتتصرف : فهذه تطلب بقجة الثياب التى جاءت بها لترتدى فى كل ساعة ثوبا ، كأنما كانت نموذجا فى معرض الأزياء ، وهذه تطلب ملاءتها ، وتلك تطلب معطفها ، وتلاشت الضوضاء ، وثبت أن العروس للعروس وأن الجرى للمتعوس .

وأصبح الصباح فأطل حسن إلى الشارع ، فلم يجد للسرادق العظيم من أثر فابتسم ابتسامة ساخرة وغمغم :

ــ قلة عقل .

وخرج إلى الدكان مبكرا ، فإن ممدوحا لن يخرج اليوم ، وقابله فى الطريق رجل صافحه وهنأه بزواج ابنه ، وأخذ يعتب عليه أنه نسى أن يدعو فلانا وفلانا . وما خطا خطوات حتى قابله آخر وراح يشكو له ما لقيه من عدم حفاوة واحتفال ، فقد كان ممن لم يدعوا إلى الطعام . وأحس حسن ضيقا ، فقد انتهى كل شىء ولم يبق إلا النقد والعتاب .

٥٢

جلس أسعد وسليم وفريد يفكرون فى إصدار مجلة : إن العدد الأول يحتاج إلى تسعة جنيهات ، وإنهم يستطيعون الحصول على ذلك المبلغ ، أما العقبة الكبرى فهى صغر سنهم ، فما من واحد منهم قد بلغ سن الرشد ، فكيف يطلبون رخصة المجلة من الداخلية ، وباسم من تصدر المجلة ، وظلوا يبحثون فى أذهانهم عن رجل يثقون فيه تصدر المجلة باسمه ولا يستأثر بها . وأخيرا قال فريد :

ــ ما قولكم فى خالى محمد الإيرانى ؟

فقال سليم .

ــ وهل يقبل ؟

فقال فريد فى تأكيد :

ــ يقبل ! إنه يفكر جديا فى إصدار مجلة ؛ وقد خاطبنى فى ذلك . إننا نستطيع أن نعاونه معاونة فعالة ، أنا أرسم الصوز ، ويكتب سليم زجلا وقصة ، ويكتب أسعد أخبار المسرح والسينما ، ويكتب خالى الفكاهات . إن خالى كاتب كبير .

فقال أسعد :

ــ فاتحه غدا فى الموضوع ، وقل لنا غدا ما رأيه .

فقال فريد :

ــ لم ننتظر الغد ؟ سأدعوه الآن .

وخرج فريد من السلاملك يعدو ، ثم دخل فى بيت قريب وأخذ يصعد فى الدرج مهرولا حتى إذا ما قطع مائة درجة ودرجة ، سار فى السطح قليلا حتى بلغ غرفة ، فطرق بابها وهو يلتقط أنفاسه فى جهد ، إنها غرفة الكاتب الكبير .

وانتظر أسعد وسليم فى السلاملك تداعبهما الآمال ، فعما قريب تصدر المجلة ، ويقرأ لهما الناس . إنهما يكتبان الآن لأصحابهما ، وإن فوزى ليعجب بسليم حتى أصبح راويته ، وإن ذلك يرضى سليما ويشرح صدره ، ولكن غدا عندما تصدر المجلة سيقرأ له ألف ، وسيعجب به ألف .

وجاء فريد متهلل الوجه وقال :

ــ تعالوا ، فخالى ينتظركم فوق .

لم يشأ الكاتب الكبير أن يهبط ليقابل أولادا يلتمسون عونه ، بل رأى من

الأكرم له أن يجشمهم مشقة صعود مائة درجة ودرجة ، فإن ذلك يرفعه فى أعينهم ! وصعد سليم واجف القلب ، واضطرب أسعد فإنه يحس أنه مقبل على أمر خطير ، وصعد مصطفى وهو لا يحس شيئا ، إنه وجد أخويه يصعدان فصعد معهما ، أما فريد فلم يكن الأمر جديدا بالنسبة إليه ، فقد رسم صورا كثيرة لمجلات عديدة .

ودق فريد باب حجرة الأستاذ ، ففتح لهم ، وإن الأولاد يعرفونه فقد رأوه كثيرا ، ولكنهم لم يحدثوه فى أمر خطير كأمر اليوم ، لذلك أحسوا رهبة ، ولما وقع بصره عليهم قال لهم :

— تفضلوا !

فدخلوا الحجرة هيابين ، وجلسوا على كراسى محطمة ، وجلس الأستاذ على حافة السرير .

كان الكاتب الكبير شابا قصيرا ، أسود الشعر ، واسع العينين ، مفتول العضل ، وإن من يراه يحسبه مصارعا أو من أولئك الذين يعرضون عضلاتهم فى سرك .

أخذ فريد يشرح لخاله فكرة المشروع ، وانقشع خجل أسعد وسليم فاندمجا فى الحديث وأخذوا يتجاذبون أطرافه ، فقر رأيهم على أن يكتب سليم طلبا للداخلية يلتمس فيه التصريح لهم بإصدار المجلة ، وأخذوا يستعرضون الأسماء التى اقترحها كل منهم ، وأخيرا اختاروا من بينها اسم « البهلوان » .

وانصرفوا على أن يبدأوا فى تحرير العدد الأول وإعداده ، وعلى أن يجتمعوا بعد أسبوع عند الأستاذ .

وطفق سليم يكتب وينظم ، وراح أسعد يكتب وينظم ، وجاء أصحابهما إلى السلاملك ، فقرأ سليم عليهم ما نظم ، فأبدوا إعجابهم الشديد ، وقرأ

أسعد زجله ، فلم يظهروا استحسانا ، بل تجرأ أحدهم وقال فى سخرية :

ـــ إنك دعى .

فاضطرب أسعد ووجم ، وأحس انقباضا ، وكأن جدارا انهار على رأسه ؛ وفطن فوزى إلى أن أسعد قد جرحت كبرياؤه . فشاء أن يكون البلسم للجرح الأليم ، فقال :

ـــ إنه رجل رائع والله .

فلم تنقشع سحائب الحزن التى رانت على صدره ، وظل فى كدره ، وإن حاول أن يبدى الهدوء . إن زجل أسعد كان رائعا ، ولكن الأولاد كانوا يفضلون أزجال سليم لأنها كانت سهلة متدفقة ، يحفظونها فى سهولة ، ويتغنون بها فى يسر .

ومر الأسبوع ، وصعد الأولاد المائة درجة ودرجة ليقابلوا الأستاذ العظيم ، وليعرضوا عليه ما كتبوه ، وليستفسروا عما تم فى أمر الرخصة .

قال الأستاذ وفى وجهه دلائل الثقة :

ـــ نظمت بيتين من الزجل ليوضعا على الغلاف تحت صورة البهلوان .

وصمت قليلا وقد أرهف الأولاد ليسمعوا الدرر من الأستاذ ، فأنشد فى تنغيم :

« يا بهلوان الله يعينك ويديم حياتك للأوطان
بكره تكيد اللى يكيدك إن كان عزول ولا شيطان »

وابتسم فى زهو ، وراح يقرظ البيتين ، ولم يعجب البيتان سليما ، ولكنه لم يتكلم ، فإنه سيقرأ زجله الآن ، وإنه لعلى يقين من أن زجله سيمحق ذلك العبث ، وبحث عن الورقة التى دون فيها الزجل فلم يجدها ، فقال لمصطفى :

ـــ نسيت الزجل فى السلاملك ، انزل وهاته .

فهبط مصطفى مسرعا ، وذهب إلى السلاملك ، وجعل يبحث هنا وهناك فلم يجد شيئا ، فعاد إلى أخيه وقال له :

ــ لم أجد الزجل .

ــ كيف ؟

ــ بحثت عنه فى كل مكان .

فهبط سليم إلى السلاملك ، وجعل ينقب فى أدراج المكتب ، وتحت المقاعد ، ولكنه لم يجد له أثرا ، ولما يئس من العثور عليه عاد إلى الأستاذ وقال له :

ــ لم أجد الزجل ولكنى أحفظه .

وأخذ يسمع الأستاذ الأبيات ، والأستاذ يظهر إعجابه ، فلما انتهى هنأه على مقدرته ، وقال له إن المجلة ستظهر مواهبه الفذة . وسأل الأولاد الأستاذ عما تم فى أمر الرخصة فقال لهم :

ــ هناك عقبة الجنسية . فلابد أن يكون صاحب المجلة مصريا .

فغامت صفحات وجوه الأولاد ، ولكن الأستاذ أردف :

ــ ولكنى سأتغلب على هذه العقبة .

فسأل الأولاد فى لهفة :

ــ وكيف ؟

ــ سأثبت لهم أنى ولدت فى مصر . اطمئنوا ستصدر المجلة ، واستمروا فى التأليف .

ولم يستطع الأستاذ أن يحافظ على وقاره طويلا فقد غلبه طبعه ، فهو يحفظ المنلوجات التى تلقى فى « الكلوب المصرى » بالحسين ، وهو يحب أن يعرض عليهم هذه الموهبة الفائقة ، فراح ينشدهم منلوجا فى إلقاء حلو :

« احنا العربجية الحنطور جايين نشكيلك (يا شيخ طرطور) »

واندمج فى الإلقاء ، فأخذ يرتل فى نشوة ، والأطفال ينظرون إليه مذهولين . وكان هذا هو كل ما يعرفه الأستاذ العظيم عن الأدب !

وفى يوم بينا كان سليم جالسا فى السلاملك ، جاءه ابن عم له ودفع إليه بمجلة مشهورة تهتم بالزجل وتطبع على ورق ملون ، وراح سليم يقرأ الزجل فبان فى وجهه العجب ، إنه زجله الذى فقد منه ، فهزه الفرح وراح قلبه يرقص فى صدره ، وأسرع ليقرأ الإمضاء فألفى الزجل باسم ابن عمه . لم يغضب ولم يثر ، بل ظلت الغبطة تشيع فى نفسه فإن ما كتب يستحق النشر . وها هو ذا قد نشر ، وأين ؟ فى المجلة التى ينشر فيها كبار الزجالين أزجالهم .

وأسرع إلى مكتبه ، وأخذ فى كتابة زجل من أزجاله ، وقلبه يخفق فى صدره ، وحرارة صدره تنتقل إلى قلمه فيكتب فى عجلة ، ووضع الزجل فى ظرف ، وخرج يضعه فى صندوق البريد ، ولكنه يريد أن يصل اليوم ، بل الآن ، فخطر له أن يضعه فى صندوق العتبة الخضراء حتى يصل سريعا ، فراح يقطع الطريق إلى العتبة يهرول تارة ويجرى تارة ؛ حتى إذا بلغ العتبة وضع الظرف فى الصندوق وقلبه فى صدره كجناح خافق .

وراح سليم يعد الأيام حتى إذا ما وافى يوم ظهور المجلة خرج من الصباح الباكر إلى العتبة الخضراء ، واشترى نسخة ، وتناولها بيد مرتجفة ، ونفس مضطربة ، وفتح المجلة فوقع بصره أول ما وقع على اسمه ، فهزه الفرح حتى لكاد يرقص فى الميدان طربا . وعاد إلى البيت سريعا ، وقد امتلأ صدره بحرارة النشوة ، وانتظر وفود الصحاب بصبر نافد ، فهو يريد أن يقبلوا ليعلموا أنه أصبح الأستاذ الكبير .

واستمر سليم ينشر زجلا كل أسبوع ، وأصبح اسمه يكتب بالبنط

الكبير ، وفقد بعض الأعداد التى ظهرت فيها أزجاله ، فأراد أن يشتريها من الإدارة ، فذهب إلى هناك فى رفقة أسعد وفريد .

دخل الأولاد الإدارة ، وسألوا عن الأعداد التى تنقصهم ، فأحضرت لهم فدفعوا ثمنها وهموا بالانصراف ، ولكن فريدا أراد أن يعرفهم أن الذى تفضل وجاء إليهم ليشترى بعض النسخ هو زجالهم الكبير فقال فى زهو :

ــ حضرته الأستاذ سليم الذى ينشر أزجاله عندكم .

فنظر صاحب المجلة إلى الطفل الواقف أمامه نظرة فيها استعلاء ، وقال فى عدم اكتراث :

ــ تشرفنا .

لقد كان يتخيل الأستاذ رجلا ضخما كبيرا ، قد وخط الشيب رأسه فإذا به يجده غلاما نحيلا لم يتجاوز الرابعة عشرة ، فانهار التقدير والإعجاب .

وظهر عدد الأسبوع واختفى منه زجل سليم ، فانتظر سليم الأسبوع التالى ، ولكن مرت أسابيع ولم ينشر الزجل على الرغم من أنه كان أروع ما كتب سليم ، فأحس مرارة ، وأخذت فكرة إصدار مجلة تراوده ثانية بعد أن ماتت الفكرة عقب ظهور أزجاله .. إنه يريد أن يصدر مجلة يكتب فيها على هواه .

٥٣

وقف أسعد وسليم وصحابهما أمام الباب الحديدى الموصل إلى السلاملك ، وراحوا يتحادثون ويتضاحكون ، ولمح عبد الرحمن أريكة البواب خالية ، فذهب إليها بقامته القصيرة ، وجلس يهز رجليه ، ورآه على فى جلسته ، فانطلق إليه وهو يضحك ضحكته الفضية العالية ، ثم مال

عليه وقال:

ـــ تقعد على الرصيف وتهز رجليك .

وظل يقهقه كأنما قال شيئا عجيبا يستحق الضحك والقهقهة ، فالتفت الجميع إلى على وضحكوا لضحكه ، ثم أقبلوا على عبد الرحمن وأخذوا ينكتون على قصره ، ولكن لسان عبد الرحمن كان طويلا ، أطول منه على كل حال ، فأفحمهم ببذاءته ، فلما وجدوا أنه سينتصر عليهم ، التفوا به ، وأمسك أحدهم بيده ، وأمسك آخر بيده الثانية ، وأمسك ثالث برجله ، وأمسك رابع برجله الثانية ، وهموا أن يرفعوه بين أيديهم ليؤرجحوه بينهم كما يؤرجح الكبار طفلا مدللا ، فراح يجاهد ليتخلص من أيديهم ، وجعل يضحك فاتسع فمه حتى بانت أسنانه كلها ، ودمعت عيناه من كثرة الضحك ، ولما رأى أنهم جادون ، وأنهم سينالون منه فى الشارع تظاهر بالغضب ، أخذ يسبهم فى ثورة ، ويقسم أنه لن يكلم أحدا منهم بعد اليوم أبدا ، فتركوه ، وما كاد يستقر على الأريكة حتى لمح فتاة تسير بالقرب منه فهتف وقد تهللت أساريره :

ـــ قمر .. والله قمر .

فرنت ضحكة على ، وابتسم الآخرون ، واستمر عبد الرحمن فى عبثه ، ورأى على بواب البيت المقابل قادما فضحك ، فهو رجل قمىء ، ضعيف البصر ، له زوجة ممتلئة الجسم ، عظيمة الحجم ، وكان أولاد الحى يشاغبونه ويشاكسونه كلما رأوه ، فيجرى خلفهم يحصبهم بالحصى والتراب ، وخطر لعلى أن يشاكسه ، فصاح كما يصيح الأولاد :

ـــ حرامى الوزة بعنونه ، زوج القرعة بعنونه .

وجلجلت ضحكاته ، ومال الرجل يقبض الحصى والتراب ، فلما رأى

على ذلك جرى بقامته الطويلة وهو يضحك فى سرور فانطلق الرجل خلفه ، وابتسم الأولاد ، وارتفع صوت البواب يسب ويلعن ، وبلغ الصوت مسامع زوجه المصون فأطلت من السطح ، وأخذت تقذف السباب من فيها ، فانسل الأولاد إلى السلاملك وتحصنوا به ، حتى إذا ما هدأت العاصفة خرجوا إلى الشارع يعاتبون عليا ويلومونه ، ولكنه استمر فى ضحكه ، فالتفت إليه عبد الرحمن وقال له :

— والله لو قتل أبوك لضحكت ، خليك عاقلا .

وأقبل فهمى فى بذلة جديدة جميلة ، وقميص جديد ورباط رقبة فاخر بديع ، جاء وهو يتبختر فى مشيته ، ويرفع بصره إلى النوافذ فى زهو ، وقد انفرجت شفتاه عن ضبه الكبير ، فهو يقدر الثياب ويبجلها تبجيلا ، ويحكم على المرء بما يرتدى ، فإذا كان يرفل فى الحرير كان شخصا محترما يستحق منه كل عناية ورعاية ، أما إذا كانت ثيابه بسيطة فلا يستحق منه أى التفات .

ونظر على إليه فألفاه منتصبا كالعمود خشية أن يتكسر قماش البذلة ، فقال له فى سخرية :

— أهلا فهمى بك .

فانشرح صدر فهمى ، فإن ذلك اللقب يرضيه ويدغدغ حواسه ، فابتسم فى سذاجة وقال فى بساطة :

— أهلا بك يا على بك .

ولم يستطع على أن يحافظ على وقاره طويلا ، فدوت ضحكته الفضية ، ومد يده ووضعها على كتف فهمى ، فاستاء فهمى لا من ضحكة على الساخرة ، بل من يده التى وضعت على كتفه ، خشية أن تفسد البذلة الجديدة ، فقال فى استياء :

— يدك من فضلك .

فرفع على يده وقال وهو ينحنى :

— حاضر يا فهمى بك .

والتفت عبد الرحمن إلى فهمى وقال فى خبث :

— شكرى مشتاق إليك .

فارتسم الامتعاض على وجه فهمى ، وقال فى زراية :

— لم يبق إلا ابن الجزار هذا ، والله لا أدرى كيف تصاحبونه .

فقال أسعد :

— ما به إنه شاب مؤدب .

فقال فهمى فى امتعاض :

— إنه قذر .

فضحك على وقال :

— العفو يا فهمى بك !

فقال فهمى فى غطرسة :

— والله لو لم يكن فى الدنيا غيره ما صاحبته .

فقال على :

— صوته حلو .

فكشر فهمى وجهه وقال :

— صوته مقرف وذوقه بلدى ، إنه لا يجد إلا حامد مرسى ليقلده .

وقال سليم فى احتراس :

— هس شكرى وصل .

فالتفت فهمى فبان فى وجهه الدهش .. إنه لا يكاد يصدق عينيه ، لقد

كان شكرى يرتدى بذلة أفخر من بذلته ، بذلة رائعة كان لا يطمع فى أن يرتدى مثلها ، وراح شكرى يصافح الموجودين ، ومد يده لفهمى فتناولها فى حماسة ، وأخذ يصافحه فى حرارة ، وقد تهلل وجهه بالبشر .

وما وقف شكرى لحظات حتى مد فهمى يده إليه وجذبه من يده وقال :

— هيا .

فقال عبد الرحمن فى خبث :

— إلى أين أيها الأصدقاء ؟!

فقال فهمى وهو يبتسم :

— والله لن يسير أحد معه اليوم غيرى .

وانطلقا وفهمى يتلفت يمينا ويسارا ، ويرفع بصره إلى النوافذ والشرفات كأنما يقول للناس ، انظروا فهذا الذى يرتدى البذلة الفاخرة صاحبى .

ورنت فى الشارع ضحكة فضية مجلجلة ، وارتسمت على الشفاه ابتسامات .

٥٤

وعاد مصطفى من مدرسته الثانوية ، فقد نال الابتدائية بعد سبع سنوات عذاب ، وجلس على أريكة البواب ينتظر مجىء الصحاب ، وكان قد كبر ، وإن من يراه يحسبه شابا موفور الحيوية والنشاط ، ورفع يده ومررها على شعره الفاحم ، ثم مد بصره لعله يرى رفيقا من صحابهم فيهب لاستقباله ، فهو لا يطيق أن يمكث وحده دون أن يحادث هذا أو يشاغب ذاك .

وكانت فى الشرفة الأرضية المواجهة فتاة إسرائيلية فى السابعة عشرة ،

تتدفق حيوية ، وتمتاز بقد ممشوق وبياض ناصع وشعر متهدج جذاب . جلست على مقعد وفى يدها كتاب تقرأ فيه ، وكانت ترفع عينيها عن الكتاب وترنو إلى الغلام رنوة فاحصة ، ثم تعود تنظر إلى الكتاب دون أن تقرأ حرفا ، فهى تجده شابا كالشبان ، ولكنه لا يرفع عينيه إليها ولا يحس وجودها . كانت ترجو أن يحدق نظره فيها لعله يقدر جمالها ، ولعله يبدى إعجابه بها كما يفعل كل من يراها من الشبان ، ولكنه ظل فى تلفته دون أن يحس وجودها أو يلحظ أنها هناك ، وساءها ذلك الإهمال ، فأحست بعض الضيق ، وعزمت على أن تجذب بصره إليها ؛ فقامت عن مقعدها ، وتمطت وتثاءبت فبرز نهداها ، وبانت فتنتها ، ولكن مصطفى لم يشعر بها فقد كان يحس مللا لتأخر الصحاب .

وضايق الفتاة ذلك الإهمال ، فودت أن ترغمه على أن يلتفت إليها . فنادت على بائع جوال ، وأخذت تحادثه من الشرفة التى ما كانت تبعد عن مصطفى إلا أمتارا ، فألقى مصطفى عليها نظرة عابرة ، ثم عاد يحدق فى الطريق فى تبرم ، فقد تأخر الرفاق .

لم تجد هذه الطريقة للفت نظره فاغتاظت ، وقررت أن تخاطبه مباشرة ، فقالت :

— هس .. هس .. من فضلك .

فلم يلتفت إليها فما كان يظن أنها تدعوه ، ولكنها هتفت :

— تسمح من فضلك !

فتلفت يمينا ويسارا فلم يجد فى الطريق أحدا غيره فاضطرب ، وسرت فى بدنه رعدة ، والتفت إليها وقد تدفق الدم الحار إلى وجهه ، وعلاه ارتباك فقالت له وهى تبتسم فى رقة :

— معك فك عسرة قروش ؟

فهم بأن يعتذر ولكن صوته لم ينطق ، فهز رأسه فى خجل ، ولم تفطن إلى اضطرابه وحسبت أنه لم يرد عليها تكبرا فامتلأ صدرها حنقا ، وفكرت فى أن تدعه وألا تلتفت إليه أو تهتم به ، ولكنها ألفت نفسها تتبعه ببصرها برغمها ، ووجدت نفسها تفكر فى طريقة ترغمه بها على محادثتها ، ونظرت إلى الكتاب الذى فى يدها فبرقت فى مخيلتها فكرة ، فابتسمت ابتسامة خفيفة ، ثم التفتت إليه وهتفت :

— تسمح من فضلك ؟

فرفع رأسه فألفاها تشير له بأصبعها أن تعال ، فخفق قلبه ، وفار دمه فى عروقه ، وقام إليها كالمأخوذ ، حتى لامس حديد الشرفة ، ورفع بصره إليها وقال فى صوت مرتفع أجش :

— نعم .

فرنت إليه فى دلال ، ولكنه لم يفطن إلى دلالها أو فتنتها ، وقالت له وهى تبتسم :

— تعرف تقرأ عربى ؟

فهز رأسه موافقا ، فدفعت إليه الكتاب من بين حديد الشرفة وقالت له :

— تسمح تقرأ لى هذه الأغنية لأكتبها بحروف فرنسية فإنى لا أجيد قراءة العربية ؟

— حاضر .

وأخذ الكتاب وراح يقرأ لها الأغنية فى تمهل ، ولم تهدأ نفسه ، بل زاد اضطرابه ، واحتبس صوته أكثر من مرة ، فإن الأغنية كانت من الأغانى التى تؤذى من كان مثل مصطفى ، فإنه يخجل من نفسه ، فما بالك إذا كانت

الأغنية تتحدث عن العضة التى فى الشفة ، والسرير الذى ألقاها الحبيب عليه ؟! ورفع نظره إليها أكثر من مرة ، فألفاها تكتب فى هدوء دون أن تضطرب أو تصطبغ وجنتاها بحمرة الخجل ، بينا كان وجهه يصهد ، وصوته يتهدج ، وقلبه يخفق خفقان قلق واضطراب ، وأخطأ فى نطق كلمة ، فقد نطقها نطقا عربيا صحيحا ، فصوبتها له ، وأخطأ فى نطق كلمة ثانية فصوبتها له ، فسرت فى جسمه رعدة كأنما مسه تيار كهربائى ، إنها تحفظ الأغنية عن ظهر قلب . وإنها ما دعته ليقرأها لها إلا لتسخر منه ، وما خطر له هذا الخاطر حتى تملكه الغضب ، فأغلق الكتاب ، ودفعه إليها من بين قضبان الشرفة ، فلم تتناوله بل قالت له فى رقة :

— استمر .

فقال فى صوت أجش ينم عن الغضب الذى يرتع فى صدره :

— لا .

وأحست ما فى قوله من عزم ، فأخذت الكتاب منه وغمغمت فى دلال ، وانفرجت شفتاها عن أسنانها البيضاء المنتظمة :

— متشكرة .

فقال فى غلظة وقد أدار ظهره وانطلق إلى أريكة البواب :

— العفو .

وجلس وفى صدره ثورة ، فهى تريد أن تسخر منه ، أن تضحك عليه ، فود لو أنه صفعها على وقاحتها ، ونظر إليها فى غضب ومقت ، ولكنه رآها تبتسم له ابتسامة هزته ، فألفى ثورته تخمد وغضبه يذوب كما يذوب الجليد إذا مسته أشعة الشمس .

وجاء فهمى يتبختر ، وسلم على مصطفى وجلس بجواره ، وجعل يتطلع

إلى الفتاة وقد انفرجت شفتاه عن ضبه الكبير ، فأحس مصطفى انقباضا لم يدر له من سبب ، وشعر أنه يود أن يصرف فهمى بأية صورة ، فنهض وقال له :

— هيا ندخل السلاملك .

فقال وهو يتبسم :

— هنا أفضل ، الدنيا حر .

وغمغم فى صوت خفيض :

— دعنا ننعم بجارتكم الحسناء .

فأحس مصطفى كأن يدا هصرت قلبه ، وأن شيئا ضيق صدره ، وهو لا يدرى ما به اليوم ، وما كان يحس مثل هذه الأحاسيس من قبل .

واستمر فهمى يصوب إليها نظرات نارية ، فقامت من على مقعدها ودخلت ، فأرضى ذلك مصطفى ، وأحس له راحة ، وقهقه فهمى قهقهة عالية فقال له مصطفى :

— ما يضحكك ؟

— قامت .

— وما فى ذلك .

— إنها تخشانى .

فسأل مصطفى فى لهفة :

— تخشاك ؟! ولمه ؟

— إنها تعمل فى شيكوريل ، وقد ذهبت إليها بالأمس لأشترى منها شيئا ، ولكنها لما لمحتنى عرفتنى ، فتركت زميلتها تتقدم إلى وتشاغلت هى بتنسيق المعروضات .

فهمّ مصطفى بأن يقول له ، لعلها تستثقلك ، ولكنه صمت وأحس مرارة فى فمه ، وجفافا فى حلقه .

واستمر فهمى فى حديثه ، قال :

ــ إنها تهبط من الترام فى الميدان ، وتعود فى الثامنة مساء ، وقد انتظرتها على محطة الترام مرتين ، فلما رأتنى أسرعت وجدت فى السير ، كأنما تخشى أن ألحق بها .

واستمر فى قهقهته ، ولكن مصطفى لم يستطع أن يجاريه أو يبتسم ، ودوت فى المكان ضحكة فضية مجلجلة ، فالتفت مصطفى فرأى عليا يميل على عبد الرحمن ويضحك ، فهدأ وخاض مع الرفاق فى أحاديثهم التافهة ، فردت نفسه إلى طبعها .

وانقضى النهار ، فانصرف الرفاق إلى دورهم ، ووقف مصطفى أمام الباب الحديدى ينظر إلى الشرفة فرآها تجلس فى الظلام فاضطرب ، وظل مدة فى وقفته ، يحس راحة ، وقامت عن مقعدها فازداد وجيب قلبه ، ومدت يديها وتناولت ضلفتى الشرفة وهمت بإغلاقها فارتبك ، فهو لا يحب أن تغلق الشرفة فى وجهه ، وتحرك لينصرف ولكنها أحنت له رأسها وقالت بصوت رقيق يدغدغ حواسه :

ــ مساء الخير .

فأحس بنشوة ، وبقلبه فى جوفه يرقص طربا ، وكأنما خف وزنه ، فقال بصوت يتهدج تهدج الفرح :

ــ مساء الخير .

وأغلقت الشرفة ، فانطلق يعدو فرحان ، يدندن فى غبطة وهو يصعد فى الدرج .

٥٥

وجاء الليل ، وفتح السلاملك لاستقبال أصحاب حسن ، وكانوا جميعا من رقيقى الحال ؛ أحدهم تاجر دخان قمىء الجسم ، أبيض الشعر ، يتدلى شاربه على فمه ، يقرأ كتب السحر ، مارس السيمياء وحاول أن يستخرج الذهب من النحاس ، يتكلم فى هدوء ، ويدل مظهره على أنه رجل محوط بالأسرار . والآخر خادم زاوية ، ضعيف البصر ، ذرب اللسان ، لا ينجو من لسانه أحد حتى نفسه ، كان فى شبابه خياطا . وكان شيطانا ، فما من معصية إلا قارفها ، فلما ضعف بصره وأقعده عن السهر تاب . لا يسمع قصة إلا ويروى مثلها وينسبها إلى نفسه ، وقد عرف الجميع فيه ذلك ، فكان إذا انتهى أحدهم من قصة تطلعوا إليه ليسمعوا ما سيدخله عليها من حواشى وزيادات . والثالث رجل كبير السن تجاوز التسعين ولكنه قوى ، يشتغل إمام جامع ويقطن إمبابة ، والجامع الذى يعمل فيه بباب الشعرية ، ومع ذلك لم يركب الترام أبدا ، بل كان يأتى على قدميه ، ويعود على قدميه ، وكان يزور السلاملك لماما ، فما كان من زبائنه الدائمين . والرابع رجل ضخم الجسم ، له كرش كبير ووجه مستدير منتفخ . وشارب أصفر رفيع ، يشتغل وكيل محام ، والخامس رجل ضيق العينين إذا تكلم أنصت إليه الجميع وبان فى وجوههم البشر ، فهو لا يتكلم إلا عن الولائم وجروبى ، والطعمية التى أكلها عند جروبى ، ثم يأخذ فى وصفها فى إسهاب وطنطنة ، والجميع يتبسمون ، وهو ساذج لا يفطن إلى أنهم يسخرون منه ويحسب أنهم مهتمون بحديثه ، ويشتغل تاجر حدايد ، والظاهر أن عقله من جنس بضاعته .

والسادس رجل خفيف ظريف يقص نوادره فى لباقة ، ويشاكس وكيل المحامى ، فهما يقطنان بيتا واحدا ، وكانا رفيقى طفولة ، فيروى قصص صوانى البسبوسة التى التهماها سويا ، ومئات التينات التى غيبت فى الكرش الكبير .

وأخذوا بأطراف الحديث ، وحسن صامت على عهده ، ولكنه مال على القمىء وقال له فى همس :

— الولد ظهرت على عينه سحابة .

فقال الرجل المحوط بالأسرار :

— أمر هين .

— وما نفعل ؟

— أحضر لى غدا تفاحة وسكر نبات ، وسأصنع له قطرة تزيل السحابة بإذن الله .

واستمر الحديث لطيفا حتى بدأ خادم الزاوية فى مهاجمة تاجر الحدايد ، فأراد حسن أن يغير مجرى الحديث ، فمد يده وجذب كتابا من على الشباك وقال :

— من سيبدأ القراءة اليوم ؟

فقال الرجل القمىء :

— سليم .

فدفع حسن بالكتاب إلى ابنه ، فتناوله سليم وقال :

— أين وقفنا أمس .

فقال خادم الزاوية :

— صفحة ٢٦ ، ضرار بن الأزور رضى الله عنه .

فتح سليم الكتاب ، وأخذ فى القراءة ، وكانوا يمضون سهرتهم فى قراءة كتب السيرة ، وقد ابتدأوا أمس فى قراءة فتوح الشام للواقدى . وجلس مصطفى ينصت ، ولكنه لم يحس الشغف الذى كان يحسه كلما أنصت إلى ما يقرأ ، فهو يحس اليوم قلقا ، وإن قلبه يخفق فى صدره ، وإن قوة خفية تدفعه إلى القيام ؛ وهم بالانفلات ولكنه اضطرب ، وخيل إليه أن الجميع يعرفون سره ، وأحس رهبة تغشاه ، رهبة لذيذة ، رهبة الإقدام على مجهول محبوب ، والتفت إلى الجالس إلى جواره وسأله فى حشرجة :

— كم الساعة ؟

— الثامنة إلا ربع .

فدق قلبه ، وأجال عينيه فى المكان ليرى ما إذا كانوا قد فطنوا إلى تبدله ، ولكنه ألفاهم جميعا مطرقين ، وينصتون إلى سليم فى اهتمام ، وقد بان فى وجوههم التأثر العميق ، فقام فى خفة ، وانسل وقد أرهفت منه الحواس ، وبلغ الباب الحديدى فلفحه النسيم الطلق ، ولكنه لم يهدئ من قلقه واضطرابه ؛ وسار إلى الميدان ، ووقف على محطة الترام ، فكان إذا لمح تراما مقبلا وقف من بعيد يرقب الهابطات وقلبه فى صدره يدوى دويا ، فلما لا يجدها بينهم ، يخف وجيب قلبه ، ويعود إلى محطة الترام ثانية .

واقترب الترام من المحطة ، والتفت فرآها تهبط ففر فى الطريق الموصل إلى البيت ، وأحس تخلجلا فى مفاصله ، ورعدة تسرى فى بدنه . وخفف من خطوه برغمه فما كان يستطيع أن يسيطر على عواطفه ، ومرت لحظات وهو مرهف الحواس ، وشعر بها خلفه فاضطرب ، وظل فى سيره ووسعت من خطوها حتى أصبحت بجواره ، وحاول أن يلتفت إليها ولكنه لم يقدر ، فقد كان فى غمرة من القلق والذهول ، وداعب صوتها أذنيه فقد قالت فى رقة :

ـــ مساء الخير .

فالتفت فى ذعر ، وقال فى صوت مبحوح مخنوق :

ـــ مساء الخير .

وتطلع إلى وجهها ، فأحس أمنا ، فقد كانت تبتسم له وقالت :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى البيت .

ـــ إذن نسير معا .

وهدأت نفسه ، وتبخر فزعه وذعره ، ولفته نشوة ، وأحس وهو يسير إلى جوارها غبطة ، وأنه قد خلق خلقا جديدا . سارا صامتين فى الشارع الذى خيم عليه الظلام والهدوء ، وهو يشعر بأحاسيس حلوة لطيفة ، وحاول أن يتكلم ، ولكن سعادته فاضت عليه وغمرته ، فلم يجد ما يقول .

وبلغا باب السلاملك الحديدى ، فالتفتت إليه وقالت :

ـــ مساء الخير .

فقال فى صوت هادئ واضح :

ـــ مع السلامة .

وانحرفت إلى بيتها ودلف إلى الدهليز الموصل إلى السلاملك فى سرور وصعد الدرجات القليلة التى اعترضته قفزا ثم جلس ينصت إلى قصة أسر ضرار بن الأزور ، ولكنه لم يستطع أن يحصر ذهنه فيما كان يقرأ بل كان يود أن يختلى بنفسه ليجتر ما حدث على مهل ، وليستعيد النشوة الخاطفة التى غمرته وهو إلى جوارها .

وصعد إلى شقة جدته ، وانطلق إلى غرفة فيها نافذة تطل عليها ، فأسرع وأطل منها ، فألفاها تجلس فى الشرفة ، فجلس على حافة النافذة ينظر إليها فى رضا ، وأخذ الوقت يمر وهو لا يشعر بانقضائه .

٥٦

التفت سليم إلى فريد وقال :

ـــ لن تصرح الحكومة لخالك بإصدار المجلة ، فما نفعل الآن ؟

ـــ نبحث عن مصرى نثق فيه نصدر المجلة باسمه .

فقال أسعد فى يأس :

ـــ فلندع هذا المشروع ولا نفكر فيه .

وفتح باب السلاملك ، ودخل راتب ، وهو نجار يرتدى البذلة لأنه عضو فى لجنة الوفد بباب الشعرية ، وفى يده رواية ، فهو مشغوف بقراءة الروايات ، وقد قرأ جونسون وفانتوماس وطرزان والروايات التى تنشرها جريدة الأهرام تباعا ، وكان يأتى إلى سليم ليستعير منه الروايات التى يشتريها من مكتبات الأزهر ، وقال سليم فى إصرار :

ـــ بل لابد من إصدار المجلة .

فتدخل راتب محبذا :

ـــ تصدران مجلة ؟ والله فكرة رائعة .

فقال أسعد فى سخرية :

ـــ فكرة رائعة ، ولكن كيف ننفذها ؟

فقال راتب :

ـــ ما أيسر التنفيذ .

فضاق أسعد به وقال فى تبرم :

ـــ وما أدراك أنت ؟.

وقال له سليم :

ــ إن العقبـة الوحيـدة يا راتب هى أننـا لا نستطيـع أن نحصل على الرخصة .

ــ وهل هذه عقبة ؟ ما أكثر الرخص فى السوق .

فبان الاهتمام فى وجه سليم وقال :

ــ ما تقول ؟

فقال راتب فى بساطة :

ــ لى زميل نجار عنده رخصتان .

فقال فريد فى لهفة :

ــ حقا ؟

ــ إن شئتم أن أحضره معى غدا فعلت .

فقال سليم فى حماسة :

ــ بل اليوم إن استطعت .

ــ اليوم .

وخرج راتب يدعو زميله ، وبقى أسعد وسليم وفريد يفكرون فيما يقولونه للرجل ، ولم يخطر على ذهن واحد منهم الأستـاذ الكـبير محمـد الإيرانى ، فلم يفكرون فيه وقد انفرجت أزمة الرخصة ؟

وفى العصر جاء راتب وزميله ، وكان شابا نحيلا أسمر البشرة ، له شارب أسود خفيف ، يميل طزبوشه إلى اليسار قليلا ، وكان ذلك دليل الأناقة فى ذلك الوقت ! ــ ومد يده الخشنة وصافح الموجودين ، وبعد وقت قليل ارتفعت الكلفة بينهم ، فراح سليم يسمعه أزجاله ، وأخذ محمود يروى أزجاله ، وشاء راتب أن يريهم أنه زجال مثلهم ، فراح يقرأ بعض أزجال لم

تصنفر بعد ، فبانت على الوجوه أمارات سخرية واستخفاف .

واستمروا فى الحديث حتى إذا ما غابت الشمس كانوا قد اتفقوا على إصدار المجلة ، على أن يكون سليم رئيس التحرير .

وانصرف الشبان ، وخيم الظلام ، فأنار البواب السلاملك لاستقبال وفد الليل ، وابتدأ الرجال يفدون حتى إذا اكتمل عقدهم وفرغوا من حديثهم ، التفت أحدهم إلى مصطفى وقال :

ـــ على مصطفى أن يقرأ اليوم .

فانقبض صدر مصطفى ، وأحس قلبه يغوص فى قدميه ، فهو لا يريد أن يقرأ ، وهو ينتظر فى قلق مرور الدقائق ليخرج لاستقبال راشيل ، وخطر لتاجر الحديد أن يروى قصة وليمة حضرها عند تاجر كبير من تجار الخيش ، فأخذ يقص قصته ويسهب فى التفاهات ، والرجال يتبسمون ، ورأى مصطفى الفرصة سانحة ليفلت ، فانسلت فى خفة ، وانطلق نشوان فى الطريق الموصل إلى الميدان .

ووقف على محطة الترام كما اعتاد أن يقف كل يوم ، وكلما جاء ترام خفق قلبه ، وابتعد عن المحطة ، فهو لا يريد أن تراه وهو واقف ينتظرها ، ويجب أن يوهمها أنه يقابلها صدفة ، ولكن أية صدفة هذه التى تتكرر كل ليلة .

وجاء الترام وهو بعيد يرقبه ، فلما لمحها تهبط ، أغذ فى السير ثم استدار وسار ليقابلها وجها لوجه ، وتقابلت العيون ، فابتسمت الشفاه وخفق الفؤاد ، وهز مصطفى السرور وقال مرحبا :

ـــ أهلا يا ...

وود أن ينطق باسمها ، ولكن الاسم مات على شفتيه ، فهو لا يجرؤ على أن ينطقه ، ويحس انحلالا إذا حاول أن يدعوها باسمها ، وضعفا يدب فى

أوصاله ، وسارا فى الطريق المعتم الموصل إلى بيتيهما ، ومدت يدها وقبضت على يده ، فشعر بنشوة وبخدر لذيذ يدغدغ حواسه ، وبسعادة شاملة تشيع فى نفسه ، فهو يود ألا ينقضى الطريق . ليته يسير إلى جوارها أبدا ، فقد أصبح يعيش لهذه اللحظات القصار . ولو أن حياته خلت من هذه الدقائق التى يقضيها معها يحدثها فى نشوة ، لباتت حياته فارغة لا تستحق شيئا .

وبلغا نقطة الانفصال ، فضغطت على يده فى خفة ، فرقص قلبه فى صدره فرحا ، وقالت له فى رقة :

— إلى اللقاء .

فغمغم بصوت مفعم بالسعادة :

— إلى اللقاء .

ولم يدلف إلى السلاملك ، فإن جو السلاملك الصاخب لا يصلح للأخيلة الشعرية التى كانت تملأ رأسه ، وهو يريد مكانا هادئا ينفرد فيه بنفسه ، ينعم بأحاسيسه اللذيذة المذخورة .

وصعد إلى شقة الجدة هيمان نشوان ، ودخل إلى الغرفة المواجهة لشقتهما ، واعتلى النافذة التى تطل عليها ، وجلس ساهما يحس أحاسيس النائم الذى ينعم بحلم لذيذ .

وفتحت الشرفة وجلست راشيل على مقعدها تستروح هواء الليل البليل ، فراح يرقبها فى سرور ، وقد تفتحت نفسه كما تتفتح الوردة فى الربيع . ومدت يدها وأدارت الفونوغراف القريب منها . ووضعت عليه أسطوانة ، وانبعث صوت سيد درويش أخاذا يردد فى سكون الليل : « آه ، أنا هويت ... » فأحس الصوت المعبر ينفذ إلى قلبه ، ويهز أوتاره ، ويملؤه خشوعا ، فسالت دموعه على خده ، ولكنه لم يحس فى صدره لوعة ،

بل أحس حبا ، إن كل شيء تقع عليه عيناه الساعة يبدو له جميلا ، وأصبحت الدنيا باسمة ، وزها قلبه وازدهر حتى أصبح يتسع للدنيا بأسرها .

٥٧

استيقظت أم على الخادم العجوز من نومها وجلست فى فراشها ، وجعلت تعالج عينيها حتى تمكنت أخيرا من فتحهما ، فرأت النور قد غمر السطح ، فهبت من فراشها وهبطت إلى الشقة لتجهيز الشاى للأولاد .

سارت فى الردهة ، وراحت تمد بصرها إلى الغرف ، فلمحت كومة بيضاء من الثياب على أريكة فى الغرفة الوسطى ، فخطر لها أن تدخل لتحمل الغسيل وتنقله من هذه الغرفة قبل أن يستيقظ سيدها ، فهو يجلس فى الصباح فى تلك الغرفة .

وانطلقت إلى الثياب ، ومالت عليها لتحملها ، ولكنها ارتدت مذعورة ، وخرجت تفر من الغرفة ، فلم يكن ما تحته كومة من الثياب ، بل سيدها نفسه ، وانطلقت إلى المطبخ وهى تردد فى أسف :

— يا للكسوف .. يا للكسوف !

فسألتها أمينة ، وكانت فى المطبخ تجهز القهوة :

— ماذا جرى يا أم على ؟

— اسكتى يا سيدتى ، اسكتى ، حملت سيدى .

— ماذا ؟

— حسبته الغسيل لم يطبق .

فابتسمت أمينة ، وتركت القهوة على النار ، وذهبت إلى حيث كان

حسن فألفته صامتا ، فضحكت وقالت :

— ماذا فعلت أم على ؟

فابتسم وقال :

— مسكينة ، نظرها ضعيف .

وجاء سليم وفى يده مجلات إنجليزية يحاول أن يترجم بعض مقالاتها ، فهو رئيس تحرير المجلة ونجاحها مرهون بجهوده ، وأقبل مصطفى وجلس بجواره ، فأخذ يقرأ له ما اختاره للعدد الأول فيبدى مصطفى إعجابه بكل ما يسمع . وشربوا الشاى وتناولوا الفطور . وهبط أسعد وسليم ومصطفى إلى السلاملك ينتظرون فريدا ومحمودا .

وجاء فريد وفى يده صورة الغلاف التى صممها ، ونشرها أمام الرفاق فى زهو ، فأبدوا إعجابا شديدا بها ، وكانت تصور مارس إلٰه الحرب يشن الحرب على الرذائل والموبقات .

وجاء محمود متهلل الوجه وقال :

— اتفقت مع المطبعة على أن نقدم لها الأصول اليوم ، وتسلم لنا المجلة بعد خمسة أيام ، فقال سليم :

— عال .. الأصول جاهزة .

فقال أسعد :

— فلنعد قراءتها الآن ، ولنذهب فى العصر لتسليمها .

وجعلوا يقرأون الأصول للمرة العاشرة ، ومصطفى ينصت فى إعجاب ، وقد كاد أن يحفظ مقالات العدد الأول كلمة كلمة .

وجاء راتب ، وقد ظهر فى وجهه ضيق وغضب ، فسأله محمود :

— ما بك ؟

ـــ هل رأيت الصورة الخليعة التى لصقتها دار السينما فى ميدان باب الشعرية ؟

ـــ لا .

ـــ لو رأيتها لفار دمك .

ـــ وما بها ؟

ـــ ما بها ! امرأة عارية يتندى جبين الفضيلة خجلا من رؤيتها .

ـــ وما الذى يغضبك ؟

ـــ يغضبنى هذه الدعارة السافرة ، لو كان فى البلد حكومة لما جرؤت دار سينما على لصق مثل هذه الصورة الفاجرة .

ـــ وما تستطيع أن تفعل ؟

ـــ سأمزق هذه الصورة .

ـــ هون عليك ولا تحرق دمك .

ـــ لا . الفضيلة تدعونى وسألبى النداء ، وليكن ما يكون .

وخرج من السلاملك شامخا بأنفه ، وقد بان فى وجهه العزم الأكيد ، فخرج مصطفى خلفه ليرى ما يفعل راتب المفضال .

سار راتب يغذ فى السير ، فقد كانت الفضيلة تضطرب فى صدره ، وأخذ مصطفى يهرول خلفه ، حتى إذا بلغ الميدان رمق الصورة فى غضب ، فقد كانت عالية لا يستطيع أن يصل إليها وهو على الأرض واقف ، ولكنه لم يقنط ، فذهب إلى دكان قريب استعار منه سلما وضعه على الحائط ، وجعل يرقاه فى حماسة حتى إذا بلغ الصورة أخذ يمزقها وهو يزمجر فى غضب :

ـــ وقاحة .. قلة أدب ..

وكادت هذه الفعلة تمر بسلام ، لولا حظ راتب التعيس ، فقد مر فى ذلك الوقت موظف من موظفى السينما ، فلما رأى ما يفعله راتب استدعى رجل

البوليس ، فجاء والتفت إلى راتب وقال له :

ــ ما تفعل ؟

فقال راتب فى فخر :

ــ أمحو الرذائل ، إننا شرقيون ، عندنا شرف ، لا نقبل ذلك التهتك .

وهبط ، ووقف مزهوا ، فقال له موظف السينما :

ــ لم هذه الخفة ؟ أليس فى البلد شريف غيرك ؟

ــ ومالك أنت ؟

ــ مالى ؟ سترى مالى ، لن أدعك إلا فى القسم .

فقال راتب فى حدة :

ــ أنا الذى سأقتادك إلى القسم . لو كان فى البلد حكومة لما عبثتم مثل هذا العبث .

وساء رجل الحكومة أن تهان الحكومة فى حضرته ، فقبض على راتب ، وسار راتب إلى القسم مرفوع الرأس .

وذهب سليم إلى المطبعة يصحح التجارب ، وفيما هو منهمك فى عمله إذ بلغهم نبأ وفاة سعد زغلول ، فترك ما كان يفعله وتناول ورقة وقلما وأخذ يكتب رثاء للزعيم الراحل ، فهو رئيس التحرير ، وحق عليه أن يكتب ذلك الرثاء من ذوب القلوب .

وانقضى الموعد المضروب ولم يتم طبع العدد الأول ، فانتاب أسعد وسليما القلق ، وفات موعد ظهور المجلة ولم تظهر ، فنزل بهما هم ثقيل ، وطبع الغلاف فلم يبد من الصورة الرائعة شىء .

وتم إعداد العدد بعد موعد ظهوره بأسبوع ، فلم يدروا ما يفعلون ، فإن متعهد الصحف رفض توزيعه ، فحملوه وراحوا يوزعونه على باعة الصحف

بأى ثمن وبدون ثمن .

وحزن سليم لذلك الفشل المرير الذى حاق به ، ومما زاد فى حزنه أنه كان يعتقد أنه لم يقصر ، وأنه بذل كل ما فى وسعه ، وأن الفشل نتيجة عوامل خارجية لا سلطان له عليها . ومما ملأه غضبا وحنقا أن المجلة ظهرت فى السوق بعد أسابيع تحمل اسم رئيس تحرير غيره . وأن سليما ليقسم أن العدد الأول الذى أخرجه أعظم بكثير من ذلك العدد التافه الذى لا يستحق شيئا ، ومن يدرى فقد يكون سليما محقا ، أو قد تكون تلك العاطفة التى تحسن فى عين الإنسان كل ما ينتجه هى التى دفعته إلى أن يقسم فى حرارة وإيمان .

٥٨

زكية فى ثيابها السود جالسة تسح الدموع ، تحس نارا تتأجج فى صدرها وحزنا يكاد يفلق كبدها ، فقد مات زوجها ، وما كان كل ذلك الحزن على الراحل الذى ولى بعد مرض طال ، ولكن على نفسها ، فقد خرجت من الدنيا بلا ولد ، فلو أنها أنجبت لكان حالها اليوم غير الحال .

أصبحت وحيدة فى الدنيا وإن كثر أهلها ، كانت تتمنى لو يكون لها ولد تغمره بحنانها الذى ظل مذخورا لا يجد له متنفسا ، وتتعلق به آمالها ، ويخفق له قلبها ، وتقاسمه أفراحه وأتراحه . أما الآن فقد أصبحت حياتها فارغة لا وزن لها ، تحيا بلا أمل ، وما أقسى الحياة على من يحيون بلا آمال .

أسودت الدنيا فى عينيها ، فسترحل بعد يومين إلى بيت أمها ، فما الذى يبقيها فى هذه الشقة بعد موت زوجها ؟ لقد أصبحت وحيدة ، وما كان لوحيدة أن تعيش فى شقة بمفردها ، لو أن لها ولدا لبقيت فى الشقة التى نعمت

فيها بالسعادة ، تختلس لحظات تجتر فيها الذكريات العذبة التى يوحيها المكان إليها ، ولكنها سترحل مخلفة المكان ، هاربة من الذكريات ؛ ولكنها ستترك الدار التى عرفت فيها الأحزان والأشجان ، ولكن أين ؟ ألى نعيم ينتظرها أم إلى سعادة تبسط لها ذراعيها ؟! إنها منطلقة إلى مستقبل كئيب موحش ، ستمضى بقية أيامها فى بيت الأحزان تندب الحظ العاثر وتسخط على الزمن الذى جار .

وتذكرت يوم دخل أخو زوجها وأخذ حجج البيوت والأرض ، فزاد انقباضها ، فهى تعرفه جيدا ، قاس قد قلبه من صخر ، جشع الأطماع ، لا يتورع عن أن يأكل حقها فى يسر ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه أن المرأة التى لا تنجب لا حق لها فى أموال زوجها ، وقد حزرت ذلك من أحاديث سلفتها . وانتابها قلق شديد.فلو أنه أكل نصيبها لكانت أيامها المقبلة عذابا مريرا ، فهى لا تطيق أن تكون عالة ، حقا إنها قد ورثت عن أبيها شيئا ، ولكن ذلك الشىء لا يكفيها لتحيا أيامها الباقية حياة كريمة .

وكيف يأكل حقها ! هل تشكوه وتأخذ منه حقها كاملا غير منقوص . ولكن من ذا الذى يشكوه ؟ إن أهلها لم يلجأوا إلى المحاكم أبدا ، وإنهم يفضلون أن يتركوا حقوقهم على الدخول فى قضايا ، إن حسنا يقول دائما إذا ما ذكرت المحاكم : « الخصمان خاسران ، والمحامى هو الرابح » .

وأحست غصة فى حقها ، وكآبة مريرة تسرح فى صدرها ، فأجهشت بالبكاء على ميل بختها ، فالتفتت إليها أم أحمد زنوبة وقالت :

ــ كفى يا زكية ، كفى يا بنتى ، أمر الله نفذ .

فقالت زكية فى نبرات حزينة وقد خنقتها عبراتها :

ــ اسودت عيشتى يا أم أحمد .

— اصبرى رحمة ربنا واسعة .

وانقضى اليومان الباقيان ، فتأهبت زكية للرحيل ، فلما انقضت خاتمة الأربعين ، قامت زكية وأخذت تبكى حتى كاد ينصدع قلبها ، وسارت وأم أحمد خلفها ، وقابلتها سلفتها على بسطة السلم التى تفصل بين شقتيهما ، فسلمت عليها وقد انخرطت فى البكاء ، وارتفع النحيب ، وهبطت زكية فى الدرج وهى تنهنه وتذرف الدمع السخين ، وقالت السلفة فى صوت مخنوق .

— هذا من بختنا الأسود .

ولم تنبس زكية واستمرت فى بكائها ، ولكن انبعث صوت من أعماقها يهتف :

— والله ما أحد اسود بخته غيرك يا زكية .

وسارت تخترق الحارة التى كانت تقطنها وأم أحمد بجوارها ، وكان بعض النسوة يجلسن أمام دورهن ، فلما لمحنها أخذن يمصمصن فى حسرة فى صوت مسموع ليبلغن سمعها ، وراحت هذه تقول : « كبدى » وتلك تغمغم « أمر الله » وثالثة تهتف : « شدى حيلك ، العوض على الله » واستمرت زكية فى طريقها ملتاعة ، تحس لحزنها لذعا يضنيها ويعذبها تعذيبا .

وبلغت البيت الكبير فاستأذنت أم أحمد فى الانصراف ، فأذنت لها ، وصعدت فى الدرج ، وقد ارتسم فى وجهها الحزن المرير ، ودخلت شقة أمها فى صمت ، فلما رأتها نفيسة باسرة الوجه انقبض صدرها ، واهتز قلبها حسرة على ابنتها . وجرى دمعها فتحركت شجون زكية فأجهشت بالبكاء . وبلغ صوتها آذان أمينة وأم على ، فهرعتا إليها ، وراحت أم على تعزيها وهى تبكى ، وجلست أمينة بجوارها تنتحب فى صوت مسموع ، وجاء أسعد وسليم ومصطفى يحيون عمتهم ، فقد كانوا يحبونها ، فوجدوا

المناحة قائمة فجلسوا صامتين .

ومرت أيام وأخذت زكية تلمح لحسن ليكلم سلفها فى أمر ميراثها ، إن زوجها لم يقصر فى حقها ، فقد عرض عليهم الحجج لما اشتد عليه المرض ، ولكنهم أبوا أن يأخذوها ، لو أنهم أخذوها لسهل عليهم إثبات ما يملك ، ولسهل على زكية أن تأخذ حقها ، أما الآن فإن الأمر جد عسير ، إذ باتوا فى قبضة الرجل الجشع ، وسيفعل بهم ما يحلو له ، وسيرغمهم على قبول ما يملى من شروط .

قالت زكية :

— ألم يرسل لك ؟

— انتظرى ، إذا مر هذا الأسبوع دون أن يرسل لى ، فسأذهب لمقابلته وسأفاتحه فى الموضوع .

— وما نويت أن تفعل معه .

— التفاهم فى هذه الحالات أفضل .

— أتدعه يأكلنى ؟!

— لا . سآخذ حقك منه

— ماذا لو أخذت معك أخاك أحمد ؟

— لا لزوم لذلك ، فإن أحمد سريع الغضب ، قد يفسد كل شىء .

— افعل ما بدا لك .

ومر يوم وأرسل الرجل إلى حسن ، فذهب لمقابلته ، وبقيت زكية تنتظر أوبة أخيها فى قلق ، فهى تعلم أنه سهل وتخشى أن يضيع لها كل شىء بطيبته ، وعاد حسن فسألته فى لهفة :

— خير ، ماذا فعلت ؟

— عرض الرجل ألف جنيه على أن تتنازلى له عن كل شيء .

فقالت فى تحفز :

— وهل قبلت ؟

— كيف أقبل والموضوع يخصك ، قلت له إنى سأعرض الأمر عليك وأبلغه رأيك .

— إنى أرفض .

— وكم تطلبين ؟

— حقى ، ما شرعه الله لى .

— إن ذلك عسير ، كيف يمكننا أن نحصر كل ما كان يملكه ، إن كل شيء له كان فى جيب أخيه .

— وما ترى أن نفعل ؟

— نقبل ألفين .

— أبدا .

— لا تتشددى ، كل شيء زائل .

— لو كان مستحقا لتركت له حقى ، ولكنه غنى ، مقتدر .

— لا لزوم لذلك ، نأخذ الألفين أفضل .

فطأطأت زكية بصرها وقالت :

— افعل ما ترى .

وذهب حسن إلى شقته ليخلع ثيابه ، فالتفتت زكية إلى أمها وقالت فى حسرة :

— لولا أنى لا أحب أن أتعب حسنا ، وأن أجشمه متاعب المحاكم ، لما قبلت أبدا ، إن ذلك الرجل يغتالنى ، يقتلنى . ألفا جنيه ؟ أنصيبى فى البيوت

أم فى الأراضى ، أم فى أكياس الذهب ؟ يا للعيشة التى اسودت .

ثم تناولت منديلها ، وجعلت تمسح دموعها التى ترقرقت فى مقلتيها .

٥٩

جلست راشيل فى الترام تتدثر بمعطفها الكحلى ، وترفع بنيقته لتتحامى البرد الذى يصفع وجهها ، ثم خفضت رأسها وأطلقت لخيالها العنان ؛ راحت تفكر فى مصطفى الذى ينتظرها كل يوم على محطة الترام . وإن ذلك يسرها ويرضيها ، ولكن صمت مصطفي يجرح كبرياءها ويغيظها .. لماذا لا يحدثها عن حبه ، ولماذا لا يظهر إعجابه بها ؟ هى تعلم أنه يحبها ، وهى تحس ذلك وتقدره وتسر له ، ولكنها تريد أن يبثها لواعج نفسه ، لو أنه قال لها أحبك ، لكانت أسعد حالا . هى تتمنى أن تسمع منه كلمة غزل كتلك الكلمات التى تسمعها من الشبان كلما مرت بهم . ما أروع جمالك ، ما أحلاك . هى تتمنى أن يناديها باسمها مرة ، فهو يحدثها دون أن يذكر اسمها ، فما نطق به أمامها أبدا ، ترى كيف ينطقه ؟ وهل يتهدج صوته إذا ذكره ؟

لعله لم تتح له الفرصة ليبثها لواعج نفسه ، ولكن أية فرصة ، إنه يقابلها من شهور كل يوم ، ويحدثها فى حذر ، ويفترق عنها دون أن يضغط على يدها كما تفعل ، ماذا عليه لو أنه أخذ يدها بين يديه ، وقال لها أحبك يا راشيل ... ثم ضمها إليه وقبلها قبلة تترجم عما يكنه لها قلبه من حب وهيام ، لو أنه فعل ذلك لاستسلمت له وفرحت به .

إنها سترغمه على أن يعترف لها بحبه ، بل سترغمه على أن يركع عند قدمها ، إن صمته يؤذيها ويضايقها ، إن لم يبح لها الليلة بمكنون نفسه

فستهجره . وهى تحس أنه لا يطيق أن تمر الليلة دون أن يراها ، ولكنها لا تحب أن تعذبه ، ألا يكفيها أنها تشعر بحبه ، فما قيمة البوح به ! ما قيمة البوح به ؟ إن مناجاته لها تشرح نفسها .. ترويها ، إن فى إنصاتها إليه وهو يعرض عليها قلبه فى صوت مضطرب متهدج لذة أى لذة ! فلماذا يحرمها سعادة لا تكلفه شيئا ؟ لابد أن يبثها لواعج نفسه وأن يبوح لها بمكنون قلبه .

وهبطت من الترام ، فصفرت الريح الباردة ولفحت وجهها ، فضمت معطفها ، ومدت بصرها فألفت مصطفى يضرب فى الميدان وحيدا . إن الليلة قارسة البرد ، ومع ذلك فقد جاء مصطفى ليقابلها ، وأرضى ذلك غرورها فابتسمت ، وأقبل مصطفى إليها مسرعا كأنما هو إبرة تنجذب إلى مغناطيس ، وسلم عليها وسار بجوارها وهو يرتجف من البرد ، وأحست القشعريرة التى تسرى فى بدنه فأثلج صدرها . فهو يحبها ، ولولا ذلك ما تحمل الجو المكفهر الذى فر الناس منه إلى بيوتهم ، وما خرج الليلة إلا لأنه يهواها ولا يطيق أن ينام دون أن يراها ، ولولا ذلك لكان الآن قابعا فى سريره ، أو جالسا بجوار المجمرة يستمد منها الدفء فتسرى الحرارة اللذيذة فى جسمه المقرور .

ورأت الفرصة سانحة لتستدرجه ليعترف لها بحبه ، فالتفتت إليه وقالت فى دلال :

ـــ ما الذى يدعوك إلى الخروج فى مثل هذه الليلة الشديدة البرودة ؟

وانتظرت أن يقول لها : أنت ، فما أطيق أن تمر ليلة دون أن أراك ، ولكنه اضطرب قليلا ، وقال وقد أحس الدم يصعد إلى رأسه ونبضه يسرع ، وكانت هذه حاله كلما اضطر إلى الكذب :

ـــ أحب أن أتمشى بعد العشاء .

ولم ترتح إلى هذه الإجابة ، وساءها هدوؤه . وقالت فى نفسها فى سخرية :

« حقا ؟ سنرى أتحب أن تتمشى بعد العشاء أو أنك تحبنى » ، وأرادت أن تنال منه كما نال منها فقالت فى سخرية :

— لو كنت مكانك لكنت الآن فى فراشى نائمة .

فلم يغضب كما غضبت ، فهو يعلم أنها تكذب كما يكذب ، فقال فى بساطة :

— أتحبين النوم ؟

— لو تركونى لنمت الليل والنهار .

فابتسم ، وسارا فى الشارع المظلم الهادئ وحيدين . وانتظرت أن يقترب منها وأن يلتصق بها ، وأن يلف ذراعه حولها ، ولكنه ظل سائرا بجوارها لا يفكر فى شىء من ذلك ، فقد كان يحس سعادة عارمة ، ونشوة كبرى لسيره بجوارها ومحادثتها ، فإن ذلك يكفيه ، وحسبه أن يدوم .

ودخلت فى فراشها وراحت تفكر فى ذلك الشاب الصغير الذى ينال منها بصمته ، ويجعلها تحتقر نفسها أحيانا . لماذا لا يتكلم ؟ لماذا لا يحاول معها ما يحاوله الشباب ؟ لعله صغير لا يدرى ما الحب بعد ، فما الذى يربطها بغلام لا يفقه ؟! إن له أخوين أكبر منه ، يفقهان فى الحب أكثر منه ، فلماذا لم تختر واحدا منهما بدلا منه ؟! بل لماذا لم تختر شابا آخر من أصحابهم الكثيرين الذين يتطلعون إليها فى نهم كلما جلست فى الشرفة ، أو خطرت فى الطريق ؟! إنها لن تقابله غدا ، وستعذبه ، وستنتزع اعترافه بحبها انتزاعا ، وسترغمه على أن يتمرغ فى الرغام ، وستضنيه وستصهره حتى يلين ويصبح عجينة فى يدها تشكلها كيف تشاء .

وحاولت أن تطرد صورته من رأسها ، وتفكر فى شبان جاءوا إليها ذلك اليوم فى المحل وأخذوا فى مغازلتها والتودد إليها ، ولكن صورته كانت تلح عليها ، وفكرت فى فهمى صديقه ذى الضب الكبير الذى انتظرها فى شارع فؤاد الأول وراح يكلمها فى إلحاح ، فأحست امتعاضا وعادت تفكر فى مصطفى وفيما تفعله لترغمه على الاعتراف بحبها .

ومر النهار وولد الليل البهيج ، ووافى الموعد فخرج مصطفى إلى الميدان منشرح الصدر ، وراحت الريح تولول ، والبرد يخزه فيرتجف ، ولكنه لم يتأفف ، وأخذ يرقب الترام فى تشوف ورجاء ، وجاء ميعاد أوبتها ولكنها لم تأت ؛ لعلها تأخرت لسبب من الأسباب . وانتابه قلق ، وراح يقطع الطريق بين محطة الترام ومخزن الأدوية وكانت فى واجهته ساعة كبيرة ، نظر إلى الساعة فألفاها الثامنة والربع . لقد مر ربع ساعة على ميعادها . فأخذ يسير فى الميدان وحده منقبض الصدر ، يتطلع إلى الترام فى قلق ، وكان كلما هبطت منه فتاة خفق قلبه وهرع إليها . فلا يجدها فتاته فيعود إلى المحطة وقد انتابته خيبة وفشل . وسار إلى مخزن الأدوية وتطلع إلى الساعة فألفاها الثامنة والنصف ، فأحس حنقا ، وأرهفت حواسه حتى كاد يسمع تردد أنفاسه ، ودقات قلبه فى صدره .

ووقف عند محطة الترام يتلفت فى قلق ، يحس غصة فى حلقه ، وضيقا فى صدره . ومر الوقت قاسيا لا يرحم ، وهو يتعلق بخيوط واهية من الأمل ، وفكر فى العودة أكثر من مرة ، ولكنه كان يقنع نفسه بأنها قد تأتى فى الترام القادم ، فإذا أقبل الترام ولم تكن فيه ، أخذ فى إقناع نفسه بأنها فى الترام الذى يليه .

وسار مطاطىء البصر ، يتملكه الضيق ، ويشع فى نفسه الأسى ، حتى إذا



وانتظرت أن يقترب منها وأن يلتصق بها وأن يلف ذراعه
حولها .. ولكنه ظل سائرا بجوارها لا يفكر فى شىء من ذلك

بلغ مخزن الأدوية رفع بصره فألفاه مغلقا ، فتلفت حوله فلم يجد دكانا واحدا مفتوحا ، ولم يجد فى الميدان غيره ، حتى الشرطى اختفى خلف بناية قائمة فى الميدان يحتمى من البرد الزمهرير .

وعاد إلى محطة الترام ، وقد عزم على أن ينتظر ترامين وبعدها يعود ، ووقف يمد بصره إلى الطريق ، فلما لمح الترام قادما تمنى أن تكون فيه ، وجاء الترام واستأنف سيره كما فعل عشرات قبله دون أن تهبط منه راشيل .

وأخيرا سار فى طريق البيت وحده كسير الفؤاد خافض الرأس ، وكلما سار خطوة التفت خلفه ، حتى اختفت المحطة عن عينه .

وفى الليلة الثانية خرج ليقابل راشيل ، وراح يفكر فيما دعاها لعدم مقابلته بالأمس . إنه يحزر أنها فعلت ذلك لتنتقم منه لأنه لم يبح لها بحبه ، وهى فى كل ليلة تسأل أسئلة لا جواب لها إلا : أنا أحبك ، ولكنه كان يتهرب من الإجابة عنها أو يلوذ بالصمت . كان يتمنى أن يبوح لها بحبه ، ولكنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أن الاعتراف بالحب ذل وخضوع . لقد أحبها ، وهى تعلم أنه يحبها ، فلماذا تلح فى أن يعترف لها بحبه ؟ لعلها تريد أن تذله ، ولكن هيهات ، فهو يفضل أن يطوى حبه ، وأن يدوس قلبه ، وأن تأكل النار صدره ، من أن يذل كبرياؤه .

هو لا يستطيع أن يتصور نفسه يتذلل لفتاة أو أن يكتب لها رسالة حب ؛ ويرى فى ذلك ضربا من الملق والرياء ، وهو يربأ بنفسه أن يمزج عواطفه الصادقة بالملق والرياء !

ووصل إلى الميدان الهادئ ، وخطر له أنها قد لا تأتى اليوم أيضا فاضطرب ، وراح يضرب فى الطريق وحده ينتابه القلق ، وما وافى الميعاد حتى ألفاها تهبط من الترام متهللة ، فرقص قلبه فى صدره ، وانطلق إليها

نشوان ، ونظرت إليه وابتسمت ابتسامة لها معناها ، كأنما تقول له فى تشف : « لم آت بالأمس لأغيظك » ولكنه تجاهل ابتسامتها ، وانتظرت أن يسألها أين كانت البارحة ، ولكنه ظل فى صمته ، ولم يشر إلى ذلك أية إشارة ، فأحست بهزيمتها ، فما كانت تظن أن يستعصى عليها أمر ذلك الغلام ، وانتشرت على وجهها سحابة خفيفة من الضيق ، ولكنها ما أن التفتت ورأت الهيام فى عينيه حتى انقشعت تلك السحابة ، وأحست قلبها ينجذب إليه ، وتذكرت الهدية التى اشترتها له ، فقد اشترت له هدية ، ولم يفكر فى أن يهديها شيئا .

ومدت يدها وأخرجت زجاجة عطر فاخرة دفعتها إليه وقالت :

— خذ هذه .

— وما هذه ؟

— هدية بسيطة منى .

ونظر إلى يدها الممدودة فرأى زجاجة عطر فاخرة ، فاضطرب وقال فى توسل :

— أبقيها لك .

— خذها .

فقال فى قلق :

— لا أستطيع .

فازداد عجبها ، أيريد أن ينال منها أكثر مما قال ؟ لقد قهرها أكثر من مرة ، أوَ يرفض أن يأخذ منها هدية ؟ وما معنى هذا ؟ احتقارها ؟! استخفاف بها ؟! فما كانت تدرى أن هناك من يرفض هدية من حبيبة ، وكانت تحسب أن الطرب سيستخفه ويحل عقدة لسانه ، فيشكرها على هديتها . أما أن يعتذر

عن قبولها فهذا ما لم يجل لها بخاطر . حقا إن هذا الغلام يحيرها ، وساءها إحجامه فقالت وقد تبدل صوتها بعض التبدل :

— والله إن لم تأخذها فلن أكلمك بعد اليوم .

إن هذا قسم عظيم لا يطيقه ، وأخذ الزجاجة وهو كاره . لم تقدم له هدية قبل الآن أبدا ، ولا يدرى لها من مغزى ، إنه يرى أن الهدية من ضعيف إلى قوى رشوة ، ومن كبير إلى صغير صدقة ، وإنه ليرى الهدية على ذلك القياس تخدش الكرامة ، وتنال من الكبرياء ، وما كان يدرى أن الحبيب يهدى إلى الحبيب ، وكان يعتقد أن خير ما يهدى إلى الحبيب صادق الود ، وخالص الحب ، لا زجاجة عطر .

وسار صامتا لا ينبس بكلمة شكر ، فقد وضعته بهذه الهدية فى مأزق ، فكيف يعود الآن إلى الدار ومعه زجاجة تفضح سره ؟ لقد خرج من البيت وليس معه شيء ، فإذا عاد بالزجاجة نظروا إليه نظرة ارتياب .

وقد يسألونه أسئلة تحرجه ، فماذا يقول لهم إذا سألوه من أين جئت بهذه الزجاجة ؟ أيقول لهم اشتريتها ؟! ولكن من أين اشتراها وقد أغلقت جميع المحال ؟

وسلمت عليه وانصرفت ، وبقى مبلبل الخاطر لا يدرى ما يفعل ، وانتابته وساوس وأوهام ، فكر أكثر من مرة أن يلقى بالزجاجة بعيدا ، وأن يعود إلى البيت مطمئنا ، ولكن نفسه لم تطاوعه ، إن هذه الزجاجة منها على أية حال ، وهى تستحق أن يحتفظ بها ، وخبأها فى طيات ثيابه ، ودلف إلى البيت وصعد فى الدرج يخفق قلبه فى صدره فى شدة ، كأنما كان مقبلا ، على أمر خطير .

وكانوا يتحادثون فى غرفة بعيدة تصل أصواتهم إليه واضحة فتزيد من توتر

نفسه ، فدخل غرفة بها صوان ملابسه ، وفتح الصوان فى حذر ، وأخرج الزجاجة بيد مضطربة ، ووضعها فى جيب بذلة من بذلاته المعلقة ، ثم أغلق الصوان وخرج من الغرفة ، وقد سكنت الطمأنينة قلبه .

٦٠

بلى حزن زكية واندمل جرح قلبها وصفت نفسها ، فلم تجد الدنيا مظلمة ولا الحياة بغيضة ، فهى تحيا بين أهلها ناعمة ، ولو أن زوجها مات فليست أول من مات عنها زوجها ، ولو أنها لم تنجب ، فما أكثر اللواتى لم ينجبن ، وقد أحبت أولاد أخيها حسن وتعلقت بهم ، وبادلوها حبا بحب ، فوجدت منفسا لعواطف كانت مذخورة ، وأحست رضا ما كانت تحسه فى بيت زوجها . كانت هناك تتقاذفها عوامل اليأس والرجاء ، عوامل اليأس من الحمل والرجاء فيه ، تتعلق كل شهر بخيط من الأمل ، إن يكن واهيا ، وإن يكن سرابا ، إلا أنه أمل يداعبها ويمنيها بزوغه ، ثم لا يلبث أن يعذبها ويضنيها أفوله .

كانت ألعوبة فى يد الزمن القاسى يسخر منها ، أمل وفشل ، ثم أمل وفشل ، أما الآن فقد ركنت إلى اليأس ، واليأس إحدى الراحتين ، فلن تتصارع العواطف المتضاربة فى صدرها بعد ، ولن تحترق بنار الشوق ، ولن تبكى خيبة أملها كل شهر .

ووضعت عصمت بنتا ، فاحتضنتها زكية وفرحت بها ، وراحت ترعاها وتغمرها بحبها الفياض . إن زكية تحب ممدوحا وزوجه ، فممدوح يتمسح بها ويتودد إليها ، وعصمت تربت فى بيتها ، فما أكثر الليالى التى قضتها فى

حضنها ، لذلك أحبت ابنتهما حبا لهما ، بل أحبتها حبا للوليد الذى فتح قلبها ، وأشاع فى نفسها الغبطة والرضا .

ودخل مصطفى الشقة فجأة ، فألفى عمته تضم الطفلة إلى صدرها فى حنان وتقبلها قبلة شعر بأنها تودعها عصارة قلبها ، فاهتز فؤاده ووقف صامتا تغمره أحاسيس من العطف والشفقة والرثاء ، ثم استدار على عقبيه وانسل فى هدوء . لم تكن هذه أول مرة يراها تقبل الطفلة ، ولكنها كانت أول مرة تهزه فيها قبلة .

وكانت العلائق بين الأم والابنة طيبة ، كلها صفاء وحب ، كانت نفيسة تحب زكية ، وكانت زكية تحب أمها وتعمل على إرضائها ، ولكن ذلك الصفاء كان يتكدر أحيانا عقب زيارة بنت أخت الحاجة ، فما كانت نفيسة تدعها تنصرف إلا بعد أن تعطيها شيئا من ثيابها الجديدة ، وكان ذلك يضايق زكية ، فإن أمها كانت تعطي دون أن تفكر فى شيء ، ودون أن تفكر هل الثياب الباقية تكفيها أو لا تكفيها ، وما كانت تكتفى بأن تعطيها من ثيابها ، بل كانت تعطيها أيضا من ثياب زكية .

وجاءت بنت أخت الحاجة ، وتغدت عند نفيسة ، وجلست حتى قاربت الشمس المغيب ، فنهضت نفيسة وانتهزت فرصة انشغال زكية بتجهيز القهوة فى المطبخ ، وانسلت إلى الحجرة التى وضعت فيها ثيابها ، وأخرجت بعض أهدام ولفتها فى سرعة ، وخرجت وهى تخشى أن تقابلها زكية فى الردهة فتأخذها منها ، وسارت حتى بلغت المرأة فأعطتها الثياب ، وتنفست الصعداء كأنما تخلصت من عبء ثقيل .

وأقبلت زكية تحمل صينية القهوة ، ووقع بصرها على الثياب فى حجر المرأة فاربد وجهها ، ثم نظرت إلى أمها نظرة عتاب ، فتشاغلت عنها نفيسة ،

وجعلت تحادث بنت أخت الحاجة فى هدوء ، وإن كانت تتأهب لمعركة العتاب التى ستنشب بعد انصرافها .

وانتظرت زكية حتى انتهت المرأة من شرب القهوة ثم نهضت متبرمة ، وكأنما فطنت المرأة إلى تبرمها فاستأذنت فى الانصراف ، ولم تجاوز باب الشقة حتى قالت زكية لأمها فى غضب :

ـــ والله إذا اتسخت ثيابك فلن تجدى ما تلبسينه .

ـــ إنك لا تحبين الخير يا زكية .

ـــ لو كان عندك ثياب تكفيك ما غضبت .

ـــ لم أعطها شيئا يستحق غضبك ، أعطيتها قميصا وسراويل .

ـــ إذا جاءت فى المرة القادمة فأعطيها الثياب التى عليك .

ـــ لماذا هذا التأنيب يا زكية ، إنها ليست قريبتى ، إنها قريبتكم ، بنت أخت جدتكم ، وكان الأولى بكم أن تعطوها أنتم .

ـــ إنها ليست محتاجة .

ـــ وهل لابد أن تكون محتاجة لتعطوها ، إن الهدايا تقرب القلوب .

ـــ اخلعى ما عليك وفرقيه .

ـــ يا ليت ! لو كان عندى ملء هذا البيت مالاً لفرقته .

ـــ غدا إذا دخلت تستحمين فاغسلى ثيابك وانتظريها حتى تجف .

ـــ سأبعث فى شراء قماش .

ـــ ومن التى تخيطه لك .

ـــ أمينة .

فاستاءت زكية بعض الشىء ، فقد كانت تحب أن تقول لها أنت ، وينتهى العتاب ، أما أن تقول لها : أمينة : فذلك دلالة على أنها استاءت منها ،

وأرسلت نفيسة خادمها إلى حسن ليشترى لها قماشا ، فانطلقت الخادم وغابت ساعة أو بعض ساعة وعادت بالقماش ، فجلست زكية تفصله ، فلما رأتها نفيسة انشرح صدرها ، وأقبلت عليها تحادثها فى ود .

لم يكن يسيء زكية أن تعطى أمها ثيابها لبنت أخت الحاجة ، ولكن كان يسيئها أنها كانت تتصرف فى آخر ثوب لها ، فإن من تقاليد الأسرة أن يبقى لكل فرد غيار جديد لا يمس ، حتى إذا مات وجدوا ثيابا جديدة يكفنونه فيها !

ومرت الأيام ، وجاءت بنت أخت الحاجة لزيارة نفيسة ، وفطنت زكية إلى أن أمها ستعطيها بعض ثيابها الجديدة ، فقامت إلى الصوان وسكته بالمفتاح ، وغيبت المفتاح فى صدرها ، وأخذت تغدو وتروح مطمئنة .

وجاء أوان انصراف الضيفة ، فقامت نفيسة تحضر لها الثياب ، وما إن وصلت إلى الصوان حتى وجدته مقفلا ، فأيقنت أن زكية أقفلته ، ولكنها لم تجرؤ أن تطلب منها المفتاح ، فقد كانت تخشى أن تتلاحيا فيبلغ صوتاهما المرآة فتكون جرسة وفضيحة .

وأجست الجدة ضيقا ، فهى لا تستطيع أن تعود وتعتذر للمرأة ، فما بخلت بشيء ألبتة ، فما تدرى كيف تعتذر ، وخطر لها أن تعطيها ثيابها التى ترتديها لتخرج من ذلك المأزق ، فأغلقت باب الغرفة ، وخلعت ثيابها الداخلية ، ثم أسبلت عليها جلبابها ، وخرجت راضية .

وخرجت المرأة مسرورة ، وبقيت نفيسة ترتجف من البرد ، ولاحظت زكية رعدة تسرى فى بدن أمها ، فاقتربت منها وبان الشك فى وجهها ، فضمت نفيسة جلبابها إليها ، وحاولت أن تبدو هادئة ، ولكن زكية تيقنت أنها لا ترتدى إلا جلبابا على لحمها ، وأنها أعطت المرأة ثيابها التى ترتديها ، فامتلأ صدرها بالغيظ ، وصكت خديها فى حنق .

تصادق مصطفى وأسرة راشيل ، فكان كثيرا ما يمضى الوقت عندهم ، يلاعب الأب النرد ، ويحادث الأم أحاديث تافهة كانت تحب أن تسمعها منه ؛ وكان يعير جاك رواياته التى قرأها فيفرح بها كل الفرح ؛ ويعطى لياهو قطعة من شيكولاتة فيسر لها وتنفرج أساريره ، وما كان لياهو طفلا بل رجلا ولكنه كان لا يعرف القراءة ولكن يعرف الأكل ويحتفى به .

وجلس مصطفى يلاعب الأب النرد ، فأقبلت راشيل فسحبت كرسيا وجلست إلى جواره ، ثم نظرت إليه وابتسمت ، ومدت رجلها وداست على قدمه وراحت تضغطها فى خفة ، فاضطرب مصطفى واحمر وجهه ، ولم يدر ما يفعل ، ولو أن أحدا نظر إليه فى تلك اللحظة لفطن إلى تبدل حاله ، ولاحظت راشيل ارتباكه فابتسمت فى خبث ، وراحت ترنو إليه من طرف عينيها ؛ وكلما هلل أبوها للعبة لعبها ضحكت ضحكات متتابعات ، لتفرج عن عاصفة الضحك الحبيسة فى صدرها .

وهزم مصطفى فانبسط الأب ولم يلحظ شيئا ، وكان مصطفى يرتجف خشية أن يرفع الأب بصره فيرى تبدله فيحزر كل شىء ، ولكن الأب كان فى نشوة انتصاره ، لا يهمه إلا أن يعقد له الفوز ، وكان هذا أول يوم يهزم فيه مصطفى وينتصر عليه !

وانتهى النهار ، ومد الليل ذراعيه لاحتضان الكون ، ومس أذنى مصطفى رنين الضحكات الفضية تدوى فى الطريق ، ففطن إلى أن الرفاق أقبلوا وتجمعوا عند الباب الحديدى ، فقام واستأذن ، فلما خرج إلى الشارع رأى

عليا وعبد الرحمن وفهمى ، فانطلق إليهم ؛ ولمحه فهمى خارجا من عندها فأحس غيرة واضطرب قليلا ، أما على فأقبل عليه يصافحه وهو يضحك ، فعلى يحبه ، ومصطفى يجاريه دائما ويخصه بصداقته ، إذ يراه أنقى الرفاق سريرة ، وأطيبهم قلبا ، وأكثرهم بساطة ، وإن كانت بساطته تصل إلى حد التفاهة غالبا .

ووقفوا يتسامرون ويتضاحكون ، وهبطت راشيل ووقفت على عتبة الباب ، حتى إذا لمحها مصطفى أشارت له أن تعال ، فاستأذن من رفاقه وذهب إليها ، فقالت له :

— تعال معى نزور إحدى صديقاتى .

وسارت وسار بجوارها ، وانطلقا صوب الميدان ، وراح الرفاق ينظرون إليهما ، أما علىّ فقد نظر إلى فهمى وضحك ضحكته الطليقة ، أما عبد الرحمن فقد انفرج فمه الواسع فى خبث ، أما فهمى فقد اربد وجهه ، وأحس نارا تلسع صدره ، ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال فى مرارة :

— كيف تمشى معه وتدعنى ، مع أننى فى البكالوريا ، وهو فى السنة الثانية الثانوية ؟!

فدوت ضحكات على الفضية ، وقال عبد الرحمن :

— هذه قواعد جديدة للغرام .

ولمح فتاة مقبلة فرمقها بنظرة والهة وقال مغازلا :

— أهلا يا غزال ، محسوبك فى البكالوريا .

فقهقه على ، وابتسم فهمى فى مرارة ، وقال عبد الرحمن فى سخرية :

— أتعلم أن روميو كان حاصلا على الدكتوراه ؟

ورأى فهمى أن عبد الرحمن سيركبه بسخريته ، فتركهما وانطلق إلى

الميدان .

ودخل مصطفى وراشيل شارعا ضيقا مظلما ، وما سارا فيه أمتارا حتى دلفت إلى بيت وهو خلفها ، وصعدا بضع درجات ، ثم طرقت باب الشقة الأولى فاضطرب مصطفى وأحس رهبة وتملكه خجل ، ترى كيف ينظر إليه أهل البيت وكيف يقابلونه ؟ هل تغضبهم صحبته لراشيل ، وهل ينظرون إليه من أطراف عيونهم فى ريبة ؟ وأحس قلقا ، ولكنه لم يستطع أن ينكص على عقبيه ، فهو يفضل أن يكون بجوارها وإن غشيه قلق واضطراب على أن يكون بعيدا عنها فى أمن وطمأنينة ! .

وفتح الباب ، وظهرت خلفه فتاة فى مثل سن راشيل ، وإن كانت أقل منها جمالا ، فلما وقع بصرها على القادمة هتفت فى غبطة فى نبرات امتاز بها الشعب الإسرائيلى :

ــ أهلا وسهلا تفضلى .

ودخلت راشيل ثم قالت وهى تبتسم :

ــ تعال يا مصطفى .

فتقدم مصطفى وفى قلبه رجفة ، وفى صدره رهبة خفيفة ، وبان فى وجه صاحبة الدار الاهتمام ، وانتظرت دخول القادم لتتفرس فى وجهه فى النور ، فلما دخل رأته شابا صغيرا أمرد ، فاحم الشعر ، مقبول الشكل ، وإن كان لا يجذب نظرها إن قابلته فى الطريق مقابلة عابرة ، فما كان فارع الطول عريض المنكبين كنجوم السينما الذين يعجب الفتيات بهم ، وما كان من الغلمان الذين تبدو الشيطنة فى سحنتهم ، ولكن كانت تبدو الوداعة فى صفحة وجهه ، وكانت وداعة أخاذة قد تهفو إليها قلوب .

وأخذت راشيل تراقب وجه صديقتها ، فلما لمحتها تتشوف إلى رؤية

مصطفى وتطيل النظر إليه سرت فيها نشوة ، وفطنت إلى أنها تهفو لمعرفة من يكون ، فقالت لها فى بساطة :

— مصطفى ابن جيراننا .

فمدت الفتاة يدها وقالت وهى تصافحه :

— تشرفنا .. تفضلا .

وسارت أمامهما حتى دخلوا غرفة بسيطة ، فقعد مصطفى على كنبة ، وجلست راشيل إلى جانبه ، وجلست الفتاة قبالتهما ، وما انقضت فترة حتى نهضت صاحبة الدار تجهز شيئا تقدمه لهما ، فاقتربت راشيل منه حتى مس كتفها كتفه ومدت ذراعها من ورائه والتفتت إليه وابتسمت ، ورأى عينيها تبرقان ، وشفتيها ترتجفان قليلا . كانت كل خالجة فى وجهها تصرخ فيه أن يقبلها ، فصعد الدم حارا إلى وجهه وتمنى أن يلبى نداءها ، ولكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة ليرفع لها وجهه ويمد لها شفتيه ، كان على يقين أنها ترغب فى أن يضمها إليه وأن يشبعها لثما ، ولكنه لم يجد لها قدسية فى نفسه .

وعادت الفتاة تحمل صينية عليها كوبان بهما عصير الليمون ، فشرب مصطفى وراشيل ، ولاحظ مصطفى أن راشيل لم ترفع ذراعها الممدودة خلفه فاضطرب ، وفطنت إلى اضطرابه فشاءت أن تداعبه ، فأخذت تقرصه فى ظهره فتغير وجهه ، وأخذ يتحمل ألم القرص فى صمت ، وحاولت راشيل أن تخفى ابتسامتها ولكنها لم تستطع ، فأخذت تروى لصديقتها قصة تافهة وتبتسم ، ولم يبتسم مصطفى أبدا ، بل ظل فى صمته يتحمل القرص وهو كاره ، وضايق راشيل احتماله ، فقد كانت ترجو أن يصرخ فتضحك وتضحك صديقتها ، فترفع هذه الكلفة التى فرضها مصطفى عليهم فرضا ، فما جاءت به إلى هنا إلا لتخلصه من نفسه المحافظة ، وساءها بقاؤه على

وقاره ، فمدت يدها وتناولت دبوسا كان فى صدرها ووخزته وخزة ، فعجز على أسنانه فى غيظ ، ودوت ضحكتها فازداد غضبه ، ورماها بنظرة ثائرة فأحست خشوعا ، ثم نهضت ونهض ، واستأذنا فى الانصراف وخرجا إلى الشارع الضيق المظلم الهادئ .

خرج مصطفى وفى صدره ثورة ، فما كان يحب أن يكون ألعوبة فى يد أحد ، وإن كانت راشيل التى يهواها ، فلم يشعر وهو فى فورته إلا ويده تمتد إلى شعرها فيقبض عليه فى قسوة ، ويجذبه فتهبط راشيل من طولها وتقرفص فى جلستها ، وتنبعث منها ضحكات ناعمة هزت كيانه ، فمات غضبه ، وعبثت ضحكاتها بأوتار قلبه ، فأطلق شعرها ، فنهضت وأخذت يده بين يديها ورفعتها إلى فمها ، وراحت تلثمها فى غبطة ، فشعر مصطفى بخدر لذيذ شهى يسرى فى جسمه ، ويدغدغ حواسه .

٦٢

الرفاق يجتمعون فى السلاملك ، ولا يتحدثون إلا همسا ، فسيف الإرهاب مصلط على الرقاب ، والجواسيس منبثة فى كل مكان ، وكان راكب الترام ينظر إلى جاره نظرة مرتابة ، يحسبه جاسوسا يريد أن يطلع على خبيئة نفسه ليسوقه إلى المحاكم والاضطهاد ، كان صدقى يحكم البلاد بالحديد والنار .

وجاء إلى السلاملك صديق وفى رفقته شيخ شاب رفيع ، أسمر الوجه ، جاف التقاطيع ، يرتدى العمامة ، وما إن رآه الرفاق حتى ذهلوا ، وبان عليهم الاضطراب ، فهم يعرفونه جميعا ، فهو شاب قبض عليه بتهمة توزيع

منشورات ضد الحكومة ، وحكم عليه بالسجن . سلم الشاب وجلس ، وابتدأ الوجوم ينقشع ويحل محله الإعجاب ، إعجاب بالشاب الذى لم يرهب القوة ، ولم يخش السلطان ، وراح ينافح عن الحرية ، وهو يعلم أن الحكومة ستبطش به إن وقع فى قبضة يدها ، واحتمال وقوعه بين أعوانها كبير ، فقد كان يوزع منشوراته النارية على هذا وذاك ، وما كان يستطيع أن يفرق بين خصوم الحكومة وأعوانها .

ودار الحديث عاديا بين الجميع ، إلى أن التفت على إلى الأستاذ وقال :

ـــ وكيف قبضوا عليك يا أستاذ حسنين ؟

فتلفت عبد الرحمن فى ذعر ، ونظر إلى الشباك المفتوح خلفه فى رهبة وقال :

ـــ لا .. لا . الحيطان لها آذان .

فرنت ضحكات على الفضية ، ولكنها لم تشع البهجة فى المكان بل بلغت مسامع الرفاق خاوية تقبض القلوب ، وقال على وهو يضحك :

ـــ وهل هذا حديث فى السياسة ؟! إنه رواية واقعة وقعت .

فقال عبد الرحمن فى غضب :

ـــ خليك عاقل ، وقعتك سوداء .

فقال على فى إلحاح :

ـــ وكيف طبعت المنشورات ؟

فنهض عبد الرحمن وقال :

ـــ أنا خارج .

فابتسم الرفاق وجذبوه ليعود إلى مكانه ، ولكنه راح يقاومهم ، ولما تكاثروا عليه جلس وقال :

ــ رجنا فى شربة ماء .

وتجاذبوا أطراف أحاديث متشعبة عادية ، واطمأن عبد الرحمن ، وأراد سليمان أن يشاغبه فقال :

ــ وكيف كانوا يعاملونك فى السجن يا أستاذ حسنين ؟

فتلفت عبد الرحمن ولم يتكلم ، ووقع بصره على النافذة المفتوحة القريبة منه ، فوقف على الكنبة الجالس عليها وتسلق النافذة وفى مثل لمح البصر قفز منها إلى الممر الذى يقود إلى الباب الحديدى ، وراح يعدو ويصيح :

ــ السلام عليكم ، نشوفكم فى الليمان .

فدوت ضحكات على الفارغة ، وابتسم الرفاق ، وكان حسنين أكثرهم انبساطا .

وخرج مصطفى وركب الترام إلى باب الخلق ، فإن راشيل تعمل فى محل هناك بعد أن تركت محل شيكوريل ، فأصبح من الميسور عليه أن يراها إذا مر أمام المحل ، وأصبح من عادته أن يمر أمامه كل يوم وأن يقف على الطوار الآخر يرقبها دون أن تراه ، وكانت تلمحه أحيانا وهو يمر أمامها فكانت تناديه وتدعوه إلى الجلوس معها ، فكان يحظى بسويعات حلوة فى غياب صاحب المحل ، أما إذا عاد الرجل فإنه كان يستأذن فى اضطراب ، وينسل هاربا .

وبلغ الترام ميدان باب الخلق فهبط مصطفى يحس اضطرابا ، ولكنه اضطراب لذيذ ، فهو يتمنى ألا يكون صاحب المحل هناك ، ولم يكن ذلك وحده يكفى ، فهو يتمنى كذلك أن تلمحه وهو يسير أمام المحل فتدعوه ، فقد كان ينطلق إلى سبيله إذا لم تره ولا يجرؤ على أن يقتحم الدكان ، ثم يعود من نفس الطريق ثانية لعلها تلمحه ، ثم يدور على عقبيه ويعود مرة ومرة حتى تلمحه أو ييأس فينصرف وهو مستاء .

وسار حتى إذا اقترب من الدكان خفق قلبه ، ولم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليمد بصره ، فاكتفى بأن ألقى نظرة خاطفة ، فلمح صاحب المحل واقفا ففر كأرنب مذعورة .

وسار على الطوار الآخر متمهلا ، ووقف يرقب الدكان ، ويتمنى أن ينصرف صاحبه إلى بعض شأنه ، ولكن الرجل لم ينصرف ، فأحس حنقا . كان الدكان لتفصيل القمصان وبيع أربطة الرقبة ، ومع ذلك لم يفكر فى أن يفصل قميصا أو أن يشترى بعض لوازمه ، إذ كان يعتقد فى قرارة نفسه أن هذه وسائل ملتوية ، وكان يخجل من نفسه لو قارف شيئا منها .

وراح يتمشى حتى بلغ معرض مصور فى الميدان ، فأخذ يتفرس فى الصور يقطع الوقت لعل صاحب الدكان ينصرف ، فينعم بقربها لحظات ، وراح يتطلع إلى الصور فى إهمال ، ووقع نظره على صورة بدلت كيانه ، فاربد وجهه ، وفار دمه فى عروقه وصعد إلى رأسه ، وتمنى أن يحطم المعرض ويمزق هذه الصورة حتى لا يراها الناس .

كانت صورتها متهدلة الشعر ، تغطى صدرها العارى بغلالة رقيقة ، وكان الأخدود الذى يفصل ثدييها واضحا وضوحا معيبا . كيف قبلت أن تقف أمام المصور شبه عارية ؟ ولكن من أدراه أنها كانت شبه عارية ولم تكن عارية ؟! إن هذه الصورة لا تليق بفتاة .

وسار واجما مطاطئ الرأس ، والألم يحز فى نفسه ، ونشبت فى نفسه ثورة ، وإذا بصوت ينبعث من جوفه يصيح به فى سخرية : ومن قال لك إنها فتاة ؟ إنها لا تفقه إلا حب الجسد وقد دعتك إلى نفسها مرارا ، ولكنك جاهدت لتبقى على حبك ، وهى إن نالتك نبذتك ، وما أبقاها معك تلك السنين إلا لأنها لا تريد أن تنهزم ، دعها ولا تدنس حبك دعها .

ولكنه لا يستطيع أن يلبى نداء ذلك الصوت المنبعث من نفسه ، فهو يحبها مهما تكن ولا يتصور أن فى مقدوره أن يعيش بدونها ، وهو لا يستطيع أن يكرهها ، فيا لقلبه الذى تمرد عليه ! وخنقته أحاسيسه المتصارعة فى نفسه فضيقت من أنفاسه .

وعاد إلى الحى حزينا ، فألفى أسعد وفريد وسليما جالسين أمام الباب الحديدى ، فانضم إليهم ، وأراد أن يسرى عن نفسه فقال لفريد :

— ما هذه الأناقة ؟ رباط رقبة بديع .

فابتسم فريد وقال وهو يغمز بعينيه فى انشراح :

— اختارته لى جارتكم الحسناء .

فانقبض صدره وتملكه غيظ ، ولم يستطع أن يشاركهم الحديث حتى لا ينكشف أمره ، فانسل إلى البيت دون أن يستمع إلى قصة رباط الرقبة التى راح يرويها فريد :

وأقبل الليل وفكر مصطفى فى عدم الخروج للقائها ، فهو يريد أن يوفر على نفسه ذلك الذل ، يريد أن يتحرر منها ، ولكنه أصبح أسير حبها ، أصبح لا يستطيع أن يحكم نفسه ، فإن قوة خفية تدفعه للخروج إلى الميدان .

وقابلته راشيل وابتسمت له ، فكأنما يدا سحرية مست صدره ، فمسحت أحاسيس الغضب والحنق وأشاعت مكانها نشوة وانشراحا . وسارا حتى إذا بلغا دارها جذبته من يده ليصعد معها ، فلم يقاوم وصعد معها ، وسلم على أبيها وأمها وأخويها ، وجلسوا يتحادثون حديثا هادئا إلى أن قال الأب :

— أرأيت صورة راشيل ؟

فاضطرب ، وأشفق من العاصفة التى توشك أن تهب ، فإن تكن تلك

الصورة قد حركت شجونه ، إلا أنه لا يحب أن يسمع الأب يقرع راشيل على فعلتها الشنيعة أمامه ، وتمنى لو لم يأت الليلة ، وفكر فى أن يفر ليوفر على نفسه الألم الذى سيحسه من أجل راشيل ، والتفت الأب إلى لياهو وقال :

ـــ هات الصورة .

فقام لياهو وعاد وفى يده الصورة وهو يبتسم ، ولم يستطع مصطفى فى اضطرابه أن يميز هل كانت ابتسامته عن رضا أو عن سخرية ، وأخذ الأب الصورة ، ونظر فيها فى عجلة ودفع بها إلى مصطفى ، فتناولها هذا بيد مرتجفة ونظر إليها ، ولكنه لم ير شيئا فقد أسدلت على عينيه غشاوة ، وسمع لياهو يقول :

ـــ صورة رائعة .

وقالت الأم فى فرح :

ـــ من أجمل الصور التى رأتها عيناى .

وقال الأب فى اقتناع :

ـــ لو أن الغلالة نزلت قليلا لكانت الصورة أروع .

فقالت راشيل دون أن تختلج فيها خلجة :

ـــ أراد المصور أن ينزل الغلالة ولكنى رفضت .

وزاد اضطراب مصطفى فنهض واستأذن دون أن يشير إلى الصورة بكلمة ، وسألته الأم :

ـــ ما بك ؟

ـــ أحس دوارا .

وخرج .

٦٣

سيقام حفل كبير فى بيت من بيوت الحى العريقة ، وسيحيى الحفل مطرب شاب ذاع صيته وتهافت الناس على سماعه ، وقد دعى إلى الحفل حسن وأبناؤه ، ولكن حسنا لا يحب السهر ، ولا يميل إلى الحفلات الصاخبة ، ويفضل أن ينزوى فى السلاملك مع صحابه ينصت إلى أحاديثهم ، ويستمع إلى تاريخ العرب الأمجاد ، حتى إذا شارفت الساعة العاشرة ترك الرفاق فى جلستهم وأوى إلى فراشه .

ووافى يوم الحفل ، وحاول أسعد أن يغرى أباه على الذهاب ، ولكن حسنا ابتسم وقال :

ـــ اذهبوا أنتم ، فأنا لا أميل إلى السهر .

ـــ ستكون حفلة رائعة .

ـــ اذهبوا واعتذروا من تغيبى .

ودقت الساعة التاسعة وخرج أسعد وسليم وبعض صحاب حسن المدعوون إلى الحفل ، وكان أسعد منشرحا فإن هذه أول مرة يسهر فيها ، فأقبل على صحاب أبيه يحدثهم فى غبطة ، وأخذ سليم ينظر إلى الكون الذى لفه الظلام فى نشوة ، ويرى فى كل ما يمد إليه بصره جمالا لم يره قبل الليلة ، فما كان يرى فى الليل إلا السلاملك وصحاب أبيه ، ثم الفراش والأحلام .

ودخلوا البيت العريق ، فاحتفى أهله بهم ، وبعد تناول العشاء أخذ المطرب الشاب فى الغناء ، فداعب القلوب ولعب بالعقول ، وأخرج الناس من وقارهم ، فتعالى صياحهم ، وراحوا يتمايلون فى نشوة ، واغتبط أسعد

وسليم وأحسا تلك السعادة التى يحسها الغارق فى حلم لذيذ .

وذهب حسن إلى فراشه لينام ، ولكن النوم جافاه ، فهو لا يستطيع أن يغمض عينيه وأحد أبنائه خارج البيت ، وهو لا ينام كل ليلة إلا بعد أن يطمئن إلى أنهم دخلوا فرشهم ، وأغلقوا عليهم بابهم . وراح يتقلب فى الفراش ، ومر الوقت بطيئا فأحس مللا ، فسحب كرسيا وجلس فى الشرفة يملأ رئتيه بهواء الليل البليل .

ومر الوقت كلمح البصر فى الحفل ، بطيئا فى الشرفة وكان حسن يخرج ساعته بين وقت وآخر من جيبه فيحس كأنما كفت عن الدوران ، فيضعها على أذنه ليسمع دقاتها وليتحقق من أنها تدور .

وانطلق أسعد وسليم إلى البيت ، وزاد من غبطتهما هدوء الليل ، وضوء القمر الفضى الذى فرش لهما الطريق ببساط من النور الأبيض الأخاذ ، وأراد سعد أن يترجم عما يجيش فى صدره من أحاسيس لذيذة فغمغم :

— إنها ليلة من ليالى العمر .

فقال سليم :

— ما ألذ السهر .

— ليتنا نختلس فى الشهر ليلة نعيش فيها مثل هذه العيشة الناعمة اللذيذة .

— ما كنت أدرى أن فى الليل حياة .

— إن فى الليل كل الحياة .

— أتعلم أنه سيحيى حفلته القادمة فى أول الشهر بكازينو القبة ؟

— سنذهب لسماعه .

— أتحسب أنهم يوافقون على سهرنا ؟

— وما المانع ؟

— إنهم ينامون فى التاسعة ، ومن يفتح لنا ؟

— نأخذ المفتاح معنا .

— فكرة . والآن هل يفتح لنا البواب إذا طرقنا الباب أو يدعنا ندقه ساعة .

— سنرى .

واقتربا من البيت ، ولمحهما حسن فشعر براحة ، وهبط فى الدرج مسرعا وفتح الباب ، فلما بلغاه ألفياه مفتوحا ، فدلفا منه فرأيا أباهما يقابلهما بوجهه الطلق ، لا يعاتبهما ولا يقول لهما شيئا عن تأخرهما ، فابتسما له وصعدوا جميعا فى الدرج ، ودخلوا شقة الجدة ، وتمدد أسعد وسليم فى فراشهما ، وانطلق حسن إلى الشباك فأغلقه فى رفق ، ثم سحب الغطاء على ولديه ، وانسل من الغرفة وأغلق باب الشقة خلفه وذهب إلى فراشه لينام .

واستيقظ الشابان فى الصباح وقد ماتت فكرة السهر فى نفسيهما ، فإن معنى سهرهما أن يسهر أبوهما ليفتح لهما الباب ، وليطمئن على عودتهما ، وهما لا يحبان أن يجشماه تعبا أو يتسببا فى إقلاقه .

وهبط أسعد وسليم ومصطفى إلى السلاملك ، وجاء الرفاق يلعبون ، وأقبل حسنين الشيخ الشاب ، فقد أصبح من الصحاب ، ولما كانوا فى الصيف فقد أحسوا أن الجلوس فى السلاملك لا يطاق ، فخرجوا إلى الشارع وجلسوا أمام الباب .

وكان لا يحلو لفوزى مشاغبة الشيخ حسنين إلا فى الطريق ، فاقترب منه وغمزه تحت إبطه بأصبعه . فقفز الشيخ وهو يقهقه ، فقد كان يغار إذا دغدغه أحد ، فرنت ضحكة على الفضية وابتسم الآخرون ، وقال الشيخ وهو يبتسم :

— افعل ما تحب فى السلاملك ، أما فى الطريق فلا .

— لمه !

— للعمامة وقار .

ولكن الرفاق لم يستمعوا إلى النصيحة الغالية ، بل راحوا يشاغبونه وهو يضحك ويفر منهم ، واستمرت المشاغبة أسابيع ، وفى يوم أسرفوا فى مداعبته فقال لهم مهددا :

— انتظررنى هنا غدا ، وسترون ما أفعله بكم .

— أتهددنا ؟

— نعم .

فقالوا وهم يضحكون :

— إنا منتظرون .

وفى اليوم الثانى اجتمع الرفاق وجلسوا أمام الباب ، وأقبل الشيخ حسنين يرتدى بذلة أنيقة ، وقد وضع على رأسه طربوشا جديدا ، فلما وقع نظر الشبان عليه هللوا له ، والتفوا به ، ولكنه لم يفر منهم كما كان يفر ، بل هجم على هذا يشده ، وعلى ذاك يدفعه ، وصاح فيهم وهو يضحك :

— من يتحدانى ويريد الهذر فليخرج إلى الميدان .

وأشار بأصبعه إلى الميدان الذى ينتهى عنده الشارع ، فابتسم الرفاق وقال عبد الرحمن :

— يا شيخ حسنين .

فقال الشيخ حسنين فى غضب مفتعل :

— حسنين أفندى من فضلك .

ثم نظر إليهم وقال وهو يضحك :

— هيا إلى العبث فقد خلعنا الوقار .

* * *

أنوار تتلألأ ، وفتيات يخطرن فى ثياب أنيقة ، وفتيان يطلقون النكات ويضحكون ، وجلبة وعجيج ، فهذه ليلة خطوبة راشيل . عزفت الموسيقى فقام الشبان والشابات يرقصون ، ونهضت راشيل وكانت ترتدى ثوبا أزرق جذابا أبرز مفاتنها ، ونهض الخطيب فلف ذراعه حول خصرها وضمها إليه وأخذا يدوران على الأنغام وقد لاحت الغبطة فى حركاتهما ، كانا يرقصان فى رشاقة ، ويتمايلان فى دلال .

ووقف مصطفى فى الشباك ينظر يشيع الحزن فى نفسه ، وراحت الغيرة تنهش قلبه وتعذبه ، فأخذ يتبع راشيل ببصره ، فغامت عيناه بالدموع . وارتفعت الضحكات فضايقته ، فقد كان لها فى أذنيه وقع النحيب .

عذبته أحاسيسه فشعر بدوار فى رأسه ، فترك الشباك وانطلق إلى الفراش وحاول أن ينام ، ولكن أصوات الموسيقى كانت تصك أذنيه فترهقه وترهق حواسه . فقام إلى الشباك وأغلقه ؛ ولكن الأنغام كانت تتسرب إليه واضحة ، حتى خيل إليه مرة أنها تنبعث من جوفه وتصب ألحان الألم فى أذنيه .

كانت راشيل فى سعادة سابغة وكان مصطفى فى شقاء مقيم ، وكانت بين يدى خطيبها مشرقة الوجه ، وكان يتململ فى فراشه لا يدرى به أحد ، ولا يحاول أن يسرى عنه واحد .

وهاله استسلامه لأحزانه ، فكبح جماح نفسه ، وراح يفكر فى أمره ، ما باله يحزن لخطوبة راشيل ؟ هو يحبها أجل ، ولكن ما نهاية هذا الحب ؟ ليس له إلا نهاية واحدة هى الفراق ، ثم ينطلق كل فى طريقه . فلو أن لقلبه عقلا لما أحبها أو تعلق بها ، ولكن قلبه مجنون .

هو يحبها ، يحبها لذاتها ، يحبها بلا أمل يحبها ولا يطمع فى أن ينال منها شيئا ،

يحبها لأن حبها قد ملأ نفسه غبطة ، ولأنها أول من دقت قلبه فانفتح لها ، يحبها ... يهواها ، والمحب يتمنى لحبيبه السعادة والهناءة ، فلم لا يرجو لها حياة رغيدة سعيدة ما دام لا يستطيع أن يمنحها هو تلك السعادة ؟ إن عليه أن يسر لسرورها وأن يفرح لفرحها ، وأن يغتبط ما دامت راضية ، وأن يكبح جماح القلب الجموح .

وأخذت سحب الحزن التي تلبدت فى صدره تنقشع ، وتبخرت أحاسيس الغيرة التي ضيقت من أنفاسه ، وكأنما استمع القلب إلى صوت العقل مرة فهدأ ، أو لعله هدأ مرغما لما رأى ضياع الأمل .

وأرضاه الخاطر الجديد فأحس راحة ، وراح يتمنى لها رغد العيش صادقا ، فهو يحبها ، ويتمنى أن تكون له ولما كان ذلك محالا ، فقد تمنى فى قرارة نفسه أن يسعدها الرجل الجديد . إن كل ما يطمع فيه أن يراها سعيدة ، وأن يتزود منها بين وقت وآخر بنظرة .

ومس النوم جفنيه فراح فى سبات ، ورأى فيما يرى النائم راشيل إلى جواره تضمه فى اشتهاء وتقبله فى وله وتمسح شعره بيدها فى حنان ، فهب من نومه وقلبه يدق ، ولم يرتح إلى الحلم اللذيذ ، فما كان يحب أن يضمها ، أو أن يلمسها ، ولكنه كان يحب أن يجلس إليها وينظر فى عينيها ، فتناجى الروح الروح .

وانقضى الليل والنهار ، وحان موعد الخروج إلى الميدان فأحس انقباضا ، فلن يقابل راشيل ، فهى لن تهبط الليلة من الترام فلابد أنها خرجت مع خطيبها تمرح وتهنأ ، وأحس على الرغم من ذلك رغبة فى الانطلاق إلى هناك ، ولم يكن ثم دافع يدفعه إلى الخروج ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم رغبته ، فسار فى خطا وئيدة مطرقا رأسه ، حتى إذا بلغ الميدان أخذ يتلفت فى حزن ، وإذا

بعينيه تفتشان عنها بين الهابطات ، وإذا بقلبه يخفق . وإذا به يفيق إلى نفسه ، فيبتسم ابتسامة مريرة ، ابتسامة تقطر صابا .

ومرت الفتيات بجواره فلم يرفع بصره إليهن ، ولم يلحظ رشاقتهن وفتنتهن ، فقد كان منطويا على نفسه يجتر أحزانه ، هو اليوم حزين فقد انقضى يوم دون أن يراها . وفى الصباح ذهب إلى الشباك الذى يطل عليها فرآها مشرقة الوجه فى الشرفة ، فخفق قلبه . ورفعت رأسها فجفل فهو لا يحب أن تراه ، ويعتقد أنه أصبح من المحرم عليه أن يومىء لها برأسه ، أو أن يبتسم لها ، أو أن تلاقى عيناه عينيها ، فهى لم تعد له بل لرجل آخر !

وأحس راحة وامتلأ نشوة ، فهو يتزود منها ، وخير الزاد نظرة تنعش الروح ، وتملأ القلب .

وفى العصر أطل من الشباك فرأى راشيل تجلس وخطيبها إلى جوارها ، ورآها تميل عليه فيضمها إليه ويلثمها ، فأحس وخز الغيرة ، ولكنه حاول أن يقنع نفسه بأنه لا يغار عليها ، وبأن ذلك الوخز إنما هو لما قد ينزل بها ، فهى غريرة لا تفهم الرجال على الرغم من معرفتها إياهم ، فهى تمد له شفتيها وتدع له خصرها يهصره ، وجسمها يضمه ، وهى لن تصده وستسلم له ، وسينعم بها ، حتى إذا ما ارتوى ، بحث له عن مخرج يفر منه .

ولم يستطع البقاء فى مكانه فانسل منقبض الصدر ، كسير القلب ، يزفر فى ضيق ، إنه يشفق على راشيل !

ومرت الأيام ومصطفى يحاول ألا يفكر فى راشيل ، وألا ينطلق إلى الشباك يتزود منها . إن قلبه يعذبه ، ولكنه قرر ألا يخضع لقلبه ، فهو لا يجلب له إلا الضنا والعذاب . انتهت راشيل من حياته ، فلم تعد إلا ذكرى ، إلا وهما ، فما له يتشبث بالأوهام ولما يدلف من باب الحياة ؟! إن قلبه قد جرح ،

وسيندمل جرحه ، فلماذا ينكأه بالذكريات ؟

وجلس مصطفى أمام الباب الحديدى ينتظر الرفاق ، ومد بصره إلى شقة راشيل برغمه فرآها تمرر يدها على شعر خطيبها فاضطرب ، وأخذت الأفكار تتزاحم فى رأسه ، لقد رآها فى حلمه تمرر يدها على شعره هو ، فإذا به يراها اليوم تمررها على شعر خطيبها ، هل يغار ؟ أبدا ، ولكنه يحس بما سيحل براشيل الغريرة ، سيصفعها خطيبها صفعة تحطم كبرياءها ، ليته يقابلها وينصحها بأن تصده .. بأن تتمنع عليه .. بأن تلهب حواسه ، فهى إن فعلت تعلق بها ، أما أن تقبل عليه ، وأن تمكنه من نفسها ، فسيمتصها ثم يلفظها . ليته يقابلها ! وهبه قابلها فهل يستطيع أن يفاتحها فى أمر كهذا ؟ إنه فى حضرتها يحس خشوعا وقدسية ، ولا يتكلم إلا بقدر ، إنه فى حضرتها يحس رهبة العابد فى محرابه ، فلو أنه قابلها لآثر الصمت ، ولترك روحه تهيم طليقة لتتصل بروحها ، إنه الآن ثائر ، فإذا قابلها ماتت فى صدره كل ثورة ، وهدأت نفسه ، فلا يجرؤ على أن يزجيها نصيحة ، أو يوجهها وجهة يبغيها .

ورنت ضحكة راشيل فقام حانقا ، وسار إلى السلاملك فريسة طيعة لأفكاره التى ما فتئت تعذبه وتضنيه .

٦٤

أسعد يسير بين أصحابه مطرقا ، وقد بان فى محياه الأسى ، فقد ظهرت نتيجة البكالوريا وكان من الراسبين ، ومما زاد فى حزنه أن أخاه نجح وقد حصل على البكالوريا من السنة الثالثة ! وتفسير ذلك أن سليما كان قد رسب فى السنة الثالثة وأعاد نصف السنة ، ثم أصيبت قدمه إصابة بالغة فى إحدى

مباريات كرة القدم أقعدته عن الخروج ، ورأى الفرصة سانحة ليستذكر دروس السنة الرابعة وليتقدم لامتحان البكالوريا من منازلهم ، فراح يستذكر ، وأسعد يعاونه ويشرح له ما غمض عليه . كانت مغامرة قوبلت بالاستخفاف من الجميع ، ودفع حسن الرسوم حتى لا يغضب ابنه ، وظهرت النتيجة فإذا المغامرة تفوز ، وإذا بالمضمون يفشل . كان حظ أسعد عاثراً ، لم يساعده مرة ، بل يتآمر عليه فى كل مرة . وذاع نبأ رسوب أسعد فخيمت على الدار سحائب من حزن ، فلو أن سليما هو الذى رسب لكان الأمر طبيعيا ، ولما ساد البيت وجوم . ونزل بأمينة هم ثقيل ، فإن حزن ابنها يحز فى نفسها وتحس له ألما ، فهى تشفق عليه من ذلك الحزن وما كانت تحب له أن يتجرع الكأس المرة . وأقبلت الجدة تضرب كفا بكف وتقول فى أسى :

— مسكين بخته سيىء ، صعبان على قهرته .

وجاءت زكية باسرة الوجه وقالت فى مرارة :

— يا خسارة تعبه .

ودخل أسعد مكتئبا ، وحاول أن يكظم ما به ، ولكنه لما رأى أنه لا يستطيع أن يغالب دموعه ، بكى وأجهش بالبكاء ، ثم ارتمى على كنبة قريبة ينهنه فى عصبية . وأحست أمينة والجدة يدا قوية تهصر قلبيهما ، ولم تطق الجدة أن ترى بكاءه ، فانقبض صدرها وأسرعت إليه تربت على كتفه :

— كفى يا أسعد .

وهرعت إليه زكية وقالت :

— ما هذا البكاء يا أسعد ؟ أنت رجل والرجال لا يبكون .

وظلت أمينة صامتة وقلبها يدمى من الألم ، ودخل سليم وجلس مطرقا فهو يشعر بحزن لرسوب أخيه ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عن حزنه ، فلو أنه

رسب لخفف ذلك من حزن أخيه ، أما أن ينجح وهو لا يستحق ، ويرسب أسعد وهو أجدر منه بالنجاح ، فهذا ما يغيظ . وأطل مصطفى برأسه ورأى تلبد الجو ففر من المكان .

انخرط أسعد فى بكائه ، واستمرت الجدة وزكية فى توسلاتهما ، وأمينة وسليم فى إطراقهما ، ودلف حسن إلى الغرفة فوقع بصره على أسعد يبكى فانقبض لحزنه ، وساءه تألمه وفشله المرير .

وتمالك عواطفه فقال فى صوت رقيق :

ـــ قم يا أسعد .

ولكن أسعد ظل فى بكائه ، فقالت زكية فى توسل :

ـــ كفى يا أسعد من أجل أبيك .

وقالت الجدة :

ـــ كفى وقم ، صحتك أحسن من مئة شهادة ، ماذا ستفعل بالشهادة ! الدكان موجود .

ومد حسن يده وجذب ابنه من كتفه وقال :

ـــ قم واغسل وجهك .

فنهض أسعد وقام إلى الحوض وأمينة خلفه ، وقلبها مكتئب حزين .

وأحاط حسن ابنه بعنايته ، فأخذ يحادثه فى ود ، ويبدى له ضروب الحنان ، وفى العصر خرج معه ليرفه عنه .

وجلس مصطفى أمام الباب وحيدا ، فإن الرفاق لم يحضروا ذلك اليوم مراعاة لشعور أسعد ، وأقبل لياهو وجلس بجواره وقال له :

ـــ مضت مدة كبيرة لم أرك فيها .

فقال مصطفى فى تلعثم :

ــ كنت مشغولا .

فابتسم لياهو وقال :

ــ فى اللعب ؟

فابتسم مصطفى فى ارتباك ولم ينبس بكلمة ، وقال لياهو :

ــ لم لا تزورنا الآن ، إن أبى سأل عنك أكثر من مرة .

فاضطرب مصطفى وخشى أن يكونوا قد فطنوا إلى أنه امتنع عن زيارتهم عقب خطوبة راشيل ، وأراد أن يوجد مبررا لعدم زيارتهم ، فقال فى صوت متهدج ، وقد احمر وجهه :

ــ إنكم مشغولون .

ــ فيم ؟

ــ زواج أختك .

فابتسم لياهو فى مرارة وقال :

ــ انتهى كل شىء اليوم .

فخفق قلب مصطفى ، وتفصد العرق منه ، وشعر بارتباك وحيرة وقال فى صوت مضطرب خفيض :

ــ دخلت ؟

ــ فسخت خطبتها ، لم يعجب الخطيب راشيل .

وأطرق مصطفى ، واختلطت عليه أحاسيسه ، وهو لا يدرى أأحزنه النبأ أم أحس له راحة . لم يكن ما يحسه بسيطا ، إذ اجتمعت فى صدره أحاسيس متباينة تلاطمت وتصارعت ، فهو يحس انشراحا ، ويحس رهبة ، ويحس راحة ، كأنما ضوابط أحاسيسه قد سابت ، فانطلقت جميعها طليقة تتمازج وتتمازج لا تستقر ولا تهدأ . وأراد أن يمد فى حبل الحديث فقال :

— ولكنه شاب وسيم .

— اتضح أن راتبه ضئيل ، لا يكفى لتكوين أسرة .

— بالوفاق تتكون الأسر .

— لا يا حبيبى ، بالفلوس .

— لقد أحزن ذلك أختك ولا ريب .

فغمغم لياهو :

— طبعا ، صرفت جنيهات .

— أهى الفلوس كل شىء ؟!

— وهل الدنيا إلا الفلوس ؟ لو كانت راشيل غنية لوجدت ألف خطيب .

واستمر لياهو يلقى محاضرة عن قدرة المال وسحره ، ومصطفى ينصت إليه مرة ، ويشرد بذهنه مرات ، وانصرف لياهو أخيرا ، وبقى مصطفى يرقب الشقة . ولمح راشيل ، وخيل إليه أنها فى ضيق فاهتز قلبه واضطرب ، واستمر يتبعها ببصره وهو واجم ، ولمحها مقبلة نحو الشرفة ، فأحس رهبة ورعدة تسرى فى بدنه ، ولم يستطع أن يبقى فى مكانه ، فهو لا يحتمل أن يرى حزنها ، فنهض من على مقعده كمن لدغته أفعى ، وفر كالمذعور .

٦٥

مصطفى يرقب شقة راشيل ، ويود لو يراها ، فهو يحس الآن أنها عادت له . فسخت خطوبتها وانتهى الأمر ، فما الذى يحول بينه وبينها ؟ أصبح من حقه أن يصل ما انقطع بينهما ، وأصبح له أن يقابلها وأن ينعم بقربها . وهو يحس أنها ستبثه شجونها وتشكو له ميل بختها ، وهو يقدر أن ذلك سيهزه ويحز

فى نفسه ، ولكن حديثها مهما كان يشيع فى نفسه غبطة ، فهو يحب أن ينصت إليها ، وأن تطول اللحظات التى يقضيها معها .

ومر نصف النهار ولم تلح راشيل لعينيه ، وفكر فى أنها قد تكون قد عادت إلى العمل فلم يستطع أن يقاوم رغبته فى الذهاب إليها ، فركب الترام وراحت تتخايل له رؤى وأحلام ، وراح يدير فى نفسه حوارا بينه وبينها يعبر لها فيه عن حزنه لفسخ خطوبتها ، ويتمنى لها صادقا أن يعوضها الله خيرا . وبلغ الترام ميدان باب الخلق فأفاق إلى نفسه ، وهبط منه وقلبه يخفق فهو لا يدرى كيف يقابلها بعد ما حاق بها وخدش كبرياءها،وهو لا يدرى ما يقول لها إذا صافحها والتقت العين بالعين ، إن الكلمات المنمقة التى راح يزوقها فى الترام تبخرت ولم يعد يذكر منها شيئا .

وسار يتلفت يمنة ويسرة ينقب عنها ، فقد حان ميعاد انصرافها للغداء ؛ وكان يخشى أن يقابلها فجأة ، فهو لا يعرف ما يفعل لو وجد نفسه أمامها وجها لوجه على غير استعداد .

ووصل إلى الدكان ولمحها خارجة منه ففر إلى الطوار الآخر وجعل يرقبها من بعيد وقد قامت فى نفسه معركة بين الإقبال والإحجام .

انطلقت فى طريقها دون أن تلتفت واتخذت سمتها إلى محطة الترام ، وفكر فى أن يسبقها إليها ولكن ساقيه خذلتاه ، فهو لا يجد فى نفسه الشجاعة ليواجهها . ماذا يقول لها ؟! هأنذا جئت بعد أن فسخت خطوبتك . لا ، إنه لن يقابلها الآن وتمهل فى سيره ، وعيناه عليها لا تختلجان ، ها هى ذى قد بلغت محطة الترام ، وها هو ذا الترام قد أقبل ، فليسر وليقفز فيه ، وليقابلها عند محطة الهبوط ، وسيظن أنها مقابلة لم يسبقها تدبير ، ولكنه لم يسترح إلى ذلك الرأى ، أو لعل خجله الموروث جعله يحجم ، فانطلق الترام براشيل ،

وذهب هو إلى المحطة ينتظر قدوم ترام آخر .

وعاد مصطفى إلى البيت وهرع إلى الشباك الذى يطل على شرفتها ولكنه لم يجدها فأحس انقباضا ، فما بالها أصبحت تفر من الشرفة وما كانت تتركها أبدا ؟ إنها لا تريد أن تراه .. وما خطر له هذا الخاطر حتى شعر بدمه الثائر يتدفق إلى رأسه . إنها لا تريد أن تراه ، لم ؟ وما له ضلع فى فسخ خطوبتها ؛ ولم يخطر له ألبتة أنها تفر منه لأنها تحس خجلا .

وانقضى النهار ومصطفى فى ضيق ، يريد أن يراها وأن يسعد بقربها لحظات . وما حان موعد رجوعها فى الليل حتى خرج إلى الميدان ، وأخذ ينتظر على محطة الترام فى قلق وهبطت راشيل فجمع أطراف شجاعته وتقدم منها وقلبه يقفز فى صدره ، وما إن أصبح منها على قيد خطوات حتى مد لها يده ولم ينبس بكلمة ، ومدت يدها وصافحته فى حرارة ، وقالت فى نبرات كسيرة هزت أوتار قلبه :

ــ أهلا مصطفى .

وانطلقا صامتين ، وإن كانت نفساهما فى حركة دائبة ، وكانت راشيل تحس رغبة فى أن تتحدث وتفضى بمكنون نفسها لعل ذلك ينفس عن آلامها . كانت حانقة ، وكان غضبها يأكل صدرها ، وكبت ذلك الغضب يزيد فى عذابها ، كانت تريد أن تتكلم ، أن تشكو ، أن تبكى لترفع تلك الأحاسيس القاسية التى جثمت على صدرها ، وهمت بأن تتكلم ولكن إغراق مصطفى فى الصمت جعلها تكبح جماح نفسها . ما بال ذلك الشاب يسير إلى جوارها كالمأخوذ ، يكتفى بأن ينظر إليها بين لحظة وأخرى لا يثرثر ولا يتحدث ؟ لو أنه أخذ بأطراف الحديث معها لأمكنها أن تنفذ بلباقة إلى حديث خطبتها وفسخها ، وأن ترفع عن كاهلها عبء الأحاسيس المذخورة التى تضنيها .

وراح مصطفى يفكر فى أن يتكلم ، فى أن يواسيها ، فى أن يشاركها بعض أحزانها ؛ ولكنه خشى أن يجرح شعورها فالتزم الصمت ، فلعلها لا تريد أن يخوض فى ذلك الموضوع ، أو لعلها تريد أن تدفن آلامها فى أعماق نفسها .

واستمرا فى صمتهما ، وجعلا يضربان فى الشارع المظلم الهادئ فلا يبلغ آذانهما إلا وقع أقدامهما ، وهمت راشيل بالحديث أكثر من مرة ولكنها كانت تحبس الكلمات التى كانت تتذبذب على طرف لسانها ، ووصلا إلى البيت ومد مصطفى يده ليصافحها ، ولكنها أخذت يده بين يديها مدة وقالت وهى تنصرف :

ـــ انتظر . سأعود إليك حالا .

ووقف مصطفى ينتظر وهو يضيق بصمته ، إنها حزينة ، وهى فى حاجة إلى من يواسيها ويرفه عنها ، فماله يبخل بكلمات قد تخفف من آلامها . إنه لا يبخل ، ويتمنى أن يحدثها أبد الدهر ولكن لسانه يخذله . لو أن لسانه ترجم عما يحسه قلبه لشعرت ببعض الراحة والعزاء ، سيكافح خجله ويقهره ، سيحدثها عن خطيبها الذى فر ، سيحدثها حديثا يرفه عنها ويعيد إليها ثقتها بنفسها ، تلك الثقة التى يلوح أنها فقدتها بعد أن جرحت ذلك الجرح الذى أدمى كبرياءها ، ونال من كرامتها .

وعادت راشيل وقد تهدل شعرها ، وارتدت ثوبا ورديا قصيرا يكشف عن ذراعيها البضتين ، وساقيها العاجيتين ، وانبعثت منها رائحة نفاذة حلوة ملأت خياشيمه ، ورفع نظره إليها فراعه حسنها ، وهم أن يظهر إعجابه بها ، وأن يقول لها :

ـــ ما أروع جمالك الليلة !

ولكن الكلمات ماتت على شفتيه قبل أن تولد ، ولو أنه لم يصرح بإعجابه

إلا أنها رأت فى عينيه أثر جمالها فى نفسه . وسارت وسار بجوارها ، وأخذا يطوفان شوارع الحى المظلمة ، وفى شارع هادئ وقفا تحت مصباح خافت ، وسقط الضوء الباهت على وجهيهما ، فزاد من حسنهما ، وتطلع كل منهما إلى رفيقه فأحس أبخرة من النشوة تنتشر فى بدنه ، ومرت دقائق وهما فى صمتهما المعبر ، وفكرت راشيل فى أن تضمه إليها وأن تغمره بقبلاتها ، ولكن ذلك الشاب الصغير كان يشيع فى نفسها رهبة أحيانا ، فاكتفت بأن مدت يدها وضغطت على يده ، ثم استأنفا سيرهما . وخرجا إلى الميدان فكأنما هبا من حلم لذيذ ، والتفتت راشيل إليه وقالت :

— أعلمت سبب فسخ خطبتى ؟

فاحمر وجهه وقال فى صوت حبيس خرج كحشرجة رجل فى النزع الأخير :

— لا .

— لم نكن نعرفه ، وقد قدمه إلينا صديق ، وفاتحنا فى أمر الزواج ، فوافق أبى ، وأقمت حفلة صرفت عليها دم قلبى ، ومرت أيام الخطبة ولم يبق على الزفاف إلا أيام ، فلمست منه تبدلا ، فبعد أن كان يرعانى ويحوطنى بحبه راح يعاملنى فى غلظة وجفاف ، وفى ليلة وجه إلى انتقادات مريرة أمام أهلى ، فلم أشعر إلا وأنا أخلع الخاتم وألقى به فى وجهه ، لم يثر ولم يغضب وكأنما استراح إلى فعلتى ، فتناوله وانصرف ، كان سافلا ، صرفت عليه كل ما ادخرت ، صرفت عليه دم قلبى .

وأطرق مصطفى وقد غامت صفحة وجهه وانبعث من جوفه صوت يصيح : « أنت السبب فلو أنك تمنعت ولم تتركى نفسك له يعبث بك كما يشتهى ، لما عافتك نفسه ولما فكر فى الفرار » وصك الصوت أذنيه فى

وضوح ، وتذبذب على لسانه ، وأراد أن يقذفها به ، ولكنه لم يجد فى نفسه قوة على التصريح بما يدوى فى جوفه ، فاستمر فى صمته ، وكانا قد بلغا الدار ، فافترقا وصوتها يدوى فى أذنيه : « صرفت عليه دم قلبى ، صرفت عليه دم قلبى » فيحس انقباضا ، فهو شاعرى يحتقر الماديات ، ولا يحب أن يقام لها أى وزن .

٦٦

مالت الشمس للغروب ، وعاد الرفاق من ملعب كرة القدم يسيرون جماعات يتحدثون ، وكان سليم وفوزى وبعض الرفاق قد بلغوا باب السلاملك الخارجى فجلسوا على أريكة البواب ، وكان أسعد وعبد الرحمن وعلى مقبلين متمهلين ، فإن من عادة أسعد أن يسير الهوينى ، ويقف وهو يتحدث ثم يستأنف سيره فى بطء شديد ، فكان أسعد ورفاقه آخر من يصل دائما إلى الملعب ، وآخر من يصل إلى البيت .

ورنت ضحكات على فقد كان عبد الرحمن يروى بعض نوادر فهمى التافهة فى سخرية لاذعة ، وتلفت على فوقع بصره على شابين يغازلان فتاة ، وكانا شابين غريبين ، فقال على وهو يضحك ضحكته الفارغة الطليقة :

— والله عال ، خروفان غريبان يعتديان على نعاج الحى .

وبلغ صوته آذان الشابين ، فثار أحدهما وسب أم على وذكرها بسوء ، فتغير دم على فإن أمه قد ماتت ولا يحتمل أن يذكرها أحد بسفاهة ، فاندفع صوبهما وهو غضبان ، وقبل أن ينبس بكلمة عاجله أحدهما بلكمة قوية ، فاختل توازنه وسقط على الأرض ، ولأول مرة لم تنطلق ضحكاته الفضية ،

بل انطلق السباب من فيه فى ثورة وحنق ، ورأى أسعد ما حل بعلى ، فلم يفكر ولم يتدبر ، بل هجم على الشاب المعتدى وراح يوسعه ضربا ، ورأى بعض أصحاب الشاب المعتدى هجوم أسعد عليه ، فأسرعوا لنجدته وكانوا يقفون فى منعطف قريب ، وبلغ نبأ القتال أصحاب أسعد الجالسين أمام باب السلاملك الخارجى فهرعوا ليروا الخبر ، فلما وصلوا إلى هناك وجدوا شبانا ملتفين حول أسعد ، وعلى وعبد الرحمن يكيلان لهم الضربات فانقضوا عليهم ، وراحوا يوسعونهم ضربا ، واستمرت المعركة ، واستمر التحام أسعد والشاب المعتدى ، وفتحت الشبابيك ، وخرج الناس من البيوت يشاهدون المعركة المحتدمة ، ولم يجرؤ أحد أن يقتحم المعركة ليفض النزاع ، فقد كانت معركة حامية ، كتلك المعارك التى كانوا يشاهدونها فى السينما ، فاللكمات تتبادل فى سرعة ، والركلات تضرب فى قسوة ، والأجسام تسقط على الأرض ثم لا تلبث أن تنتصب فى خفة لتستأنف القتال ، وراح فوزى الوديع الهادئ يجول ويصول ، بينا انزوى فهمى وأخذ يتمسح بالحيطان .

وسالت الدماء وود كل من الفريقين أن يتدخل أحد ليفض ذلك القتال ، وما إن جاء فريد وحجز أسعد عن خصمه حتى هدأت المعركة ، وراح فريد يهرب الشبان الأغراب فقد كان يعرفهم فانسلوا فى خفة ، فعجب أسعد لذلك ، فكيف يفرون والدماء تسيل منهم وقد أصيبوا إصابات بالغة ؟!

واقترب مصطفى من أسعد ، فرأى فى كتفه دماء فقال له فى فزع :

— ما هذا الدم ؟

— إنها دماء سالت من أسنانه .

— وما نفعل الآن ؟

ـــ اذهب وأحضر لى جلبابا آخر .

فأسرع مصطفى إلى الدار وأحضر جلبابا ، ودخل أسعد السلاملك وخلع جلبابه ولبس الجلباب النظيف ، وما انقضت لحظات حتى نضح الجلباب النظيف بالدم ، فصاح فوزى :

ـــ أنت مجروح .

فقال أسعد فى ثقة :

ـــ أبدا .

ـــ أنت مجروح فقد نضح جلبابك بدمك الذى يسيل .

وتقدم فوزى ورفع جلباب أسعد وقميصه ، فرأى جرحا كبيرا يترشرش الدم منه ، فقال :

ـــ طعنت بسكين .

فساد المكان وجوم ، وارتمى أسعد على كنبة ، وأسرع مصطفى ليحضر قطنا . وصاح فوزى :

ـــ كيف طعنت ولم تحس ؟!

ـــ لم أحس شيئا ، كان فى يده منديل يضربنى به .

ـــ كان يلف مطواة فى المنديل .

ـــ كيف تطعن بمطواة ولا تحس ، هذا عجيب !

وبلغ من فى الدار أن أسعد طعن بسكين ، فساد النسوة فزع عظيم ، وهرعت الجدة إلى السلاملك فى رعب شديد ، ووقفت زكية فى الشباك تستفسر فى قلق من سليم عما جرى ، ولأول مرة اختلطت الجدة بالأولاد وراحت تسأل فى لهفة :

ـــ مالك يا أسعد ، مالك ؟

فقال لها فوزى :

ــ اطمئنى ، لا شىء ، جرح بسيط .

وسار أسعد يتكىء على فوزى ، وأسرع سليم يفسح له الطريق ، وصعد إلى الشقة وفوزى فى صحبته ، ثم تمدد فى الفراش وأخذ فوزى ينظف له الجرح ، فقد كان طالبا بكلية الطب .

وأغمى على أسعد فهرع سليم وأحضر زجاجة الكولونيا ، ووقفت أمينة خلف الباب وقلبها يضطرب ، وأخذ فوزى يعتنى به حتى أقبل حسن . فلما علم بما جرى هرول إلى أسعد وتطلع إليه وهو يئن ويتألم فى سريره ، فلاح فى محياه القلق ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة ، ولمح فوزى قلقه فقال :

ــ أسعد بخير يا عمى ، جرح بسيط .

وانسل حسن من الحجرة مشغول البال ، وحاول أن يطمئن نفسه ، ولكنه كان يحس قلقا واضطرابا ، إن ابنه طعن بسكين فكيف يتركه هكذا حتى الصباح ؟ فقام ودخل على ابنه ، فرأى فوزى بجواره يرعاه ، فقال فى صوت حاول أن يبدو هادئا :

ــ أليس من الأفضل أن نعرضه على طبيب الآن ؟

فقال فوزى فى ثقة :

ــ لا ضرورة لذلك ، نعرضه على طبيب فى الصباح إن لزم الأمر .

ولم يرتح الأب إلى ذلك ، وخرج وهو قلق ولكنه لم يصر على رأيه حتى لا يجرح كبرياء فوزى .

وغفا أسعد قرب منتصف الليل فانسحب فوزى فى هدوء ، ووعد أن يعود فى الصباح ، وظل حسن ساهرا لا تغمض له عين ، يرجو أن يطلع النهار سريعا ليعرض ابنه على طبيب .

وانقضى الليل ، وما إن لاح الخيط الأبيض فى الأفق البعيد حتى طلب من ابنه أن يرتدى ثيابه ليخرج مع ممدوح ليعرض نفسه على الطبيب . ولبس أسعد بذلته وقبل أن يخرج جاء فوزى ، فخرجوا ثلاثتهم يقصدون جراحا معروفا .

وعاد أسعد بعد أن خيط الطبيب جرحه ، ولزم البيت ، ومر يومان ، وفى صبيحة اليوم الثالث كان يجلس بالقرب من شباك ، وكانت الخادم تغسل الشبابيك ، فسقط الماء على عابر طريق ، فشتم وسب ، وبلغ السباب مسامع أسعد ، فثار دمه ، وهب من جلسته دون وعى ، وهبط فى الدرج مندفعا ليحطم وجه ذلك الرجل البذىء ، ولكنه تذكر السلك الذى كان فى جسمه لا يزال ، فكظم غيظه ، وعاد أدراجه وهو يعجب فى نفسه لدفعته ، فليست هذه أول مرة يجرح فيها ، فقد سبق أن شدخ رأسه فى مشاجرة لا ناقة له فيها ولا جمل .

٦٧

مرضت راشيل ولزمت الفراش ، وأخذت صور الماضى تتتابع فى مخيلتها تتابع شريط سينمائى ، وراحت تفكر فى مصطفى وتجتر ذكرياتها معه فتعجب لنفسها ، فقد عرفته من سنوات ، وكانت تقابله كل ليلة متجددة الأمل ، ترجو أن يخرج عن صمته ، وأن يبثها حبه ، وأن يعرض عليها قلبه ؛ ولكن السنوات ولت وما حقق مصطفى الأمل ، فما نطق بكلمة حب ، وما فعل ما يفعله المحب ، كانت تتمنى أن يضمها إليه ، وأن يلثمها فى شوق ، وأن تحس أنفاسه الحارة تهب على وجهها .

وراحت تسائل نفسها عما يربطها بذلك الشاب ، عرفت قبله شبانا وما دامت علاقتها بأحدهم كما دامت علاقتها به . كانت تعرفهم شهرا أو بعض شهر ثم ينتهى كل شىء ، أما مصطفى فقد دامت علاقتها به سنوات ، وما تسرب الملل إلى نفسها ، إنها تحس أن ما يربطها به يختلف عما يربطها بالآخرين ، فإن نظراته الوامقة الصادقة تنفذ إلى قلبها ، وإن وداعته تأسرها ، وإن صمته وإن كان يخنقها إلا أنه يستولى عليها ويجعلها تتعلق به ، إن كل قوته فى صمته ، فلو أنه ثرثر كما يثرثر الآخرون ، ولو أنه عرض قلبه كما يفعلون ، ولو أنه أبدى الخضوع والخنوع ، لانتهى كما ينتهون ، ولما دامت صلته بها شهرا أو بعض شهر .

كانت تشعر بأن ذلك الشاب الصغير يأسرها ويستولى عليها ، وكانت تريد أن تهرب من ذلك الأسر ، وأن تحطم القيد الذى يريد أن يشدها به إليه . إنه يربطها إليه بالحرمان فستظل متعلقة به ما دام بعيدا عن حوزتها ، أما إذا نالته فستهدأ نفسها ويصبح شابا كالآخرين الذين نعمت بهم سويعات ثم غابوا من حياتها كما يغيب عابر الطريق فى زحمة الناس .

إنها تحس إليه حنينا وظمأ شديدا ، فراحت تتخيل نفسها وهى تضمه وتقبله ، فلم تطفىء التخيلات ظمأها ، واشتدت رغبتها فيه فعزمت على أن تدعوه إليها .

ودعت أختها الصغيرة فلما جاءت قالت لها :

— اذهبى ونادى مصطفى .

فخرجت الفتاة ورأت مصطفى جالسا أمام البيت فاقتربت منه وقالت :

— كلم أختى .

فأحس مصطفى دمه يفور ويتدفق إلى وجهه ، فنهض فى صمت ، وسار

خلف الفتاة كما يسير النائم المسلوب الإرادة .

ودلف من الباب فرأى الأب والأم والأولاد جالسين فى الردهة ، فسلم فى خجل وتناول كرسيا وجلس ، وتحدث الأب ومصطفى حديثا عاديا فما إن بلغ صوته أذنى راشيل حتى هتفت فى صوت واضح :

ـــ مصطفى .. مصطفى .

فشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه ، وبعرق ساخن يتفصد من جسمه ، وأرهفت حواسه ، واتسعت حدقتا عينيه ، فما يفعلون لو خامرهم شك فى علاقته بها ، وما يكون موقفه لو سألوها لم تدعوه ؟! ومرت برهة خالها دهرا ، ولما لم يحرك أحد ساكنا كادت نفسه تهدأ ، ولكن صوتها انبعث ثانية يهتف فى إصرار :

ـــ مصطفى .. مصطفى .. مصطفى !

فأخذ وبان فى وجهه الفزع ، فما بالها لا تتحرز ، وما بالها لا تصبر حتى يدخل ليسألها عن صحتها ! وصاح أبوها فى غضب :

ـــ ماذا تريدين ؟

فلم يثنها عن عزمها ، بل قالت فى ثبات :

ـــ أريد أن أكلمه .

فقال له أبوها :

ـــ ادخل وشف ماذا تريد .

فنهض مصطفى ، ودخل غرفة يسودها ظلام شديد ، غرفة لم يدخلها قبل اليوم أبدا ، غرفة نوم راشيل . ولمحها فى الظلام ممددة فى فراشها ، فاتجه إليها ، وما إن لمس حافة الفراش حتى أحس بها تنهض وتطوقه بذراعيها وتقبله فى جنون .

لم يحس مصطفى لتلك القبلات طعما ، فقد كان يخشى أن يدخل عليهما أحد فتكون الفضيحة ، وهو يرتجف من الفضائح ويفر من شبحها . وحاول أن يتخلص من ذراعيها اللتين طوقتاه فى شدة ، ولكنها ظلت متعلقة به تلثمه هنا وهناك .

وتمكن أخيرا أن يعيدها إلى فراشها ، فغمغمت :

— مصطفى .

— نعم ؟

— أريد بعض الأظرف .

— سأحضرها لك الآن .

وانسل من الغرفة يزفر فى اطمئنان ، فقد انقضت حماقتها فى سلام ، فالتفت الأب إليه وقال :

— ماذا تريد ؟

— بعض الأظرف .

وخرج مصطفى يشترى لها الأظرف ، وفى الطريق أخذ يفكر فيما كان ، لقد أحس روعة ما فعلته الآن بعد أن اجتاز الخطر ، ودب فى أوصاله نشاط فراح يوسع الخطا فى طريقه إلى المحل الذى تباع فيه الأظرف .

واشترى الأظرف وهو فرحان ، ولكنه ما لبث أن غاض فرحه ، فقد قفزت إلى ذهنه فكرة أزعجته وقلبت رضاه غضبا ، وأشاعت فى صدره الغيرة مكان الانشراح ، فهى ما طلبت منه هذه الأظرف إلا لتراسل حبيبها ، لترسل إليه رسائلها تحمل نجواها وسخطها على المرض الذى حال بينها وبينه وحرمها الوصال . وضاق صدره بغضبه فهم أن يمزق الأظرف ، فهو لا يطيق أن تسخر منه هذه السخرية المريرة ، ولكن قلبه لم يطاوعه ، لقد طلبت

منه شيئا تافها ، فكيف يبخل عليها بذلك الشيء ؟!

ودخل مصطفى عليها ، ومد لها يده بالأطرف . فجذبته وقبلته قبلة طويلة حارة ، ثم قالت بصوت عال ليصل إلى مسامع أهلها الجالسين فى الردهة :

— متشكرة .

فلم يحر جوابا وترك الغرفة ، ولم يشارك أهلها فى جلستهم بل انسحب فى صمت وهو سكران بخمر القبلة .

وفى اليوم الثانى جلس مصطفى أمام الباب الحديدى ، ففتحت الشرفة وأطلت منها أمها ، فلما رأته نادت :

— مصطفى .

فرفع رأسه إليها فقالت :

— تعال .

فنهض وسار إليها فقالت :

— تعال ادخل .

فاتجه إلى باب البيت وصعد فى الدرج الذى يفصل بين باب البيت وباب الشقة وثبا ، وألفى الباب مفتوحا فدخل ، فقابلته الأم وقادته إلى حيث كانت راشيل وقالت له :

— اجلس مع راشيل حتى أذهب وأحضر لها الدواء .

فجلس وهو يضطرب ، ونظر إلى راشيل فابتسمت له وغمزت بعينها فزاد ذلك من قلقه ، وخرجت الأم ولم يبق فى الشقة إلا مصطفى وراشيل .

ومرت دقائق ساد فيها السكون ، ونظرت راشيل إليه فألفته مغرقا فى صمته ، كان سعيدا لقربه منها ، وكان يكفيه أن يتطلع إليها يمتلىء رضا وغبطة ، أما راشيل فلم تحس ما يحسه ، هى لا تفهم ذلك النوع من الحب ،

ولا تهتم بشبع النفس بقدر ما تهتم بشبع الجسد ، فقالت له فى دلال مشوب بسخرية خفيفة :

— اقترب ولا تخف فلن تنتقل العدوى إليك .

فاقترب بكرسيه منها وقد احمر وجهه ، فأخذت تمرر يدها على شعره الأسود الفاحم ، ثم همت بصدرها وقربت رأسها من رأسه وأخذت تقبله فى اشتهاء ، ثم أعادت رأسها إلى الوسادة وتقلبت فى خفة ، فانحسر عنها الغطاء فبدا فخذها كمخروط من الشمع الناصع البياض .

اندلع فى نفسه لهيب ثورة جامحة كادت ترغمه على أن يرتمى فى أحضانها ، ولكنه أحس أنه سيقع فى شباكها ، ويهوى من علياء سمائه التى تهيم روحه فيها ، أحس فى تلك اللحظة أنه لو لبى نداءها لتقوضت صروح أحلامه ، ولتلوث حبه ، ولانسابت راشيل من يده كما ينساب الماء من بين أصابع القابض عليه . أحس أنها لو نالته لقل اهتمامها به ، وأنه لو نالها لانطفأت نار حبه ، وهو لا يريدها أن تنطفىء ، بل يتمنى أن تظل مشبوبة الأوار . إنه سعيد بذلك الحب ، فخور بطهارته ، راض به كل الرضا ، أفترضى راشيل أن تخضع لذلك الخيال ، سيعمل على أن يرغمها على الرضا به وإن لاقى من نفسه ومن راشيل عنتا أى عنت .

ورمق فخذها العارية فكادت مقاومته تنهار ، ولكنه غض من بصره ، ثم نهض ومد يده وسحب عليها الغطاء .

وأبلت راشيل من مرضها فكانا يختليان فى الشوارع الهادئة التى يلفها الظلام ويتعانقان ، وكان مصطفى يجد فى العناق نهاية ما يتمنى من سعادة ، فهو يشعر بالقبلة ترفعه إلى دنيا مفعمة بالبهجة والغبطة ، أما راشيل فكانت ترى فى القبلة بداية إشباع ذلك الجوع الذى يستبد بها ، ويظل يصرخ حتى

يخمد أنفاسه رجل قادر ، والتصق جسماهما وغابا فى قبلة طويلة ، وودت راشيل لو أشبع مصطفى نهمها تلك الليلة ، ولكن مصطفى اكتفى بضمها إليه لعل قلبها ينصت إلى دقات قلبه الطروب !

وامتلأت نفسه غبطة ، فابتعد عنها وراح ينظر إليها فى اغتباط ، ثم وضع يده فى يدها ، وتحرك ليعود ، فقد ارتوت روحه ، ولكن راشيل تحركت فى ضيق ، فهى تحس نشوة ناقصة ، وساءها أن تعود وفى جسدها ثورة لم تنطفىء ، فعزمت على أن تبدى له رغبتها فى أن تنطلق معه حتى النهاية ، فقالت فى خفر مصطنع :

— رأيت رؤيا أريد أن أقصها عليك ، ولكنى أحس خجلا .

فابتسم وقال :

— وماذا رأيت ؟

فقالت وقد طأطأت رأسها فى حركة تمثيلية ، دون أن يضطرب صوتها أو تبدو فى وجهها بادرة خجل :

— رأيتك نائما بجوارى فى سريرى .

فتدفق الدم حارا فى جسمه ، وأطرق ولم يحرك ساكنا ، وفطنت إلى اضطرابه ، وحزرت ما يعتمل فى صدره من ثورة ، فأرادت أن تهد مقاومته جميعا ، فقالت فى دلال كاد يفقده صوابه :

— أترضى ؟

فاغتصب ابتسامة وظل فى صمته ، ولكن ثورة هائلة نشبت فى صدره : إنه يريد أن يلبى نداءها فيرضى قلبه وجسده ، ولكن روحه تريد أن ترتفع بذلك الحب عن الدنس .

وسار صامتا وهى إلى جواره تضيق بصمته وجموده ، وشعرت برغبتها فى

أن تصفعه ، وأن تصرخ فيه ، وأن تقطع شعره لتنفس عن أحاسيسها التى ضاق بها صدرها ، ولكنها مدت ذراعها ولفتها حوله وضمته إليها فى قوة ، وأخذت تقبله فى حنان .

ووصلا إلى البيت فافترقا ، وانطلق مصطفى يحس ذلك الرضا والفرح اللذين يشعر بهما الناجى من الخطر .

ومرت الليالى والمعركة محتدمة بين الإغراء والمقاومة ، ومصطفى حائر لا يدرى علة صموده ، ويكاد يقنع نفسه بأنه يقاوم فى سبيل بقاء حبه والترفع به عن الدنس ، ولكنه كان يرى أحيانا أن خجله هو الذى يعقله ، فلولا ذلك الخجل لاندفع معها إلى نهاية الشوط . وكان يرى أحيانا أخرى أن حبه الطاهر هو الذى يكبح جماحه ، وسواء أكان يقاوم برضاه ، أم بدافع من خجله أو حبه ، أو بهما جميعا ، فقد صمد لإغرائها ، وأرغمها على أن تستمر علاقتها به .

وجاء يوم الصيام عند الإسرائيليين ، والصيام عندهم امتناع عن الطعام والشراب من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم الثانى ، فصامت راشيل ومرت ساعات النهار بطيئة . كانت تنتقل من مقعد إلى مقعد وقد استولى عليها سأم وملل ، وخرجت إلى الشرفة ، فلمحت مصطفى واقفا ، فقفزت إلى رأسها فكرة ، إن الوقت ينقضى سريعا وهو بجوارها ، فلماذا لا تهبط وتسير معه حتى غروب الشمس ؟ وأعجبتها الفكرة فأشارت إلى مصطفى أن ينتظرها .

وراحا يضربان فى شوارع الحى وقد أخذا بأطراف حديث شهى ، فنسيت جوعها وعطشها ، وانقضى الوقت لطيفا ، ومالت الشمس لتغوص فى الأفق البعيد ، وكانا قد بلغا شارعا مقفرا ، فضمته إليها وجعلت تقبله



وكانا قد بلغا شارعا مقفرا ، فضمته
إليها وجعلت تقبله لتسلى صيامها

لتسلى صيامها !

٦٨

وقف مصطفى أمام المرآة يسوى هندامه ويتأهب للخروج للقاء راشيل ، فلم يبق على ميعاد أوبتها إلا ساعة ، ومرت الجدة به وهو يمشط شعره فقالت له :

ـــ اذهب يا مصطفى لتطل على بنت عمك فتحية وقل لهم إنى لم أستطع زيارتها اليوم لأنى تعبانة .

ـــ غدا أذهب .

ـــ اذهب الآن من أجلى .

فأطرق مصطفى قليلا ، وراح يفكر ، فهو لا يحب أن يرفض للجدة طلبا . وهو يستطيع أن يذهب ثم يعود إلى الميدان سريعا قبل عودة راشيل ، فأمامه فسحة من الوقت فقال :

ـــ سأذهب .

وانطلق إلى بيت عمه أحمد ليعود فتحية ، أصغر بنات عمه ، وتكبر أخته زكية قليلا ، وكانت تزور البيت الكبير كثيرا لتلعب مع الأولاد ، وتمضى عند الجدة أياما ، وكانت تلك الأيام أحب الأيام عندها فهى تتمكن فيها من الهرب من المدرسة التى كانت تبغضها كل البغض .

وكان مصطفى كثيرا ما ينهرها ، فقد كانت تضايقه بشقاوتها ، وكانت تجرى وراء على وتهتف : « أبو طويلة .. أبو طويلة » فكانت ضحكته الفضية تجلجل ، وما كانت جلجلتها طليقة ، بل كان يشوبها شىء من ضيق ، وكان

مصطفى يفطن إلى ذلك فيكشر فى وجهها ويطردها ، ولكنها كانت تعود فى إصرار وتظل فى هتافها ، فيهم بضربها ولكنه يحجم خشية إغضاب الجدة ، إن هذه الفتاة الشقراء ذات الجفون المحمرة ، كثيرا ما ضايقته حتى إنه كان ينقبض إذا ما رآها فى عصابتها من أولاد الأسرة الشياطين ، فإنهم كانوا يقلبون البيت رأسا على عقب ، وذهب مصطفى لعيادتها إكراما للجدة ، ولولا ذلك لما فكر فيها وما خطرت له على بال ، وبلغ البيت وصعد فى الدرج مهرولا وقد عزم على أن يمكث عندهم دقيقة أو دقيقتين ثم ينصرف ، فالوقت يمر وهو يخشى أن تأتى راشيل وتروح دون أن يراها .

ودخل غرفة فتحية فألفاها خالية من الأثاث إلا من سرير تمددت فيه ، وقد وقفت أمها عند رأسها وفى يدها كوب به سائل ، ووقف أحمد فى وسط الغرفة يصيح :

— دعيها ، إنها لا تود أن تشربه الآن .

فقالت الأم فى أسى :

— انقضى النهار دون أن ينزل فى جوفها شىء .

— دعيها .

فقالت الأم دون أن تلتفت إلى قوله :

— قومى يا فتحية واشربى .

فصاح الأب فى غضب :

— قلت لك دعيها .

فقالت الأم فى ضيق :

— كيف أدعها ولم ينزل فى جوفها شىء ، إن مصرانها سيجف .

فقال ثائرا :

ــ أوه ! والله لأتركن لكم البيت .

وخرج ثائرا دون أن يلتفت إلى مصطفى أو يسلم عليه ، فأحس مهانة ، وفكر فى أن ينسل خارجا ، ولكن امرأة عمه التفتت إليه وقالت :

ــ اقعد يا بنى .

فتلفت فى اضطراب ، فرأى كرسيا من الخيزران فجلس عليه ، ونظر إلى فتحية الممددة فى سريرها فهاله شحوبها وضعفها ، كان شعرها الأصفر يتهدل على الوسادة ، وبشرتها البيضاء الناصعة يبين فيها الذبول ، كانت الطفلة الشيطانة لا تستطيع الحراك ، فقد كانت فريسة التيفويد .

وأحس مطفى نحوها بالشفقة لأول مرة ، فإن ضعفها قد هز أوتار قلبه . وشعر بأنه لا يستطيع أن ينظر إليها طويلا ، فنهض وانصرف ، وما إن وصل إلى الطريق حتى نسي فتحية ومرضها وراح يفكر فى راشيل ، وأخذ يجد فى السير ليبلغ الميدان ، وأخذ يتلفت بين وقت وآخر إلى مركبات الترام المنطلقة ، وفيما هو يتلفت إذ وقع نظره على راشيل فى الدرجة الأولى وإلى جوارها شاب أسمر يحادثها ويبتسم لها ، فأخذ واضطرب وخفف من خطوه ، وأمسى حزينا تنهش قلبه الغيرة . وأخذ يفكر فيما رأى فازداد حنقه ، فإنه يسوؤه أن يكون ذلك سلوك من يهواها ، وإنه ليحنق على قلبه الذى تعلق بمن لا تفهم معنى الحب ؛ ليته يسلوها .. ينساها .. ينزعها من قلبه .. يدوسها بقدمه ، فهى لا تستحق خفقات قلب مثل قلبه .

وراح يستمد من كبريائه القوة فهو لا يرضى لنفسه الهوان ، سيصدها .. سيهجرها .. سينساها .. سيكبح جماح ذلك القلب المجنون .

وانطلق وفى جوفه نار ، وفى حلقه غصة ، وفى عينيه بوادر دموع ، وبلغ الميدان فلم يبحث عنها ودلف إلى الشارع ، وما قطع فيه خطوات حتى

وجدها مقبلة يشرق وجهها بابتسامة حلوة فاضطرب ، وبان فى وجهه الغضب ، واقتربت منه وقالت :

— أين كنت ؟ بحثت عنك فلم أجدك فانطلقت إلى البيت ، ولكنى لم أستطع المكوث فيه دون أن أراك ، فعدت لأبحث عنك .

فقال فى نبرات حزينة يشوبها اضطراب :

— كنت أزور ابنة عمى ، إنها مريضة .

وأراد أن يقول لها إنه رآها فى الترام برفقة شاب أسمر قذر ، ولكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة ليواجهها بذلك . ومدت يدها وقبضت على يده ، فخمدت ثورته ، وصفت نفسه ، فهو لا يستطيع أن يكرهها وقد سرى حبها فى دمه ، وامتزج بروحه .

* * *

واقترح الشيخ حسنين على الشبان أن يخصصوا يوما فى الأسبوع لإقامة مناظرة أو إلقاء محاضرة ، فوافقوا على الفكرة ، وحددوا لذلك يوم الثلاثاء ، وفى ذلك اليوم التج السلاملك بالزوار ، فقام فوزى وألقى محاضرة عنوانها « فسيولوجية النوم » ثم قامت المناظرة بين الشيخ حسنين وفهمى من جهة وأسعد وسليم من الجهة الأخرى ، واستمرت المناظرة وعلى يضحك من آراء فهمى ، وعبد الرحمن يغمزه ويغمغم :

— خليك عاقل .

فلا يزداد إلا ضحكا . وانتهت المناظرة وأخذت الأصوات ، فلم يهتم المصوتون بالآراء والحجج التى أدلى بها كل فريق ، بل كان اهتمامهم بالأشخاص ، فأغلبهم لا يستلطفون فهمى فانحازوا إلى الجانب الآخر ، فانتصر أسعد وسليم .

وقام مصطفى وألقى محاضرة عن الموسيقا ونشأتها . وما كان يدرى عن الموسيقا شيئا ، ولكنه اختار ذلك الموضوع لأنه وجده فى مجلة من المجلات المدرسية .

وعتمت الدنيا ، فخرج الشبان إلى الشارع ووقفوا يتناقشون ويتبادلون الآراء فى مواضيع متفرقة ، ولمح مصطفى راشيل مقبلة فاضطرب ، وعجب لعودتها مبكرة ، وزاد فى اضطرابه أنها كانت مقبلة نحوهم ، لماذا تسير على ذلك الطوار الذى تكدسوا فوقه ولا تنطلق على الطوار الآخر ؟! أصبحت على بعد خطوات منهم فخفق قلبه ، واستولى عليه ارتباك ، ومرت بهم والفتت إليهم وقالت فى صوت هادئ ثابت :

— السلام عليكم .

فكاد مصطفى يذهل للمباغتة ، فهو لا يصدق ما يسمع ولكنه لم يكن واهما ، فإن الأصوات التى ردت عليها قد صكت أذنيه ، وحركت حفيظته ، وشعر بأحاسيس تتحرك فى صدره تقلقه وتضايقه ، وبان عليه الوجوم ، ولولا الظلام لفطنوا لتغيره .

وانصرف الشبان وبقى مصطفى فى مكانه يفكر فيما فعلته راشيل فيحس امتعاضا ، فهو يحب فى الفتاة الخفر والحياء ، ويمقت الوجه المكشوف حتى فى الرجال ، فما بالك لو كانت صاحبة الوجه العريان حبيبته راشيل ؟ أحس بشعور مقت واستياء ، شعور مقت لنفسه التى تتعلق بفتاة لا تستأهل خفقة قلب ، ليته يبرأ من ذلك الحب . ورأى عقله الفرصة سانحة ليعذب قلبه ، فراح يهتف به : « من أدراك أنها لك ، وليست للجميع ! إنها عشيقة الحى » فثار قلبه ، وبات تلك الليلة نهبا لنوازع الفكر وشوارد الفؤاد .

وأطلت راشيل من شرفتها وهتفت :

— مصطفى ، انتظرنى .

فتبددت أفكاره ، وأخذ قلبه يخفق بشدة كأنما يزهو بانتصاره ، وهبطت راشيل إلى الطريق ، فأسرع إليها وسارا جنبا لجنب ، وقالت :

— هل علمت ؟

— ماذا ؟

— سننتقل غدا إلى شقة أخرى .

فوجم وران عليه حزن عميق ، ولم يجد لسانه فلم ينطق بكلمة ، ولمحت راشيل وجومه وشعرت بانقباضه ، فسرها ذلك وأرضى غرورها ، فابتسمت وقالت :

— لا تحزن ، لن يفرق بيننا شيء ، سأقابلك كل يوم .

فقال مصطفى فى صوت خفيض :

— وأين تسكنون ؟

— شارع قريب من هنا . تعال لترى بيتنا الجديد .

وتركا الشارع الذى كانا يقطعانه معا كل ليلة لأربع سنوات متتاليات ، وانحرفا إلى اليسار فى شارع قصير ، ثم إلى اليسار ثانية ، وما سارا أمتارا حتى انحرفا إلى اليمين ودلفا من شارع ضيق حالك الظلمة ، ليس به مصباح واحد ، ولولا الأنوار الخافتة التى تنبعث من نوافذ الدور لكان من العسير على الضارب فيه أن يجد طريقه .

وانطلقا فى الظلام حتى بلغا الشارع ، فوقفت راشيل أمام بيت قديم وقالت :

— هذه دارنا الجديدة .

وضمته إلى صدرها ، فلف ذراعيه حولها ، وغابا فى قبلة طويلة تحية

للدار الجديدة !

واستمر يقابلها كل ليلة وينطلق معها حتى باب البيت الجديد ، ثم يعود إلى السلاملك يستأنف سهره مع والده وصحبه .

وفى ليلة من الليالى خرج إلى الميدان ليقابلها ، ومرت الساعات ولم تقبل ، فانصرف وهو يحس تبرما وضيقا ، وانتظرها فى الليلة التالية ولكنها لم تأت فتملكه ضيق شديد ، وعزم على أن يذهب لزيارتهم فى الليلة التالية ليقابلها هناك .

خرج قبل موعده الذى اعتاد أن يخرج فيه كل ليلة وطفق يضرب فى الطريق الموصل بين محطة الترام ومنزلها وهو يمنى النفس بلقياها ، ومر ميعاد عودتها ولم يلمحها ، فسار بقلب واجف . ودلف من الباب وقد أرهفت حواسه ، وصعد فى الدرج وهو مضطرب حتى إذا وصل إلى الشقة وقف أمام بابها مدة يفكر فى أن يعود أدراجه ، وهم بالعودة ولكن قلبه لم يطاوعه ، فاستمر فى مكانه ودب فيه وهن ، وسرت فى بدنه قشعريرة ، فجعل يتلفت فى الظلام مذعورا .

وأخذ يجمع رباطة جأشه ، حتى إذا سكن روعه قليلا ، رفع يده وطرق الباب فى رفق ، ولكن الطرقات دوت فى أذنيه دويا . فازداد قلقه وفكر فى أن يفر ، ولكن الباب فتح ، فتقدم خطوة فوقع نور المصباح على وجهه ، فقال له لياهو مرحبا :

— أهلا مصطفى ، تفضل .

فتقدم وقد هدأت نفسه قليلا ، وأدار عينيه فى الجالسين فلم يجد راشيل فانقبض ، وكان عليه أن يبدو هادئا فقال وقد اغتصب ابتسامة :

— منزل مبارك .

فقالت الأم :

ـــ الله يبارك فيك ، تفضل .

فجلس على أريكة من الخشب ، وحاول أن يتكلم ولكنه لم يجد ما يقوله ، فلزم الصمت ، وقال الأب فى تساؤله :

ـــ أين راشيل ؟

فشعر مصطفى بالدم يتدفق حارا إلى رأسه ، فما بال أبيها يسأل عنها الآن بعد أن رآه ؟ ترى أيود أن يلمح إلى أنه قد حزر مجيئه وأنه ما جاء إلا لرؤيتها ؟!

وقالت الأم فى بساطة :

ـــ عند الجيران .

فقال الأب فى ثورة مفتعلة :

ـــ وماذا تفعل هناك ؟

ـــ ترفه عن نفسها ، إنها حبيسة طول النهار .

وأطرق مصطفى ، وأحس لكلامها لذعا ، إنه يخمن ما تفعل هناك ، إنها تجرى وراء ابن الجيران ولاشك ، وشعر كأن يدا تضغط على رقبته ، وشعر بالتبدل الذى طرأ على سحنته فخشى أن يفتضح أمره ، فانسل إلى الشرفة القريبه منه ، وجعل يملأ رئتيه بالهواء لعل نفسه تهدأ ، ومد بصره إلى الشقة المواجهة للشرفة فاضطرب وخفق قلبه ، وأحس دوارا يستولى عليه . رآها جالسة تضحك وأمامها شاب بدين قصير فى جلباب أبيض ، فنهشت الغيرة قلبه ، وأحس نفسه تدمى ، وشعر برغبة فى أن يفر ، وتحرك ليغادر الشرفة ، ولكن لياهو وقف إلى جواره وهتف :

ـــ راشيل .. راشيل .

فجاءت إلى الشرفة تهرول ، فطأطأ مصطفى بصره ، ولم يخفق قلبه ،

وشعر به هامدا ، ورفع رأسه فالتقت عيناهما فابتسمت ، وظل مصطفى فى عبوسه وكان الألم يعذبه ، وزاد فى ألمه أنه أحس تلك اللحظة ضآلة نفسه وهوانها ، وهم بأن ينصرف ولكن بلغ أذنيه صوتها وهى تحييه :

ــ مساء الخير يا مصطفى .

فغمغم فى صوت خفيض :

ــ مساء الخير .

وقال لها لياهو :

ــ تعالى فإن أباك يسأل عنك .

ــ آتية حالا .

واستأذن مصطفى فى الانصراف ، ولكن لياهو حاول أن يبقيه فاعتذر ، وسلم على الموجودين وفتح الباب ليخرج فإذا براشيل أمامه فاضطرب وغض من بصره ، وانفلت من جوارها وجعل يهبط فى الدرج متمهلا ، وقرع سمعه صوتها وهى تقول لأهلها .

ــ سأنزل لأتمشى قليلا .

فانقبض ، وحاول أن يهبط مسرعا ليفر منها ، ولكن الظلام الشديد عاقه ، وما هى إلا ثوان حتى أحس يدها على كتفه ، فانتفض من الغيظ ، وأراد أن يصرخ فيها أن تبتعد عنه ، ولكنه لم يستطع ، وظل غارقا فى صمته ، وبلغا الشارع فقالت له :

ــ لنا جارة لطيفة دعتنى لزيارتها فذهبت ، وقابلت ابنها هناك فجعل يتودد إلى فلم أرتح إليه ، إنه شاب سمج .

فثار دمه فى عروقه ، وشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، وعلى الرغم من الظلام الدامس فقد أحست اضطرابه وارتيابه ، وأرادت أن تتودد إليه فالتصقت به

ومالت برأسها عليه فى دلال ، ولكنه استمر منطويا على نفسه يجتر آلامه فى صبر ، واهتز قلبها لصمته ، فلفت ذراعيها حوله وأخذت تقبله ، فهدأت نفسه وتبخر حزنه فراح يبادلها القبل ، وقالت له :

— اقترب عيدكم ، فماذا ستهدى إلى ؟

— ما تودين .

— « إشارب » .

سأحضره إليك غدا .

— حقا ؟

— غدا .

ووقف عند محطة الترام ينتظر ، وفى يده المنديل المشجر الذى اشتراه لها ، وكان على يقين أنها ستقبل فى ميعادها ، ولكن حان وقت أوبتها ولم تعد ، فاغتاظ ، وقفزت إلى رأسه فكرة . إنها تلهو الآن مع جارها الجديد ، فاربد وجهه وثارت نفسه ، فعاد إلى البيت يستولى عليه غضب شديد .

وفكر فى أن يدخل إلى السلاملك يشارك أباه وصحبه سهرتهم ولكنه وجد صدره منقبضا ، فراح يقطع الطوار المقابل للباب الحديدى صاعدا هابطا . وانقضت ساعة وهو فى ضيقه . ولمحها أخيرا تدلف من الباب الحديدى وتتقدم إلى السلاملك فى خطا ثابتة ، فخفق قلبه وتملكه رعب شديد ، وجرى وراءها وهتف فى صوت خافت خشية أن يصل إلى مسامع الساهرين فى السلاملك :

— راشيل .. راشيل .

فالتفتت خلفها ولمحته فعادت أدراجها ، فقال لها وقلبه يدق فى جوفه دقا عنيفا :

ـــ إلى أين ؟

ـــ أسأل عنك .

ـــ تسألين عنى ، وكيف ؟

ـــ أمر بسيط . مصطفى هنا ؟ أخي يطلب منه الروايات التى قال له عنها .

ـــ يا سلام !

ـــ وماذا كان يحدث لو سألت عنك ؟

فقال فى سخرية :

ـــ لا شىء .

وكانا قد ابتعدا من الباب الحديدى ، فقالت له :

ـــ أين « الإشارب » ؟

فدفعه إليها فنشرته وأخذت تتطلع إليه فى إعجاب وقالت :

ـــ بديع ، متشكرة .

ومدت يدها وضغطت على يده ، وانطلقا إلى بيتها ، ودلفا من بابه ، فإذا الظلام حالك ، فضمته إليها ، ولف ذراعيه حولها يعتصرها ويقبلها ، وقرر أن ينطلق معها إلى النهاية .

وارتقيا الدرج وهما ملتصقان ، يبغيان الوصول إلى السطح ، ولكن فتح باب ، وصاح صوت نسوى :

ـــ من ؟

ففر مصطفى كأرنب مذعورة ، وسمع فى فراره مشادة بين راشيل وإحدى النساء فأمعن فى الفرار ، وبلغ داره فجعل يفكر بما جرى فأحس راحة ، لقد قاوم إغراءها سنين ليبقى جذوة اشتهائها مشتعلة ، وكاد الليلة فى

لحظة من لحظات ضعفه أن يطفىء تلك الجذورة . إنه يشكر تلك الصدفة التى جعلت المرأة تفتح بابها لتستفسر عن الصاعدين . وإنه على يقين الآن أن ذلك كان فى صالحه ، فهو يحس أن علاقته براشيل وشيكة الانفصام . ولكنها ستذكره دواما ، لأنه الشيء الفريد فى حياتها : الشاب الذى عاشرته سنوات دون أن تناله .

٩٦

ورسب أسعد فى البكالوريا ثانية ، فهجر المدارس وراح يعمل مع أبيه فى التجارة ، وكان يزوغ فى العصر ليلعب مع الرفاق ، وما كان أبوه ينهره أو يمنعه ، بل كان يتركه على هواه ، فإذا اعترض ممدوح على ذلك قال حسن فى هدوء :

— دعه يلهو قليلا ، فسيحبس فى المحل طويلا .

ورسب على فى مدرسته سنين ، فنزح إلى الريف ليعيش فى العزبة التى اشتراها أبوه ، والتحق فهمى بمدرسة البوليس ، وجاء إلى الشارع يتبختر فى بذلته السوداء ذات الشريط الأحمر ، ويتطلع إلى الشبابيك ، وقد التمعت عيناه سرورا ، وانفرج فمه عن ضبه الكبير . أما شكرى فقد مات أبوه فاضطر إلى أن يحل محله فى دكان الجزارة . ترى أيذهب فهمى إليه يوما ليشترى منه اللحم ؟!

وتفرق الصحاب ، ولم يعد السلاملك يجمعهم ، وراح مصطفى يمضى العصر فى محل حلوى يطل على الميدان ، وهناك تعرف بمنافسه ، ذلك الشاب البدين القصير الذى رآه مع راشيل . كان شابا أسمر ، واسع العينين ، مفلفل

الشعر ، قصير القامة بدين الجسم ، وكان حديثه يشي بأنه لم ينل حظا من التعليم ، كان من ذلك الطراز الواقعي الذى يعيش فى الدنيا بجسمه وحسه ، أما الخيال فما كان يحب أن يطرق بابه أو يعيش فيه .

وجلسا يتحادثان ، وكان حديث الشاب البدين يدور حول راشيل ، فهو يعلم أن مصطفى عرفها من سنين ، ويظن أنه ملها وسئمها ، وما يدرى أنه يحبها ويهواها ، فطفق يتحدث حديثا يمزق قلب مصطفى تمزيقا ، ولو كان حصيفا لفطن إلى الأثر السيىء الذى ينعكس على وجه مصطفى المتقع الحانق . راح يقول :

ـــ حدثتها أول يوم ، وزارتنا ثانى يوم ، ونلتها ثالث يوم .

واستمر يصف ما جرى بينه وبينها ، ومصطفى يتألم فى صمت ، كان حديثه شواظا من نار تصب فى أذنيه ، وسكينا حادة تمزق فؤاده ، وكان يحاول أن يكبت عواطفه فيزداد ألمه .

وانصرف على أن يقطع ما بينه وبينها . إنه لا يحب أن يلوث روحه أو يدنس نفسه ، فلن يخضع لحبه أو يستمع إلى قلبه .

وجاء ميعاد خروجه للقائها فنشبت المعركة بين عاطفته وعقله . وراح تتنازعه أحاسيس وأفكار ، ثم قام يسير متمهلا حتى إذا بلغ نهاية الطريق الذى يصل إلى الميدان وقف فى مكان مظلم يرقب الغادين والغاديات . وهبطت راشيل من الترام فخفق قلبه وتطلعت عينه ، وهفت روحه إلى اللقاء ولكن كبرياءه ثار فدار على عقبيه ، وعاد من حيث أتى يجتر أحزانه فى صمت .

ومرت أيام ومصطفى يكافح قلبه ، ولقد كاد أن يهزم لولا بقية من كبرياء . وفى ليلة من الليالى جاء فريد وراح ومصطفى يذرعان الطريق جيئة وذهوبا ، ولمح فريد فتاة جالسة مطرقة ، فرنا إليها رنوة وقال :

ـــ انظر .

ـــ ماذا ؟

ـــ فتاة رائعة ، ليتها تقبل .

ـــ تقبل ماذا ؟

ـــ أن أصورها .

فنظر مصطفى فرأى فتاة كثيرا ما رآها قبل الليلة ولكنه لم يلتفت إليها ، كانت فى السادسة عشرة ، بيضاء البشرة ، دقيقة التقاطيع ، صفراء الشعر ، غربية الملامح ، عليها مسحة من فقر زادتها ملاحة ، فكانت تبدو كأميرة إغريقية فى أسمال بالية .

وانقضت أسابيع ومصطفى منطو على نفسه ، يسير فى رفقتها يحاسبها وتحاسبه ، وكان يكتفى بالانطلاق إلى الميدان ، والانزواء فى ركن من أركانه ، والنظر إلى راشيل على البعد ، ثم العودة إلى الدار وقد تجددت أشجانه .

ورأى مارى مرارا ، تلك الفتاة الصغيرة التى كانت تذكره بأميرات الأساطير ، وتلاقت عيناه بعينيها ، فكان يرى فيهما ابتسامة خفيفة ، ففكر أن يلهو لعله يسلو فيندمل جرح قلبه ، ويبرأ من حبه المهين .

وفى ليلة من الليالى بينا كان يضرب فى الشارع وحيدا لمح مارى قادمة ، فمال نحوها حتى إذا أصبح أمامها ابتسم وقال :

ـــ مساء الخير .

فاضطربت الفتاة ولكنها لم تجفل ، وهدأت نفسها بعد المباغتة فابتسمت ، فسار بجوارها بقدم ثابتة ، وانعطف بها إلى شارع هادئ ، وطفق يحدثها فى طلاقة ، والفتاة تنصت إليه فى رضا ، وانقضى الوقت

لطيفا ثم قالت :

— أوه ! تأخرت .

فقال فى هدوء :

— سأنتظرك غدا فى الخامسة ، عند نهاية شارع غمرة .

— إلى الغد .

وهمت بالانصراف ، ومدت يدها تصافحه ، ولكنه جذبها إليه وقبلها قبلة سريعة ، ففرت من أمامه ، وجرت وهى تقفز فى سرور ، فطفق مصطفى يرقبها ويبتسم ابتسامة عطف وإشفاق .

وجلس فى الشرفة فى الصباح فلمحها تخرج من بيتها ترفع ثوبا فى يدها وتتجه إلى الكواء ، كانت تتأهب لموعد اليوم . فأحس نحوها عطفا ورثاء ، فقد تفتح قلبها ولكن لمن ؟ لشاب سلب قلبه ، وبات بلا قلب .

وقبيل الخامسة خرج مصطفى إلى الموعد ، ولم يحفل بثيابه ، فلم يتأنق كعادته كلما خرج للقاء راشيل ، ولم يخفق قلبه ، ولم تختلج فيه خلجة ، بل سار دون أن يحس أنه ينطلق لموعد غرام .

وفى الخامسة أقبلت مارى ترتدى ثوبا أسود بسيطا ، زادها رونقا وجمالا ، ولمحت مصطفى فاحمر وجهها ، وتهللت أساريرها ، وشع من عينيها بريق حلو أخاذ ، فأحس مصطفى رضا ، وصافحته فى سرور ، فتناول يدها وسار بها إلى محطة الأتوبيس ، فسارت معه دون أن تسأله إلى أين يقودها ، فشعر لأول مرة أنه السيد الآمر .

وهبطا فى طريق حدائق القبة الهادئ ، وسارا متلاصقين ، ولف ذارعه حول خصرها ، فتطلعت إليه فى وله ، وخيم الظلام فعادا إلى الحى ، فذهبت مارى تفكر فى مصطفى وتجتر حديثه ، وذهب مصطفى إلى الميدان ينتظر

عودة راشيل ، ليرقبها على البعد .

* * *

وقابل مصطفى مارى ، فانطلقا إلى جسر قصر النيل ، وداعبهما النسيم اللطيف ! فزاد انشراح مارى ، ودلفا إلى الشارع الهادئ الذى يصل بين الجسر والزمالك ، وتألق القمر ، وبعث ضوءه الفضى الأخاذ ، فكسا البساط السندسى الأخضر الممتد على جانب الطريق ، فبدت للحدائق روعة تأخذ باللب ، وتشرح القلب .

وغمرت النشوة الفتاة الفقيرة التى لم تر مثل ذلك الجمال قبل ليلتها ، فالتصقت بمصطفى وقد ذخرت نفسها بأحاسيس حلوة بهيجة ، أحاسيس الحب الصافى ، ورنت إليه رنوة هيام ، فلف ذراعه حولها وضمها إليه ، وقبلها قبلة هزت كيانها وأشاعت فيها خدرا لذيذا .

وسارا صامتين ، فهامت روحها فى دنيا بهيجة : دنيا الأحلام ، فسرت فيها موجة من السعادة ، فأمالت رأسها على كتفه ، وانطلقت وفى صدرها نشوة عارمة وقلبها يرقص طربا ، أما مصطفى فقد تذكر راشيل واقتراب موعد أوبتها ، فاضطرب وانقبض ، وأحس رغبة تدفعه إلى أن يغذ فى السير ليعود إلى الميدان ينعم برؤيتها من بعيد . فغمغم :

ــ تأخرت !

فقالت فى نبرات حالمة سعيدة :

ــ لا يهم ، ليت هذا الطريق لا ينتهى .

وأراد أن يقتل القلق الذى شب فى صدره ، فأقبل عليها يداعبها :

ــ ستضربك أمك .

ــ بالله لا تذكرنى ودعنى أحيا هذه اللحظات السعيدة ، إنها

لحظات حياتى .

وثار قلبه ، فقد كان يهفو إلى راشيل . إن نظرة واحدة إليها ترضيه وتسره أكثر من ألف قبلة من مارى .

وأحس تبرما ، وانقبض برغمه ، واستولى عليه ضيق ، ولكنه لم يشأ أن يركن إلى أحاسيسه التى تآمرت عليه ، فضم إليه مارى وراح يلثمها ليخمد الأحاسيس المتمردة الثائرة التى شبت فى صدره .

وركبا الترام ، فراح ينظر إلى ساعته بين الفينة والفينة ، وبان فى وجهه التبرم والحنق ، ليت الترام ينطلق دون أن يتوقف ، فقد أوشك أن يحل موعد عودة راشيل .

ووصلا إلى الحى فتركها تعود إلى بيتها ، وسار إلى الميدان وفى صدره حرارة ، وقلبه يخفق بشدة ، ومد بصره فألفاها مقبلة نحوه ، فأحس كأنما سرى فى جسمه تيار كهربى ، وحاول أن يفر من طريقها ولكنه أخذ وتسمر فى مكانه ، واقتربت منه فأدار ظهره ، ومد بصره إلى لا شىء وقد أرهفت حواسه ، وشعر بها تدنو منه فازداد وجيب قلبه ، وسمعها تهتف :

— مساء الخير .

فاضطرب ، والتفت إليها وقال فى صوت حاول أن يوحى بعدم الاكتراث :

— مساء الخير .

ثم مد بصره من فوق كتفها يتفحص الطريق ، فقالت :

— ترى من تنتظر ؟ يا بخت من تنتظرها !.

فصعد الدم حارا إلى وجهه ، فهو لا يدرى أتقول حقا ، أم تسخر منه .

فقال فى غيظ :

— إنى لا أنتظر أحدا .

فابتسمت وقالت له :

— إذن ، تعال معى .

— متشكر أحب أن أقف هنا .

وسارت راشيل ، لا تلوى على شيء وقد لاح فى وجهها الغضب ، وبقى مصطفى فى مكانه حتى هدأت نفسه ، فتعجب كيف صدها ذلك الصد ، كيف عاملها بهذه الغلظة ؟! لقد حاولت أن تسخر منه وهو لا يقبل أن يسخر منه أحد . وغضب قلبه ورضى كبرياؤه ، ونشب صراع بين القلب المجنون ، والكبرياء المفتون .

وتصرمت الأيام ومصطفى لا يغادر البيت لرؤية راشيل عند أوبتها فى الليل ، فقد عزم ألا يراها ، ولكن قلبه أخذ يعذبه ، فهو لا يستطيع أن يسلوها . وأخيرا رأى أن يخرج للقياها ، وأن يعمل على أن يتصل بها ليستريح من عناء حبه .

ووقف يرقب الترام ، واعتزم أن يعترف لها بحبه ، وأن ينطلق معها إلى البيت ، وأن يتذلل إليها إن احتاج الأمر ، وأن يدوس كبرياءه ليضع حدا لذلك الحب الذى يوشك أن يورده موارد التلف . إنها متاع مباح فلم يحرمها على نفسه ، ويضفى عليها تلك القدسية وذلك الجلال ؟

ومر موعدها ولم تهبط من الترام ، فانصرف وهو مستاء ، وسقط فريسة لأفكاره ، فلم ترحمه أفكاره ، فازداد إصرارا على أن يقابلها وأن ينالها على الرغم من روحه التى هبت تحول بينه وبين التمرغ فى الأوحال .

وخرج فى الليلة الثانية وأخذ يرقب عودتها ، ولكنها لم تعد ، فانتشرت فى صدره أحاسيس الغضب والغيظ ، وضاق صدره بها فانطلق كالمجنون إلى

دارها وقد قرر أن يطرق بابها . وما إن بلغ الدار حتى خفت ثورته . رفع رأسه ومد بصره إلى الشرفة فلم يلمح ذلك البصيص من النور الذى ينبعث منها دواما ، بل وجد ظلاما دامسا ، فغمغم :

— لعلهم ناموا .

وقفل راجعا يجر نفسه ويجتر أحزانه .

وفى عصر اليوم التالى جلس فى محل الحلوى ، وأقبل منافسه بجسمه الأسمر وقامته القصيرة ، وجسمه البدين ، فما يحس إلا وهو ينهض ويشير له بيده ، فاتجه الشاب إليه وهو يبتسم ، وجلس معه يشاركه فى مقعده .

وهم مصطفى أن يسأله عنها ، وأحجم وتصبر ، فلن تنقضى الجلسة قبل أن يفضى إليه الشاب بما يريد أن يعرف ، وبما لا يود أن يسمع .

واعتدل الشاب فى كرسيه وقال :

— انتقلوا من شقتهم .

فجف ريق مصطفى ، وأحس كأن يد هاون تدق فى جوفه ، ولكنه لم يشأ أن يلحظ الشاب ارتباكه ، فأدار وجهه وقال وهو ينظر إلى الطريق :

— من .

— راشيل وأهلها .

— آه .

— انتقلوا أول الشهر . ألم تقل لك ؟.

— إنى لا أقابلها .

— أحسن ، فهى لا تستحق شيئا .

فخفق قلب مصطفى ، واحمر وجهه ، وشخص ببصره ، وغمغم :

— ألم تذهب لزيارتهم ؟

— لا . قطعت صلتي بها من زمان .

وساد السكون لحظة ثم همس الشاب :

— اسمع نصيحتي وحاذر أن تقترب منها ، فهي عرضة لأن تصاب بمرض خبيث في أية لحظة .

فشعر مصطفى بضيق ، وخشي أن يشي وجهه بما يعتمل في صدره ، فنهض وانصرف باسر الوجه تراوده أفكار وخيالات .

وانطلق في اليوم التالي إلى المحل الذي تعمل فيه ، ولكنه رأى فيه فتاة أخرى غير راشيل ، فانقبض صدره ، وأحس بيأس وقنوط . حتى المحل الذي يمكنه أن يراها فيه غادرته ، لقد انسابت راشيل من بين أصابعه . وذهب إلى ميدان العتبة الخضراء في موعد انصراف عاملات المحال التجارية ، وجعل يرقب الفتيات العائدات إلى دورهن ويتفرس فيهن لعله يلمحها ، وراح ينقل بصره في سرعة ويتلفت في ذهول ، ورأى على البعد فتاة في قوام راشيل ، فخفق قلبه ، وانطلق خلفها كصبي غرير ، حتى إذا اقترب منها ، تمهل وراح يسوي هندامه ، ثم أغذ السير ليلحق بها وفي نفسه رهبة . وتلاصق كتفاهما ، والتفت إليها فغاص قلبه ، وشاع الحزن في نفسه ، كانت فتاة أخرى غير راشيل .

ومرت أيام وأسابيع وشهور ومصطفى يجوس خلال القاهرة ينقب عنها . وكان إذا أتعبه البحث يعود إلى ماري يرفه عن نفسه ، ويحاول أن ينسى آلامه وأحزانه .

وفي يوم من أيام الآحاد بينا كان واقفا في شرفته لمحها ، راشيل بعينيها أمام الباب الحديدي تبحث عنه ، فغمره سرور وفرح . وهم بأن يسرع إليها ولكنه كان في منامته ، فأخذ يصفر لها ، ولكنها لم تسمع صفيره ، فترك

الشرفة وارتدى ثيابه فى سرعة ، وراح يهبط فى الدرج قفزا ، وبلغ الطريق فلم يجدها ، فأخذ يعدو إلى الميدان ويتلفت عليها ، ولكنه لم يجد لها أثرا ، فاغتاظ واستولى عليه حنق شديد ، وعاد إلى البيت تكاد الدموع تطفر من عينيه .

٧٠

أطرقت الجدة وظهرت فى وجهها آثار التفكير العميق ، كانت تستعرض فى مخيلتها شباب الأسرة ، وشاباتها الذين يصلحون للزواج ، وتأخذ فى التوفيق بينهم ، وما كان يهمها التكافؤ بين من ترشحهما للزواج ، ولكن كانت تضع نصب عينيها توزيع الأزواج على الفتيات بالعدل والقسطاس ، حتى ترضى فروع الأسرة الضخمة ، وتربط الأواصر بينها .

أصبح أسعد من العاملين فى الأسرة ، فهو يعمل فى الدكان ؛ فمن حقه فى شرع الجدة ، بل وفى شرع الأسرة أن يتزوج ، ولكن كيف يتزوج أسعد دون سليم وهما فى سن متقاربة ؟ إن كان سليم لا يزال طالبا ، إلا أنه فى السنة النهائية بالجامعة ، فإذا خطب الآن ، فإن إجراءات التجهيز قد تستغرق العام ، فيتزوج وأسعد فى يوم واحد .

وما كان مركز الزوج بالأمر الذى يشغل بال الأسرة ما دام والده مقتدرا ، فمن المألوف عندهم أن يتكفل الوالد بالزوجين حتى يشتد ساعد الزوج ويشق طريقه ، وما يقلقهم مستقبل الأبناء ، فهم تجار ، وما على الوالد إلا أن يفتح لابنه دكانا ثم يدعه يبنى نفسه بنفسه . ولما كان حسن من أثريائهم ومن عقلائهم فقد كان أمنية الآباء أن يزوجوا بناتهم من أبنائه .

وفكرت الجدة فيمن تزوجه من أسعد ، ولكن لم يطل تفكيرها فهى تذكر

أن أمينة حجزته لبنت أخيها ، وقد شبكتها يوم ولادتها ، ولما كانت المخطوبة بنت ابن أختها هى أيضا فقد كان الأمر يهمها ، فوافقت على هذه الزيجة ، وأخذت تفكر فى زوجة لسليم .

وراحت تستعرض فتيات الأسرة ، فابنها أحمد عنده بنت ، وابن ابنها عنده بنت . وابنتها سكينة عندها بنت ، وراحت تفاضل ، لا بين الفتيات ولكن بين الآباء والأمهات وعلاقة كل منهم بها . وتملكتها حيرة ، فقد كانت لا تحب أن تغضب أحمد أو سكينة ، فياليت حسن قد انجب فتيانا يكفون فتيات الأسرة كلهن !

وفكرت فى مخرج من هذا ، وتمنت لو أن مصطفى كان أكبر قليلا ، إذاً لقضى الأمر وتزوج من ابنة أحمد ، ولزوجت سليما من ابنة سكينة .. وبدأت كفة سكينة ترجح .

وفاتحت الجدة أمينة فى أمر زواج ولديها فوجدت ترحيبا ، وكلمت الجدة ابنها فوافق ، وخاض الجميع فى أمر زواج أسعد وسليم ، وأسعد وسليم ينصتان إلى الأحاديث دون أن يخوضا فيها ، وأخذ صمتهما على أنه موافقة !

وابتسم مصطفى ابتسامة هزء ، فقد كان يعجب لهذه الزيجات التى تتم وفق هوى الآباء والأمهات ، وبيت النية على ألا يقبل هذا الوضع أبدا ، وعلى ألا يتزوج من الأسرة ، ولو أغضب الأسرة جميعا . كان يحلم كثيرا فكان يرى بعين خياله مستقبله مليئا بالكفاح ، فهو طموح يود أن يبلغ النجوم ، فلابد أن تشاركه حياته فتاة مثقفة ، تبث فيه روح الكفاح إذا تضعضع ، وتواسيه إذا فشل ، وتشد من أزره ، وتقف إلى جواره يواجهان الحياة معا ، وما من فتاة من فتيات الأسرة تصلح لهذا ، فما كن يعرفن من الدنيا إلا المطبخ والبيت .

وكتب كتاب أسعد وسليم ، فسر مختار وسكينة بعد أن تزوجت بنتهما الثانية . وغضب الآخرون ، فقد كانوا يرون أنهم أحق بسليم منهما ، فقد زوجا بنتهما عصمت من ممدوح ، فأخذا نصيبهما ، فإذا بهما اليوم يعتديان على نصيبهم !

وخصصت شقة لأسعد وأخرى لسليم . وصفت قطع الجهاز فى الغرف ، فكان الأولاد يجرون من غرفة لغرفة ، وكانت جلبتهم تشتد إذا أقبلت فتحية ، فقد كانت شقية ، تحمل الكراسى وتنقلها من مكان إلى آخر ، فكان مصطفى يرقبها فى غيظ ، ويهم بضربها ، ولكنه كان يحجم ، لأنها كانت تعتبر ضيفه ، وما كان من الذوق ضرب الضيف . ولكن إذا تجاوزت شقاوتها الحد حملها وسلمها لأسعد ، فيداعبها يأن يضربها فى قسوة وهو يضحك !

وفى ليلة من الليالى انطلقت سيارة حسن وأحضرت العروسين ، وتم زواج أسعد وسليم فى غفلة من الأسرة الغاضبة ، دون أن يحضر زفافهما أحد أو يشعر به أحد ، سوى أمينة وزكية وسكينة والجدة ، وكن جميعا فى ثيابهن السود .

وبدأ الهمس فى الأسرة بأن حسنا يصرف على البيت الكبير شيئا كثيرا ، وأنه إذا لم يقبض يده فمآله الإفلاس ، وقال له بعضهم ناصحا أن يطعم البيت جميعه من طعام واحد ، بدلا من أن يترك كل شقة مستقلة تنفق على هواها ، فأطرق ولم يحرك ساكنا ، فهو لا يريد أن يعود بأسرته إلى الفوضى التى كانت تسود الأسرة أيام الحاج أسعد ، وكان يحب أن ينعم أبناؤه بالسعادة فى أيامه ، ويفضل أن ينفقوا فى حياته عن سعة عن أن يغل يده عنهم فيبسطوا أيديهم بعد موته ، وعاونه على البذل أنه ما كان يقدر المال أكثر من قدره .

* * *

وأصبح مصطفى وحيدا بعد زواج أسعد وسليم ، ولو أن سليما لم يعمل بعد ، إلا أن زواجه حجبه عنه ، فكان يذهب إلى السينما كثيرا ليزجى أوقات فراغه . وجلس فى مقعده مرة ، وراح يدير عينيه فى الموجودين ، إذ وقع بصره على راشيل تقبل فى رفقة شاب ، فاضطرب واشرأب عنقه ، وحدق فيها كأنما يريد أن يجذبها إليه ببصره ، ووقفت عند الصف الذى يجلس فيه ، فزاد خفقان قلبه وتفصد العرق من وجهه ، وانسابت بين الصفوف وصديقها خلفها ، والتقت عيناه بعينيها فامتقع وجهه ، واتسعت حدقتاها وبان فى وجهها قلق خفيف لم يلبث أن اختفى ، وولدت على شفتيها ابتسامة لم يعرف تأويلها ، أهى ابتسامة تحية أم ابتسامة هزء .

وجلست إلى جواره فأرهفت حواسه ، ومد بصره ولكنه كان يحس كل حركة تأتيها ، فإذا حركت رجليها حركة خفيفة تنبهت حواسه ، وإذا مس جزء من جسمها جسمه شعر بتيار كهربى يسرى فيه ، وأحس بها وهى تختلس النظر إليه ، ولكنه لم يجرؤ على أن يدير عينيه إليها خشية تلاقى العيون .

وأقلع اضطرابه ، واستولى عليه وجوم ، وسرت الغيرة فى صدره وراحت تحزه ، فانكمش وراح يجاهد غيرَته ، ولكنها كانت تضنيه ، وانحصر فكره فيها ، فساءه ذلك وحنق على نفسه ، وحاول أن يفكر فى أشياء أخرى ولكنه لم يستطع ، فأخذ يفكر فى مارى ويعمل جاهدا على أن تحتل فكره ، ولكن فكره كان يرتد إلى راشيل الجالسة إلى جواره ، فقد بحث عنها سنة ثم ركن إلى اليأس ، وقد حسب أنه قد برأ من حبها ، فإذا به يجدها الليلة ، وما وجدها وحيدة ، بل فى رفقة عشيق جديد .

وأطفئت الأنوار ، وبدأ العرض ، وراح يجمع شتات فكره ويركز فى الصور التى تتلاحق أمامه ، ولكن فكره كان يشرد ، وكان يحس على نفسه

غضبا في اللحظات القصار التي تفيق فيها ، فإنه ليعجب لشرود ذهنه في حين أن التي يشرد ذهنه من أجلها تجلس إلى جواره يلتصق كتفها بكتفه وإلى جوارها عشيق ! .

ومر الوقت بطيئا ، وشعر مصطفى بتعب وجهد ، وفكر أكثر من مرة في أن ينصرف ، ولكنه كان يحجم خشية أن تفطن إلى فراره من جرح قلبه . وانتهى العرض وما رأى شيئا ، فقد شغلته أحاسيسه عما يجري على الشاشة أمامه .

٧١

ودارت عجلة الزمن ، ونال مصطفى البكالوريا والتحق بالجامعة ، واستمرت علاقته بماري ، فكانا يتلاقيان كل يوم ، وعلمت أمها بما بينهما فكانت تزجرها وتحاول أن تمنعها من مقابلته دون جدوى ، وألحقتها بعمل لتشغلها عنه ، ولكنها كانت تفر من العمل إليه ، وفي يوم ارتدت ثيابها ووقفت تصفف شعرها ، فلما رأتها أمها تتزين قالت لها في حدة :

— ماري ، إلى أين ؟

— إليه .

— لن تخرجي اليوم .

— سأخرج .

— أمجنونة أنت ؟

— أجل ، مجنونة .

— وما تودين منه ؟

— أحبه .

— وما نهاية هذا الحب ؟

— لا أدرى ، ولا أود أن أدرى .

— مارى ، إنه لن يتزوجك ، فهو مسلم وأنت يهودية .

— ليس هذا من شأنك .

— مارى ، أنا أمك وعلىّ أن ...

— أوه ، دعينى .

— لن تخرجى أبدا .

وأغلقت الأم الباب بالمفتاح ، فاربد وجه مارى ، واستولى عليها الغضب ، فهجمت على أمها تنتزع المفتاح منها ، وأخذت الأم تقاوم ابنتها ، فلما وجدت أن مقاومتها وشيكة الانهيار صرخت ، فقالت مارى :

— لا فائدة من صراخك ، فلو جاء الجيران كلهم لما منعونى من الخروج .

وصار المفتاح فى حوزتها ، ووقفت أمها حائلا بينها وبين الباب ، ولكنها دفعتها فى شدة ، وأدارت المفتاح فانفتح الباب ، وهمت بالخروج فتشبثت أمها بها فجعلت تتملص من قبضتها ، ثم انسابت منها وراحت تهرول وأمها خلفها تصيح فى يأس :

— مارى .. مارى .

وانطلقت وأصمت أذنيها عن النداء . وابتعدت عن البيت فهدأت نفسها ، ووقفت تسوى هندامها الذى شوشته أمها وهى تحاول أن تحول بينها وبينه .

وتقابلا ، وسارا جنبا إلى جنب ، وامتلأت نفس مارى غبطة ، وأخذ قلبها يرقص طربا . كانت تحس خدرا لذيذا وهى معه ، وكانت النشوة تلفها فقد

كان حبها عارما ، فهو أول من خفق له قلبها . وكان مصطفى يحس وهو معها تلك النشوة التى يحسها الشاب إذا ما كان فى رفقة فتاة ، أما خفقات القلب ، وفورات الأحاسيس ، فما كان يشعر بها إلا إذا ذكر راشيل ، أو رأى فتاة على البعد حسبها راشيل .

ونظرت إليه بعينيها العسليتين الصافيتين ، وقد شع منهما بريق حلو ، وهتفت :

— مصطفى !

— ماذا ؟

— أحبك .

فابتسم ولف ذراعه حولها وضمها إليه ، فغمغمت :

— مصطفى !

— ماذا ؟

فطأطأت بصرها وقالت بعد برهة صمت :

— لا شيء .

فرمقها من طرف عينه وقال فى تأكيد :

— بل هناك شيء .

— أبدا ، كنت أفكر لماذا تطول مدة دراستكم ، فى حين أن الشاب عندنا يحصل معارفه فى سنوات قليلة ثم ينزل إلى ميدان العمل .

وفطن إلى أن هذا ليس السؤال الذى كانت على وشك أن تسأله ، و لم يشأ أن يقول لها ذلك بل راح يجاريها فقال :

— إنكم رجال أعمال بالسليقة ، تتعلمون النزر اليسير فى المدارس ثم تكتسبون من الحياة التجارب ، إن كل همكم أن تسيطروا على دنيا المال ، بينا

أننا نطمع فى المناصب ، وهذه تستلزم إعدادا طويلا :

وصمت قليلا ثم قال :

— لنا جارة يهودية يعمل ابنها صبى فى محل من المحال التجارية ، وقد ساءها أن يضيع وقت ذهابه إلى المحل والعودة منه دون استغلال ، فأعطته أوراق « اليانصيب » ليبيعها فى ذهابه وإيابه .

فتبسمت مارى ضاحكة وقالت :

— نحن شطار .

فقال وهو يبتسم :

— جدا .

وركبا الترام حتى إذا بلغا الزمالك هبطا منه ، وسارا فى الشارع الموازى للنيل متلاصقين ، وكان النسيم لطيفا فراح يداعبهما وينعش روحيهما . ومد بصره فرأى قاربا يتهادى على الماء ، وكان كمرآة مصقولة تعكس أضواء الشمس الغاربة .

كان منظرا رائعا يأخذ باللب ، فغمغم :

— ما أحلى الركوب فى النيل وقت الأصيل ، تعالى نركب مركبا .

فقالت :

— لا . ليس الآن .

— أتخشين الغرق ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينيها العسليتين قد تألق فيهما ذلك البريق الذى يرتاح إليه وقالت :

— إنى أتمنى أن أموت معك .

فابتسم وضغط خصرها بذراعه . واستمرا فى سيرهما هائمين حتى إذا

ما تحكم الظلام فى الكون قفلا عائدين إلى الحى .

وهمت مارى بالانصراف ، ولكن ظهر عليها التردد ، ثم قالت فى صوت مرتعش :

— مصطفى !

— ماذا ؟

— لا شىء .

— لا شىء !

وتركته وانطلقت لا تلوى على شىء ، وأخذ يرقبها وهو يبتسم فى إشفاق .

و تمدد فى فراشه وراح يفكر فى مارى ، فأحس نحوها شفقة وعطفا ، فهى تحبه من كل قلبها ، وهو لا يملك أن يحبها ، فلو أنه قابلها قبل راشيل لتعلق بها ولهام بها حبا ، وراح يفكر فى راشيل فنسى مارى ، ونسى نفسه ، وأخذ يجتر ذكرياته فى لذة وشغف .

٧٢

وخرج إلى الشرفة يملأ صدره بهواء الصباح المنعش ، ورأى من زاوية عينه فتاة تطل عليه من شرفة قريبة ، فأدار رأسه ورنا إليها ، فخفق قلبه فى شدة ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، وأذهلته المباغتة ، كانت راشيل تبتسم له ، فالتفت إلى الناحية الأخرى يلفظ أنفاسه فى جهد .

وترك الشرفة ودخل وارتمى على مقعد طويل ، وحاول أن يستعيد هدوءه ، ولكنه راح يفكر برغمه فيما فعل ، لقد ابتسمت له وكان فى

مقدوره أن يبتسم لها وأن يقابلها ، ولكنه أظهر لها الجفاء دون أن يفكر أو يتدبر .

وثار قلبه ، فها هي ذى راشيل تعود ، ولولا الكبرياء الممقوت لنعم بالوصل وانتعش بالقرب ، وراح قلبه يدفعه إلى الخروج إلى الشرفة والتطلع إليها والابتسام لها ، فقام وأخذ ينظر من خصاص النافذة فألفاها واقفة ترقب شرفته ، فخفق قلبه فى سرعة وقوة ، وسار إلى الشرفة بخطا مترنحة . كان مترددا لا يدرك أيقدم أو يحجم ، وما إن خطا فى الشرفة حتى ثار كبرياؤه وراح يزجر نفسه . كيف ينسى عبثها فى لحظة ؟ إنها لا تستحق حبه ، فعليه أن ينساها .. أن يسلوها .. أن يحتقرها .. ونكص على عقبيه وارتمى على المقعد مبهور النفس .

وجاهد ليفكر فى أمر آخر ، ولكن هيهات ! فالقلب مشغول بها.وضاق مصطفى ذرعا بحاله ، فنهض وأخذ يقطع الغرفة صاعدا هابطا ، ثم ارتمى على سرير بالغرفة ، وأخذ يتقلب فيه ، كان فريسة لقلبه وعقله ، وعاطفته وكبريائه .

وجاء أوان عودة الفتيات إلى الحى فى الظهر ، فارتدى ثيابه وخرج وقد عزم على أن يقابلها ، وانطلق فى الطريق الموصل إلى محطة الترام ، حتى إذا بلغ نهايته لمحها قادمة ، فأخذ ، وهم بأن يتقدم إليها ويصافحها ، ولكنه ألفى نفسه يشيح بوجهه عنها ، وينطلق من جوارها فى سرعة كأنما يفر منها .

ودق قلبه ، ولفه وجوم ، فما يدرى لماذا فر منها ، فما خرج إلا ليلقاها . لقد انقطع خيط الأمل ، وانتهى كل شيء .

وفى العصر قابل مارى ، فوجدها ساهمة على غير عادتها ، فقال لها :

— ما بك ؟

— لا شيء .

— إنك حزينة .

فطأطأت رأسها وغمغمت :

— إنى لا أطيق ذلك الثقيل الذى فى البيت .

— أى ثقيل .

— خطيبى .

— أخطبت ؟! مبروك .

— بالله لا تسخر منى ، إنى متضايقة .

— أيضايقك أنك خطبت ! هذا عجيب ، كل الفتيات يتمنين هذه الخطوبة . فما أندر المغفلين الذين يتزوجون فى هذه الأيام .

— إنى لا أطيقه ، لا أحبه .

— غدا تحبينه .

— أبداً .

— وما الذى يرغمك على زواجه ؟

— أمى .

— لماذا ؟

— تريد أن تقيدنى حتى لا ألقاك .

وأطرق ساهما ، وطأطأت بصرها ، وراح كل منهما يفكر ، ثم رفعت رأسها وغمغمت :

— مصطفى .

— نعم .

— كم تتقاضى لو أنك تركت المدرسة والتحقت بخدمة الحكومة ؟

فابتسم فى مرارة وقال :

ــ ستة جنيهات أو سبعة .

فقالت وقد اتسعت حدقتاها :

ــ لا بأس ، يمكننا أن نعيش بها .

فذعر وتمتم :

ــ ماذا ؟ . مارى !

ــ مصطفى أحبك ، لا تدعنى ، إنى أريد أن اهجر البيت ، أن اهرب معك .

فلف ذراعه حولها وضمها إليه وغمغم فى صوت مضطرب مرتعش :

ــ مارى اعقلى .

ــ مصطفى ، تزوجنى إذا كنت تحبنى .

فوجم ، وحبست الكلمات فى حلقه ، وتفصد العرق منه ، وسار وهو كالمأخوذ لا يدرى ما يقول ، وتطلعت إلى وجهه فألفته عابسا مقطبا فقالت :

ــ لا تريد أن تتزوجنى لأنك لا تريد أن تتزوج من يهودية .

ــ لا يا مارى ، إنك فى فورة من فورات النفس ، فلا تنقادى لعواطفك ، غدا إذا هدأت نفسك وتذكرت حديثك اليوم فستبتسمين فى سخرية .

ــ لقد فكرت طويلا ، وهممت أكثر من مرة بأن أفاتحك ، ولكن كانت شجاعتى تخوننى ، مصطفى أحبك ، وسأظل أحبك ، وأتمنى أن أقضى العمر معك .

ــ إن الأمر لا يعنينا وحدنا ، فكرى فى أهلك وأهلى .

ــ فكرت .

— إنهم لن يرضوا عن زواجنا .

— وما يهم ما دمنا سعيدين ؟

— أراك تنطلقين فى طريق وعر .

— مصطفى ، إنك لا تريد لأنك لا تحبنى ، فلو كنت تحبنى لما فكرت .

— إنك لا تستمعين إلا لصوت قلبك فإذا انطفأت هذه الجذوة غدا ، وصرخ فينا صوت العقل ، فسنندم على انصياعنا وراء عاطفة هوجاء .

— قد تندم أنت ، أما أنا فلن أندم أبدا .

— لا يا مارى .

— دع المعاذير ، فأنت لا تريد .

— إنى لا أريد أن أحطمك أو أحطم نفسى .

— إنك لا تريد أن تضحى بشىء من أجلى .. إنك لا تحبنى .. الوداع .

ودارت على عقبيها ، وانصرفت تغذ فى السير لا تلـوى على شىء ، وهتف :

— مارى . مارى .

ولكنها كانت قد ابتعدت ، فسار مطرقا وقد امتلأ صدره بالشفقة على الفتاة .

* * *

ومرض حسن وغاضت نضارته ، فجزع كل من فى الدار ، وهـرع ممدوح إلى طبيب صديق وأحضره ، فلما فحصه أطرق ثم قال :

— إنى أنصح ألا يبذل أدنى مجهود ، اطرحوا له حشايا على الأرض حتى لا يصعد السرير أو يهبط منه .

فأسرع ممدوح وقال لأمه أن تفرش الحشايا على الأرض ، وأخذت الجدة

وأمينة وزكية يهيئن الفراش الذى أمر به الطبيب ، وانتقل حسن إليه ، وراح صدره يعلو وينخفض ويلتقط أنفاسه فى جهد ، وقال الطبيب مؤكدا :

— عليه ألا يغادر الفراش ، أو يبذل مجهودا قبل شهر .

وانسل الطبيب . وخرج ممدوح خلفه وسأله :

— ما به ؟

— قلبه فى منتهى الضعف .

فصمت ممدوح واربد وجهه ، وهبط الطبيب ، وعاد ممدوح يحاول أن يخفى قلقه ، وسألته الجدة فى لهفة :

— ماذا قال الطبيب ؟

— تعب بسيط يحتاج إلى الراحة .

وظل حسن فى فراشه يومين يتناول الدواء الذى وصفه الطبيب ، ولكن ذلك لم يعجب نفيسة وأمينة وزكية ، فقد كن يرين ألا ضرورة للدواء ، فإن حسنا قد أصابته « نظرة » ، فأرسلن فى استدعاء أم أحمد زنوبة .

جلست أم أحمد زنوبة على حشية بجوار فراش حسن ، ثم غطت وجهها بطرحتها البيضاء ، وتمطت وانتفضت ، ثم رفعت الطرحة ، وقالت الست وردة :

— السلام عليكم .

— عليكم السلام .

والتفتت إلى حسن وقالت فى صوت هادئ يوحى بالثقة والاطمئنان :

— اطمئن ، بخير .. إن شاء الله بخير .

وقالت لأمينة :

— هاتى بعض جمرات .

فأسرعت أمينة إلى المطبخ ، وغابت قليلا ثم عادت بالجمرات ، فأخرجت الست وردة مبخرتها الصغيرة ، وأخذت تبخر حسنا وتتمتم ببعض آى القرآن ، ثم وضعت يدها على الصدر الذى يعلو ويهبط فى سرعة واستمرت فى قراءتها . وكان مصطفى يرقبها فى ضيق ، ولولا خشيته أن يغضب أهله لصاح بها أن تكف .

وما انقضت لحظات حتى هدأ الصدر المضطرب ، وانتظم تنفس حسن ، فبان فى وجه مصطفى العجب ، وخرج من الغرفة وهو لا يدرى لما رأى من تأويل !

وفى يوم وقف مصطفى أمام الباب الحديدى ، ولمحته راشيل من شرفتها العالية ، فعزمت على أن تهبط إليه وتحدثه وتعيده إليها . إن فكرة أن ذلك الشاب الصغير أذل كبرياءها تعذبها . هى تعلم أنه يحبها ويتمناها .. ولكنها لا تدرى لنفوره من سبب . قابلته أكثر من مرة بعد أن عادوا إلى الحى ، وكانت كلما التقت عيناه بعينيها تبتسم له ، ولكنه كان فى كل مرة يزور عنها ويلتفت إلى الناحية الأخرى . كانت على استعداد لأن تبدأه بالتحية ، وأن تبدأه بالكلام ، ولكنه لم يدع لها فرصة . كان يفر مذعورا إذا اقتربت منه أو همت بندائه .

وأرسلت إليه أختها مرة تدعوه لزيارتهم ، فوعدها أن يفعل ذلك فى فرصة أخرى ، ومرت الأيام دون أن يبر بوعده ، ترى أأحب غيرها ؟ وأسرعت راشيل تنفى ذلك الخاطر فى قوة ، فهو يحبها ما فى ذلك شك ، فإن كل حركة من حركاته توحى بحبه ، ولكن ما قيمة ذلك الحب إذا كانت لا تهنأ به ولا تسعد ؟! ستقابله وتحادثه وتستعيده وتستولى عليه .

وهبطت إلى الطريق وانطلقت إليه ، ولمحها مقبلة فأخذ ، وراح قلبه

يدق ، وأحس رهبة وجفافا بحلقه ، ولم يشعر إلا وهو يزور عنها برغمه ، ويشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى .

ورأت نفوره فلم تيأس ، فقد صممت أن تبذل آخر ما فى جعبتها ، فانحرفت إلى الدكان القريب من الباب الحديدى ووقفت بالقرب منه حتى لو أنه مال قليلا لالتصق كتفه بكتفها .

زاد فى خفقان قلبه ، وفكر فى أن يفر ، ولكنه تسمر فى مكانه وأرهف سمعه برغمه ، وأخذت راشيل تحادث صاحب الدكان فقالت :

ـــ سندع هذا الشارع قريبا .

فقال الرجل مستفسرا :

ـــ لم ؟

ـــ عدنا إلى هنا وكنا نحسب أننا سنجد أحبابنا ، ولكن لما عدنا وجدنا جيراننا يعبسون فى وجوهنا ، ولا يريدون محادثتنا ، أصبح الكل يكرهوننا .

ونظرت من زاوية عينها إليه فألفته جامدا فى وقفته كتمثال ، فانقبضت ، وقال الرجل :

ـــ ولكن لماذا يكرهونكم ؟

ـــ والله لا ندرى ، وهذا ما يحيرنا .

ـــ لا تفكروا فيهم ، ولا تهتموا بهم .

ـــ وكيف نعيش بين أناس يبغضوننا ، سنترك هذا الشارع غير آسفين .

وتبدلت نبراتها فإذا هى توحى بالعتاب والغضب ، وما إن بلغ صوتها مسامعه حتى هزه . وكاد يضعف ويلتفت إليها ، وهم بأن يدير رأسه ، ولكنه تحرك وانطلق كالعاصفة تاركا راشيل خلفه ، ودلف من باب البيت وصعد وقلبه يخفق فى شدة .

وتمدد فى المقعد الطويل ، وراح يستعيد ما حدث فأحس راحة ، لقد دعته إليها و لم يستجب لندائها ، و لم يعد لها عليه من سلطان ، لقد برأ من حبها !

ولكن ما انقضى يوم حتى أحس حنينا إليها ، ورغبة فى رؤياها ، فارتدى ثيابه ، وانطلق إلى الشارع الذى تعمل به لينعم برؤيتها على البعد .

٧٣

حمل مصطفى حافظة كتبه وانطلق إلى محطة الترام ليذهب إلى كليته ، فألفى فتاة بيضاء الوجه ، زرقاء العينين ، كستنائية الشعر ، ممتلئة قليلا ، ترتدى ثوب المدرسة الأبيض الفضفاض ، كان ثوبها يخفى مفاتنها ، وعلى الرغم من ذلك كانت تبدو حلوة كالفجر ، وتذكر أنه رآها على محطة الترام مرارا ، ولاحظ أنها تركب الترام الذى يركبه سواء أجاء مبكرا أم متأخرا ، فخطر له أنها تنتظره ، و لم يركن إلى ذلك الخاطر طويلا فقد ابتسم فى سخرية واتهم نفسه بالغرور .

وجاء الترام فركب مصطفى وركبت الفتاة ، ومالا لبث أن شغل بأفكاره فنسى الفتاة ، ولكن ما وصل الترام إلى العتبة الخضراء حتى هبط وهبطت ، وسارا إلى طوار آخر ينتظران تراما آخر ، والتقت عيناهما أكثر من مرة ، فكان كل منهما يغض من بصره سريعا ، وراح يختلس إليها النظر فأعجبه حسنها ، وجاء الترام فركباه ، لقد كانت تنطلق فى نفس طريقه ، وأخذ يطل برأسه كلما وقف الترام ليعرف أين تهبط . ولمحها تهبط بعد ميدان الأزهار فأخذ يرقبها ، فرآها تدلف من شارع يصل إلى الليسيه فرنسيه ، فعلم أنها طالبة بها .

وفى اليوم الثانى خرج مصطفى إلى كليته ، وقبل أن يبلغ محطة الترام خطر

له أن يقف بعيدا يرقب فتاة الأمس ، فانتحى جانبا ومد بصره إلى محطة الترام ، فرأى الفتاة تتلفت نحو الطريق الذى يقدم منه ، وجاء ترام فلم تركبه ، ثم ثان وثالث ، وركب الناس وهى واقفة تتلفت ، فانفرجت أساريره وخرج من مكمنه وسار إلى محطة الترام . فلما لمحته تظاهرت بأنها متبرمة لتأخر الترام ، وراحت تمد بصرها تكشف الطريق ، وتقطع الطوار صاعدة هابطة فى قلق مفتعل ، فابتسم وأخذ يتطلع إليها فى اهتمام ، حتى إذا أقبل الترام ركباه .

وفى العصر دخل حجرة استذكاره وفتح نافذتها ، وهم بالتوجه إلى مكتبه ولكنه لمح فتاة الصباح فى شرفة بعيدة ، تمد بصرها إليه ، فبانت الدهشة فى وجهه ، وعجب كيف لم يلمحها قبل اليوم ، لعلها كانت هناك من سنوات ، ولعلها ظلت ترقبه وهو لا يحس بها . كان مشغولا براشيل ومارى ، أما الآن بعد أن رحلت راشيل مرة أخرى ، وبعد أن تزوجت مارى وصارت لرجل آخر أصبح يرى ما حوله .

وجلس على مكتبه ، وراح يتلفت إلى شرفتها بين وقت وآخر ، فوجدها جلست على كرسى فى الشرفة وأخذت تستذكر دروسها ، وكانت ترفع الكتاب بين لحظة وأخرى وتتطلع إليه ، فيبتسم ويستمر فى استذكاره .

وانسحب النهار ووفد الليل ، فأنار غرفته ، وظلت هى على كرسيها مدة ، ثم قامت وأغلقت باب الشرفة ووقفت ترقبه من خصاصها . وكانت تحسب أنه لا يراها ، ولكنه كان يرى خيالها فى وضوح . كان الضوء ينبعث من خلفها فكان وجهها يبدو كرقعة سوداء يحدها الضياء .

وظل فى استذكاره ، وظلت فى وقفتها لا تريم ، ثم نهض يغلق شباك حجرته ، ومد بصره إلى شرفتها وأحنى رأسه تحية للخيال البادى من

الخصاص ، فلمحها تفر ، فقد فطنت إلى أنه يراها ، فابتسم وأغلق الشباك فى رفق .

وفى الصباح رآها تقف عند محطة الترام ، فابتسم لها ابتسامة خفيفة ، فبدا عليها الارتباك ، وأخذت تتلفت فى اضطراب ، فوقف ينظر إليها من بعيد من بين أهدابه المسبلة ، وأقبل الترام فركباه ، وهبطا فى ميدان العتبة الخضراء ، وسارا إلى الطوار الآخر جنبا إلى جنب ، فلم تجفل و لم تحاول الفرار ، ووقفا ينتظران الترام الآخر ، وما كان يفصل بينهما أشبار أو أفتار ، وهم بأن يحدثها ولكنه رأى أن يتريث ، ولعل خجله منعه ، ولو أنه فعل لما صدته أو نهرته فقد بيتت النية على أن ترد عليه إذا خاطبها أو ألقى عليها السلام . وجاء الترام فركباه وكل منهما ينظر إلى صاحبه كأنما يدعوه إليه .

وفى العصر أسرع إلى غرفة استذكاره وفتح نافذتها ، فألفى كوثر تجلس على كرسيها فى شرفتها ؛ فحياها بإحناء رأسه ، فأومأت له برأسها إيماءة خفيفة ، فجعل يستذكر دروسه منشرح الصدر .

وفى الصباح قابلها عند محطة الترام فابتسم لها ، وابتسمت له ، واقترب منها ، وقبل أن تتحرك شفتاه بالكلام رأى ألا يفعل ، فقد يكون فى حديثه لها فى حيهم ما يسوؤها ، فرأى أن يصبر حتى يبتعدا عن الحى .

وفى ميدان العتبة الخضراء اقترب منها وهمس :

— صباح الخير .

فغمغمت فى صوت مضطرب خفيض ، وقد أطرقت إلى الأرض فى حياء :

— صباح الخير .

وركبا الترام معا ، وجلسا جنبا إلى جنب يتحادثان وقد بان فى وجهيهما السرور .

* * *

رأت الجدة أن ابنها أحمد لم ينل نصيبه من أبناء حسن ، فقد تزوج أسعد وسليم من بنات غير بناته ، وقد كدر ذلك أحمد وساءه ، ولما كانت الجدة لا تحب أن تكدر أحدا ، ولما كان يسرها أن يرضى ابنها ، فقد راحت تذيع أن مصطفى سيتزوج من فتحية ، وكانت تذكر ذلك لزوجة ابنها كلما قابلتها ترضية لها ، وكانت واثقة من أن ذلك الزواج سيتم ، فما كانت تظن أن من حق مصطفى أن يختار زوجه ، وما كانت تحسب أنه يرفض الزواج من ابنة عمه .

وكان مصطفى يستمع إلى ذلك القول فيبتسم فى سخرية ، فغدا تعلم الجدة أنه ليس كأسعد وسليم ، وأن من حقه وحده أن يختار زوجه . وانقضت مدة طويلة ولم ير فيها فتحية . فقد أصبحت تزور البيت الكبير لماما بعد أن كبرت ، وما كانت تمكث طويلا ، فكانت تنصرف دون أن يراها ، وما كان يتصورها إلا طفلة شقية ، تضايقه بعبثها ، وتجرى وراء على تهتف فى إصرار ممقوت : « أبو طويلة .. أبو طويلة » . ما كان يستطيع أن يتصور أن هذه الطفلة العابثة تصلح أن تكون له زوجة ، إنه ما رآها إلا وفكر فى ضربها ، وما كان يحجم إلا خشية إغضاب الجدة .

وفى يوم أقبلت فتحية لزيارة الجدة ، وكان مصطفى جالسا فى الغرفة ، فما إن رآها حتى بانت الدهشة فى وجهه ، فالطفلة الصغيرة ذات العينين المحمرتين قد تبدلت ، وصارت شابة مكتملة الأنوثة ، كانت أجمل من كوثر ، ولكنه لا يبحث عن الجمال فقط ، فهى على الرغم من جمالها لا تصلح له ، إنه طموح . يحلم كثيرا ، ويريد زوجة يفهمها وتفهمه ، يريد زوجة مثقفة لا تقف حجر عثرة فى سبيله بل تقتحم الصعاب معه .

إن فتحية كبقية أهله لا تصلح إلا للبيت ، ولكنه يريد زوجة تشاركه آماله

وأحلامه ، يريدها قوية تشد من أزره ، وتنفخ فيه من روحها إذا ما وهن أو ضعف أو تضعضع .

لو أنه تزوج من فتحية لقضى على نفسه بالخمول ، فما تعرف إلا الاستكانة والاستقرار كبقية أهلها ، ولكنه يريد أن يكافح فى الحياة ليحقق أحلامه ، وما كان لأحلامه حدود .

يريد زوجة تفهم أن الحياة ليست مأكلا ومشربا ونوما ، ولكنها كفاح ونضال ، ومن أجدر بذلك من زوجة مثقفة ، خريجة الليسيه فرنسيه مثلا ، لو أنه تزوج لما تزوج إلا من كوثر .

٧٤

ران على البيت الكبير قلق ، وبان فى الوجوه وجوم ، فكانت أمينة بأسرة الوجه منقبضة الصدر ، وارتسم الحزن فى وجه زكية ، أما الجدة فراحت تغمغم : « والله خسارة .. خسارة كبيرة » ، فقد اشتد المرض بأم أحمد زنوبة ، وأصبح حالها لا يسر حبيبا .

كان حزنهن صادقا ، وكانت فكرة احتمال موت أم أحمد زنوبة تقلقهن وتحز فى نفوسهن ، فلو أنها ماتت لحرمن من الست وردة وبركاتها ، إنها ملاذهن الوحيد ، فما مرض فى البيت الكبير أحد أو أحس ضيقا ، إلا وكانت البلسم الشافى و طبيبة النفوس .

كن يشعرن بأن موت أم أحمد زنوبة رزء كبير ، فستنقطع بموتها كل صلة بينهن وبين الست وردة التى كانت تنزل بقلوبهن الطمأنينة والأمن إذا ما سرى فى صدورهن خوف من غيب أو رهبة من مجهول !

وخرجت أمينة لزيارة أم أحمد زنوبة ، فراحت تضرب فى طرقات ضيقة متعرجة ، ثم دخلت بيتا مهدما ، وصعدت فى الدرج العتيق ، ودخلت حجرة ضيقة ، فرأت أم أحمد زنوبة ممددة فى فراشها ، وقد جلست بنتها أم حبيبة على الأرض بالقرب من رأسها ، فسلمت وجلست ، ومالت على أم أحمد وقالت :

— كيف أنت الآن ؟

— الحمد لله على كل حال ، سأموت يا أمينة .

— بعد الشر ، غدا تستردين صحتك .

— انتهى الأمر .. أيام نمضيها .

ونهضت أم حبيبة ، وكانت قصيرة ، لها رأس صغير ، وعجيزة كبيرة ، وساقان تضجان من حمل تلك العجيزة ، وتركت الغرفة لتعد القهوة لأمينة .
وأسبلت أم أحمد زنوبة عينيها قليلا ، ثم قالت بصوتها المتغير :

— السلام عليكم .

فقالت أمينة وقد انبسطت صفحة وجهها :

— وعليكم السلام يا ست وردة ، كيف حال المريدة ؟

— ستذهب .

فانقبض صدر أمينة ، وقالت فى نبرات حزينة :

— هذا من حظنا السيىء فسنحرم منك ، وسنحس لك وحشة .

ورفعت منديلها إلى عينيها تكفكف عبرة ترقرقت فيهما . فقالت الست وردة .

— اطمئنى ، سأتصل بكم .

فقالت أمينة بغبطة مشوبة بخوف :

ـــ حقا ؟! وكيف ؟

ـــ إننا نختبر الآن أم حبيبة ، فإذا رضينا عنها اتصلنا بكم عن طريقها .

فتهللت أسارير أمينة وقالت :

ـــ الله يبارك فيكم ، ما أطيب أم حبيبة .

ـــ ولكن أم حبيبة تبكى بالليل كثيرا ، فتضايقنا ببكائها .

ـــ سأنصحها أن تكف .

ـــ سأنصرف الآن وسنراكم قريبا . فأم حبيبة آتية .

ـــ مع السلامة .

وأسبلت أم أحمد زنوبة عينيها قليلا ، ثم قالت بصوتها العادى :

ـــ خطوة عزيزة ، ربنا يطرح البركة فيك ، كيف حال ست زكية ، والست الكبيرة ..

ـــ بخير .

وفتحت أمينة حافظتها وأخرجت بعض أوراق مالية دستها تحت رأس أم أحمد ، فأشرق وجه المريضة وقالت فى صوت خفيض :

ـــ ربنا يستركم .

ونهضت أمينة ، فنهضت أم حبيبة ، وتركتا الغرفة ، وقبل أن تهبط أمينة فى الدرج التفتت إلى المرأة القصيرة وقالت فى رجاء :

ـــ بالله كفى عن البكاء .

فقالت المرأة فى انكسار :

ـــ ليت الأمر بيدى ، الرجل خائب ، كلما فكرت فيه جرت دموعى بالرغم منى .

ـــ جففى دموعك ، فستنالين خيرا كثيرا .

ثم هبطت أمينة منشرحة الصدر ، فما أصبح موت أم أحمد زنوبة يحزنها ، فلن تنقطع صلتهم بالست وردة ، وراحت تغذ فى السير لتفضى إلى زكية بالنبأ العظيم .

ودخل مصطفى إلى مكتبه ليستذكر دروسه ، ولكنه أحس ضيقا ، إذ كان الجو حارا ، فارتدى ثيابه وخرج يرفه عن نفسه ، وما إن بلغ ميدان العتبة حتى راودته فكرة الذهاب إلى السينما ، فدخل سينما حديقة الأزبكية ، وراح يبحث عن مكان هادئ يستمتع فيه بالرواية بعيدا عن ضوضاء أولئك الذين يحلو لهم الحديث فى أثناء عرض الفيلم ، وفيما هو يقلب ناظريه فى المكان ، وقع بصره على كوثر تجلس إلى نضد مستدير . كانت فى ثوب وردى بسيط ، وكانت هذه أول مرة يراها فى ثوب غير ثوب المدرسة ، فبدت له فاتنة ناضجة ، فاتجه إليها ، ولمحته قادما فلم تضطرب بل ابتسمت له ، فشجعه ذلك ، ومد يده وصافحها ثم قال :

— وحدك ؟

فأومأت له برأسها أن نعم .

فقبض على الكرسى المجاور لها وقال :

— أتسمحين ؟

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

— تفضل .

فجلس ، وبلغت أذنيه نغمات موسيقية شرقية ، كانت مقطوعة من المقطوعات التى يحبها فقال :

— موسيقى لطيفة .

— لا أظن .

— كيف ؟!

— إنها على وتيرة واحدة سرعان ما تبعث السأم والملل .

— وأى موسيقى تحبين ؟

— الموسيقى الغربية .

— لا تسيغها أذناى .

— سأسمعك بعض مختاراتى ، وسترى أنها موسيقى رائعة .

— ومتى ؟

فضحكت وقالت :

— عقب الامتحان .

ومد بصره أمامه وبان فى وجهه سهوم ، وطال صمته قليلا فقالت له :

— فيم تفكر ؟

— فيك .

— حقا ؟!

— أجل ، كنت أفكر فى مجيئك إلى هنا وعودتك فى الليل وحدك .

فظهر على وجهها أمارات الدهشة وقالت :

— وماذا فى ذلك ما دمت واثقة من نفسى !

وكاد يقول لها فى سخرية : « ومن أين جاءتك هذه الثقة ؟ » ، ولكنه كبح لسانه وقال :

— قد يضايقك بعض الشبان فى أثناء عودتك .

— لا يجرؤ أحد على الاقتراب منى .

— بالله ، ولماذا ؟

— كيف يجرؤ ما دمت أنا لا أريده ؟!

وكادت تتابع حديثها ، ولكن أطفئت الأنوار ، وابتدأ العرض ، فمد يده وقبض على يدها ، فمالت عليه وأسندت رأسها إلى كتفه .

وعادا معا ، وكان يفضل أن يتركها قبل أن يبلغا الحى . ولكنها كانت تسير معه ثابتة الخطو ، لا تختلج فيها خلجة ، وبلغا دارها فصافحته وانصرفت .

ودخل فراشه ، وحاول أن ينام ، ولكنه راح يفكر فيما جرى بينه وبين كوثر ، وتذكر حديثه لها فأحس ضيقا ، فما الذى دفعه إلى ذلك الحديث التافه ؟. أما كان أجدر به أن يحدثها عن جمالها ، وأن يطربها بحديث الحب الشهى ، إنه لا يدرى لماذا يكدر ساعات صفوه بيده .

وتقلب فى فراشه وأغمض عينيه ، ولكن النوم لم يطف به ، فقد كان فكره يعمل ، وتذكر فتحية ، وراح يعقد المقارنات بينها وبين كوثر ، وتخيلها تسير وحدها فى الليل فابتسم فى سخرية .

٧٥

أصبح حسن إذا جلس فى المجل يحس ضيقا ، وإذا ما بقى فى البيت يحس اختناقا ، فكان يأخذ بعض أولاده فى سيارته ويذهب يوما إلى الجزيرة حيث يتناولون عشاءهم ، وينعمون بالهواء الطلق ، ولكن ما إن يعود إلى البيت حتى يعود إلى حسن انقباضه ، ويأخذ فى التقاط أنفاسه فى جهد .

وكان فى بعض الليالى يشتد به الكرب ، فيذبل لونه ، وتغشى وجهه صفرة ، ويرتفع صدره وينخفض ، فكانت أمينة تسرع إليه ، وتدعك رأسه « بالكولونيا » وتنتظر متصبرة لعله يهدأ ، ولكن الأزمة تشتد ، فيسرى فى

صدرها الخوف ، وتلتفت فى الشقة الكبيرة فلا تجد معها إلا ابنتها الصغيرة . فيزداد جزعها ، فتوقظ خادمتها ، وتبعثها إلى الشقق الأخرى فى استدعاء الجدة وزكية والأولاد .

كانوا يهبون من نومهم مفزوعين ، وينطلقون وفى صدورهم رهبة وخوف ، ويسرعون إلى غرفة حسن يتطلعون إليه فيجدونه فى شدته ، فتنصهر قلوبهم ويجلسون مطرقين ، وكانت الجدة تأخذ بيد ابنها فى يديها وترنو إليه وكأن عقدة عقدت فى صدرها فضيقته ، وتهتف فى لوعة :

— حسن ، حسن .. ما بك ؟

وكان نداؤها يبلغ أذنيه . فلا يستطيع أن يرد عليها مما به ، ويروح فى شبه غيبوبة ، فتأخذ فى مناداته ، فيجاهد ليتغلب على كربه ، ليدخل الطمأنينة على قلب أمه الوالهة .

وما كان مصطفى يطيق أن يرى أباه فى شدته ، فكان ينزوى فى غرفة مجاورة ويطرق فى حزن شديد ، كان إذا طالت أزمة أبيه لا يستطيع أن يكبت عواطفه ، فتسيل عبراته على خديه ، ويأخذ فى النشيج ، فتسرع إليه زكية بوجه يلوح فيه الألم ، وتقول فى صوت خفيض تخنقه العبرات :

— كفى يا مصطفى ، كفى . إن هذا يسىء أباك .. إنه بخير ، شدة وتزول .

كان حسن يقاسى من كربه ، ومن نداء أمه وبكاء ابنه ، فكان إذا انقشعت الأزمة ، واختلى بأمينة ، يرجوها ألا تستدعى الجدة أو مصطفى إذا عاودته نوبته .

وما كانت هذه الأزمات تنتابه إلا فى البيت ، فأصبح يكرهه ويمقته ، وفكر أكثر من مرة أن يتركه إلى بيت آخر ، ولكنه كان يحجم ، لأنه ما كان يطيق أن يدع أبناءه وحدهم ، وأن يمر يوم دون أن يراهم .

* * *

أخذ مصطفى يلقى « منلوجا » فكاهيا أمام الجدة ، والجدة تضحك من كل قلبها وتستعيده ، وأخذت زكية تنظر إليه فتنطلق أساريرها ، ولكأنما كان يسوءها أن تبدو ضاحكة ، فما تلبث أن تعبس وتقول :

— والله أنتم مسخرة .

وسمع مصطفى وقع أقدام ، فهرع إلى مقعد قريب وجلس فى وقار ، فابتسمت الجدة ، وابتسمت زكية على الرغم منها ، ودلف القادم من باب الغرفة ، فإذا به فتحية .

وتقدمت من الجدة وصافحتها فى حرارة ، ثم صافحت عمتها ، ومدت يدها لمصطفى وطأطأت بصرها ، فسلم عليها وهو جالس ، وأخذ يرمقها من بين أهدابه . كانت ترتدى معطفا من الحرير الأزرق ، وتروح على وجهها بنقابها الأزرق الشفاف . ورفع بصره إلى وجهها الناصع البياض ، فإذا الحر قد صبغه بحمرة لطيفة ، فبدت لعينيه فاتنة ؛ وعجب فى نفسه كيف تكون هذه الفتاة الناضجة المطرقة نفس الطفلة الشريرة ذات العينين المحمرتين التى كانت تغريه بضربها دائما ؟! .

واستمرت فى صمتها ، وخطر لمصطفى أن يترك لها الغرفة ، ولكنه ظل فى جلسته ينقل بصره فيها يتفحصها من رأسها إلى كعب حذائها ، كانت أجمل من كوثر ، وأكثر حياء ، ولكن لم يكن الجمال كل طلبته ، كان يريد فتاة واسعة الأفق ، إذا أكب على عمله تركته دون أن تقتحم عليه خلوته ، أو تثور لتركها وحيدة ، يريدها ذكية تفهم أنه فى كفاحه إنما يكافح لنفسه ولها ، يريدها من طراز غير ذلك الطراز المستكين القانع الذى تخرجه أسرته .

وغابت الشمس ، فنهضت فتحية لتنصرف ، وما كانت الجدة تسمح لها أن تنصرف وحدها بعد غياب الشمس ، على الرغم من أن بيتهم ما كان يبعد

عشرات الأمتار عن البيت الكبير ، كانت ترسل معها خادمتها ، ولكنها أرادت فى ذلك اليوم أن تمهد لتحقيق رغبتها ، فقالت لمصطفى فى بساطة :

— وصل بنت عمك .

فرنا مصطفى إليها رنوة خبث وابتسم ، كأنما يقول لها إنى أفهم ما ترمين إليه ولكن هيهات ! ، و لم تلتفت الجدة إليه و لم تفهم نظرته ، بل مدت يدها تصافح فتحية ، وخرجت فتحية من الشقة ومصطفى فى أثرها ، وهبطا فى الدرج حتى إذا بلغا باب البيت الخارجي تأخر فى أدب ، وتركها تمر أولا ، وعجب فى نفسه من تصرفه ، فإنه يعامل طفلة الأمس الشريرة فى لباقة وكياسة ، وما كان يدور بخلده أن يحدث ذلك يوما .

وسارا دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، ونظر إليها من طرف عينيه فألفاها مطرقة ، ورأى وجهها تحت النقاب الأزرق الخفيف قد تضرج بحمرة خفيفة ، ترى ماذا يعتمل فى صدرها ؟ واقترب من البيت الذى تقطنه كوثر ، فمد بصره إلى الشرفة ، فرأى خيالا لم يقدر أن يميزه ، فابتعد عن فتحية قليلا خشية أن تلمحه كوثر معها ، فيثير ذلك مشاكل هو فى غنى عنها .

وبلغا بيت عمه ، فوقف عند الباب وقال لفتحية :

— مع السلامة .

فقالت له فى صوت مضطرب وقد ازداد احمرار وجهها :

— تفضل ، اطلع .

— متشكر .

وصعدت ، ووقف يرقبها حتى غابت عن عينيه ، فانصرف إلى البيت وهو يفكر فيما فعلته الجدة فيبتسم فى سخرية ، فلن يكون ألعوبة فى يدها ، وإنه ليسوؤه أن يكون فشل الجدة لأول مرة فى تزويج فلان من فلانة على يديه .

وصعد شقة أبيه ينتظر العشاء ، فاقتربت منه أمه وهى تبتسم ابتسامة يفهمها ويعرف مدلولها ، كانت تعنى أن لديها حديثا تريد أن تفضى به إليه فتطلع إليها مستفسرا ، فقالت :

— تريد الجدة أن تزوجك من فتحية ، وأنا أرى أنها فتاة طيبة ، فتاة ..

— تزوجيها أنت .

وتركها مشدوهة ، لا تجد ما تقوله .

* * *

اليوم يوم الأحد ، ومصطفى فى إجازته السنوية لا يجد ما يفعله ، فخطر له أن يذهب إلى السينما فى حفلة الصباح ، وتذكر كوثر ففكر أنها قد تذهب أيضا ، فدخل غرفة مكتبه وفتح شباكها فلمحها فى شرفتها فى ثياب الخروج فابتسم لها ، وأشار إليها مستفسرا هل ستخرج الآن ؟ فأشارت له برأسها أن نعم ، فأشار لها أن تنتظره حتى يرتدى بذلته ، وما انقضت دقائق حتى عاد مرتديا ثيابه ، فأشار لها لتهبط .

وذهبا إلى السينما معا . وكانت ترتدى ثوبا أخاذا كتلك الأثواب الفاخرة التى ترتديها كواكب السينما ، وما إن بلغا الدار حتى ألفيا الردهة الخارجية قد التجت بالناس ، فتناول يدها فى يده وراح يخترق الجموع ، ولمح الشبان يتطلعون إليها فى فضول فأحس راحة ، فقد كان يعلم أنها جميلة ، وكان يسره أن يرى تقدير ذلك الجمال فى عيون الناس .

وابتدأ عرض الرواية الرئيسية ، وكانت بطلتها جانيت مكدونالد ، فراعه أن الثوب الذى ترتديه كثوب كوثر ، ونظرت إليه من طرف عينها فلمحت آى الدهشة فى وجهه فابتسمت فى رضا ، وهم بأن يهمس فى أذنها بشىء ، ولكنه كبح جماح نفسه ، إذ خشى أن يزعج همسه الجالسين بجواره .

وانتهى العرض ، وخرجا إلى الطريق ، فراح يحدق فى ثوبها وهو يبتسم ثم قال :

— أهلا كوثر مكدونالد .

فرنت ضحكتها الناعمة الحلوة ، فأشاعت السرور فى نفسه ، وقالت :

— رأيت هذا الثوب فى مجلة من مجلات السينما الأمريكية .

فقال فى إنكار :

— ولكنك لا تعرفين الإنجليزية !

فضحكت وقالت :

— وهل لابد أن أعرف الإنجليزية لأتفرج على الصور وأنتقى الأثواب التى تعجبنى !

فقال وهو يبتسم فى مرارة :

— آسف ، اغفرى لى غبائى .

ووصلا إلى محل للمثلجات ، فعرجا إليه ، وجلسا حول نضد صغير ينتظران عودة النادل بما طلبا ، وتذكر حديثها له يوم قابلها وحدها فى سينما الأزبكية فقال :

— وعدتنى بأن تسمعينى بعض مختاراتك من الموسيقى الغربية وها قد انتهى الامتحان ، فمتى تبرين بوعدك ؟

فقالت فى بساطة :

— غدا إذا شئت .

— غدا .

— وأين ؟

فأطرق قليلا ثم قال فى سخرية :

— فى القناطر الخيرية .

وانتظر أن ترفض فى شدة ، فكيف تقضى طول النهار بعيدة عن البيت . وتأهب لأن يضحك ، ولكن أدهشه أن قالت موافقة :

— فكرة طيبة .

ونظر إليها فى دهشة . وفكر فى أن يسألها عما ستقوله لأخيها لتبرر غيابها عن البيت النهار بطوله ، ولكن النادل أقبل ، ووضع أكواب الماء المثلج والمرطبات على النضد ، فأخذ مصطفى يتجرع الماء ويفكر فيما يجول بخاطره ، فرأى أن الأفضل ألا يسألها ذلك .

وفيما كان مصطفى يتناول المرطب الذى طلبه راعه أن رأى راشيل تقف عند باب المحل ، تنظر إليه وقد اكفهر وجهها ، فاضطرب وخفق قلبه حتى أحس به يكاد يقفز من فيه ، وتفصد العرق من وجهه ، وبان عليه الارتباك الشديد ، ولو أن كوثر نظرت إليه فى تلك اللحظة ، والتفتت خلفها لحزرت كل شىء ، ولعلمت أن وجودها لا يحول بين روحين أن تتعاتبا فى مرارة .

وانصرفت راشيل ، وظل مصطفى فى وجوم ، ولو أنه فكر قليلا لقهقه طويلا ، فإن الصدفة القاسية قد ساقتها إلى ذلك المحل فى تلك اللحظة لتسقيها من نفس الكأس التى جرعته إياها ، يوم جاءت بها إلى السينما وأجلستها إلى جانبه وبرفقتها عشيق جديد !

كانت صدفة قاسية رائعة ، فلو أنه فكر فى أن يثأر لنفسه ، ولو أنه دبر هذه المقابلة المريرة لما وفق توفيق اليوم . ولكن ذلك لم يعجبه .. فيالرشيل ، صفعت صفعة ترنحت لها وما يحب أن تقاسى أو تتألم ، فهو ما يزال يهواها على الرغم من كل ما فعلته .

ونهضا ، واستمر فى سهومه ووجومه ، ولاحظت كوثر صمته فعزت

ذلك إلى الإجهاد الذى يحس به المرء بعد مشاهدة رواية غنائية صاخبة فالتزمت الصمت ، وبلغا أول الشارع وهما بالانفصال فقالت كوثر :

ــ غدا فى السابعة .

ــ إلى الغد .

وسار يفكر فى راشيل فينقبض صدره ، ويدق قلبه ، ويشعر بحزن خفيف يلفه ويستولى عليه .

ونهض من نومه فى الصباح الباكر وارتدى ثيابه ودخل غرفة مكتبه ، ووقف فى نافذتها يرقب شرفتها . وانقضى بعض الوقت قبل أن تظهر فى الشرفة وتشير له بالنزول .

وقابلها عند نهاية الشارع ، كانت فى ثوب أبيض بسيط يحاكى الأثواب التى تخصصها فتيات المدارس للألعاب الرياضية ، وكانت تحمل فى يد فنوغرافا على هيئة صندوق أسود صغير ، وتحت إبطها الآخر صندوق آخر به بعض الأسطوانات ، فمد يده وحمل عنها الفنوغراف .

ووصلا إلى القناطر فرأى أن يعد غداءهما ، فذهب إلى محل جزار واشترى منه لحمة ثم اشترى بطاطس وبصلا وأخذ يقشر البطاطس . وأخذت كوثر ترقبه وهى تضحك ، ولف اللحمة والبطاطس والبصل فى ورقة ، وسأل عن فرن قريب .

وسار وكوثر إلى جانبه تضحك وتقول :

ــ إنك طاه ماهر ، إنى لا أعرف كيف أقشر بصلة .

فنظر إليها وقال وهو يبتسم :

ــ شاطرة .

ــ يا بخت من يتزوجك ، ستوفر أجر الطباخ .

فقال لها فى خبث :

ــ يا بختك !

فأطرقت وقد تطلق وجهها ، وسارا يتجاذبان أطراف حديث تافه ولكن كل منهما يحس له لذة .

وانتقيا مكانا منعزلا يشرف على النيل وجلسا ، وفتحت صندوق الفونوغراف الأسود الصغير وتناولت من الصندوق الآخر أسطوانة وضعتها على القرص الدائر ، وتمدد مصطفى وتأهب ليهيم مع الموسيقى الرائعة فى أجواء الخيال .

كان ينتظر أن يسمع سيمفونية من السيمفونيات الشهيرة ، فما كان يظن أن فتاة الليسية المغرمة بالموسيقى الغربية تنتقى غير السيمفونيات ، وانتظر أن يسمع محاضرة عن السيمفونية ومؤلفها وتاريخ حياته ، والظروف التى أثرت فيه وأحاطت به وهو يؤلف قطعته الرائعة الخالدة ، ولكن ما دوت الموسيقى وقرعت أذنيه حتى امتعض ، ثم قهقه فى هزء . فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها :

ــ ما الذى يضحك ؟

ــ منتخباتك .

ــ ما بها ألا تعجبك ؟

ــ إنها ليست رائعة .

ــ ولماذا ؟

ــ إنها موسيقى منولوجات ، كارمن ميراندا تلقى بعض قطعها العابثة .

ــ ولكنها تشيع البهجة فى نفسى ، وما نريد من الموسيقى أكثر من هذا .

ــ هذه موسيقى خفيفة ، كالموسيقى التى تصاحب حسين وفتحية المليجى .

ـــ وما الموسيقى الرائعة .

ـــ الموسيقى المصورة المعبرة ، التى تجعل روحنا تهيم فى العوالم التى أراد المؤلف أن يرفعنا إليها .

ـــ ما سمعت هذه القطعة إلا تمايلت سرورا .

ـــ ليس من الضرورى أن تكون الموسيقى التى تهز الأعطاف بموسيقى رائعة ، فالطبل البلدى يدفعنا إلى الرقص ومع ذلك فما هو بالموسيقى المعبرة .

ـــ أحسب أن هذه القطعة معبرة .

ـــ أتعرفين معنى الكلمات التى تغنيها ؟

ـــ لا . لا أعرف الإنجليزية .

ـــ معناها تافه .

ـــ وماذا تقول ؟

ـــ تقول : أحب قوامك الممشوق ، وأحب عينيك ، أتحب شفتى ؟

ـــ أهذا كل ما فى الأغنية ؟

ـــ لا . إنها تسأله عما إذا كان يحب بعض أجزاء أخرى فى جسمها .

فأطرقت كوثر قليلا ثم قالت :

ـــ آسفة ما كنت أعرف .

ـــ لا بأس ، إنها تترجم عن روح العصر ، أصبح الحب ماديا ؛ حب الشفاه وحب النحور ، وحب الصدور .

واصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة ، وأحس أنه قد تجاوز حده فصمت وأسبل عينيه ، ومر بعض الوقت وهما فى صمتهما ، وراحت تحدق فى وجهه وجال برأسها خاطر فابتسمت وأخرجت حافظتها من الصندوق الذى وضعت به الأسطوانات ثم فتحتها وتناولت ملقطا ، ومالت نحوه قليلا ،

وهمت بأن تنزع من حاجبه بعض شعرات ، فهب مفزوعا وقال فى عتاب :

— ما هذا ؟

فضحكت وقالت وقد وضعت أصبعها على أعلى حاجبه .

— لو نزعت هذه الشعرات القليلة لأصبحت تشبه روبرت مونتجومرى تمام الشبه .

فانفرجت زاوية فمه اليمنى قليلا ، وزفر زفرة قوية دليل السخرية وقال :

— حقا !

— أجل .

فمد يده وتناول خصلة رفيعة من شعرها ، وثبتها بأصبعه تحت أنفها على هيئة شارب وقال :

— لو نبت بك هذا الشارب لأصبحت شبه جون جليبرت تماما .

فأمالت رأسها إلى الخلف فى قوة ، فسقطت خصلة الشعر وعادت سيرتها الأولى ، ورأت وجهه يتطلق فابتسمت .

ورأى القوارب تتهادى فى النيل ، فقال :

— هيا نركب مركبا .

— ليس الآن ، فالشمس فى كبد السماء ، ما أحلى النيل ساعة الأصيل .

— إذن نذهب لنحضر طعامنا .

— فلنمتط حمارين فى ذهابنا .

فعبس فى حركة تمثيلية ، وقال فى شدة :

— كوثر !

— وماذا فى ذلك ؟ لقد ركبت حمارا فى السنة الفائتة .

— كنت طفلة ، أما الآن فأنت شابة مليحة .

فضحكت وقالت :

ــ هل كبرت فى سنة ؟

ــ قد يكبر المرء فى يوم .

ــ ونهض ، وتحركت لتنهض ، فقال لها :

ــ إلى أين ؟

ــ ذاهبة معك .

ــ ومن يحرس الملابس ، والفونوغراف والأسطوانات !!

فاعتدلت فى جلستها وقالت :

ــ أنا .

ــ سأعود حالا .

وراح يهرول حتى إذا ما بلغ « الترولل » ركبه ، وغاب عن عينيها ، فأخذت ترقب المراكب ، وتفكر فى حالها فتحس غبطة ، ومر الوقت بطيئا وعاد يحمل الطعام ، فوضعه أمامها ، وأخذا يأكلان ، فقال لها :

ــ ما رأيك ؟

ــ لذيذ ، أنت طباخ ممتاز .

ــ هذا طعام الكسالى يصنعه كل إنسان .

ــ ولكنى لا أعرف كيف أصنعه ، إنى لا أعرف عن الطهو شيئا فإنى أقضى معظم وقتى فى المدرسة بينما خادمتنا تجهز طعامنا ، كانت أمى طباخة ماهرة .

ــ سأعلمك الطبخ يوما .

فضحكت وقالت :



فأخذت ترقب المراكب ، وتفكر فى حالها فتحس غبطة ..

(فى قافلة الزمان)

— وأين ؟

فقال لها وقد رنا إليها فى حنان والتمعت عيناه سرورا .

— فى بيتنا .

٧٦

مصطفى يمر تحت شرفة كوثر ، وفتاة تناديها من الطريق ، فتطل كوثر وتصيح بالفرنسية : اصعدى ، ثم تدور محادثة بالفرنسية بين الصديقتين ، فيحس مصطفى ضيقا ويمتعض ، ويشعر لأول مرة ببغض لصوتها ، ويتمنى صادقا أن تصمت ، فقد كان يرى أن صوت المرأة عورة ، وقد ورث ذلك عن أهله ، فقد كانوا يشمئزون إذا ما ارتفع صوت نسوى ، وكان يضطرب إذا ما ذكر غريب أمامه اسما من أسماء نساء الأسرة وفتياتها . إنه يذكر حادثة تافهة وقعت من خمس عشرة سنة ، يوم ذهب إلى ضابط المدرسة الابتدائية ليقدم له شهادة ميلاده ، فقرأ الرجل اسم أمه بصوت مرتفع ، فثار دمه فى عروقه غضبا ، وإنه لا يذكر ذلك إلا ويثور ويضطرب .

كان يضايقه أن يجرى اسم كوثر على ألسنة بعض أصحاب المحال فى الحى ، فقد سمع مرة الكواء يقول لصبيه ، وصل هذه الملابس إلى كوثر ، فلم يرتح إلى ذلك ، فقد كان يفكر فى أن يتزوجها ، فخشى أن يدعوه الناس بعد زواجه منها بزوج كوثر ، كما حدث لجار لهم فنيت شخصيته فى زوجه لأن اسمها كان شائعا فصار أهل الحى إذا ما تحدثوا عنه قالوا : زوج ست منيرة !

وبلغ محطة الترام ووقف مطرقا يفكر ، وتلفت خلفه فلمح كوثر وصديقتها مقبلتين ، فارتسم الجد فى وجهه ، ومرا بجواره فابتسمت كوثر

ابتسامة خفيفة وظل وجهه جامدا لا يتطلق ، وجاء الترام فركبوا جميعا . وفى ميدان العتبة الخضراء هبطوا ، وسار مصطفى فى طريقه دون أن يلتفت إليها ، فما كان من عادته أن يحادث فتاة إذا كانت فى رفقة صديقة .

وهرولت كوثر خلفه ، حتى إذا ما التصق كتفها بكتفه قالت :

— صباح الخير .

فالتفت إليها وهو سائر فى طريقه ، فظهر عدم الارتياح فى وجهه وقال :

— صباح النور .

— لماذا هذا الجرى ؟

— عندى ميعاد مع صديق .

— هل علمت ؟

— ماذا ؟

— سنسافر إلى الإسكندرية بعد غد .

— وأين تنزلون ؟

— فى سيدى بشر .

— قد أسافر بعد أسبوع .

— أقابلك هناك .

— إلى اللقاء .

وانصرفت وعادت إلى صديقتها التى وقفت تنتظرها وانطلق وهو يفكر فى كوثر الرعناء التى حادثته أمام صديقة لن تغلق فاها بعد ما رأت عيناها ، واستمر يفكر ويفكر ، وما دار بخلده أن ذلك أصبح حادثا تافها لا يستحق التفكير !

وسافرت كوثر ، ومر أسبوع فسافر مصطفى ، ووصل إلى الإسكندرية

بعد أن أدبر النهار ، فذهب إلى سيدى بشر ، ونزل هناك ، وبات ينتظر طلوع النهار .

وأشرقت الشمس فارتدى ثيابه وخرج إلى الشاطئ ، وراح يبحث عنها تحت المظلات وبين الجالسات يتطلعن إلى البحر وقد لفحت الشمس وجوههن فأكسبتهن سمرة محببة ، وراح ينقل بصره بين الوجوه ، ويقطع الشاطئ جيئة وذهابا ، ووفد المصطافون حتى اكتظ المكان بهم ، وظل ينقب عنها دون جدوى ، وخطر له أنها قد تكون فى بيتها ، تكتفى بالجلوس فى شرفة من شرفات الدار تنعم بهواء البحر من بعيد ، دون أن تندس بين أكداس الأجساد العارية التى تتقزز النفس من النظر إليها والتحديق فيها .

وهم بأن يعود على أن يبحث عنها فى العصر ، فقد تهبط لتتمشى على الكورنيش ولكنه رأى أن يجلس على الرمل ليستريح ، وراح ينظر إلى المستحمين دون اكتراث ، ويعبث بأصبعه فى الرمل الذى يغمره الموج ثم ينحسر عنه ، ولفح الهواء وجهه فأنعشه ، ورفع رأسه وأخذ يجيل عينيه فى الشاطئ الطويل وقد سكنت الطمأنينة صدره ، ونسى نفسه فظل فى جلسته هادئا ، واستراحت أعصابه ، وكأنما تخدر فكره فركن إلى عدم التفكير .

وفيما هو ينظر أمامه إذ لمحها تخرج من البحر عارية ، فما كان لباس البحر يخفى شيئا ، فثار دمه فى عروقه ، وشعر بتقزز وضيق ، فقد بدت لعينيه بغيضة تافهة ، أصبحت رؤيتها تؤذيه ، فتقلصت عضلات وجهه ، وبان عليه الحنق الشديد .

وأطرق وقد رانت عليه كآبه وحزن ، ودار على عقبيه دون أن ينظر إليها ، فقد صار منظرها وهى عارية يوحى إليه بالبغض والنفور ، وسار وما إن نقل قدميه حتى سمعها تهتف :

— مصطفى .. مصطفى .

فوقف دون أن يلتفت إليها ، وأقبلت متهللة وراحت تصافحه فى شوق .

— أهلا .. أهلا . حمدا لله على السلامة .

فقال فى صوت خفيض دون أن يرفع بصره إليها :

— الله يسلمك .

وتركته ، وراحت تهرول قائلة :

— انتظرنى ، سأعود حالا .

فتبعها ببصره فرأى لحمها الأبيض المكتنز يرتج ويتاوج ، وثدييها يقفزان فى رعونة ، فزاد ألم نفسه ، وأحس قلبه ينقبض ، وعادت إليه وقد ارتدت (روبا) يخفى لحمها ، ولكن عينه ما كانت تراها إلا عارية .

وأقبلت عليه وقالت له :

— متى جئت ؟

— أمس مساء .

— وأين تنزل ؟

— فى بيت قريب من هنا .

— وهل تمكث طويلا ؟

— لا أدرى .

ولاحظت وجومه وإطراقه ، فقالت :

— ما بك ؟

— أحس تعبا .

فقالت وهى تضحك :

— لا . اذهب ونم فسنسهر الليلة طويلا .

فتركها وسار دون أن يتفوه بكلمة ، فصاحت به :

ـــ سأنتظرك فى السابعة .

وذهب إلى حيث ينزل منقبض الصدر ، يلفه الحزن ، ويستولى عليه الوجوم ، وتمدد فى فراشه ، فاحتلت صورتها وهى عارية فكره ، فجعل يتململ فى رقدته ويحاول أن يطرد تلك الصورة التى كانت تزداد بشاعة فى مخيلته ، ولكنها كانت تلح عليه وتتجسم أمام عينيه ، فيلف ذراعيه ليخفى بهما وجهه ، وعلى الرغم من ذلك ظلت صورتها ماثلة أمامه لا تريم .

ومد يده وتناول كتابا وفتحه ، وحاول أن يقرأ ، ولكنه لم يفهم مما قرأ حرفا ، فقد كان ذهنه منصرفا عن القراءة إلى الجسد العارى البغيض.وعذبه فكره فنهض واتجه إلى النافذة الوحيدة التى فى الغرفة وأطل منها وأخذ يحاول أن يجتر بعض ذكرياته ليشغل ذهنه بها ، ولكن صورتها العارية كانت تطفو فوق الذكريات حتى تحتل كل تفكيره .

وراح الوقت يمر فى بطء شديد ، وضاق بأفكاره ، فترك الغرفة وانطلق إلى الطريق . سار على الكورنيش يغذ فى السير لينهك جسده لعل التعب يعطل فكره . وكانت الشمس فى كبد السماء ترسل أشعتها الحامية ، فتفصد العرق منه غزيرا ، وظل فى سيره حتى أحس بالتعب يدب فيه دبيبا ، وركن فكره إلى الهدوء ، فجلس على مقعد فى الطريق يجفف عرقه ويلتقط أنفاسه .

وعاد إلى غرفته ، وما إن أغلق بابها عليه حتى عاد فكره يهاجمه ويضنيه. ورأى ألا يخرج لمقابلتها ، ولكن ما إن اقترب الميعاد حتى ارتدى ثيابه ليفر من نفسه التى كانت تعذبه وتشقيه .

وقابلها ، وكانت ترتدى ثوبا فى لون السماء الصافية ، فصافحها فى تراخ واغتصب ابتسامة ، وسار برفقتها ، وهب نسيم البحر اللطيف فأنعش

روحه ، وصفت نفسه ، واستمرا فى صمتهما إلى أن قالى لها :

ـــ إلى أين ؟

ـــ فلنمض السهرة فى ملهى من ملاهى الإسكندرية .

ـــ كما تحبين .

ورأى تاكسيا قادما ، فأشار له ، وركبا وقالت للسائق :

ـــ بيلافستا من فضلك .

وانطلقت السيارة تقطع طريق الكورنيش ، ثم وقفت أمام بيلافستا ، فدلفا من باب الملهى ، كانت هذه أول مرة يطأ فيها مصطفى ذلك المكان ، فكان يتلفت يمينا ويسارا ، أما كوثر فقد كانت تسير ثابتة الخطو شأن من يعرف إلى أين يهدف ، فهى من رواد هذا المكان بلا شك .

وأجال مصطفى عينيه فى المكان فرأى الفرقة الموسيقية تحتل مكانا مرتفعا ، وانتثر حول حلقة للرقص نضد ومقاعد ، وانبعث الضوء هادئا خافتا من مصابيح محجوبة ، واحتلا نضدا ، وأقبل النادل ، فطلب مصطفى « جيلاتى » فرمقه الرجل فى زراية وانصرف .

وعزفت الموسيقى فقام إلى حلقة الرقص رجال ونساء ، والتفت الأذرع حول الخصور ، وتلاصقت النهود والصدور ، وظل مصطفى فى حديثه ، وإن كانت كوثر تلتفت إلى حلقة الرقص بين وقت وآخر .

وصمتت الموسيقى فصفق الحاضرون ، وعاد الراقصون إلى أماكنهم ، وفتحت زجاجات ، وملئت كؤوس ، ثم عزفت الموسيقى ثانية ، فتقدم شاب أسمر من كوثر وانحنى لها وغمغم فى صوت خفيض :

ـــ أتسمحين ؟

بغت مصطفى وبهت ، ونظر إلى الشاب فى غضب ، ولكن كوثر لم

تلحظ غضبه فنهضت وسارت مع الشاب ، حتى إذا هبطا إلى الحلقة ، وضع ذراعه حول خصرها ، وراحا يرقصان فى غبطة وسرور .

وثارت دماء مصطفى فى عروقه ، وجعل الحنق الشديد ينتشر فى صدره حتى أحس به يضيق أنفاسه ، وانقبض قلبه ، وراح يصرف أنيابه فى غيظ ، ويكبت ثورته التى تود أن تنطلق وتحطم كل شىء .

وفكر فى أن يدعها وينصرف ، فما كانت تستأهل أن ينتظرها ، ولكنه رأى أن يتربث ويتحلم الليلة ثم يهجرها فى هدوء ، وحاول أن يعيد إلى نفسه طمأنينتها ولكنه لم يفلح ، بل ظل فى غضبه وعبوسه ، وحنقه الشديد .

وراحت الموسيقى تدوى فى أذنيه دويا بغيضا ، فتهيج أعصابه وتزيد آلامه ، فقد كان لها فى نفسه أثر العويل والنحيب ، ونظر إليها فألفى وجهها متطلقا ، فأغاظه انشراحها ، وأحس كأن يدا قوية تقبض على رقبته فتكتم أنفاسه ، فجعل يلتقط الهواء فى جهد ويزفره فى صوت مسموع .

وصمتت الموسيقى ، وأقبلت كوثر متفتحة النفس ، تبتسم فى رضا ، وجلست وهى تقول :

— ما ألذ الرقص .

فود لو يصفعها ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، وأخذ يعبث فى كوب ماء متشاغلا عنها حتى لا تلحظ ما اعتراه من تبديل ، وأخذت تحدثه وهو صامت ، ولاحظت شروده فقالت :

— ما بك ؟

فقال فى صوت أجش يوحى بالثورة والغضب :

— لا شىء .

— ماذا جرى ؟

ـــ لا شيء .

وساد الصمت بينهما ، وشعر ببغض للمكان ، ورأت أن جلستهما أصبحت لا تطاق فنهضت ونهض ، وخرجا إلى الطريق فالتفتت إليه وقالت :

ـــ ماذا دهاك ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

ـــ لا شيء .

وركبا سيارة ، وانطلقت بهما دون أن يتبادلا كلمة ، وظلا مطرقين وقد ارتسم فى وجهيهما الأسى كأنما عادا بعد أن قبرا شخصا عزيزا . وبلغا سيدى بشر ، فهبطا من السيارة ، وانتظرت أن يصافحها قبل أن يدعها ، ولكنه أومأ لها برأسه إيماءة خفيفة وانصرف .

وحاول أن ينام ، ولكنه لم يغمض له جفن ، فقد كانت صورتها وهى عارية تحتل فكره ، وما كانت تبرحه إلا ليحل مكانها صورتها وهى تخاصر ذلك الشاب الأسمر . لقد عرفها من سنة ، وسار معها فى الليل والنهار ولم يضع يده على خصرها ، وإذا بذلك الشاب يلف ذراعه حولها ويلصق صدره بصدرها ، بعد لحظة واحدة . إنها فتاة تافهة ، لا تستحق أن يفكر فيها أو يحزن عليها .

وفى الصباح غادر الإسكندرية ، فلم يعد هناك ما يدعوه للبقاء ، ووصل إلى البيت ، فلما رأته أمه قالت :

ـــ لقد عدت سريعا !

فقال وهو يجفف عرقه :

ـــ سئمت العيشة وحدى .

فابتسم حسن فى رضا ، فقد سره أن ابنه لا يطيق البعد عن البيت مثله .

٧٧

راح مصطفى يضرب فى شوارع الحى بلا غاية ، فما كان يدرى إلى أين يتوجه ، فقد سئم المكوث فى البيت ، وما كان له صاحب يزجى وقت فراغه معه ، وما كان يستطيع اليوم أن يرافق أباه فى الذهاب إلى الحسين أو السيدة زينب أو الإمام الشافعى كما اعتاد أن يفعل بعد أن هجر كوثر ، فسيرافقه الليلة ممدوح وأسعد وسليم وصديق من أحبابه ، وما كانت السيارة تسع أكثر من هذا ، ولو أنها اتسعت له فما كان حسن يحب أن يجمع كل أبنائه حوله .

ووفد الليل ، فأضيئت الأنوار ، وفكر فى أن يعود إلى البيت ، فقفل عائدا وحيدا فى الطريق الذى قطعه آلاف المرات فى رفقة راشيل ومارى . كان يشعر بوحشة . فخيل إليه أن العالم هجره ، وأن نفسه قد فرت منه فما يعود يسمع هتافاتها التى كانت تنبعث من جوفه تدفعه إلى هذا ، وتنهاه عن ذاك ، وخيل له أن الطريق قد تبدل ، فنظر إلى المصابيح الخافتة الممتدة على جانبيه فبدت لعينيه كأنما قد شاخت ، وضاق بالسكون المسيطر على الشارع وكان ذلك السكون يعجبه ، وبلغ باب البيت وهو يحس سأما وتبرما وهم بأن يصعد ليقبع فى غرفة من الغرف ينتظر موعد نومه ليندس فى فراشه دون أن يطمع فى أن يرى رؤيا جميلة ، ومن أين له ذلك ما دامت نفسه هاجعة ، ولكنه رأى ألا يستسلم لقنوطه ، فانطلق إلى قلب المدينة الصاخب ليفر من كآبة نفسه ، وذلك الوجوم الذى لفه واستولى عليه .

واندس بين الجموع المتدفقة المتلاطمة فى شارع فؤاد الأول ، وراح يتلفت يمينا وشمالا يتفرس فى الوجوه ، وينظر إلى الأنوار المتألقة ، ويمد بصره

إلى المبانى الشامخة ، وكان كلما قطع خطوات وقف يتفرج على معروضات المحال ، وإن يكن قطع ذلك الشارع آلاف المرات قبل اليوم إلا أن كل شيء بدا له جديدا ، فقد كان يسير فيه أيام الصفاء وهو مشغول بنفسه لا يرى ما حوله ، ولا يفكر إلا فى أمره .

ورأى نفسه يعبر الطريق دون تفكير ، ويسير فى شارع عماد الدين كالمأخوذ ، ولا يحس بنفسه إلا وهو واقف أمام المحل الذى تعمل فيه راشيل . اقترب من باب المحل ونظر ، فوقعت عيناه أول ما وقعت عليها ، كأنما جذبهما إليها مغناطيس ، فسرت فى بدنه قشعريرة خفيفة ، ورفعت رأسها فاضطرب وتقهقر خشية أن تراه ، وخفق قلبه وتدفقت دماؤه الدفينة فى عروقه ، واستيقظت نفسه الهاجعة فأحس كأنما بعث من جديد .

وابتعد عن المحل قليلا ووقف يرقب الباب ، فقد اقترب موعد خروج العاملات ، وانتشر فى صدره خوف لذيذ ، خوف امتزج بأمل وقلق ، وجعل يفكر فيما يفعله إذا خرجت ، فرأى أن يقترب منها وأن يصافحها وهو يبتسم كأنما كان معها بالأمس فقط ولم يفترقا لسنين ، وكاد يركن إلى ذلك الخاطر ولكنه راح يفكر فيما يكون موقفه لو أنها أعرضت عنه وسارت فى طريقها نافرة من المشاكس الثقيل .

وتصارعت فى ذهنه الأفكار ، وتضاربت فى صدره الأحاسيس . فلم يتبرم ولم يضق بنفسه بل شعر بسرور ، فقد كاد ينال منه ذلك الهدوء الذى سكن قلبه بعد أن عاد من الإسكندرية ، حتى خشى أن يكون قلبه قد مات بعد أن استنفد طاقته من الأحاسيس !

وخرجت العاملات ، وخرجت راشيل ، فشعر بتيار كهربى يسرى فى جسمه فانتفض ، وجعل قلبه يدق فى صدره دقا عنيفا ، وأحس كأن روحه

تسحب منه فغشيته غيبوبة لم تستغرق لحظات ، ولما أفاق لنفسه كانت راشيل قد ابتعدت عنه قليلا ، فجمع أطراف شجاعته وأغذ فى سيره ليلحق بها ، لم يعد يفصل بينه وبينها إلا خطوات فأرهفت منه الحواس . وأخذ قلبه يقفز حتى يكاد يخرج من فيه ، ثم يعود فيغوص حتى يحس به فى قدميه ، وخشى أن يكون صوته قد حبس فتنحنح ، ودنا منها وفتح فاه ليقول لها : « مساء الخير يا راشيل » ، ولكنه لمح شابا يقبل عليها وقد تطلق وجهها ، فخفف من خطوه وأخذ يرقب الشاب ، فألفاه يصافحها فى سرور ، فتسمر فى مكانه وقد تملكه غيظ وحنق ، وسمع صوتا كفحيح الأفعى ينبعث من جوفه يسخر منه ، فازدادت ثورة نفسه ، ولكن ما لبث أن انقشع غضبه ، وماتت فورته ، فعاد إلى البيت مطرقا يلفه هدوء حزين .

وانقضت أيام ومصطفى لا يغادر البيت إلا نادرا ، وشعر بملال ففكر فى الخروج ، وتحرك فى مقعده لينهض ؛ وفى هذه اللحظة أقبلت فتحية لزيارة الجدة ، فهب واقفا وقد أشرق وجهه ، ومد لها يد وصافحها فى رقة ثم جلس ، فقد أقلعت عن ذهنه فكرة الخروج .

وتبخرت أبخرة الكآبة التى كانت تضيق صدره فانشرح وتبدت روحه المرحة فجعل يداعب الجدة ويضاحكها فتضحك من كل قلبها ، فتبتسم فتحية فى خفر وتطاطىء رأسها لتخفى ابتسامتها وتكبت ضحكاتها التى يكاد يفلت منها زمامها .

ومر الوقت حلوا ، وغابت الشمس عن الكون ، فقام مصطفى وارتدى ثيابه ، فهو يعلم أن موعد أوبة فتحية قد آن ، وقد قر رأيه على أن يوصلها حتى دارها . وعاد إلى الغرفة التى كانت فيها ، وجلس قليلا ، ثم قال ليسمع الجدة :

— أنا خارج .

فقالت الجدة فى رجاء :

— انتظر قليلا لتوصل بنت عمك .

وكان هذا ما يرمى إليه ، فجلس مطمئنا ينتظر نهوض فتحية ، وما مرت لحظات حتى قامت ، وهبطا إلى الطريق ، وانطلقا وهو مقبل عليها يحادثها ، وهى تنصت إليه فى اهتمام ، ومرا تحت شرفة كوثر ، فلم يبتعد عنها كما فعل فى المرة السابقة ، بل اقترب منها وود لو أنها تراه برفقتها . وبلغا الدار فلم يدعها عند الباب الخارجى بل صعد معها حتى باب الشقة ، وأراد أن ينصرف ولكنها ألحت عليه أن يدخل ليستريح من ارتقاء الدرج .

ودخل فقابلته امرأة عمه بترحاب ، وهرعت فتحية تعد شيئا مما يقدم للضيوف ، وعادت وخلفها خادم تحمل صينية صفت عليها أكواب ، ومدت يدها وتناولت كوبا قدمته إليه فى حياء ، فأخذه وهو يرمقها بنظرة فاحصة ، وبعد قليل استأذن وانصرف ، ورأى نفسه لأول مرة يفكر فى فتحية . إنها فتاة حلوة ، تمتاز بتلك الأنوثة المستكينة التى يحبها ، وما كانت من ذلك الطراز الطاغى المستبد ، بل كانت هادئة ، ينطق هدوؤها بالتماس العطف والرعاية ، وكان يحب فى الأنثى الدعة والوداعة ، فمس حياؤها وترا فى قلبه ، ومس هدوؤها وترا آخر ، فإذا بفتاة الأمس الشقية تتبدل اليوم حورية تعبث بأوتار قلبه ، فتعزف لحنا شجيا .

وفى هجعة الليل دخل فراشه ؛ ولكنه لم ينم ، فقد كانت الأفكار تترادف على مخيلته ؛ كان يفكر فى فتحية ، وما كان يستمع إلى صوت قلبه ، ولكنه كان يصيخ السمع إلى منطق عقله . إنها فتاة من فتيات الأسرة لا تصلح إلا للمطبخ والبيت ، فلن تشاركه فى سبحات الخيال ، ولن تبث فيه روح

الإقدام ، ولكنها ستدعه يشق طريقه وحده ، تقاسمه الغنائم إذا ما غنم ، وتستكين لغدر الزمان إذا ما مال ، ولخير له أن يربط حياته بمثلها على أن يربطها بمثل فتاة الليسيه التافهة التى لن تدعه يقتحم الصعاب وحده بل ستدس أنفها فى كل شىء ، وستدلى برأيها فيما تعرف وفيما لا تعرف ، وستغضب إذا ما تصرف على غير هواها ، وستلقى عليه اللوم كله إذا ما باء بفشل أو خسران ، فلن تكون له عونا ، بل ستكون قيدا يحد من سيره ، وعبئا فوق عبء الزمان .

لخير له أن يتزوج ممن تعرف لها وظيفة على أن يتزوج ممن لا تعرف لها وظيفة إلا الزينة والخروج وارتياد الملاهى ومخاصرة الرجال . ووثبت إلى ذهنه صورة كوثر وهى عارية فامتعض ، وتململ ليطرد الصورة البغيضة عن ذهنه ، فإذا بصورتها وهى تراقص ذلك الشاب فى بيلافستا تطفو فى مخيلته فيستاء .

وراح يسائل نفسه عما يخشاه إذا تزوج من فتحية ، فلم يجد ما يخشاه ، فقد تزوج إخوته من فتيات من الأسرة ، وكانت جميعها زيجات موفقة ، لم يكدر صفوها مكدر ، بل كان يسودها الانسجام . من الأفضل له أن يتزوج من فتحية فإنه سيضمن سيادته ، فهو على الرغم من هدوئه يعتز برأيه ولا يحب أن يخضع لرأى سواه . وهمس فى جوفه هامس : « جحا أولى بلحم طوره » فابتسم لذلك الهامس التافه ، واستمر فى تفكيره حتى اختلطت الأفكار فى رأسه ، فأسبل عينيه ونام .

وفى صبيحة يوم من الأيام هبط حسن إلى الدكان بعد تناول الإفطار ، وترك أمينة ومصطفى فى الشقة وحدهما ، كان مصطفى ممددا على أريكة وكانت أمه تغدو وتروح وكانت فى غدوها ورواحها تنظر إليه تلك النظرة التى كان يفهم منها أن عندها أشياء تريد أن تفضى بها إليه ، واقتربت منه

فاعتدل ، وجلست بجواره ثم قالت :

ــ يجب أن تنتهى إلى رأى ، بنت عملك جاءها خطاب ، وقد رفضوهم بحجة أنها مخطوبة لك ، فحرام هذا الصمت .

ونظر إليها دون أن يعبث ، وهم بأن يقول إنه قد انتهى إلى رأى فسيتزوجها ، ولكنه قال :

ــ من الذى خطبها لى ؟

ــ الجدة ، والله لو رفضت الزواج من فتحية فستغضب الجدة إلى الأبد ، وأبوك يحب أن يتم هذا الزواج .

فقال فى استسلام كأنما قد غلب على أمره :

ــ افعلوا ما ترون .

فبانت الدهشة فى وجه الأم ، فقد كانت تخشى أن تفاتح ابنها فى هذا الأمر ، فهى على يقين من أن الرفض هو الجواب الوحيد ، فقالت :

ــ حقا ؟..

ــ الأمر لكم .

وفى العصر خرجت أمينة وسكينة لشراء الشبكة ، وفى صبيحة اليوم التالى ذهبنا إلى بيت أحمد وقدمتاها إلى فتحية ، وتمت الخطوبة فى يوم وليلة خشية أن يعود مصطفى إلى الرفض !

وفى يوم خرج سكان القاهرة واصطفوا على جانبى الطريق الذى سيخترقه الملك فاروق بعد أوبته من إنجلترا فى ذهابه إلى قبر والده ، وكان حسن يمتلك بيتا يطل على الطريق ، فتأهب أهل البيت للانطلاق إليه ، وفكر مصطفى فى أن يبعث إلى فتحية لتصاحبهم ، فاستدعى خادما وقال لها :

ــ اذهبى إلى فتحية وقولى لها إننا سننتظرها لتذهب معنا .

قالت زكية وهى تبتسم :

ـــ لا تتعب نفسك فلن يقبل عمك .

فقال للخادم فى لهجة آمرة :

ـــ اذهبى .

وذهبت الخادم ، ولم يطق أهل البيت الانتظار فقالوا له :

ـــ إننا سنذهب وانتظرها أنت .

وخرجوا جميعا ولم يبق فى البيت إلا زكية والجدة ، ومر الوقت بطيئا ومصطفى يتململ فى ضيق ، ولاحظت زكية تململه فقالت له :

ـــ لا تنتظر واذهب أنت ، فلن يسمح لها عمك بالخروج .

ولكنه لم يذهب وبقى ينتظر ، وأخيرا أقبلت فتحية ترتدى ثوبا فاخرا ومعطفا من الحرير الأزرق ، وما إن رآها حتى قال لها :

ـــ هيا .

فقالت الجدة .

ـــ دعها تسترح .

فقال وهو يخرج :

ـــ ليس عندنا وقت .

فغمغمت زكية :

ـــ والله لا أدرى ما الذى دهى أخى .

وخرج مصطفى وفتحية وحدهما ، وبخروجهما معا أحدثا خرقا فى تقاليد الأسرة ، فهتفت زكية وهى تهز يديها دلالة التهويل :

ـــ تعال يا جدى شف .. تعال يا جدى شف .

٧٨

كان فى البيت شقة خالية ، فراح مصطفى يعدها لاستقبال الجهاز ، وفى شهر وبعض شهر جهزت الشقة ، وكانت أمينة تصعد إليها كل يوم مع الخدم لتنظيفها . ورأى حسن أن تلك الحال ستطول ، فأمام مصطفى سنة كاملة ليتخرج فى الجامعة . وليس هناك ما يدعو إلى الانتظار كل هذه السنة ، فالشقة جاهزة ، والعروس قريبة ، ولن يزيد عليه إلا بعض جنيهات يدفعها لمصطفى كل شهر لينفق على بيته حتى يتخرج ويكسب معاشه ، وما كان حسن يجد فى ذلك غضاضة ، فقد كان يسره التفاف أبنائه حوله ، وتوفير الراحة لهم ، وجلب السعادة إليهم ، وما كان ذلك جديدا عليه فقد أنفق على سليم وزوجه سنة وبعض سنة حتى شق طريقه وكون نفسه .

وفى يوم فاتح حسن أمينة فى رغبته فى إتمام زواج مصطفى ، فالأيام صافية ولا يدرى ما تخبئه الأيام ، فقد يأتى ما يعطل ذلك الزواج لسنين ، فصحة الجدة لم تكن على ما يرام ؛ كانت يوما مريضة ، ويوما متوعكة ، فقد دبت الشيخوخة فى أوصالها ، فلو أنها قضت لتأخر الزفاف .

وجاءت الأم إلى ابنها وقالت له ضاحكة :

ـــ تعبنا من تنظيف هذه الشقة كل يوم ، اذهب وأحضر فتحية لتتولى أمر شقتها .

فقال وهو يبتسم :

ـــ لقد هان الأمر ؛ لم يبق إلا سنة .

ـــ سنة ! محال ، وما الذى يجعلنا ننتظر سنة ؟! الشقة جاهزة ، والعروس جاهزة .

— ولكنى لست جاهزا .

— وما الذى ينقصك ؟

— لن أتزوج قبل أن أتم دراستى .

— وماذا يحدث أو أنك أتممت دراستك وأنت متزوج ؟

— كيف أتزوج وأنا لا أستطيع أن أنفق على نفسى .

— غدا تصرف على نفسك وبيتك .

— لن أتزوج حتى يأتى ذلك الغد .

— أبوك سيدفع لك ما تحتاج إليه حتى تتكسب .

— أما يكفينا ما ينفقه علينا حتى نأتيه بعبء جديد .

— لا تقل هذا ، إن ذلك يسره ، وهذه سنة الحياة ، جدك أنفق علينا وأبوك ينفق عليكم ، وأنت تنفق على أبنائك .

— أنفق على أبنائى ، هذا صحيح ، أما أن أزوجهم وأنفق عليهم وعلى زوجاتهم فهذا لن يكون .

— اسمع يا مصطفى ؛ أبوك يريد أن يزوجك والدنيا رائقة .

— وما الذى سيعكر الدنيا !؟

— ما من سنة تمر إلا ويموت واحد من الأسرة ، إننا اليوم فى صفاء ونريد أن نفرح ، فما ندرى ماذا تخبىء الأيام .

— تخبىء كل خير .

— الجدة كبرت ، ومن يدرى .

واستمر الحوار بين مصطفى وأمه ، وما انتهى حتى كان مصطفى قد وافق على أن يتزوج قبل إتمام دراسته .

وحدد يوم الزفاف ، فأخذ فتيات الأسرة ونساؤها يفصلن الثياب

استعدادا للفرح ، و لم يبق على اليوم الموعود إلا أسبوع ، فأرسلت أمينة إلى سكينة لتستعد للخروج معها لدعوة الأسرة والأحبة ، وعلم مصطفى بذلك فقال :

ـــ لا أريد طبلا ولا زمرا ، سأتزوج فى هدوء .

فتغير وجه الأم وقالت :

ـــ ماذا تقول يا مصطفى ؟! لقد تأهب الأهل لذلك اليوم .

ـــ وما ذنبى أنا ، إنى لا أطيق مباذل الأفراح ، ولا أحب أن أكون أضحوكة ! ..

فقالت زكية :

ـــ ماذا يضيرك لو جاءت عالمة لتسلية النساء .

ـــ يستلزم ذلك أن أصعد آخر الليل لآخذ العروس ، وأن أجلس وسط النساء ؛ هذه تطلق نكتة ، وهذه تضحك ضحكة ، وأنا غارق فى عرقى ، ثم أسير أتبختر على دق الدفوف ، إنى لا أحب هذه السفاسف ، ولا أريدها .

فقالت زكية :

ـــ لا تقهر البنت ، فكل بنت تذكر ليلة زفافها حتى آخر يوم فى حياتها .

ـــ وما الذى تكسبه البنت من الطبل والزمر إذا تزوجت و لم تكن سعيدة فى زواجها .

فقالت أمينة فى حدة :

ـــ اصعد أنت إلى شقتك وسندخل لك عروسك .

ـــ لن تغنى فى فرحى عالمة ، ولن تطلق زغرودة .

فقالت زكية :

ـــ لا ! هذا كثير ، ليس لك هذا .

وأصر مصطفى على موقفه ، فقد كان يحس خجلا إذا تصور نفسه جالسا إلى جوار فتحية وقد التف النساء حولهما يغمزن ويضحكن ، ويسخرن من الزوج الطالب الذى لم يتم بعد دراسته .

واستاءت أمينة وغضبت ، ولكنها كظمت غيظها ، وانتظرت مجىء حسن لتشكو إليه عنت مصطفى ، فلما جاء أسرعت تقص عليه ما قاله ابنه وهى تسفه قوله ، وما انتهت حتى قال حسن :

ـــ الرأى ما رأى مصطفى .

فحنقت أمينة ، فقد زوجت أسعد وسليما دون إقامة فرح ، لأن الأسرة كانت حزينة لموت شاب من شبانها ، أما الآن فليس هناك ما يحول دون إقامة فرح عظيم . إن نساء أسرتها وفتياتها تأهبن لذلك اليوم ، ومما يغضبها أن تكدر صفو أهلها ، فلو أن الأمر يتعلق بأسرته لما اهتمت ، أما أن يحول حائل دون دعوة أسرتها لحضور فرح ابنها فهذا أمر خطير ، ولم تستطع أن تتحلم كما هى عادتها بل انفجرت صائحة :

ـــ والله لن أحضر ليلة الزفاف .

ولم تكتف بذلك ، بل ارتدت ثيابها وخرجت غاضبة إلى بيت أخيها ، ولكنها كانت تريد بغضبها أن تعلن أهلها بأنها بريئة من عدم إقامة فرح كبير . وعجب مصطفى من تصرف أمه ، فقد كان يظن أن ذلك أمر يعنيه وحده ، وما كان يدور بخلده أنها تغضب لأمر تافه كهذا ، وهى التى لم تغضب أبدا طوال الثلاثين سنة التى عاشتها مع أبيه . كان يعجب بكياستها وفطنتها ورجاحة عقلها ، وكان يحسب أن الفضل لها فى الهدوء الذى يسود البيت الكبير فإذا به يكشف أن أمه كسائر النساء يبحثن عن المتاعب ، ويهتممن بالتوافه ، وأن الفضل كله لأبيه ، فقد كان رحب الصدر ، واسع الأفق ،

كبير القلب .

وفى العصر ذهبت زكية إلى أمينة وقالت لها إن العيب كله على مصطفى فقد حاولت أن تثنيه عن عزمه ولكنها فشلت ، وقالت لها إنها اتفقت معه على أن يفتح البيت يومها ، وأن يطبخ الطباخ للوافدين ، وعادت أمينة إلى البيت واتفقوا جميعا على أن لا يدعوا أحدا فالأهل ليسوا فى حاجة إلى دعوة ، ولكن أمينة خرجت تدعو إسرتها سرا .

وفى يوم الزفاف أقبلت النسوة من الصباح ، فاكتظت بهن شقة الوالد التى أعدت لاستقبالهن ، وبانت الدهشة فى وجه زكية ، ولاحظت أمينة دهشتها فقالت متظاهرة بالعجب :

— والله لا أدرى ماذا كان يحدث لو أننا دعونا أحدا .

وارتفعت غوغاء الأطفال ، ودوت النسوة كتخلية نحل ، فانكمش مصطفى فقد كان يرى فى الجلبة جرسة وفضيحة ، ولكنه عاد وحمد الله على أنه لم تدق فى البيت طبلة أو دف ، ولم يرتفع صوت بغناء وإلا كانت الجرسة مجلجلة مدوية .

وفى العصر ذهب أسعد بسيارة الأسرة إلى بيت عمه وأحضر العروس ورفاقها ، ووقفت بعض سيارات أمام الباب ، فقتحت نوافذ الجيران ، وامتلأت الشرفات بالمتطفلين ، فشعر مصطفى بعرق الخجل يتفصد منه ، كان يفضل أن يذهب بنفسه إلى بيت عمه ويستصحب عروسه إلى سهرة من السهرات ثم يعود بها فى الليل إلى شقتهما دون أن يحس بهما أحد فيوفر على نفسه أحاسيس الخجل التى كانت تطويه طيا .

ودوت زغاريد النسوة ، فاتسعت حدقتاه ، ووقف فى وسط الغرفة مذهولا خافق القلب ، وهرعت عمته سكينة إليه وراحت تدفعه وتقول :

ـــ انزل لاستقبالها .

ولكنه ظل جامدا لا يتحرك ، ونظر حوله فرأى النسوة يتطلعن إليه فأحس مهانة ، فقد خيل إليه أنهن يردن أن يتفرجن عليه وأن يسخرن منه فى سرهن ، فقد كان يشعر شعورا عميقا بأن الطالب الذى يقدم على الزواج يستحق الهزء والسخرية .

وصعدت فتحية وأسعد بجوارها حتى إذا ما بلغا شقة الوالد تقدم مصطفى فتأخر أسعد ، وسار العروسان والنسوة يزغردن والعرق يتفصد من جسم مصطفى فيسيل من وجهه ويحس به يجرى فى ظهره .

وجلسا متجاورين ، وأسرعت سكينة إلى المطبخ وعادت وفى يدها لقمة عيش وقطعة صغيرة من الجبن ودستها فى فم مصطفى ثم فى فم فتحية وهى تقول :

ـــ كلا عيشا وملحا معا .

فضحك الموجودون ، وابتسم مصطفى ، ونظر إلى فتحية وهى فى ثياب العرس البيضاء فأنكرها . فالمساحيق التى لطخ وجهها بها ، والزواق الكثير الذى لم تكن له حاجة طمس جمالها ، ولولا أنه يعرفها لأحس كمدا .

وانسل مصطفى من الغرفة ، وصعد إلى حيث كان الرجال ، وكان يرقب عمه أحمد الذى كان منشرحا ، فكان يسخر من هذا ، ويضحك على ذاك ، ومر الوقت وقام الناس للطعام ، وجلس بعض شباب الأسرة يرتبون موكب المساء ، وجلس مصطفى معهم قليلا فوجدهم يرسمون فى اهتمام الطريق الذى تخترقه السيارات فى انطلاقها إلى الحسين ، فقام وهو يبتسم فى سخرية فقد بيت فى نفسه أمرا .

ومرت من الليل ساعات ، وشاء أحمد أن ينصرف ليمضى سهرته كعادته

مع بعض الصحاب ، فلم يعد هناك ضرورة لبقائه ، فابنته عما قليل تزف إلى عروسها ، فاشتبك مع أحد الحاضرين فى النقاش ، ثم هب واقفا وقال فى غضب متكلف :

— والله لأتركن لكم الدار .

وخرج كالعاصفة من الغرفة فلم يعترض سبيله أحد فقد اشتهر بين الجميع أمر هذه المناورة المكشوفة .

وصعدت فتحية وبعض النسوة إلى شقتها لتبدل ثيابها وتعيد زواقها استعدادا للزفاف ، وصعد مصطفى ليبدل ثيابه وانتظر الشباب هبوطه ليرافقوه إلى الحسين ، وليدلى إليه المتزوجون بنصائحهم الغالية !

واتجه إلى الغرفة التى كانت بها فتحية فقابلته أختها فقال لها :

— ماذا تفعلون ؟

فقالت وهى تضحك :

— نزين العروس .

فقال فى سخرية :

— خسارة الأبيض والأحمر .

— لماذا ؟!

فقال وهو يبتسم :

— لأنى سأغسل لها وجهها عما قليل .

فضحكت ودفعته فى رفق لتمنعه من اقتحام الغرفة ، فمال عليها وهمس :

— أريد أن أقول لها كلمة ، أرجو أن تتركن لنا الشقة دقيقة واحدة .

— حقا ؟.

فأومأ برأسه أن نعم .

فغابت فى الغرفة قليلا ثم خرج النسوة يضحكن ضحكات مجلجلة ، وما إن خرجن من باب الشقة حتى أغلق الباب خلفهن ، وسمع صوت المزلاج وهو يتحرك ، فطرقن الباب ، فصاح :

— مع السلامة .

وتنفس الصعداء ، فقد تخلص من غوغاء النسوة المخجلة ، ونصائح المتزوجين الغالية .

٧٩

أمسى حسن يهاب الأزمات التى كانت تنتابه كل ليلة ، ويخشى وفود الليل ، فإذا ما سقط الظلام كان يعود إلى البيت واجف القلب ، يحس للطريق زهمة ، فكان يخيل إليه أن الأشباح تتراقص أمام عينيه ، وفكر طويلا فى أن يدع ذلك البيت الذى كان ينقبض إذا ما دخله ، ويشعر بحمل ثقيل يجثم على صدره فيضيق أنفاسه ، ولكن ما كان يطاوعه قلبه ، فما مر يوم دون أن يرى أمه ، وما كان يطيق أن يعيش بعيدا عن أبنائه .

وشعر بفراغ بعد موت أم أحمد زنوبة ، فما كانت أم حبيبة بقادرة على أن توحى إليه الثقة التى كانت تنفخها فيه أمها على الرغم من أن الست وردة تحادثه كثيرا وتبذل ما فى وسعها لتنزل بقلبه الطمأنينة . كانت أم أحمد بالرغم من ضآلة جسمها ذات هيبة وجلال ، ينفذ صوتها إلى القلب ، ويبدو فى وجهها المتغضن الإيمان بكل حرف تنطق به ، فكانت تمحق كل قلق ، وتنزل السكينة بالقلب الواجف المضطرب ، أما أم حبيبة فكانت هيئتها تبعث على الابتسام ، وكان فى لسانها لثغة ، فكان حديثها أقرب إلى حديث الأطفال ،

وما كانت لها يوما قوة الإيحاء .

وكرت الأيام ، وترادفت النوبات فثقل نومه ، وهزل بدنه ، واصفر لونه ، فضعفت قوة احتماله ، وأخيرا ضاق بحاله فلم يك بد من ترك الدار ، وهجر الأم والأبناء ، ونقب عن شقة فى حى هادئ طلق الهواء ، فوجد طلبته فى حى قريب من الحى الذى كان فيه ، فانتقل إلى الشقة الجديدة ، وترك البيت الذى صار يشعر نحوه بمقت شديد وقد بيت النية على ألا يمر به بعد اليوم أو ينطلق فى طريقه .

ما كان حسن يحتمل أن ينقضى يوم دون أن يرى أبناءه ويطمئن عليهم فلو أنه كان يرى ممدوحا وأسعد فى الدكان إلا أنه كان يرغب فى رؤية سليم ومصطفى أيضا ، فكان يمر على سليم فى محله كل ليلة ، وطلب من مصطفى أن يأتى إلى الدكان كل يوم عصرا . و لم يكتف بذلك بل كان يبعث سيارته إلى البيت الكبير كل صباح تحمل إليه أسرتين من أهله ، فكان أفرادهما يمضون عنده النهار من الصباح إلى المساء ، يتغدون معه ويتعشون معه ثم تعيدهم سيارته إلى البيت الكبير وقد انقضى من الليل بعضه .

وكانت أمينة وزكية الصغيرة والخادم يجهزن كل يوم طعاما كثيرا للوافدين والوافدات ، وكانت أمينة تنشرح لذلك فقد كانت تشعر فى قرارة نفسها أنها كبيرة هذه الأسرة فعليها أن تعمل على راحتها وإسعادها ، وما كانت تكتفى بإطعام الحاضرين ، بل كانت تبعث بعض الأصناف التى اشتهرت بطهوها إلى من فى البيت الكبير فى بعض الأحايين .

وأخذت عجلة الزمن فى الدوران ، فاسترد حسن صحته و لم تعد تنتابه النوبات التى كانت تضايقه وتقلقه ، فأحس رضا ، وما كان ينقصه ليتم هناؤه إلا أن يجمعه وأبناءه بيت واحد .

وفى أمسية من الأمسيات دخل الشرفة وجلس يستشق الهواء المنعش الجاف الذى كان يهب من الفضاء الواسع المترامى أمامه ، فانشرحت نفسه ، وأقبلت أمينة وجلست بجواره وأطرقت تفكر ، والتفت ناحية الطريق فوقع بصره على بيت أمامه هجره سكانه من سنين ، فراحت تراوده نفس الفكرة التى كانت تراوده كلما جلس ونظر إلى البيت المهجور ، ونظر إلى أمينة فألفاها مطرقة غارقة فى أفكارها فقال لها :

ـــ فيم تفكرين ؟

ـــ فى الأولاد . مضت ثلاثة أيام لم أر فيها مصطفى .

ـــ ما رأيك لو أصلحنا هذا البيت المهجور وجمعنا فيه الأولاد ؟

ـــ يا ليت .

ـــ ما أظن أن صاحبه يرفض أن نصلحه له على أن نستقطع تكاليف الإصلاح من الإيجار .

ـــ إنه يتمنى ، فلن يجد من يعرض عليه هذا العرض ، لو كان يملك ما يصلحه به ما تركه مهجورا كل هذه السنين .

ـــ سأقابله فى الغد وسأرى رأيه .

وراح حسن يصلح البيت المهجور ، ولما لم يكن لمصطفى به مكان فقد أخذ حسن يبنى له شقة فى السطح ، وجعل من فى البيت الكبير يتأهبون للنقل وهم فرحون ، وكانت الجدة أكثرهم غبطة ، فما كانت تريد أن تموت بعيدا عن ابنها الحبيب ، فقد كانت أمنيتها أن تموت بين يديه ، وأن يقف على قبرها يتقبل التعازى فيها . أما فتحية فقد كدرتها فكرة النقل ، فأثاثها جديد ، وهى تخشى أن يخدش أو يصيبه بعض التلف ، أضف إلى ذلك أن سجاجيدها قد اشتريت لغرف البيت الكبير ، كما فصلت ستائرها على نوافذه ، وإنه لمما

يحزنها ألا تصلح السجاجيد للغرف الجديدة ، أو لا تجد نوافذ بعدد الستائر وأحجامها !

وانتقل الجميع إلى البيت الجديد ، فبان فى الوجوه بشر وسرور ، فقد لم الله شملهم ، ولكن فتحية ظلت على كآبتها ، فقد كان السقف منخفضا ، فكان عليها أن تقطب الستائر ، والغرف ضيقة فكان من الضرورى قطع « مشمع الأرضية » .

وأخذت فتحية تجوس خلال غرف الشقة الجديدة فتشعر بغيظ ، حتى لتكاد دموعها تطفر من عينيها ، فقد كانت بعض الغرف متداخلة ، فكان من اللازم اختراق غرفة للوصول إلى الأخرى ، وما كانت هذه الشقة تقاس بالشقة التى تركتها ، وما كانت فتحية قادرة على أن تفصح عن حقيقة شعورها أمام من فى البيت ، فكانت تكظم غيظها وتنتظر حتى تختلى بمصطفى ثم تنفجر شاكية وقد تنفس عن غضبها بكلمة أو كلمتين ، فكان مصطفى يتحلم ولا يرد عليها ، يساعده على ذلك التحلم تقديره لعقلية النساء التافهة ، وإحساسه بالرضا لوجوده بين أهله .

ومرت أيام الصيف الباقية ، وجاء الشتاء ، فتلبدت السماء بالغيوم ، وولولت الرياح ، فدخل الناس فى فراشهم مبكرين ، واندس مصطفى وفتحية فى سريرهما ، وراحا فى سبات ، وما انقضت ساعات حتى هبا من نومهما مذعورين ، فقد كان المطر يتساقط على وجهيهما كأنما صنبور ماء قد فتح ، وانتصبا فى وسط الغرفة فألفيا الماء يترجرج تحت أقدامهما ، فجعلت فتحية تبكى وتندب الفراش الجديد ، وهرع مصطفى إلى شقة أبيه يطلب العون فصعد الجميع يعاونون فى تجفيف الماء ، وأظهروا أسفهم ، وظلت فتحية فى انتحابها فأقبل عليها حسن يطيب من خاطرها ، وأخذهما معه ليمضيا

بقية الليل عنده ، وما أصبح الصباح حتى بعث من يصلح السقف الذى لم يثبت للمطر الغزير .

وانقضت الأيام بهيجة ، وكانت العيشة راضية ، وما كان يعكر صفوها إلا اشتداد مرض الجدة أحيانا ، ونشرت السعادة جناحيها على البيت ، وملأت القلوب حتى فاضت على صفحات الوجوه . وأدبر الشتاء وجاء الصيف فأكب مصطفى على دروسه فقد عزم على أن يجتاز آخر امتحان ليخوض معمعان الحياة ليكسب عيشه ويرد لنفسه اعتبارها .

وفى ليلة من الليالى اجتمع الجميع فى شرفة واسعة ، فأحس مصطفى انشراحا فراح يداعب الجدة ويضحك ، وأغرق الموجودون فى الضحك ، وأقبل حسن وأخذ يصلى العشاء فى نشاط فرمقه مصطفى فشعر بسرور يملأ جوانحه فأبوه قد استرد صحته ، وقد ملئ نشاطا .

وانسل الموجودون واحدا فى إثر واحد ، وصعدت فتحية إلى شقتها وبقى مصطفى جالسا وخطر له أن يضرب فى شوارع الحى الهادئة ليلا ، فخرج ليطوف بها ويملأ رئتيه بالهواء ، ثم عاد فوجد أباه ينتظره ، فحياه تحية المساء ثم صعد إلى شقته .

دخل مصطفى فراشه ، وما كاد يسلم جنبه للرقاد حتى سمع طرقا شديدا فهب مفزوعا وفتح الباب ، فرأى فى الظلام شبحا يصرخ ويبكى ويصيح :

— أبوك مات .. أبوك مات .

فملئ رعبا ، وأحس روحه تكاد تسحب منه ، وطاف به ذهول وهبت فتحية من الفراش مفزوعة وهى تصيح :

— ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟

فصاح مصطفى من قلب مطعون :

ـــ مات .. مات ..

ثم راح يهرول فى الدرج كالمجنون .

دلف من باب الشقة فرأى أباه ممددا على كنبة وقد علت وجهه صفرة الموت ، وسليم يبكى حتى يكاد ينصدع كبده من البكاء ، وأمينة تصوت وتصك وجهها فى جنون ، وزكية تنتحب وقد بان فى وجهها الذهول ، والجدة تصرخ وتولول فتمزق القلوب ، وارتمى مصطفى على جسد أبيه ، وجعل يمرغ وجهه فى صدره ، ويهتف :

ـــ أبى .. حبيبى .

وارتفع النحيب ، وراحت أمينة تذرع المكان فى خبل وتصيح :

ـــ أهكذا سريعا ، سعلة واحدة ثم تسلم بعدها الروح ، يا مصيبتنا الكبيرة فيك .

وفتح الباب ، ودخل ممدوح وأسعد وخلفهما الطبيب ، وما أن سمعا النحيب حتى أجهشا بالبكاء ، واتجه الطبيب إلى الجسد الممدود وجعل يفحصه فارتسم فى وجهه الأسى العميق ، فقد كان من أصحابه وعارفيه وترك المكان باسر الوجه ، وغمغم :

ـــ انتهى ، قطع الوريد .

وارتفع الصياح ، وأحس مصطفى نارا تشوى جوفه ، فراح يمزق ثيابه ويضرب وجهه بيديه ، وهبت زكية الصغيرة من نومها مفزوعة ، وانطلقت مرعوبة حتى وقفت فى وسط المكان مذعورة ، وخمنت كل شىء فعوت وصاحت :

ـــ أبى .. أبى ..

ونظر الجميع إلى الطفلة اليتيمة ، فاشتد البكاء والنحيب ، ودخل أحمد

وخلع شال عمامته وجعل يجذبه حول عنقه ويبكى أحر بكاء ، وجاء مختار يلتدم كما تلتدم النساء ، واتجهوا إلى جسد الحبيب وحملوه بينهم والدموع الساخنة تتساقط من العيون . وسجى فى الفراش فجلست الجدة بجواره تولول ، وتمسح بمنديلها فى حنان الدم الذى كان يسيل من فمه .

استمر الأبناء فى بكائهم المرير ، وما كانوا يحسبون أن النهار سيطلع عليهم وهم أحياء ، فقد قضى أبر الآباء ، وشعر مصطفى كأن جدارا قد انهار فى جوفه فمزق أحشاءه وفلق كبده ، ونثر قلبه أشلاء . ومرت اللحظات والثوانى والدقائق والساعات فى نشيج ونحيب ، وطال الليل كأن ليس له نهار ، ونزل النبأ على الأسرة نزول الصاعقة ، فأقبل الأهل فى جوف الليل مفزوعين .

وطلع النهار ، وهبت ريح حارة تشوى الوجوه ، فقد كان اليوم من الأيام الحارة التى لا يطيق حرارتها إنسان ، فاحتمى الناس فى السرادق الذى نصب أمام الباب .

وفى الساعة الثالثة ، والشمس ترسل أشعتها كألسنة من لهب ، سار المشيعون خلف النعش يتفصد منهم العرق ، ويتململون من الحر ، أما أبناؤه فما أحسوا حرا فقد كانوا فى شغل عنه بالنار المندلعة فى أجوافهم .

وسارت الجنازة فى شوارع القاهرة قاصدة الحسين ، كانت تقطع نفس الطريق الذى قطعه حسن فى أوبته بالأمس إلى بيته تداعبه الآمال ، وما دار بخلده قط أنه سيعود من نفس الطريق فى الغد محمولا على الأعناق وخلفه قلوب مزقها الأسى ، ولوعها فداحة المصاب .

وصلى على جسد الحبيب فى الحسين ، وأصر المشيعون على تشييعه حتى قبره ، فاستأنفت الجنازة الهائلة انطلاقها ، حتى إذا ما بلغت المدفن ، انحط

الناس على الكراسى مبهورى النفس ، وقبر حسن ، وعاد أبناؤه حيارى مذهولين كركاب سفينة مات قبطانها وتركهم وسط المحيط فى جزع شديد .

وجاء الليل ومصطفى وسليم جالسين مطرقين وقد ارتسم فى وجهيهما الحزن العميق ، وشعرا بالجوع ينهش جوفهما ، فما ذاقا طعاما منذ البارحة ، وكان عليهما أن يقفا الليل الطويل لتلقى تعزية المعزين ، وقام سليم وجذب مصطفى من يده ، فسارا بعيدا عن البيت واشتريا رغيفا وقطعة جبن وحاولا أن يأكلا فلم يسيغا أكلا ، وفى ذلك الوقت كانت أفخاذ اللحم تتسرب من الباب الخلفى إلى بيوت بعض النائحات المتباكيات .

٨٠

أسدلت ستائر سود على المرايا ، وصبغ البياض بالسواد . وارتدى الأطفال ثيابا سودا ، وفكت الأسرَّة ، وراح الرجال ينامون على الأرض فى غرفة واحدة ، والنساء فى غرفة أخرى ، وكانت الجدة تئن فى سكون الليل أنينا يفتت الأكبدة ، ويذيب القلوب ، وتصرمت أيام المأتم الثلاثة ، فخرج ممدوح وأسعد إلى الدكان ، وانقضى النهار وجاء الليل ، وحان ميعاد أوبة الجميع . كانت أمينة وزكية والجدة ومصطفى جالسين ساهمين وسمع وقع أقدام فى الخارج فأرهفت الحواس ، فقد كان وقع الأقدام يحاكى وقع أقدام حسن ، ودخل القادمون مطاطئى الرءوس ، كانوا ممدوحا وأسعد وسليم ، وما تلاقت العيون حتى انهمرت الدموع .

وخيم على البيت حزن عميق ، فما كان النسوة يجتمعن حتى يأخذن فى البكاء والنحيب ، وكان مصطفى يمضى نهاره فى البيت فما كان يسرى

إلا العبرات والدموع فينصهر قلبه ويظل فى وجوم . وفى يوم رأى أن يخرج إلى الطريق المجاور للبيت الذى يضرب فى جوف الصحراء ، وما سار فيه خطوات حتى أحس روح أبيه تشاركه السير فأخذ يناجيه ، وشعر بسكينة تنزل قلبه فاستمر فى سيره ومناجاته لا يحس ما حوله ولكنه يشعر بروح أبيه تملأ عليه المكان .

سار مصطفى يتجه كل صباح إلى ذلك الطريق ، فقد أصبحت مناجاته لأبيه عزاءه الوحيد ، كان يقص على الروح كل ما يلاقونه من صعاب ويستلهمها الصواب ثم يعود إلى البيت ليفعل ما يرضى أباه الحبيب .

وفى يوم خطر له أن يذهب لزيارة قبر أبيه ، وما كان اليوم من الأيام التى يزور فيها الناس القبور ، فانطلق فى طرق هاجعة ، سكونها يخلع القلوب ، حتى إذا ما بلغ المدفن ألفى الباب موصدا ، والكون فى صمت عميق ، فقبض على حديد الشباك بيديه وتصلبت أعصابه ، فهتف فى صوت تخنقه العبرات :

— أبى .. أبى .

وهام على وجهه يبكى وحده ، ثم تلفت يبحث عن روح أبيه فلم يشعر بوجودها لتكفكف دمعه ، فاستمر يذرف الدموع حتى إذا ما بلغ الدار صرخ صراخ المفزوع وارتمى على الأرض يضربها بيديه ، وهرعت أمه إليه تبكى من قلب مقطوع .

وفى صبيحة اليوم التالى خرج إلى الطريق المعهود ليناجى روح أبيه ، ولكنه لم يحس بها تشاركه فى سيره ، فعاد إلى البيت حانقا منقبضا ، وعزم فى نفسه أن يخرج فى العصر لزيارة الحسين كما كان يفعل مع أبيه .

اجتاز رصيد الحسين وقد امتلأ خشوعا ، وأجال عينيه فى المكان كأنما يبحث عن عزيز ، ووقع بصره على المكان الذى كان يجلس فيه مع أبيه فأحس

غصة فى حلقه ، والدمع يترقرق فى مآقيه ، وسار إليه وجلس مطرقا يجتر ذكرياته ويمسح بظهر يده عبراته ، وما أفاق من إطراقه إلا على صوت المؤذن يدعو الناس للصلاة فقام يصلى وقد ترك بجواره فرجة لأبيه .

ودخل فراشه ونام ، ورأى أباه فى ثياب بيض يقول له : « لست مدفونا فى مقابركم ، إننى مدفون فى مسجد السيدة زينب ، إن أردت أن تزورنى فتعال إلى هناك » وهب من نومه ، وشعر بحنق لاستيقاظه فقد حرم من رؤية أبيه فى الدنيا فكان يرجو أن ينعم به طويلا فى الأحلام . وفى اليوم الثانى ذهب إلى مسجد السيدة زينب وجلس مطرقا يناجى روح أبيه وهو لا يدرى فى يقظة هو أم فى منام .

ومرت الأيام وتوهمت أمينة أن مركزها فى الأسرة قد تزعزع بعد موت حسن ، فعزمت فى قرارة نفسها أن تدافع عن هيبتها ، فما أبدت فتحية تذمرها من البقاء فى شقتها حتى ثارت أمينة وهددت وقالت إنها لن تسمح لأى كائن أن يفرق بين أبنائها أبدا ، ولكن ما انقضت أيام حتى كانت أمينة وممدوح وسليم والجدة وزكية أول من ترك البيت المشئوم فقد انتقلوا إلى شقق كانت خالية فى بيت سكينة .

ووجد أسعد شقة فى الحى القديم فى بيت أمام البيت الكبير فانتقل إليها ، وبقى مصطفى وفتحية وحدهما . فكر مصطفى فى أن يعود إلى البيت الكبير وأيدت فتحية تلك الفكرة ، فستائرها فصلت على شبابيكه ، وأثاثها أسس ليفرش فى غرفة ، ولكن أمينة أقسمت ألا تدخل ذلك البيت أبدا ، وهددت بعدم زيارتهما لو سقط أحدهما مريضا ، فهجرا الفكرة مضطرين .

وخلت شقة فى البيت الذى سكنه أسعد ، فانتقلا إليها ، ولو أن أسعد وزوجه وأبناءه كانوا يمضون بعض الوقت عندهما إلا أن مصطفى كان يشعر

بوحدة ، إنه لم يتعود أن يغلق عليه بابه ، فكان إذا ما جلس فى الشرفة فى الليل يحس وحشة ، وكان يرى البيت الكبير كل يوم وكل ساعة ، فيذكر الأيام السعيدة التى قضاها فيه ، فيحس نحوه حنانا ، ومرت الأيام وازداد مصطفى ضيقا فقد كان يتمنى أن تعود الأيام التى كانوا فيها جميعا مجتمعين ، فلم يعد يرى ممدوحا وسليما وأمه وأخته إلا لماما . لماذا يحكمون على أنفسهم بالفرقة . كانوا جميعا يتمنون العودة إلى البيت الكبير ، ولكن ما كان أحدهم يجرؤ على البدء بالعودة ، فقر رأى مصطفى على أن يكون البادىء ، وأن يتحمل الثورات المفتعلة .

وفى ليلة من الليالى جلس مصطفى وأسعد يتحادثان فقال مصطفى :

— سأعود إلى البيت الكبير أول الشهر .

— ستغضب أمك .

— لا أظن .

— أقسمت ألا تدخل هذا البيت أبدا .

— مجرد أقوال .

— دع هذه الفكرة فالبيوت كثيرة .

— حتام سنبقى هكذا متفرقين ؟

فأطرق أسعد ودلك أنفه ، وكان هذا طبعه إذا ما فكر ، وأراد مصطفى أن يغريه فقال له :

— تعال معى ولن يحدث شىء .

— لا . اذهب أنت ، فإذا زارتكم أمنا ، جئت بعدك .

وانتقل مصطفى إلى البيت الكبير ، فثارت ثائرة أمينة وأرغت وأزبدت وأقسمت ثانية بأنها لن تضع قدمها أبدا على وصيد البيت الذى خرج منه

حسن مقهورا ، فانكمش أسعد و لم يبال مصطفى ذلك التهديد كثيرا .

وكرت الأيام وفى ليلة من الليالى هرع مصطفى إلى شقة أمه وزكية وسكينة جالسات فقال لأمه فى لهفة :

— تعالى ، فتحية تضع .

فتململت الأم ، وأظهرت استياء ، والتفتت إلى زكية وسكينة وقد قطبت جبينها ، فقالتا فى رجاء :

— لابد من ذهابك .

وكانتا صادقتين فى رجائهما فإن التى تضع بنت أخيهما .

ودخلت أمينة البيت ، طائعة أو كارهة ، فشجع ذلك أسعد ، فما انقضى شهر حتى كان أسعد يحتل شقة من شقق البيت الكبير ، وبقيت الأم بعيدا ، وكانت ترجو أن تجد عذرا مقبولا لتعود ، وقد جاءها ذلك العذر ، فقد وعك أسعد وعكة خفيفة ، فقالت :

— لا أستطيع أن أدع الأولاد وحدهم .

وعادت أمينة إلى البيت الكبير ، والتأم جمعهم ، وتكاتفوا لتنشئة جيل جديد .

رقم الإيداع ٢٠٠٨
الترقيم الدولى ٤ ـــ ٣٤٧ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧